مصطفى بحا

سلسلة نافذة على المعرفة (٧)

عقائد ورجال

"إن الرجال العظام ضروريون لوجودنا
من أجل أن تتمكن حركة التاريخ ،
دوريا ، من التحرر من أشكال الحياة
الخارجية الميتة ومن ثرثرة المجادلات
العقيمة"

ياكوب بوركهارت
تأملات في التاريخ العالمي ص ٢٧٥

عن : الفلسفة في معركة الايديولوجية ، لناصيف نصار
دار الطليعة (١٩٨٠) ص ٣٠٧

١٩٩٠

مصطفى بحا

سلسلة نافذة على المعرفة (٧)

عقائد ورجال

"إن الرجال العظام ضروريون لوجودنا
من أجل أن تتمكن حركة التاريخ،
دوريا، من التحرر من أشكال الحياة
الخارجية الميتة ومن ثرثرة المجادلات
العقيمة"

ياكوب بوركهارت

تأملات في التاريخ العالمي ص ٢٧٥

عن: الفلسفة في معركة الايديولوجية، لناصيف نصار
دار الطليعة (١٩٨٠) ص ٣٠٧

١٩٩٠

يطلب من المؤلف: ضبيه - هاتف: ٠١/٤٠٤٩٠٤

المحتوى

رقم الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل الرابع

الصفحة

الصفحة

الإهـداء

إلى كُلّ لبناني مَا زال يرى ان لبنان وَطن لا يموت.
إلى كُلّ سوري يحبّ لبنان واللبنانيين .
إلى كُلّ لبناني وسوري لا تباعد بينهما الحروب والفتن والعقائد والأيديولوجيّات .
إليهم اهدي الآمال والاحلام ، إذ أهديهم "عقائد ورجال" .

المؤلف

المقدّمة

«عقائد ورجال» كتاب لبناني إلى سوريا اليوم والغد القريب والبعيد، تأريخي، سياسي، أدبي، اقتصادي، ثقافي، اجتماعي، متعدد الأهداف والآمال، لا يدّعي التجرّد. . ولا هو ساعٍ اليه أصلاً. فيه يلتقي البحث الجدي والعاطفة الملتهبة. يتخطى الزمن الضيّق الكريب الى الزمن اليسير الرحيب، دونما تجريح أي من الرجال أو ذم عقيدة أو أخرى، وهذا - على كل - ليس الغاية التي نرمي اليها ونتقصّدها. أما العلم، فمباضعه دائماً حادة قاطعة، تشق الجلد وما شاكله لتستأصل الأدران والالتهابات وغيرها من الأمراض والعلل، فمن أُبْعَد عنه العلم أبْعَد ما سواه، ومن تمسَّك بالعلم أحرز الجزء الكبير من السعادة، فلْيكملْها بالعمل التطبيقي التنفيذي القويم.

انه الكتاب السابع (الحلقة السابعة) في «سلسلة نافذة على المعرفة»، وما أوسع المعرفة وأبعدَ مداها، بل ما أحوجَنا اليها، شعوباً وحكومات ومؤسسات وهيئات ومنظّمات

وجمعيات وأفراداً. وكما الدم الى القلب كذلك المعرفة إلى العقل، على ما بين القلب والعقل من صلة لا تنقطع ولا تتوقف الا في حالة الموت فحسب. والصحيح أن حضارة تموت لتحيا حضارة أخرى، وليس الحكم على الحضارة الزائلة بأنها أقل شأناً من الحضارة الوافدة عملاً مشروعاً مقبولاً دائماً، ذلك أن لكل حضارة عمراً يمتد بين أقصى القِصَر وأقصى الكِبَر، ولها ربيع ثم مقتبل شباب ثم خريف. جميع هذه المراحل تترصّدها المعرفة، بغْيَةَ الاحتفاظ بكل ما هو صالح وثابت وقوي وشديد ليصار الى دمجه وصَهْره في حضارة جديدة تكون في طور الانشاء، والأمْر يجعلُ الارتقاء الحضاري عملاً شمولياً يغطي أسباب الحياة كافة.

إن الرجال، رجال هذا الكتاب بل «ضيوفه»، سوريُّون، لهم عقائدهم وسياساتهم ومفاهيمهم وآدابهم، ولهم كذلك سِيَرُهم وأعمالهم وسُبُلهم ومناهجهم، وهي تمتد إلى يومنا هذا، وتتصل بهمومنا وقضايانا الوطنية منها والقومية، وقد حاولنا، صادقين مخلصين، أن نلمّ بما لهم وعليهم، وندرس أحوالهم، ونظهر الانجازات التي حققوها والأخطاء والهفوات التي ارتكبوها، عمْداً أو شبه عمْد، ودائماً ضمن الخط الذي رسمناه لنفسنا منذ بواكير «سلسلة نافذة على المعرفة»، وهو الخط الانتقادي العقلاني الموضوعي الهادف.

بيد أن الرجال، «الضيوف»، هم: البعثيون الأوائل: ميشال عفلق، صلاح الدين البيطار، زكي الأرسوزي، جلال السيد، الدكتور وهيب الغانم، اكرم الحوراني، وقادة الأجنحة والفِرق البعثية التي تضاربت وتنافست وتناحرت على السلطة فحسب. والزعماء: فارس الخوري وخالد العظم والدكتورعبد الرحمن الشهبندر. وفي تقديرنا أن معالجة أعمال اولئك وهؤلاء ومواقفهم لا بد أن تسهم، في شكل أو آخر، في توضيح الصورة السياسية الحديثة لسوريا، الشقيقة سوريا، التي ينبغي لنا أن نكون وإياها مثل توأمين، متحابّين متكاتفيْن، لا خصميْن مترمتيْن كلاهما يكيد للآخر حسداً أو حقداً أو طمعاً أو خوفاً. وأنّى لهذه التمنيات أن تصبح واقعاً لبنانياً ـ سورياً عملياً مشرّفاً، اذا لم يعرف بعضنا بعضاً يقينياً، ونتقابل ونتواجه مباشرة، لا مداورة أو بالواسطة، وأية واسطة أفضل وأقرب من المعرفة، التي هي أصل كل تعاون واتفاق ومشاركة؟

والحقيقة أن«عقائد ورجال»يستضيف إلى من ذكرنا الكثيرين الكثيرين من رجالات سوريا الذين بينهم من انتزعوا الاستقلال السوري وحكموا أو عارضوا أو انسحبوا، وبينهم من أنشأوا أحزاباً سياسية لم تستطع الصمود طويلاً، وبينهم من صنعوا

الانقلابات العسكرية ثم ما لبثوا أن قُتلوا أو سُجنوا أو أُبعدوا الى لبنان وغيره، وقد تعاملنا مع جميع الذين ذكرنا من خلال «ضيوفنا» الأساسيين وما تركوا من أيديولوجيات ونظريات وأبحاث ومقالات وخطب ومذكرات وقصائد وأوراق دخلت تاريخ سوريا الحديث من الباب الواسع. وهكذا تكون البحوث الأربعة: «البعثيون الأوائل»، «فارس الخوري»، «خالد العظم»، «الدكتور عبد الرحمن الشهبندر»، التي تؤلف كتابنا الجديد، قد شملت أيضاً الحديث عن سوريا عشية انهيار الامبراطورية العثمانية، وسوريا في العهد الفيصلي القومي العربي القصير جداً، وسوريا في عهد الانتداب الفرنسي، وسوريا الانقلابات العسكرية، وسوريا المتحدة مع مصر عبد الناصر، وسوريا الانفصال أو العودة إلى الذات.

ولا يسعنا الاّ أن نقدم للجريدة اللبنانية العريقة الغراء: «النهار» عميق شكرنا وتقديرنا لنشرها هذه المطوّلات وما رافقها من ردود على بعضها تفضّل بها مشكوراً الدكتور جوزيف الياس، اذ شاء أن يبارزنا آخذاً على عاتقه مهمة الدفاع عن المرحوم ميشال عفلق وبعثه واعتناقه الاسلام الذي كتمه، الى حين وفاته في بغداد، الا عن حفنة قليلة من الرفقاء، على ما في ثنايا الفصل الأول.

ما بين المقدمة والكتاب

منذ سنوات برزت، في المنطقة الشرقية من بيروت، كتابات جدرانية غاية في الاثارة، وغاية في الاهتمام والدرس، مثل: «اعرفْ عدوّك.. السوري عدوّك»، وغرقت المنطقة المشار اليها في بحر من الدم مرتين: الأولى عام ١٩٧٨، والثانية عام ١٩٨١، فكانت لنا، في هاتين التجربتين المريرتين اللتين غلّب عليهما العنف والتعنّت والعناد الفريقان: اللبناني والسوري، كتابات سياسية عنيفة وقد جُمعت في ثلاثة كتب: «لبنان في ظلال البعث» (١٩٧٨)، «في سبيل وطن وقضية» (١٩٧٩)، و«أبعد من زحلة وصور: حرب الوفاق الشرق الأوسطي» (١٩٨١)، ضمّناها، في ما ضمّناها: خوفنا على لبنان الذي عهدناه أيام الطفولة وزمن الصبا، ولوْمنا القيادة السورية على تورّطها في الحرب اللبنانية الشديدة التعقيد، ولوْمنا القيادات الشرقية على اقتحامها حرباً مع القوات السورية غير مضمونة النتائج، الى انتقاداتنا للرئيس الفلسطيني السيد ياسر عرفات وحلفائه من اللبنانيين والعرب، دون أن ننسى الخطر الاسرائيلي الرهيب على وطن التعايش المسيحي ـ الاسلامي وموئل الحريات: لبنان.

ثم كان الاجتياح الاسرائيلي (١٩٨٢)، ومن نتائجه انتخاب قائد «القوات اللبنانية» ـ الجناح العسكري لحزب

الكتائب ـ آنذاك، المرحوم الشيخ بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية، ولكنه ما لبث أن اغتيل عشيّة تسلّمه الحكم من سلَفه المرحوم الرئيس الياس سركيس، ليخلفه أخوه الأكبر الشيخ أمين، حيث في عهده (١٩٨٢ ـ ١٩٨٨)، أُسقط الاتفاقان الشهيران: الاسرائيلي ـ اللبناني (١٧ أيار)، البعض يعتبره «اتفاق (وزير الخارجية الأميركي السيد جورج) شولتز»، والسوري ـ اللبناني (الاتفاق الثلاثي)، الذي دعي آنذاك «اتفاق (نائب الرئيس السوري السيد عبد الحليم) خدام»، دونما التوصل إلى اتفاق بديل.

لقد انتهى عهد الرئيس الشيخ أمين الجميل، ولبنان على مفترق طرق لا يعرف إلى أين يسير وما مصيره، وبين اللبنانيين فريق يؤثر التحالف اللبناني ـ الاسرائيلي، وفريق لا يرى بديلاً من سوريا، وآخر يتطلع الى أبعد من دمشق وتل أبيب، بل الى أبعد من كل الشرق وكل الغرب، الى القوة العظمى الأولى: الولايات المتحدة الأميركية، حين سكت، بل أسكت جميع الحياديين والمستقلين، من المسيحيين والمسلمين، كونهم أبرياء من كل تحالف خبيث وارتباط مشبوه، فكانت لنا كتابات سياسية أيضاً، انما أقلّ عنفاً من سابقاتها، بحيث جاءت أعمق وأهدأ وأكثر توازناً، ألّفت

الكتب الثلاثة: «شاهِدُ الثعلبِ ذنَبُه» (١٩٨٤)، و«قاموس حرب علي ومعاوية وسباعيّة طلال سلمان» (١٩٨٥) و«نحن وصنمية التاريخ» (١٩٨٦)، حين بقي الخوف على لبنان ومستقبل أجيالنا شاغلنا الأكبر، ولربما فاق ما كنا عليه في السبعينات.

في نهايات صيف ١٩٨٨، كان اللبنانيون، جميع اللبنانيين، يحلمون برئيس للجمهورية جديد، يبدّل الحرب سلاماً، والخوف أمناً، والقلق استقراراً، والتقسيم توحيداً، والضعف قوة، والعداء مع الجيران تفاهماً، ويجري مصالحة بين المواطن والدولة، وبين الأحزاب والأحزاب، ويعيد الى البلاد سيادتها وعزتها. واتفق السوريون والأميركيون على ترشيح النائب الماروني العكاري المحامي مخايل الضاهر، ولكن قيادات الشرقية رفضت، أو أوحي لها أن ترفض، المشروع السوري ـ الأميركي هذا، الذي سُمّي في حينه «مشروع الأسد ـ مورفي»، فنبّهتهم الادارة الأميركية إلى خطورة هذا العمل «غير المسؤول»، وقالت بلسان مندوبها إلى سوريا ولبنان يومذاك السيد ريتشارد مورفي، وكأنها تهدد زعماء الشرقية: «إما الانتخابات وإما الفوضى»، فراق لـ «الشرقيين»، على ما يبدو، أن يؤثروا «الفوضى» وما قد يتبعها من التبعثر والابتعاد عن التجانس والانسجام الاجتماعي والموقفي، على انتخاب رئيس ليس في قبضتهم، فانبثقت ـ عندئذ ـ في ليلة عاصفة

دعيت «ليلة الكونياك» ـ حكومة انتقالية عسكرية برئاسة قائد الجيش العماد ميشال عون، الذي استمال اليه فئات عديدة شعبية وغير شعبية، وعدها بتحقيق ما تحلم به وتتمناه منذ زمن، وسرعان ما برزالعماد عون زعيماً عسكرياً ومصلحاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، حين راح يلتقي الصحافيين والاعلاميين يومياً تقريباً، «فيدردش» معهم في أدق المسائل وأصعبها وأكثرها اثارة. والواقع أن «دردشات قصر بعبدا»، التي تكشفت وتوسّعت حتى شملت النقابيين على اختلافهم والهيئات والتنظيمات والجمعيات وسواها، انما كانت فضائحية همُّها تسخيف كل من يرغب في ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية، وكأني بالعماد عون يقول: إما أن اكون أنا الرئيس وإما لا انتخابات، ما جعل أقوى حلفائه «الشرقيين» أو هكذا ينبغي أن يكونوا، «القوات اللبنانية»، يرتابون منه ويخالفونه الرأي والتفكير. ولما لم يتمكن من احتوائهم والسيطرة عليهم، وجدْنا الشرقية تدخل في «حرب الاخوة» (١٤ شباط ١٩٨٩)، لتكرّس الخصام بين رئيس الحكومة الانتقالية العسكرية العماد ميشال عون من جهة وقائد «القوات اللبنانية» الدكتور سمير جعجع من جهة.

وفيما الشرقية تلملم جراحها، فوجيء اللبنانيون، صباح الثلاثاء (١٤ آذار ١٩٨٩)، بزنار من النار يلفّ العاصمة

بشطريها وضواحيها ومناطق المتن وكسروان والجبل حتى شتورا مُوقعاً ٣٨ قتيلاً و٢٤١ جريحاً، حين عقد العماد عون بعد الظهر في القصر الجمهوري مؤتمراً صحافياً قال فيه:

«بعد ظهر اليوم (الثلاثاء) على أثر حوادث القصف العشوائي الذي قام به الجيش السوري المحتلّ للأراضي اللبنانية، اجتمعت الحكومة وقررت اتخاذ الاجراءات الكفيلة بسحب القوات السورية الفوري من لبنان ونحن بصدد اعداد هذه الاجراءات محلياً واقليمياً ودولياً».

أضاف مخاطباً الصحافيين:

«هذا اللقاء معكم كان لاعلان هذا القرار. حيثيات القرار من دون شك لا يمكن احصاؤها لا بصفحة ولا بصفحتين، انما يلزمها كتاب تاريخ للممارسات السورية السيئة منذ بدء وجودهم على الأراضي اللبنانية وحتى الآن. لا يمكن للبنان بعد اليوم أن يستطيع النوم ويبقى المدفع مسلّطاً على نافذة غرفته وعلى داره أو على مكتبته. رأينا أشنع ظروف الحروب، ولكن لم نر أشنع من السوري في الحرب. لم أر بعدُ دولةً تدّعي انها شقيقة تقصف وزارة الدفاع وقيادة الجيش والقصر الجمهوري. هذا لم نره إلاّ مع الهمجية السورية لا أعرف من أي عرْق من البشر هؤلاء ولا أعرف من أي جنس ولا من أي معدن. ولذلك ما حدث اليوم (الثلاثاء) شيء

مؤسف، وأكثر من مؤسف انه مذهل ولا يمكن لأي بلد ديموقراطي في العالم أن يتستر بعد الآن على الدور السوري السيء الذي تمارسه سوريا في لبنان».

من اعتدى على من؟

العماد عون يقول ان السوريين استدرجوه إلى حرب لم يكن ليتمناها، فيما السوريون وحلفاؤهم اللبنانيون يؤكدون أن عون هو الذي أطلق القذيفة الأولى. ويعتقد بعضهم أن الرئيسين، العراقي: صدام حسين، والفلسطيني: ياسر عرفات، حرّضا العماد على مقاتلة السوريين، وأسرّا له أن صحة الرئيس السوري حافظ الأسد في تدهور سريع ومستمر، وكذلك نظامه، ما يجعل حربه (العماد عون) عليه ناجحة بكل تأكيد. وقيل إن صدّاما وعرفات وعَدا «صاحبهما» بالدعم المباشر، المسلّح والديبلوماسي والمالي، وضمنا له التأييد العربي والدولي فور نجاحه، وما عليه سوى أن يعلن ساعة الصفر. وإثر اللقاء الذي تم في تونس بعد ظهر الخميس (٣١ كانون الثاني ١٩٨٩) بين العماد ميشال عون والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، لم يحضرْه أي صحافي سوى المصوّر الرسمي للحكومة اللبنانية، صرّح ناطق باسم العماد عون أن السيد ياسر عرفات أبدى في معرض حديثه «استعداد المنظمة لوضع البندقية الفلسطينية في

لبنان في تصرّف العماد عون بصفته ممثلاً للسلطة الشرعية اللبنانية، في كل قرار يتخذ لبسط سلطة الدولة على كل الأراضي اللبنانية»، فأعاد الى الاذهان ذلك اللقاء الذي تم منذ عشرين عاماً في القاهرة، بين القائد السابق للجيش العماد اميل البستاني والسيد ياسر عرفات، عند توقيع «اتفاق القاهرة» السيء الذكر. وأعاد الى الأذهان كذلك قصة الرئيس الأسد مع السيد عرفات عشية الهزيمة العربية المذلة (حزيران ١٩٦٧)، وخلال الأزمة الأردنية ١٩٧٠، وقد كان عرفات والفدائيون الفلسطينيون، في المحنتين، بمثابة الطعم الذي خدع الأسد واستدرجه الى ما أساء الى طموحات الأسد القومية.

يمكننا تصديق هذه الترجيحات والمقولات اذا ما أخذنا بالاعتبار الخلاف العراقي ـ السوري والخلاف العرفاتي ـ السوري. ولا يعتقدن أحد أن «المساعدات» الصدّامية والعرفاتية للعماد عون أو «القوات اللبنانية» أو «كليهما» ذات دافع غير ما ذكرنا.

ومهما يكن، فان مجزرة ١٤ آذار ١٩٨٩ فتحت، طيلة سبعة أشهر، جميع الأبواب والنوافذ اللبنانية للمذابح والمجازر، ومن أسف أن المدفع السوري ظل في مكانه، بل ان مدافع العماد عون ووعود صدام وعرفات لم تستطع زحزحة جندي سوري واحد موجود في لبنان عن مكانه. على

أن «حرب التحرير» انتهت برحلة النواب اللبنانيين الى الطائف، في المملكة العربية السعودية، حيث توصلوا برعاية عربية ـ اميركية إلى عقد اتفاق، في ما بينهم، لم يرض كل رغبات اللبنانيين وطموحاتهم، ولكنه خطوة متقدمة جداً على طريق المصالحة الوطنية والسلام اللبناني.

أما العماد عون، الذي وعد «بتكسير رأس الرئيس حافظ الأسد»، وحمّل عليه ما شاء له أن يحمل، واصفاً نظامه بـ «العلوي» و «الاستبدادي» و «الطائفي» و «الهمجي» و «السرطاني» (؟!)، (قيل ان العماد عون تصرّف هكذا بطلب شخصي من الرئيس صدام حسين) فقد شنّ على اتفاق الطائف والذين رعوه والنواب حرباً تلفزيونية مركزّة تفاقمت وتصاعدت حتى تجسّدت، قبل ظهر اليوم الأخير من كانون الثاني وإلى يومنا هذا، حرباً تدميرية، دعاها العماد «حرب توحيد البندقية» حين دعاها الدكتور سمير جعجع «حرب الالغاء» (إلغاء «القوات اللبنانية»)، أحرقت أو كادت أن تحرق الأخضر واليابس في الشرقية، ورأينا معابر الذل تفصل المتن عن كسروان والأشرفية، ورأينا أيضاً الوجود السوري في لبنان يتعزز أكثر فأكثر، حتى ان العماد عون نفسه، الذي اشتهر بعدائه الحاد للرئيس الأسد، انكفأ عن القصد الذي من أجله خاض أو أُجبر على خوض كل هذه الحروب، وأخذ يتحدث عن مصالح سوريا الحيوية في لبنان، وعن ضرورة التفاهم والتعاون مع الشقيقة سوريا،

ليصبح «الاحتلال السوري الهمجي»، بل «السرطان السوري»، في نظر العماد، وجوداً عسكرياً يُعالَج بالحوار فحسب!

بيد أن الرئيس الأسد بقي، رغم كل ما تقدم، محافظاً على هدوئه ورزانته ومستواه الرئاسي ومنهجيته في الحكم ومكانته عند الممالك والدول، فلم نسمع منه ولا كلمة واحدة غير مسؤولة إن في العماد ميشال عون أو الدكتور سمير جعجع أو سواهما من خصوم سوريا.

ففي الاسبوع السابق على مجزرة ١٤ آذار ١٩٨٩، ولمناسبة الذكرى السادسة والعشرين لثورة الثامن من آذار ١٩٦٣، أكد الرئيس الأسد، في خطاب له ألقاه في افتتاح المؤتمر المذكور: «ان الاصلاحات الجدية، التي يجب أن يجري الحوار بشأنها هي الطريق الضامن لخروج لبنان مما هو فيه. فليفرّق المتوهمون في لبنان بين طمعنا في حب شعبنا في لبنان وطمعنا في ما يسمونه سيادة أو أرضاً أو ما شابه ذلك، فهذه لن تشكل مشكلة بيننا وبين أحد».

أضاف: «ان الأمر في حقيقته يتعلق بالانتماء القومي للبنان، ومن البديهي أن سوريا لن تكون مع لبنان غير عربي على الاطلاق». وأشار الى أن هذا الأمر بالنسبة إلى سوريا «قضية مقدّسة لا تقبل الجدل، ولا تقبل المناقشة وبالأحرى

لا تقبل المساومة. فمن أرادها فهو منا، ومن رفضها فهو من أعدائنا».

ثم ألقى الرئيس الأسد، بعد سنة وثلاثة أشهر على هذا الخطاب، أي في الثاني عشر من حزيران ١٩٩٠، خطاباً لمناسبة افتتاح الدور التشريعي الخامس لمجلس الشعب السوري، تطرّق فيه الى المسألة اللبنانية، فقال: «ان لبنان بلد عربي تربط بيننا وبينه أوثقُ روابط القربى وأوثق روابط التاريخ والجغرافيا، وتقع علينا مسؤولية قومية تاريخية في العمل إلى جانب أبنائه لحمايته والدفاع عنه في جميع الظروف ولاسيما في ظروف المحنة التي يعاني منها وان لا نتركه وحيداً أمام الأعداء الطامعين في اغتصاب أرضه والهيمنة على شعبه».

أضاف: «ان للمسألة اللبنانية وجهين، وجهاً خارجياً يتمثل بتدخلات اسرائيل تحقيقاً لأطماعها، وتدخلات دول أجنبية عديدة، وهذا الوجه يستفيد من التناقضات بين الأطراف اللبنانيين عن طريق التحريض والعمل على تعميق هذه التناقضات، ووجهاً داخلياً يتمثل في الخلاف بين اللبنانيين حول صيغة الحكم المناسبة وضرورة تطوير الصيغة القائمة، وحقيقة الأمر أن جذور هذا الخلاف لم تبدأ مع بداية الحرب الأهلية الحالية، وانما مع بداية استقلال لبنان، بل نبتت مع بداية الاستقلال لأن البذور وُجدت خلال العهد

الاستعماري، والجدير بالقول ان اكثرية اللبنانيين كانت تؤكد ضرورة تطوير صيغة النظام، لكن الخلاف ظل قائماً حول حدود التطوير وحول بعض اتجاهاته، ولكن هذه الأكثرية أصبحت فيما بعد في موقع واحد تقريباً، وظلت مجموعات قليلة في لبنان إما مع الصيغة كما هي، وإما مع تغييرها ولكن باتجاه لا يخدم وحدة الوطن اللبناني بل يباعد بينهم ويؤدي الى التقسيم».

ويأتي الرئيس الأسد، في خطابه المدروس جداً، على اتفاق الطائف فيقول: «ولا أجد ما يدعو للتفصيل وتسمية الأشياء بأسمائها بعد أن جرى مؤخراً، وهذا هو المهم، الاتفاق على ميثاق وطني، وقد أقرّه النواب اللبنانيون من جميع الفئات ووافقت عليه الأكثرية الساحقة من الفعاليات الشعبية، والأمل أن يعيد النظر في مواقفه من لا يزال موقفه سلبياً من الميثاق الوطني لأن فيه مصلحة لبنان بجميع أبنائه ولأن الحل الوطني هو الحل الوحيد الممكن والأمن الذي يضمن الاستقرار للجميع».

وعن دور سوريا في لبنان، قال الرئيس الأسد: «وسوريا كانت منذ البداية وستبقى مع لبنان كله، وهي تتعاون مع جميع القوى اللبنانية التي تتمسك بوثيقة الوفاق الوطني وتدعم المؤسسات الشرعية التي تشكلت على أساس هذه الوثيقة».

وقال أيضاً: «اننا في الأمس واليوم وغداً مع جميع اللبنانيين دون تفريق الاّ من كان ضد وحدة لبنان وضد الوفاق الوطني وسنستمر في تقديم الدعم للبنان وسلطته الشرعية مادام لبنان بحاجة إلى الدعم».

وكمن يفكر عن القياديين اللبنانيين الذين تعطلت عقولهم أو تكلست أو تورّمت، يرى الرئيس الأسد «ان معالجة الوجه الخارجي للمسألة اللبنانية ستكون ممكنة بشكل أفضل بعد معالجة الوجه الداخلي رغم المحاولات التي ستجري لابقاء هذا الوجه الخارجي لأن العوامل الأهم لوجوده واستمراره تكمن أصلاً في التناقضات الداخلية».

ولا بد من الاعتراف بأن الرئيس الأسد قد أمر، مذ بدأت حرب الشرقية، قواته العاملة في لبنان، بتسهيل عودة المهجّرين من مسيحيي غرب بيروت والضاحية والجنوب والبقاع والشمال وسواهم من سكان الشرقية إلى مدنهم وقراهم ومنازلهم وأرزاقهم وحمايتهم ليكونوا في مأمن من نار عون وجعجع، ولاعادة اللحمة بين اللبنانيين بجميع طوائفهم، فاسترجعت سواحلنا وجبالنا، أو بعضها، لونها اللبناني الزاهي الأصيل المتمثل في التعايش والاجتماع على الالفة والمودة. ولولا هذه المبادرة الواعية الانقاذية لغادر لبنان أكثر أهله وأبنائه ولاسيما المسيحيين منهم الذين لم تدع لهم

«حرب الالغاء» - «حرب توحيد البندقية» لا حرمة ولا كرامة ولا كياناً، ولربما وجدنا أنفسنا حيال شتات مسيحي لبناني كم يتمناه أعداء لبنان والطامعون في أرضه ومياهه وموقعه الاستراتيجي.

حريٌّ بنا، اذن، أن نسأل عن سرّ هذا التفكير الأسدي السوري الهادىء والمنطق المتناسق، والوعي السياسي للمسألة اللبنانية وغيرها من المسائل العربية، حين لا نرى من معظم القياديين اللبنانيين سوى الانفعالات، والانفعالات المجنونة، وزلاّت اللسان، والتهديدات الجاهلة والمتجاهلة، والانتقادات، والانتقادات المضادة، فضلاً عن كره بعضهم بعضاً، وحبهم للتسلط والتفرّد بالقرار والحكم. ولعلّ في «عقائد ورجال» الذي غاص في بحر كبّارِ سوريا الحديثة، السابقين على الرئيس الكبير، حافظ الأسد، الجواب الصحيح والخبر اليقين.

وليسلمْ لنا لبنان وطناً واحداً موحّداً حراً سيداً مستقلاً.

وليسلمْ لبنان وسوريا شقيقين عربيين وجارين عزيزين منيعين.

والى الأصدقاء الكرام الذين ساهموا في اصدار هذا الكتاب، على صعوبة الظروف والأحوال، عميق حبي وخالص شكري ووفائي.

مصطفى جحا

ضبية - المتن الشمالي ٢٥/٨/١٩٩٠

الفصل الأوّل

البَعثيُّون الأوائل

- ١ -

ميشال عفلق: بين دمشق وبغداد

تمهيد:

في السادس والعشرين من حزيران ١٩٨٩، شيّع حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم في العراق عميده أمين قيادته القومية الاستاذ ميشال عفلق الارثوذكسي الدمشقي، الذي «اعتنق الاسلام ديناً ولم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة في اعلان ذلك حرصاً منه ومنهم على ألاّ يُعطى هذا الخيار أي تأويل سياسي»، على حسب البيان الصادر عن القيادتين القومية والقطرية للحزب ووزعته وكالة الانباء العراقية[1].

من مقر القيادة الى مسجد الشهداء في وسط بغداد، أقلت النعش الذي لُفَّ بالعلم العراقي عربة تجرها ستة جياد

---

(١) «النهار»: ١٩٨٩/٦/٢٦.

امتطاها جنود من الحرس الجمهوري بثياب بيض، وسار ببطء وراءها الرئيس العراقي صدام حسين وابناء الفقيد وحزبيون قياديون وممثلون للرئيسين المصري (حسني مبارك والجزائري (الشاذلي بن جديد) وللحكومة اللبنانية الانتقالية (رئيسها العماد ميشال عون) والرئيس السوري السابق أمين الحافظ ومسؤولون أجانب، وهؤلاء تقدموا مئات الألوف جاءوا من كل مطارح العراق وشاركوا في التشييع، وموسيقى الجيش تعزف الحاناً جنائزية، ولما صلي عليه ودفن أطلقت المدفعية احدى وعشرين طلقة «تكريماً للزعيم الراحل»[٢].

فمن هو ميشال عفلق، وما البعث العربي؟ وماذا بقي من ميشال عفلق، نزيل بغداد الى الأبد ربما، ومن البعث العفلقي العراقي؟

عن هذه الأسئلة نحاول أن نجيب، هنا، بموضوعية ليست حادة تماماً، ولا عجب اذا ما استوحينا مسجد الشهداء في بغداد وضريح الفقيد والشاهد الباقي.

الميداني

ولد ميشال عفلق عام ١٩١٠ في حي الميدان «الذي يُعتبر مركز الحركة الوطنية في دمشق»[٣]، في عائلة مسيحية

(٢) «النهار»: ١٩٨٩/٦/٢٧.

(٣) الدكتور مجيد خدوري: عرب معاصرون (ادوار القادة في السياسة)، الدار المتحدة للنشر ١٩٧٣، ص ٣٧٤.

ارثوذكسية تُعد من حيث الغنى «من الطبقة الوسطى»[٤]، ومن حيث المنزلة الاجتماعية «اقرب إلى الوجاهة وإلى الطبقة الارستقراطية منها إلى الطبقات الأخرى»[٥]، ذلك أن والده كان تاجر حبوب، ودخله ليس كبيراً دائماً، وأُثِر عنه اشتراكه في نشاط وطني واعتقاله لمعارضته الانتداب الفرنسي على سوريا[٦]. ولا ريب أن ميشال نشأ وترعرع في جو وطني وسياسي لا يعير الأمور الطائفية أو المذهبية أو العنصرية أو جميعها أدنى اهتمام، ولاسيما ان العرب كانوا يعتبرون الكنيسة الأرثوذكسية كنيسة وطنية لا مسكونية[٧]، وعلى الأخص أن حي الميدان، حي ميشال، كان على مدى عقود من السنين، بما شهد من اضرابات سياسية ومظاهرات ضد الاحتلال الفرنسي وضد الحكومات الظالمة والعابثة، هو «المدرسة» التي رسّخت في عقول أبناء الحي حب البلاد والمفاهيم القومية الأصيلة والايمان العميق بضرورة النضال من أجل الحرية والوحدة العربية.

وفي المدرسة، حيث التنشئة الوطنية مادة تعليمية أساسية، تلقى عفلق «مزيداً من التثقيف السياسي قبل أن يسافر لمواصلة دراسته في الخارج»[٨]، على أن الخجل والانطواء

(٤) جلال السيد: حزب البعث العربي، دار النهار للنشر ١٩٧٣، ص ٣٧.

(٥) (٦) (٧) (٨) نفسه.

اللذين عُرف بهما لم يمكنه حتى ذلك الوقت من الاشتراك في أي من ميادين النشاط الاجتماعية، ولكنه ابرز مواهب متعددة ملحوظة واستعدادات شديدة للبحث عن المعرفة والسعي اليها اينما وجدت، فنال سنة ١٩٢٨ منحة دراسية حكومية «أتاحت له قضاء السنوات الأربع اللاحقة في باريس»[٩]، وهناك في جامعة السوربون تخصص بالتاريخ[١٠]، بيد «أن اهتمامه الشخصي شمل مواضيع عديدة، وعلى الأخص الأدب والفلسفة»[١١]. ويُعتَقد أنه تأثر إلى بعيد بكارل ماركس وفريدريك نيتشه، كما أولع بأناتول فرانس وأندريه جيد، وقرأ أو طالع أعمال دوستويفسكي وتولستوي وبرغسون، و«من أساليبهم المختلفة استنبط اسلوبه الخاص المليء بالحيوية، وإن تميّز في بعض الأحيان بالتجريدية الرومنطيقية»[١٢]، المعبرة عن مكنونات في النفس عظيمة وجيّاشة ترجمها أول الأمر في قصص قصيرة، ثم في خطب ومقالات ودراسات واحاديث سياسية.

صديقان

منذ أيام الدراسة في دمشق صادق ميشال عفلق صلاح الدين البيطار، الذي ينتمي إلى اسرة دمشقية مسلمة

(٩) نفسه: ص ٣٧٥.
(١٠) (١١) (١٢) نفسه.

«محافظة»[١٣]، ذات «ميول قومية»[١٤]، وتتفق في وضعها الاقتصادي مع عائلة عفلق[١٥]. ولقد صودف أن ذهب صلاح الدين أيضاً إلى باريس ولكن لدراسة العلم، فتخصص بالفيزياء، وتأثر كصديقه «بالموجة الشيوعية»[١٦]، بل هما «عملا مع الشيوعيين الفرنسيين»[١٧]، وانما على «تصميم وتدبُّر»[١٨]، وليس على «عقيدة وايمان»[١٩]. ذلك أن الحزب الشيوعي الفرنسي كان «جذاباً»[٢٠] في دفاعه عن استقلال سوريا ومكافحته للاستعمار وبخاصة الفرنسي[٢١]. هذه التجربة الغنية والمؤثرة وصفها الرفيقان: ميشال وصلاح الدين في كتابهما: «القومية العربية وموقفها من الشيوعية» الصادر في دمشق عام ١٩٤٤، قالا:

«في عام ١٩٢٨ (قبل أن نذهب الى أوروبا) كانت نظرتنا للقومية على أنها صراع بين الأمة والمستعمر... وكان اسم اولئك الذين يساعدون المستعمر هو الخونة والذين يقفون ضده الوطنيين... ثم ذهبنا الى فرنسا ووجدنا دعماً من الشيوعيين لقضيتنا القومية... وقرأنا للكثير من مفكري

(١٣) نفسه: ص ٣٧.
(١٤) خدوري: ص ٣٧٧.
(١٥) السيد: ص ٣٧.
(١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) نفسه.

الغرب الليبراليين وكوّنا صورة لمجتمع واعٍ متحرر من البؤس والفساد، ولقد اكتشفنا بأننا لم نكن نعاني من الجروح التي صنعها الأجنبي فحسب بل من جروح اجتماعية أيضاً وذلك لأن مجتمعنا كان غارقاً في الجهل والزيف، عندها أدركنا أن النضال ضد المستعمر يجب أن يقوم به الشعب بأكمله.

«ثم عدنا الى سورية لنجد أن قادتها الوطنيين كانوا من الناس الذين لا يستطيعون رؤية أي شيء يتخطى مصالحهم الاقتصادية والعائلية. وكان على النضال ضد المستعمر لكي يكون مجدياً أن يتضمن تغييراً في العقل والفكر وتعميقاً للوعي القومي والمستوى الأخلاقي، ذلك كله يتصل بالحياة الفكرية والأخلاقية للأمة»[٢٢].

وفعلاً عاد الرفيقان سنة ١٩٣٢ من باريس، ليلتحقا معلّمينْ في احدى المدارس الثانوية في دمشق، مدرسة التجهيز، فاعتنيا بالطلاب وأنشأا علاقات وثيقة بهم، وبثّاهم أفكاراً عنيفة تحررية تقدمية، حتى ذاع صيتهما في الجسم الطلابي الدمشقي، واتصلا بالحزب الشيوعي السوري الذي

(٢٢) صلاح الدين البيطار وميشال عفلق: «القومية العربية وموقفها من الشيوعية» ١٩٤٤، ص ١٥. أيضاً: «الصراع على سوريا» لمؤلفه باتريك سيل، ترجمة سمير عبده ومحمود فلاحة دار الأنوار ص: ١٩٩.

كان يتألف من «اثنين أو ثلاثة من الشباب في السجن واثنين أو ثلاثة آخرين من الهاربين»[٢٣]، بل انهما (عفلق والبيطار) كانا «ماركسيين مع بعض التحفظات» حسبما أوضح عفلق نفسه للكاتب البريطاني باتريك سيل[٢٤]. ولعل سبب هذه التحفظات أن ميشال كان فردياً مثل أندريه جيد، الذي كان يقول: «ان الأرواح النبيلة تسمو فوق التعصب الشيوعي»[٢٥]. وعن رفضهما الانضمام الى الحزب الشيوعي قال عفلق مرة: «اذا سئلت عن تعريف للاشتراكية فلن انشده في كتب ماركس ولينين» وانما أجبت: «انها دين الحياة، وظفر الحياة على الموت. فهي بفتحها باب العمل أمام الجميع، وسماحها لكل مواهب البشر وفضائلهم أن تتفتح وتنطلق وتستخدم، تحفظ ملك الحياة للحياة، ولا تبقي للموت الا الحلم الجاف والعظام»[٢٦].

ومهما يكن، فان علاقتهما بالشيوعية انتهت عام ١٩٢٦، عندما لم تبق المناورات الشيوعية خافية عليهما، وحصل ان الشيوعيين انقلبوا اثر قيام حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا من

(٢٣) نفسه.

(٢٤) الصراع على سوريا: ص ٢٠٠.

(٢٥) البيطار وعفلق: ص ١٣. سيل: ص ٢٠٠.

(٢٦) ميشال عفلق: في سبيل البعث، الطبعة الثالثة ١٩٦٣، ص ٢٦.

معادين للانتداب الى مؤيدين لـه، ما دعـا عفلق والبيطار الى القول: «ان الحزب الشيوعي السوري لم يعد سوى أداة تنفيذ في يد أبيه الحزب الشيوعي الفرنسي والحكومة الفرنسية بشكل عام... ولقد بدأ بجمع أعضائه من بين الأقليات الطائفية والعنصرية ومن بينهم كل الذين وقفوا ضد القومية العربية... وتخلى عن مطالبه الثورية واتكأ بثقله على النظام الفرنسي الاستعماري... والواقع أن وجوده قد أصبح مرتبطاً كل الارتباط باستمرار سيطرة فرنسا على سورية... ونسي اعداءه الحقيقيين وأخذ يركز على مهاجمة فرانكو وتشان كاي تشك وموسوليني وغيرهم من أعداء فرنسا وروسيا واضعاً نفسه في صف الرجعية السياسية والاجتماعية داخل الوطن»[27].

واشتدت الخصومة بين عفلق والبيطار من جهة والشيوعيين من جهة، وظهرت كتب ومقالات تنتقد الواقع الاقتصادي والديني والسياسي والاجتماعي الذي كان عليه الاتحاد السوفياتي، فبادر الرفيقان الدمشقيان الى اقفال آخر نافذة كانا يطلان منها على الشيوعية، قالا: «زار روسيا بعضُ المفكرين ممن لا يمكن الشك في صدقهم وعادوا ليكتبوا أن روسيا لم تعد وفية لمبادئها وانها بدلاً من ذلك أخذت تسعى لتوسيع

(٢٧) البيطار وعفلق: ص ٨٠، سيل: نفسه.

نفسها، وبدأت كغيرها من الدول بوضع مصالحها القومية في المرتبة الأولى مستغلة الدعاية الشيوعية لاضعاف منافسيها، كل ذلك دعانا الى أن نسأل:

«اذا كانت دولة عظمى كالاتحاد السوفياتي تنظر الى مصالحها فقط فلا يجب علينا نحن امة العرب أن نحذو حذوها فنرسم سياسة مستقلة باحثين فيها عن مصالحنا الخاصة فوق كل شيء آخر؟ هذه الأمور سببت لنا أزمة روحية وعقلية اعاقت كتابتنا ونشاطنا السياسي مدة تقارب العامين، وذلك لأننا لم نكن من بين اولئك السياسيين الذين يلبسون حلة مختلفة تناسب كل مناسبة ويخفون أخطاءهم بالجدال الخادع، لقد أردنا فوق كل شيء أن نفسر الأشياء لانفسنا وأن نوضح لانفسنا ولأمتنا شيئاً اكثر عمقاً من السياسة ـ أي العقل والروح العربيين»[28]. بعد هذا الفراق، أخذت أفكار عفلق والبيطار القومية تتبلور وتتوضح فكثفا الاجتماعات واللقاءات السياسية مع نخبة من طلابهما، ثم أصدرا أول كتيب لهما في كانون الثاني ١٩٤١، تبعه ستة أو سبعة كتيبات أخرى في شباط، جميعها «موجهة ضد الافرنسيين وضد قادة «الكتلة الوطنية» الذين اتهموا بالتذبذب مع السلطة الانتدابية»[29]، وكانت ثورة رشيد عالي الكيلاني

(٢٨) نفسه.

(٢٩) سيل: ص ٢٠٢.

في العراق (ايار ١٩٤١) الفرصة الذهبية التي طالما انتظراها، ذلك انهما اعلنا حركة «نصرة العراق»، وجمعا المال للكيلاني، وألفا لجاناً من الشبان السوريين ممن كانوا يرغبون في مدّ هذه «الثورة» ودعمها بالسلاح والرجال، مما عمق ثقة الطلاب فيهما. وقبيل صيف ١٩٤٢، وبعد الحوار والمذكرات بين الثلاثة: ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار وجلال السيد، وهو من عاصمة الجزيرة السورية دير الزور التقى الاستاذ ميشال مصادفة في دار صديق له من وجهاء حي الميدان يسكن قريباً منه الاستاذ ميشال نفسه[30]، تمّ التوصل الى «إيجاد تكتل من نوع جديد يحمل على عاتقه عبء القضية القومية على طراز أفضل مما نرى»[31]، ودعي فيما بعد حزب «البعث العربي»[32].

وانضم الى هذا الرهط الثلاثي الدكتور مدحت البيطار، «الذي تولى الاستاذ ميشال عرض القضية معه خلال عدة اجتماعات جانبية»[33]، فاتخذ الأربعة من أنفسهم «لجنة تنفيذية لحزب البعث العربي واعلنوا المباشرة بالتنظيم وقبول المنتسبين»[34]، الى أن انسحب الدكتور البيطار ليأخذ مكانه

(٣٠) السيد: ص ١٥.
(٣١) (٣٢) نفسه.
(٣٣) (٣٤) نفسه.

بعد فترة الدكتور وهيب الغانم. وحكم «الكتلة الوطنية» كان بعد عام ١٩٤٣ «صارماً»[35]، وكان الاساتذة من قادة البعث «يتهيبون الاعلان عن قيام حزب تحسباً لما تقوم به السلطات يومئذ من تدابير بينها التدابير الزجرية»[36]، «ولكن امكن التغلب على هذا المحذور لأن واحداً من بين القيادة المذكورة (يقصد صلاح الدين البيطار) كان جريئاً على السلطة ورجالها لما سبق له من دالة عليهم وعمل مشترك معهم وخدمات شخصية لهم في شتى المجالات، وقد أصرّ على اعلان قيام الحزب مطمئناً الى أن المحاذير ليست بالقدر الذي يمكن أن يعيق المسيرة والبدء بها»[37]. وهكذا وُلد حزب البعث العربي «الولادة الحقيقية»[38]، أما «الولادة الرسمية» فبعد ما يقرب من خمس سنوات، أي في شهر نيسان ١٩٤٧ حين عقد الحزب أول مؤتمر له، المؤتمر التأسيسي، في مدينة دمشق، وناقش فيه «دستور الحزب» المشتمل على ثماني وأربعين مادة في المبادىء الاساسية والمبادىء العامة وسياسة الحزب الداخلية والخارجية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية ـ التعليمية[39].

(٣٥) (٣٦) (٣٧) (٣٨) نفسه.
(٣٩) ملحق كتاب «اليسار العربي» للدكتور طارق اسماعيل، ترجمة محمود فلاحة، دار النبراس، بدون تاريخ، ص ١٥١/١٥٩.

اذ ذاك راح الحزب يصدر بيانات ومنشورات تحمل تواقيع المؤسسين الأربعة، وفيها كانوا يعالجون مختلف القضايا العامة ويبثون آراءهم وتطلعاتهم وضرورة الوحدة العربية والغاء النظم العربية الجائرة والفاسدة تحقيقاً للحرية والاشتراكية.

على أن السنوات التي تفصل بين «الولادتين» كانت هي سنوات التكاثر العددي والنشاط العقائدي بين سمع الحكومة وبصرها، وهذه الحكومة، «لم تتخذ تدابير زجرية بحق (الحزبيين) الا في حالات نادرة، كنفي الاستاذ البيطار (إلى معسكر تدمر في الصحراء السورية) وسجن الاستاذ عفلق ردحاً قصيراً من الزمن»[٤٠] (تم ذلك بأمر من رئيس الحكومة جميل مردم)، بل كان موقفها هذا «مشجعاً لمن كان خائفاً فازداد العدد وأصبح في الامكان الاعلان رسمياً عن قيام الحزب الجديد»[٤١].

وترك عفلق والبيطار مهنة التدريس ليتفرغا للعمل السياسي والتنظيمي، فتقدم الأول بترشيح نفسه للنيابة (انتخابات ١٩٤٣) ففشل، لأن الزعماء الوطنيين لم يدعموه، وترشح مرة ثانية عام ١٩٤٧ ففشل أيضاً، لكون الحكومة استعملت يومئذ الجيش للتأثير في الناخبين وإرهاب مرشّحي

(٤٠) السيد: ص ٤١.
(٤١) نفسه.

المعارضة، ثم حاول مرة ثالثة عام ١٩٤٩ مرشحاً عن حزب البعث، ففشل كذلك، لأن الحكومة، حكومة خالد العظم التي كان الاستاذ ميشال نفسه من أعضائها، وزيراً للتربية، عارضت تمثيل حزب البعث في البرلمان، وعندئذ ثبت له «عقم الوسائل الديموقراطية في تحقيق أهدافه»[٤٢]، بيد أن بعضهم يعتقد أن هزيمته مرة أو مرتين انما سببها التلاعب بالانتخابات[٤٣].

جريدة «البعث»

وفي عام رحيل الفرنسيين من سوريا، تمكن حزب البعث من اصدار جريدته: «البعث»، متخذة شعاراً لها منذ العدد الأول (٣ تموز ١٩٤٦): «امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». بدأ العدد الأول بافتتاحية حررها الاستاذ ميشال عفلق تحت عنوان «بذور البعث» منها:

«لقد حيل بين «البعث العربي» وبين حقه في اصدار صحيفة تنطق باسمه مدة ثلاث سنوات كاملة. وها هو اليوم يصدر صحيفة «البعث» بعد أن أصرت على أن لا تسمّى «البعث العربي». وقد يتوقع اكثر الناس من هذه الصحيفة أن

(٤٢) خدوري: ص ٣٧٤.
(٤٣) نفسه.

تبهرهم منذ العدد الأول. ولكن الحرية التي تريد البعث أن تكون لسانها ما فتئت منذ نشأتها تحارب عند الناس ميلهم الى التأثيرات الآنية وسرعة تصديقهم للسحرة وصانعي المعجزات. وان يكن لحركة البعث صفة مميزة نحرص عليها، فهي أنها لا تطمئن الى المفاجآت ولا تثق بالنجاح السهل. ولو كان اصلاح حالنا سهل التحقيق لما كنا بحاجة الى الاصلاح، ولو كانت كثرة الناس قابلة لأن تفهم الحق بسهولة وتعمل به لما كانت بحاجة الى من يدعوها اليه. فخير لنا وللقراء اذن أن نتجنب كل ما هو باهر مفاجىء، وان نأخذهم بما أخذنا به انفسنا من إعراض عن الزخرف وابتعاد عن التكلف... فالواقع أن الأمة ما زالت تنتظر الذين يخاطبونها بصدق وبساطة وثقة ومحبة... اننا نحن أيضاً نريد أن نربح كل الناس وأن تعم فكرتنا جميع أفراد امتنا. ولكننا نعرف أن ذلك لن يكون الآن ولن يتم بغير مشقة. اننا نتطلع الى المستقبل ونعمل له، ومن أجل ذلك نضحي بالحاضر ونظفر عليه. نهمل رأي الناس لكي نكون لهم رأياً ولا نبالي اليوم عددهم لكي يتحول هذا العدد اللفظي في غد الى الحقيقة. اننا نتحمل عزلة الشتاء وفي سبيل فرصة الربيع، ومن أجل أن تأتي الغلال وافرة غنية قبلنا أن تكون بذرة في بطن الأرض منسية. همنا الآن أن نجعل أصل

الشجرة ثابتاً»[٤٤].

والحق أن قادة البعث لم يصبروا على «عزلة الشتاء»، ولم يرضهم أن يكونوا «البذرة المنسية»، بل استعجلوا الوصول، فغلبتهم شهوة الحكم التي لفرط وهجها وغليانها ابقت «البذرة» فوق التراب، ليذريها الهواء يميناً وشمالاً وفي كل مكان. أما باطن الأرض، أما السنابل، أما الحصاد، فلا تتعدى الكلام المعسول، ذلك أن الحزب «انقلابي يؤمن بأن أهدافه في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن أن تتم الا عن طريق الانقلاب والنضال، وان الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالاصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع»[٤٥].

فالعقول اذن حارة، والأعصاب متوترة، والسلطة لا بد من القبض عليها في شكل أو آخر. لذلك تعاون البعثيون مع «الكتلة الوطنية» ثم خاصموها، ومع حزب «الشعب» حتى انهار، ومع حسني الزعيم، أول انقلابي سوري في العصر

---

(٤٤) ميشال عفلق: جريدة «البعث» (١٩٤٦/٧/٣)، عن «تطور الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥ ـ ١٩٦٥» للدكتور جوزف الياس، دار النضال طبعة ١٩٨٣، الجزء الثاني: ص ٣١٨/٣١٩.

(٤٥) المادة السادسة من دستور حزب البعث العربي.

الحديث الى أن أطيح، ومع الضابط سامي الحناوي وحكومته التي رأسها السيد هاشم الاتاسي، اذ كان «عطوفاً على حزب البعث»(٤٦)، بينما عارضوا الحكومة التي الفها السيد ناظم القدسي، الذي اصبح عام ١٩٦١ رئيساً للجمهورية السورية، لأن القدسي «رفض اعطاء (البعث) اكثر من مقعد واحد»، وقال الاستاذ عفلق الذي ارسلته القيادة للتباحث معه وابلاغه مطلب الحزب: «انني افهم أن يكون نائبان في المجلس ويطلبان مقعداً وزارياً، فهذا أمر مألوف، لكنني لا أفهم أن يكون في المجلس نائب واحد ويطلب مقعدين»(٤٧). فضلاً عن نزاعاتهم التي لم تهدأ مع الشيوعيين والقوميين السوريين، والواقع أن اولئك وهؤلاء جميعاً طلاب حكم أيضاً.

وكما البعثيون كذلك جريدتهم «البعث». ونظرة سريعة الى سيرة هذه الجريدة مذ تأسيسها حتى عام ١٩٦٥، لابد من أن تعرفنا النهج الذي سار عليه المؤسسون حتى تفرقوا كحبات عقد شُدّ بخيط كأنه من خيوط العنكبوت.

فهي (البعث) لم تستمر طويلاً بعد صدورها، اذ عُطلت في ٢٢ آب ١٩٤٦ لمدة شهر. ثم عُطلت ثانية في ١٨ كانون

(٤٦) السيد: ص ٧٥.
(٤٧) نفسه.

الأول ١٩٤٦، ثم في صيف ١٩٤٧ مدة شهرين أيضاً. وعادت حتى انقلاب حسني الزعيم، على أنها تعرضت للتعطيل الموقت اكثر من مرة عام ١٩٤٩. وفي نيسان ١٩٤٩ عُطلت نهائياً كغيرها من الصحف السورية الى أن سقط حكم الزعيم، فعادت إلى الصدور في ١٥ أيلول ١٩٤٩ بالعدد الرقم (٢٠١)، وبدأ هذا العدد بافتتاحية دبجها الاستاذ صلاح الدين البيطار، وعنوانها: «اهداف الانقلاب»، وفيها يقول: «ان الانقلاب كان حاجة للجماهير الملحة، غير أن الزعيم انحرف به عن أهدافه». واستمرت «البعث» هكذا حتى صيف ١٩٥٠ حين صارت اسبوعية، وعلى هذه الحال حتى عام ١٩٥٢، حين عطلها نهائياً نظام الدكتاتور أديب الشيشكلي. ويعتقد أن آخر أعدادها كان العدد الرقم (٥٣٠)، لأنها عادت في ٨ نيسان ١٩٥٤ يومية بالرقم (٥٣١)، وبدأت بافتتاحية عنوانها «ما يأتي من فوق الشعب يذهب به الشعب». ويبدو أنها تحوّلت عام ١٩٥٥ إلى اسبوعية، ثم توقفت بعض الوقت، إلى أن عادت من جديد في ٢٠ نيسان ١٩٥٦ مبتدئة أعدادها بالرقم (١). وكانت هذه المرة اسبوعية أيضاً في ثماني صفحات، واستمرت طوال عامي ١٩٥٦ و١٩٥٧، حتى وصلت في ترتيب أعدادها في شهر شباط ١٩٥٨، الى الرقم (١٠٠) أو أقل قليلاً، ثم

توقفت تلقائياً في أول تموز ١٩٥٨[٤٨].

ولما وقع الانفصال بين الجمهوريتين: السورية والمصرية، حصلت «البعث» على امتياز جديد عام ١٩٦٢، وصدر عددها الأول في ٢١ تموز كجريدة اسبوعية سياسية. وبدأ هذا العدد بعنوان كبير: «الطليعة العربية تخوض معركتين. لن تقتلع قوى الانفصال فكرة الوحدة من ضمير الشعب». أما الافتتاحية فعنوانها: «الكلمة الطيبة» ومنها:

«ان الفكر سلاح هادىء شريف يُستمد من كرامة الفكر وصدقه. فاذا ما افتقد خصائصه غدا عاملاً من عوامل التحريض والقلق... وصحيفتنا ترجو أن تسهم في أداء هذه الرسالة النبيلة، رسالة الفكر، وأن تكون اداة خيرة لحرية حقيقية تحترم الفكر وتحترم الانسان... انها ترجو أن تكون عاملاً من عوامل ازالة القلق الذي أثاره في النفوس امتهان حرية الفكر واللعب بها. ان ما تحتاج اليه بلادنا في هذه الفترة هو الصدق والحكمة ووضوح الذهن فهما أصل استقرارها المنشود»[٤٩].

ولم يطل الزمن بجريدة «البعث» اذ، سرعان ما تعطلت نهائياً

(٤٨) تطور الصحافة السورية: ص ٣١٩.
(٤٩) نفسه: ص ٣٢٠.

بقرار صادر عن السلطة في ٩ تشرين الأول ١٩٦٢، إلى حين ثورة آذار ١٩٦٣، وصدور العدد (١٣) في ١٩٦٣/٣/١٢. و«الطريف أن جريدة «البعث» باشرت صدورها في آذار ١٩٦٣ قبل أن تحصل على امتياز جديد. فقد تأخر امتيازها، ولم يصدر رسمياً حتى تموز ١٩٦٤. وما زالت هذه الصحيفة تصدر باستمرار حتى يومنا الحاضر»[٥٠]. أما أبرز كتّاب الافتتاحية فهم: ميشال عفلق، وصلاح الدين البيطار، وجلال السيد، ووهيب الغانم، وحافظ الجمالي. وبانتهاء هذه المرحلة من عمر جريدة «البعث» انتهت المرحلة القيادية، لتبدأ مسيرة الرعيل الثاني، الذي ربما بكر في الظهور.

السياسة فوق العقيدة

لقد كانت الطريق الى السلطة، للمؤسسين، غير سالكة وغير آمنة. وبرغم هذا غلّبوا العمل السياسي على العمل الفكري والعقائدي، فكان لابد من أن تتجاذب الحزب جبهات وفئات هي أشد على الحزب وقيادته من الخصوم مثل: الجبهة الأرسوزية، القائلة بأن الحزب قد أسسه المرحوم زكي الارسوزي وأن الاسم: «البعث العربي» من وضعه، وان الفكرة برمتها انطلقت منه[٥١]، وفئة الماركسيين المتحللين

(٥٠) نفسه.
(٥١) السيد: ص ١٨.

وهؤلاء اندسوا في صفوف الحزب من غير اعلان هويتهم والافصاح عن حقيقتهم[52]، وفئة الفقراء من أبناء الاسر السورية الكبرى، ويمكن القول تجوزاً ان كل الذين دخلوا الحزب انما كانوا في أصل تكوينهم وبحسب منازلهم الطبقية، حرباً على الوجهاء والأغنياء وذوي المراتب الرفيعة[53].

وينبغي لنا أن نعرف ايضاً أن «البعث العربي» في سنواته الأولى، وقبل أن تتوضح هويته السارية المتطرفة، استهوى بمنهجه القومي «عدداً كبيراً من بعض شيوخ القبائل ووجهاء المدن فانتسبوا اليه، ولكنهم ما لبثوا ان ابتعدوا بعد ما ثبت لهم عفوياً وبالتدريج استحالة الوئام بينهم وبين الحزب»[54]. وأخذ الحزب يلملم ويجمع «الاشتات»[55] و«المتناقضات»[56]. اذ «جذب القوميين المتطرفين كما جذب الماركسيين واستهوى الاخلاقيين كما استهوى غيرهم»[57]، وكانت كل فئة ترى في الحزب «ما يتفق مع ميولها ويحقق نزعاتها»[58].

(٥٢) نفسه: ص ٣٦.
(٥٣) نفسه: ص ٣٧.
(٥٤) نفسه: ص ٣٨.
(٥٥) (٥٦) نفسه.
(٥٧) نفسه: ص ٣٩.
(٥٨) نفسه.

لاشك أن هذا «التنوع» في صفوف الحزبيين هو الذي أثار تلك الضجة حول رسالة الاستاذ ميشال عفلق من سجن المزة الى حسني الزعيم، وفيها الاعتذار عما بدر من قسوة في البيان الصادر عن قيادة الحزب. واحدثت الرسالة «حالة جديدة من البلبلة والقلق الحزبي والنفسي»[59] كأنها الزلزال، وفتحت جرحاً في جسم الحزب كاد أن يهلكه[60]. وتضاربت الآراء والمواقف بين متطرف ومعتدل ومتسامح: هذا لا يرضى الا بفصل الاستاذ عفلق فصلاً تاماً من الحزب والتنصل من الرسالة واستنكارها شكلاً ومضموناً. وهذا أقل عنفاً وتصلباً رأى أن المسألة لم تصل الى درجة تبعث اليأس وتدمر الحزب وتهدد القضية القومية في الصميم. وهذا مستقل لم تأخذ المسألة عنده من الاهتمام ما يجعلها موضوع بحث جدي. وانحاز المستقل الى أقوى التيارين المتعارضين[61]. حتى كان القرار الكلامي أو غير الرسمي كما وصفوه، فوَفّق - بعد استجواب الاستاذ ميشال عفلق الذي لا يُعقل ان يكون «البعث العربي» بدونه - بين الموقفين، بأن تكون العقوبة «رمزية»[62]، فاستعاد الحزب «هيبته ومنع طمع الطامعين فيه

(٥٩) نفسه: ص ٦٣.
(٦٠) نفسه.
(٦١) نفسه، ص: ٦٤.
(٦٢) نفسه، ص: ٦٥.

من سلطات رسمية وفئات شعبية»[٦٣]، فيما بقي الاستاذ عفلق يشعر بالاهانة والالم زمناً غير قصير، ان لم يكن هذا الشعور قد رافقه حتى وفاته.

قال الاستاذ جلال السيد، عضو اللجنة التنفيْذية، محللاً الرسالة العفلقية:

«ما الذي حدث؟ سألنا أنفسنا في معزل عن الضجة التي ثارت حول الرسالة. وفي منحى عن المشاعر الثائرة والانفعالات العاطفية التي ملأت الجو يومذاك في أوساط الحزب. وكان من جملة البواعث لهذه الانفعالات ما يسمعه اعضاء الحزب من خارج الحزب من نقد وتجريح.

«لم يكن في الرسالة خيانة. وليس فيها تآمر وليس فيها عمالة. وليس فيها أمور لا أخلاقية أخرى. فما فيها اختلاس ولا سرقة ولا أي شيء شائن من مثل هذا».

وقال: «ان في الرسالة ضعفاً في المناعة وقلة في المقاومة. وان فيها ضجراً ووساوس وأوهاماً ضخمت القضايا الصغيرة فجعلتها قضايا كبرى. ويمكن تلخيص ذلك بالقول: ان الرسالة قد نمّت عن مزاج عاطفي وبنيان رخو. فهل المصابون بالبنيان الرخو وبالمزاج العاطفي يصنفون مع الخونة

(٦٣) نفسه، ص: ٦٦.

والعملاء ويُفصلون عن أحزابهم؟ لقد كان العقل والمنطق وربما عاطفة الود المخزونة للاستاذ عفلق كلها مجتمعة قد مالت بنا الى التخفيف من الحادث والتهوين من شأنها ومن آثارها، وتالياً فانه قد قرر سدل الستار عليها، واعتبار ان لكل نفس حدوداً معينة من المناعة والمقاومة ومن الممكن أن يتعرّض كل انسان في حالات خاصة من الضعف النفسي والوهن العقلي الى مثل ما تعرض له الاستاذ عفلق»[٦٤].

أزمة جديدة

ثم دخل الحزب في أزمة جديدة لم يدركها يومئذ سوى القليلين، والقليلين فقط، ذلك أن صفقة سياسية تمت بدمج «البعث العربي» مذ توسع وتمدّد حتى بلغ الاردن ولبنان والعراق، في حزب الزعيم الحموي الاستاذ اكرم الحوراني: «العربي الاشتراكي»، واصله تكتل حموي كان يطلق عليه «حزب الشباب» ويتألف من عدد من الشبان المثقفين على رأسهم الاستاذ الحوراني نفسه، بل هو تكتل خارج عن سلطة الحزب الكبير التقليدي: «الكتلة الوطنية»[٦٥].

لقد كان الدمج «سطحياً سياسياً لم يصل الى الاعماق

(٦٤) نفسه، ص: ٦٥/٦٦.

(٦٥) نفسه، ص: ٩٧.

فيوحد الامزجة والميول والمقاصد»[٦٦]، ما فرض على الحزب أمراً بارزاً وخطيراً هو: «تقاسم المهمات»[٦٧]. فكان اذا عُين وزير من أصل بعثي «فلا بد من تعيين وزير من أصل اشتراكي. واذا ندب الحزب مندوباً لأمر من الأمور من الأصل الأول فلا بد من انتداب مندوب آخر من الاصل الثاني»[٦٨]. وعاش الحزبان وكأنهما «اتحاديان لا حزب واحد»[٦٩]، بل «وكأنما كان كل شيء يوحي بأن هذا الدمج انما هو «زواج متعة» يقضي وتراً ثم ينتهي»[٧٠].

المهم أن «البعث العربي الاشتراكي» الاسم الجديد الذي اطلق على الحزب بعد الدمج، كان ينقصه أهم المقومات: القيادة الحاسمة، والتماسك الفكري والروحي بين الأعضاء. ولكن خصوم البعثيين، من تقليديين وثوريين، لم يكونوا أحسن حالاً، بل ان التفكك التدميري الذي كان يتحكم في الأحزاب السورية كافة جعل البعثيين يبدون وكأنهم الأقوى والأفضل. فمنذ التحالف مع الحوراني، السوري القومي أصلاً وصديق الشيشكلي منذ الطفولة، بدأت دكتاتورية الشيشكلي تتضاءل، وكان نجم الرئيس جمال عبد الناصر يملأ مسرعاً آفاق الشرق الأوسط.

(٦٦) نفسه، ص: ١٠٥.
(٦٧) نفسه.
(٦٨) (٦٩) (٧٠) نفسه.

واذا كان الشيشكلي قال: «ان اعدائي يشبهون الأفعى، رأسها جبل الدروز، ومعدتها حمص، وذنبها حلب، فاذا سحقت الرأس ماتت الأفعى»[٧١]، فان عفلق قال: «ان عداءنا المشترك للشيشكلي كان احد العوامل التي سببت قرار اتحادنا (مع الحوراني)، وقد كنا نحسب معاً حساب فترة النزاع الحزبي التي تلت سقوطه، وشعرنا بالحاجة الى تجميع القوى ضد خصمنا الرئيسي في ذلك الوقت، وهو حزب الشعب»[٧٢] على أن عفلق والحوراني كانا مختلفين جداً لا من حيث الشخصية فحسب بل من حيث المظهر أيضاً. الأول سمي «غاندي القومية العربية»، وهو رجل شاحب هزيل يتألم لابسط الأمور لكونه عاطفياً وعميق النظرات ومعتدل الطبع ورضياً. والثاني اقتحامي ومغامر ومتحدث بليغ وداهية، ويحيط بتاريخ الاحزاب السورية وربما غير السورية، وبتاريخ مؤسسيها وكبّارها، وكرّس نفسه للسياسة «تدفعه اليه طاقة عدائية سليمة النية»[٧٣]، ولشدة ثقته في نفسه كان يعتقد أن ليس في السياسة نقطة لا يستطيع الحصول عليها[٧٤]. ولاكثر من عشر سنين كان الثلاثي العجيب: عفلق وصلاح

(٧١) سيل: ص ١٧١.
(٧٢) نفسه: ص ٢١١.
(٧٣) نفسه: ص ٢١٢.
(٧٤) نفسه.

الدين البيطار واكرم الحوراني، يملأ مدارسنا وكلياتنا ونوادينا الثقافية ثورة أو تحريضاً على الثورة، وكما في لبنان كذلك في الاردن والعراق. ثم صار الثلاثي رباعياً: عفلق والبيطار والحوراني وعبد الناصر وجميعهم يريدون الوحدة العربية من الخليج الى المحيط، غير ان الأهداف ليست موحّدة. البعثيون السوريون خائفون من الشيوعيين وامينهم العام الرجل الفذ والساحر والقوي: خالد بكداش. وعبد الناصر خائف من حلف بغداد ومخططات نوري السعيد.

وباسقاط الشيشكلي في ٢٥ شباط ١٩٥٤، سقط القوميون السوريون وحلف بغداد ومشروع الهلال الخصيب. وكأني بالرقيب السوري يوسف عبد الرحيم، بتحريض من بعضهم، اغتال العقيد عدنان المالكي، صديق البعث، رمياً بالرصاص في مباراة كرة قدم في ٢٢ نيسان ١٩٥٥، ليرسم برصاصاته خريطة الانهيارات السياسية الفظيعة التي استقدمت عبد الناصر الى سوريا، ثم سرعان ما أخرجته منها حائراً لا يدري ماذا يفعل، ورفعت البعث الى سدة الحكم، ليدخل في صراع مع نفسه عقداً ونصف العقد.

الفرصة التي خدعت الجميع

كان ميشال عفلق «غاندي القومية العربية» وفيلسوف البعث وأمينه، يبحث عن بطل يجسد له أحلامه وأفكاره،

فلما أطل عبد الناصر، الذي اكدت له سوريا «حقيقة» القومية العربية، اولع به واستنصره واستغاثه، وكذلك فعل صلاح الدين البيطار، حتى قال السفير المصري في دمشق محمود رياض:

«لم نطلب الوحدة مع سوريا مطلقاً، بل اوضحنا دائماً بأن الفكرة سابقة لاوانها، وقلنا لكل جماعة مارست الضغط من أجل الوحدة اننا نرفض اقامة اتحاد بقوة السلاح فنحن نعتقد أن الوحدة لا يمكن أن تستمر اذا ما حققت بواسطة الجيش.

«لقد ادعى جميع زعماء الاحزاب السورية بأنهم مؤيدون للوحدة لكن حزب البعث كان الوحيد الذي خطط للأمر فعلاً وطالب بخطوات عملية لتحقيقها. لقد كانت سياستنا في الواقع هي تجنب الوحدة، اذ كنا نعلم انها ستثير كل القوى ضدنا واننا سنتهم بضم سورية وهذا ما حدث فعلاً»[٧٥].

هذا القول اكده كل من عفلق والبيطار. اذ قال الأول:

«لقد كانت لدينا القناعة بأنه لا يمكن أن تكون هناك وحدة عربية بدون وجود مصر، ولا يعود هذا الى ايماننا بأن مصر مؤهلة لتكون بروسيا العالم العربي لتوحده بقوة السلاح

(٧٥) نفسه: ص ٤١٠.

أو الى ظننا أنه لا يمكن لأي بلد عربي أن يكون مركزاً للتجمع، وانما لأننا رأينا قوى مصر المانعة وهي تعمل، فقد كانت قادرة على أن تعارض بنجاح أية خطوة نحو الوحدة العربية تستبعدها من المشروع ـ كما في قصة الهلال الخصيب التي تثبت ذلك حتماً»[٧٦].

وقال الثاني (البيطار): «استيقظ عبد الناصر على فكرة العروبة عام ١٩٥٣ أو ١٩٥٤، وكانت هذه المرة الأولى التي بدأ فيها حاكم مصري التفكير بالعالم العربي بحسب شروط قومية مستبعداً الرغبة الخالصة بالسيطرة، غير أن الفكرة العربية لم تتغلغل في مصر عميقاً، والمصري العادي لم يشعر بأنه عربي. لقد آمنا نحن في حزب البعث بأن اتحاداً مع مصر سوف يغذي فيها نفس العواطف القومية التي الهبتنا»[٧٧].

لن نبحث في ميكانيكية الوحدة المجنونة ونتائجها على البلدين: سوريا ومصر. بل وماذا نقول وقد تحول الحب والشر على أيدي الوحدويين الى بغض ورعب وانفصال؟ المصريون أخطأوا وظلموا، والسوريون خَدعوا وغَدروا، حتى القيادة البعثية قبلت بحل الحزب في سوريا، أخطر قرار للقيادة في حياتها. وبين سوء الادارة وسوء النية ضاعت آمال عفلق

(٧٦) نفسه: ص ٤٠٥/٤٠٦.
(٧٧) نفسه.

والبيطار مثلما ضاعت احلام عبد الناصر. اما العراق الذي اتخذ البعث عقيدة ونظاماً فظل بعيداً عن سوريا البعث، والسبب طبعاً ليس ايديولوجياً وليس الحزب وانما الايديولوجيون والحزبيون هناك وهناك، الذين كما يبدو يستمدون المواقف من تاريخية الصراع البغدادي ـ الدمشقي القديم.

ليس الدكتور منيف الرزاز وحده الذي كتب عن «التجربة المرة»: البعث العربي الاشتراكي، بل كثيرون غمسوا أقلامهم في هذا «البحر» الملوّث والمتلاطم الأمواج. ولكن يبقى ما قاله الدكتور الرزاز حقيقة ثابتة الخطر عليها من التطبيق المسبوق بالفشل دائماً. قال:

«ان على اليسار، اذا وصل الى الحكم، أن يفرق بين جهاز الحزب وجهاز الحكم، ولو التقت بعض نقاطهما في القمة، فالحزب لا يجوز أن ينشغل بالادارة، وأن يلتحم بالسلطة. فالسلطة، بطبيعتها، فوقية، بيروقراطية، مهما حاولنا أن «نجمهرها»، وجود الحزب في الجماهير، عينا لها ولساناً على ادارة الحكم، هو الذي يحفظ الحكم من الانحراف. يبعده عن الانتهاز. وعن البيروقراطية والاستعلاء».

بيد أن «طريق اليسار لا ترسم بالكلمات. انها طريق طويلة وشاقة. وليس على الذين يخوضونها إلّا تحمّل المشاق

والصعوبات، والصمود أمامها، والتغلب عليها، في خطوة إثر خطوة. عزاؤهم الوحيد أنهم يصنعون تاريخاً لامتهم. ان سقط منهم جيل، قام بعده جيل يحمل الأمانة ويؤدي الرسالة»[٧٨].

أجل!

ولكن، أيٌّ من القادة والمنظّرين البعثيين صمد، وأيٌّ تراخى وانهزم؟ أين جلال السيد العشائري الدير الزوري، الذي انسحب عام ١٩٥٥ من الحزبيين لا من الحزب؟

أين صلاح الدين البيطار ولماذا اغتيل (في ٢١ تموز ١٩٨٠) غريباً عن دمشق؟

أين الدكتور منيف الرزاز؟

أين عبد الله الريماوي؟

وهل فعل الاستاذ ميشال عفلق حسناً عندما هرب الى العراق، ولماذا مات مسلماً؟

هذه الاسئلة وغيرها خطرت في البال، والبعث العربي الاشتراكي في العراق يشيع «طفل» حي الميدان الدمشقي، ميشال عفلق، الذي احرق المراكب كلها من أجل القومية

(٧٨) الدكتور منيف الرزاز: «التجربة المرة»، دار غندور ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ص ٣٠٨/٣٠٩.

العربية، ثم أحرق القومية العربية، بكل معالمها ومعانيها، من أجل الاسلام؟

اتـراه نسي «في سبيل البعث» وكل الكتب والكراريس والمنشورات التي صاغها هذا اليساري القومي دفاعاً عن الاشتراكية والقومية؟

صحيح أن الاستاذ عفلق أحب النبي والاسلام، وألقى على مدرج الجامعة السورية في نيسان ١٩٤٣ خطابه الشهير: «ذكرى الرسول العربي»[٧٩]، ولكنه قال بعد ثلاث سنوات من ذلك الخطاب: «ويمكننا أن نقرر بأن القومية العربية مرادفة للاشتراكية في الوقت الحاضر، فلا تناقض ولا تضاد ولا حرب بين القوميين والاشتراكيين. فالقومي العربي يدرك أن الاشتراكية هي انجع وسيلة لنهوض قوميته وامته. لأنه يعلم بأن نضال العرب في الوقت الحاضر لا يقوم الا على مجموع العرب، ولايمكنهم أن يشتركوا في هذا النضال اذا كانوا مستثمرين منقسمين سادة وعبيداً. فضرورات النضال القومي توجب النظرة الاشتراكية، أي أنها تؤمن بأن العرب لا يمكن أن ينهضوا الا اذا شعروا وآمنوا بأن هذه القومية ستضمن العدالة والمساواة والعيش الكريم للجميع»[٨٠].

(٧٩) ميشال عفلق: في سبيل البعث، ص ٦١/٥٠.

(٨٠) نفسه: ص ٢٠٤/٢٠٣.

وكثيراً ما ردّد هذا القول أو مثله بعبارات وصيغ متشابهة حيناً وغير متشابهة أحياناً. ومع هذا طوى أوراقه النضالية ملغياً القومية العربية ومعالم الاشتراكية القومية بنفثات محرورة: «أشهد أن لا اله الا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله». ان هذه النفثات بقيت مخبوءة مجهولة حتى يوم الرحيل، والأمر أدهشنا نحن الذين طالما أحببناه وقرأناه وسمعناه وسألناه وشاركناه في همومه وانكساراته وأحزانه.

القومي الأصيل

يبقى أن نحيي، في هذه المناسبة، المفكر القومي العربي: الاستاذ الكبير زكي الارسوزي، الذي اليه وحده، ودون سواه، يرجع نشوء البعث العربي، رضي الكارهون أم لم يرضوا. وليس أفضل، في هذه الوقفة القصيرة، من قراءة بعض السطور مما كتب الدكتور سامي الجندي عن ذلك المفكر الثائر والوقاد زكي الأرسوزي، قال:

«كان الأرسوزي زعيم المقاومة العربية في لواء الاسكندرون، قادها بايمان وصبر وشجاعة، أعطاها معنى صوفياً ووطنياً واستقطب اعجاب وتأييد شباب سوريا قاطبة وغدا رمزاً وطنياً. لمع اسمه كظاهرة جديدة تعبر عن مفاهيم أخرى غير مفاهيم الزعماء التقليديين التي آمن بها شعب سورية على أنها مسلمات. كان هزة للقيم السياسية وبداية

الشك بالأفكار والأساليب، منطقاً مختلفاً لا يمتُّ بنسب الى العادي المألوف، أول من كشف عورات التخلف وجاء للسياسة بتحليل متأثر بالثقافة والفكر الأوروبي.

«وبعد فقدان اللواء جاء فقطن دمشق وما عتم ان انسحب من العصبة (عصبة العمل القومي) مع عدد من الذين التفوا حوله. فقد وضح أن هنالك عقليتين، احداهما من الماضي والاخرى من المستقبل. لم يكن تحرر العصبة كاملاً، لم ترفض بنية المجتمع القائم، وقليلاً قليلاً تلاشى بريقها وادخلها قرار قيادتها الى عالم النسيان».

أضاف الجندي: «سنة ١٩٣٩ كنت طالباً في حلب. وردتني رسائل من رفاق عديدين من دمشق تشكو كلها الفراغ السياسي وتلح على ضرورة قيام حركة جديدة وبلغني ان اجتماعات كثيرة عقدت انتهت كلها أخيراً الى الفشل أهمها اجتماع عقده الاساتذة ميشال قوزما، زكي الارسوزي، ميشال عفلق، صلاح الدين البيطار، شاكر العاص، اليس قندلفت... قرّ الرأي فيه على انشاء منظّمة ما عتمت ان انتهت بعد الاجتماع الأول.

«ووردتني بعد ذلك رسالة تبشر بقيام حزب اسمه «الحزب القومي العربي» زعيمه زكي الارسوزي وتعتبرني منتسباً مؤسساً لأني حسب تعبير الصديق «تحمل نفس الأفكار وعندك

الاستعداد للعمل» وفي الرسالة مبادىء الحزب، الذي رمزه: النمر»:

«١ ـ العرب امة واحدة.

٢ ـ للعرب زعيم واحد يتجلى عن امكانيات الامة العربية.

٣ ـ العروبة: وجداننا القومي، مصدر المقدّسات، عنه تنبثق المثل العليا وبالنسبة اليه تقدر قيم الاشياء»(٨١).

وعن رمزه النمر قال الجندي:

«جرت الأحزاب ما بين الحربين وخلال الثانية على اختيار رمز مثير لخيال الناشئة، تقليداً للنازية والفاشية، مع ان العربي بعيد بطبعه عن الرموز الوثنية فهو حتى في جاهليته غير توتمي النزعة على عكس الشعوب الآرية، والنازية هي عودة الى القبلية الجرمانية بروح حضارية جديدة تستلهم أشكالها الحديثة الأولى من طبيعة شعبها والرموز التي عبر بها عن نفسه بدائياً.

«لم يختر الارسوزي الأسد، لأنه أقرب الى الرزانة

(٨١) سامي الجندي: البعث، دار النهار للنشر، طبعة ١٩٦٩ ص ٢١/٢١.

والهدوء، وهو غير ثوري. أما النمر فهو أشدّ توثباً، يذكر بعقاب لعقبة بن نافع الذي لم يختر النسر»(٨٢).

على أن الارسوزي كان «ارستقراطي النزعة يؤمن بالفروسية: الاشتراكية عنده هي تكافؤ الفرصة، المواطنون متساوون أحرار، تبدأ ملكيتهم وثقافتهم من بدء متساو، كل يربح على قدر ما ينتج، المؤهلات هي مقياس التقدم، والمجتمع هو المجال الذي تتألق فيه الطاقات تستمد منه نسغ الحياة وتغنيه بابداعها، مبرر وجوده الابداع فهو أولاً وآخراً في خدمة العبقرية لأنها أعلى أشكال العطاء الانساني، بل الغاية من وجود الانسان على الأرض»(٨٣).

في ذلك الوقت كان بعض مثقفي سوريا معجبين ولا شك بالنازية والفاشية، اذ قرأوا نيتشه وفيخته وتسشمبرلين، وفكروا في ترجمة «كفاحي» للفوهرر ادولف هتلر. وكانت كلمة «البعث» شائعة عندهم ومعروفة تماماً. ولما عاد الأرسوزي ليلح على ضرورة تأسيس حزب، وكان ذلك في اجتماع ضمه ولفيفاً من المثقفين الشباب (يوم ٩ تشرين الثاني ١٩٤٠)، حيث ألقى عليهم محاضرة موسّعة عن الشيوعية والنازية استغرقت اربع ساعات، بدأها بديكارت وانهاها

(٨٢) نفسه.

(٨٣) نفسه: ص ٢٤.

بتسشمبرلين، قال مختتماً حديثه: «يوم ذكرى سلخ اللواء أحزن فاتفاءل: يحفزني الألم للعمل فانهد اليه. أرى أن نؤسس حزباً ونسميه البعث العربي». واقترح أن يقسم التنظيم الى قسمين: سياسي وثقافي»[٨٤]. وأقسم الحاضرون اليمين ببساطة دون أية شكليات كأنهم يواصلون البحث[٨٥].

وفي العام التالي (١٩٤١) «التقيت بأحد أصدقائي فناولني بياناً مطبوعاً على الحجر يحمل توقيع البعث العربي. اخذته للاستاذ زكي فلما قرأه قال: «بدأت دسائس الاستعمار، انه يقطع علينا الطريق الى الشعب بحركة تحمل اسمنا نفسه». من يقرأ البيان يجد اسلوبنا نفسه. أخذنا نبحث عن الأمر.

«في تلك الفترة اسس الاستاذان ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار حزباً حمل في البدء اسم البعث تارة والإحياء أخرى. ولا ننس ان الكلمتين (Renaissance) تعنيان نفس الشيء. كانت الحركتان متشابهتين متماثلتين. كل رفاقنا (قد اكون والاستاذ محسن الشيشكلي الاستثناء والوحيد) كانوا تلاميذ الاستاذين عفلق والبيطار على مقاعد الدرس. كان أعضاء بعثهما يترددون بين حين وآخر على الاستاذ الأرسوزي ويحتملون لاذع نقده وسخره.

(٨٤) نفسه: ص ٢٦.
(٨٥) نفسه.

تكويننا العقلي واحد. بعثان افترقا»[٨٦].

أما اليوم، فتساوى ـ بالموت طبعاً ـ الأرسوزي والبيطار وعفلق. بينما بقي البعث بعثين: سورياً وعراقياً. من يحاسب من؟ ومن يغفر لمن؟

عظام الاستاذ الكبير زكي الأرسوزي الذي مات مقهوراً ناقماً وربما ملحداً أيضاً، تنتفض من القبر، القبر الغريب، لتسترد الحق السليب. وعظام الاستاذ الكبير ميشال عفلق، الذي مات مسلماً، ترتاح في العراق، ولا تعرف متى تعود الى حي الميدان الدمشقي الذي وهبه طفولة مميزة وزعامة مثالية واسلاماً مغلقاً بل مُحكم الإقفال.

هل يتفق البعثان؟

(٨٦) نفسه: ص ٣٠/٣١.

- ٢ -

البعث والسلطة

تمهيد:

لقد تفضّل الدكتور جوزف الياس فردّ، مشكوراً، على مقالتنا السابقة «المطوّلة في القائد والمفكر الراحل ميشال عفلق[1]، بمقالة أطول[2] بدأها بالثناء علينا لجهة «سعة الاطلاع وبُعد النظرة وجودة التحليل وحسن الاستنتاج»، ثم بالشكر لاعتمادنا كتابه المفيد: «تطوُّر الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥ - ١٩٦٥»[3] مرجعاً في كلامنا على جريدة «البعث»، وختمها (المقالة - الرد) بكلمات كأنها قَطْفُ الورد من بستان

(١) قرأها في «النهار»: العدد ١٧٣٧٠، ١٩٨٩/٧/٤، والعدد ١٧٣٧١، ١٩٨٩/٧/٥.

(٢) «النهار»: العدد ١٧٣٩٤، ١٩٨٩/٨/٢، والعدد ١٧٣٩٥، ١٩٨٩/٨/٣، والعدد ١٧٣٩٦، ١٩٨٩/٨/٤.

(٣) سبق التعريف به.

مسيّج بالأسرار والتعاويذ:

«عفلق هذا الرجل المتهم، فالمضطهَد، فالمقهور، فالمشرَّد، فالملاحَق، فالمحكوم بالاعدام، هذا هو «الاستاذ» الذي أُعدم ألف مرة ومرة، منذ أسس حزبه حتى لقي وجه ربه.

عفلق، هذا الرجل الذي رأى الطفولة في البطولة، عاش عيشة «البطل الطفل» ومات ميتة «الطفل البطل».

تُرى أيكون هذا الرجل العظيم قد انتحر حقاً في «البعث العربي الاشتراكي»»[4]؟

(٤) هذا التعبير للدكتور سامي الجندي القائل: «لم يكتمل ميشال عفلق الكاتب، نهد ومازال جنيناً في تعبيره الى البشر، مخلفاً وراءه الحبر. أجهض الفنان في ذاته كي يعيش في الحزب وقلما طرح مرّ الواقع. ان الفنان معذّب عندما يغادر أرض ابداعه. ما قابلت الاستاذ عفلق الاّ وألحيْتُ عليه بالعودة الى الفنان: أذكر أني قلت له مرة: «لن يبقى ميشال عفلق عضو المجلس الوطني في التاريخ أما الكاتب فخالد». كنتُ المس عنده هذه الرغبة، يمني نفسه بهدوء قليل كي يعود اليها، غير أن الخلافات والانحرافات كانت تمتص قدرته على الرجوع، وهناك عامل أهم هو كسله، فوجد بتلك تعلّلاً يقنع به. أظنه يعاني دائماً تبكيت ضمير المبدع الذي خان صوره في حزب. كنت أقول عنه دائماً: لقد انتحر ميشال عفلق في البعث العربي الاشتراكي. (البعث - دار «النهار» للنشر، طبعة ١٩٦٩، ص ٣٥).

سيكون في «الاستاذ» كلام كثير للمؤرخين والدارسين وسينصفه التاريخ دون شك».

ومن أسف أن هذه الكلمات الحادّة والحارّة أنْست كاتبها، وبعد مشوار غير قصير عرض خلاله واستعرض وأفاض واستفاض، أن يقول لنا كلمة وداع، حتى ولا «السلام عليكم: انتهى الرد»، على أننا لن نسأل عما وراء هذا الفراق غير المستحسَن، ولا سيما أن الدكتور جوزف الياس يعتقد، فيما يعتقد، أننا جررناه إلى ركوب هذا «المركب الخشن»، «زمن بات الصمت أبلغ من التعبير»[5]!

والحقيقة أن هذا الزمن ليس جديداً، ولا يبدو في المستقبل المنظور ما يبشر بزواله أو تراجعه على الأقل، ولذلك «غامرنا» و«نغامر» في سبيل العلم والبحث الجدي الموضوعي، وخدمة لأجيالنا القادمة التي لن يسعدها أبداً أن يُعتبر عصرنا هذا عصر الصمت والخوف من البحث والاستفسار والاستفهام والنقد الذاتي.

وعد

لعلّ الدكتور الياس استعجل في استعمال بعض العبارات الثقيلة نوعاً على السمع مثل: «لا يعرف»، وقد حشر معنا

(٥) الدكتور جوزف الياس.

الباحث والعالم الجليل الدكتور مجيد خدوري الذي استعنّا بكتابه «عرب معاصرون»[6] (؟!)، و«يزعم» و«قسّا»، ومع ذلك لن نبادر إلى الردّ بما يماثلها مهما كان السبب، لئلا يأتي غداً أو بعد غد من يذكّرنا، مثلاً، بما قاله صاحب المواقف المشرّفة المغفور له الزعيم السوري التاريخي ابراهيم هنانو (١٨٦٩ - ١٩٣٥) لأركان «عصبة العمل القومي» والصحافي الكبير نصوح بابيل، نقيب الصحافيين السوريين سابقاً، عندما أتوه في دمشق يتشاكون الخلاف الكلامي الذي كان محتدماً آنذاك بين «العصبة» من جهة وفريق من أعضاء «الكتلة الوطنية» وجريدة «الأيام» السوريتين من جهة، والحكاية رواها الأستاذ بابيل نفسه كما يلي:

«في خريف ١٩٣٤ نشطت «عصبة العمل القومي» في أعمالها ضد فريق من أعضاء «الكتلة الوطنية» دون فريق، بغية دب الخلاف في صفوف الكتلة على قاعدة (فرّقْ تسد)، وقد وزعت في أحد الأيام منشوراً هاجمت فيه فريقاً من

(٦) سبق التعريف به. والدكتور مجيد خدوري استاذ أبحاث مرموق في معهد الدارسات الدولية العليا في جامعة جونز هوبكنز، فهو رئيس مركز دراسات الشرق الأوسط في المعهد المذكور، تلامذته كثر، ومعارفه كثر، وقراؤه كثر، وشهرته واسعة في مؤلفاته القيمة بالعربية والانكليزية.

أعضاء الكتلة وحملت على جريدة «الأيام» حملة قاسية ردت عليه «الأيام» بمقال أشد قسوة. وكان الزعيم (إبراهيم) هنانو حينئذ في دمشق، فذهب إليه وفد من أركان العصبة وأطلعوه على مقال «الأيام» وكان عنوانه «أبواق التضليل» وسألوه عما إذا كان يرضى عن هذا المقال وأمثاله في جريدة «الأيام» التي تنطق بلسان «الكتلة الوطنية»، حتى إذا كان الأمر كذلك فاننا نربأ بك وبأمثالك من اخوانك أن لا تسكتها عنا».

أضاف بابيل: «قالوا له ذلك دون أن يشيروا لا من قريب ولا من بعيد إلى المنشور الذي وزعوه، فطلب الزعيم هنانو من المرحوم سعد الله الجابري[7] أن يطلبني هاتفياً، فاتصل بي وقال: «ان الزعيم في انتظارك في فندق فكتوريا حيث يحل»، فانطلقتُ إلى الفندق حالاً، ومن حسن المصادفات أن نسخة من منشور العصبة كان في جيبي، وفي طريقي إلى الفندق عرجتُ على مكتبي في «الأيام»، وقلت لكبير المحررين الأستاذ رشيد الملوحي رحمه الله: «أنا ذاهب إلى الفندق لمقابلة الزعيم هنانو، فيمكنكم الاتصال بي إذا كان هناك ما يستلزم ذلك».

---

(٧) سعد الله الجابري (١٨٩١ ـ ١٩٤٨)، سياسي سوري وزعيم وطني، ولد وتوفي بحلب. رئيس الوزارة بعد الاستقلال ثم رئيس مجلس النواب. سيتكرر ذكره في غير مكان من هذا الكتاب.

ويتابع بابيل: «وجدتُ الزعيم يحيط به أركان العصبة يصحبهم المرحوم أديب خير من قدامى أعضاء حزب الاستقلال الذي انشىء عام ١٩١٩ وصاحب المكتبة العمومية بدمشق. وكان يعطف على العصبة ويشجعها. وبعد أن رحب بي الزعيم هنانو سألني: «ما هذا المقال يا استاذ نصوح؟ وما هي الأسباب والدوافع التي قضت بنشره؟».

«قلت: «يا حضرة الزعيم.. هناك مثلٌ معروف يقول: من طرق الباب سمع الجواب».

قال الزعيم: «ماذا تعني؟».

أخرجتُ من جيبي نسخة المنشور وقدمته إليه، وقلت: «هذا الذي أعني».

وبعد أن قرأ المنشور بتمهل التفتَ إليهم وقال: «انكم لم تذكروا لي شيئاً عن هذا المنشور؟! لا. لا. لقد اختلف الأمر الآن، فانتم اذن بدأتم بالهجوم على جريدته... وهو دافع عنها... ولهذا أقول: انني غير راضٍ لا عن المنشور ولا عن المقال. وأطلب إليكم جميعاً أن تتركوا هذا التراشق، لا سيما في هذا الظرف، الذي يجب أن تتوفر فيه جهودنا جميعاً على محاربة العدو المحتل، وان الاستمرار في هذه المهاترات من شأنه أن يوسّع شقّة الخلاف بين العاملين في الحقل

الـوطني. . . أما السؤال عمّا إذا كانت «الأيـام» تنطق بلسـان الكتلة أو لا تنطق. . فالأستاذ نصوح من «الكتلة الوطنية». . وان جريدته تحمل مبادئها وتدافع عن سياستها دون أن تـدفع لـه الكتلة بـارة الفـرد. . ولهذا لا يستحق منـا إلا الثنـاء والتقدير»[٨].

بهـذه الروحيـة الهنانـوية النبيلة، اذن، نـرد عـلى أسئلة، بعض أسئلة الـدكتـور جـوزف اليـاس الـذي نحـترم آراءه وأفكـاره كل الاحـترام، ونثمّن خبرتـه ومعرفتـه، ونشكـر لـه «بعض التعقيب والاستـدراك» الذي حفـزناه إليـه مثلما قال. ونقدّر كذلك ما بذل من مجهود لأجـل «امتاع القارىء بجديد من فكر الاستاذ عفلق وعنـه»، داعين لـه بالتـوفيق في انجاز «الـدراسة المنهجيـة الشـاملة التي تتنـاول كـل منـاحي تفكـير الاستاذ عفلق» حسبما وعدنا في مطلع رده المذكور.

وبهـذه الروحيـة الهنانـوية أيضـاً، نعترف ونقـرّ بما لجـريدة «النهار» الزاهرة والقيّم على صفحاتها الثقافية: الشاعر شـوقي أبي شقرا، من فضائل وحسنات يدركها جيداً وعلى حد سواء حملة الأقلام والقراء في لبنان وغيره. وقـد قال الاستاذ الكبير

(٨) نصوح بابيل: صحافة وسياسة (سورية في القرن العشرين). دار ريـاض الريس للكتب والنشر، لنـدن، طبعـة أولى ١٩٨٧، ص ٨٤.

زكي الارسـوزي مرة: «ان الجـريـدة كـالكتـاب، والحكم في الانتشـار للقراء، فـاذا أتت الجريـدة بما يتعـارض مع الـذوق العـام يعرض النـاس عن قراءتها، والعكس بالعكس، فـإذا عـبّرت عن أماني الجمهـور تعبيراً من مستـوى ثقافـة الجمهور أقبـل الجمهور عليهـا. . .»[٩]. فإلى «النهـار» كما إلى الشـاعر شوقي أبي شقرا التحية الكبرى والشكر الجزيل.

تصحيح

على أننا سنتخذ من بعض العناوين «الفرعية» (subtitles) الواردة في مقالة الدكتور الياس الثلاثية، عنـاوين لأجوبتنـا، وذلك للتسهيل والتنسيق العلْميـين ليس إلا. أما كـلامه عن المراجع التي اعتمدنا والتي لم نعتمـد، فلن نتعرض لـه لا من قريب ولا من بعيد، ذلك لأنه نطق، في بعض مواقع كلامه، بمـا يكفينا ويغنينـا عن الرد أو التعقيب، فكيف وقـد استعان هو أيضاً، غير مرة، بارادته أو بدون ارادته، بـالمراجـع نفسها التي تناولها بالنقد، ولا سيـما كتاب الـدكتور سـامي الجندي: «البعث»، وكتـاب الاستـاذ جـلال السيـد: «حزب البعث العربي»، وكلاهما صادران عن دار «النهار» للنشر كما أشرنا.

شهوة الحكم

يستنكـر الدكتـور جوزف اليـاس استعمالنـا كلمـة «شهـوة

(٩) ذكـره زهير المارديني في كتابـه: «عشرة من الناس» دار العـرفان ١٩٧٥، الجزء الأول، ص ١٠٨.

الحكم» عند مؤسسي البعث، مؤثراً عليها كلمة «رغبة».
ويمضي في استنكاره هذا فيقول: «وقد وصل (البعث) إلى الحكم بعد عشرين عاماً من تأسيسه الفعلي، لكن وصوله كان مصطنَعاً، بعد أن تلطت جهات أخرى وراءه، وأحسّت قيادته بالخطر، وتمنّت لو لم يكن الوصول، لكنها كأس مكتوب لها أن تجرع حتى الثمالة» (؟!) ويضيف متسائلاً: «فلماذا النعت اذن بشهوة الحكم، وهي ليست شهوة بل رغبة قائمة عند كل الأحزاب؟».

ان بين الرغبة والشهوة، لغوياً، كما بين العادي ـ الطبيعي والفائق الشديد من كل موجود. واذ يعترف الدكتور الياس بأن وصول البعث إلى الحكم كان «مصطنَعاً»، فكأنه يعترف بأن الرغبة في هذا الوصول لم تكن طبيعية، بل شديدة، وشديدة جداً، ولنقلْ: «شهوة»، نعم «شهوة» فحسب. ولو لم تكن «القيادة التاريخية» لحزب البعث راغبة في الحكم حتى «الشهوة» و «الاشتهاء» لما تجرّعت تلك «الكأس»، كأس الفشل الذريع والتذابح على السلطة «حتى الثمالة»، بل حتى الانتحار.

من المسؤول: المؤسسون أم الجهات التي تلطّت وراءهم؟

لماذا لم يدرك المؤسسون هذا الخطر التدميري قبل حدوثه؟

ولأننا لا نريد للدكتور الياس أن يركب ثانية «المركب الخشن»، نسارع إلى الإجابة عن هذا السؤالين فنقول: انها «شهوة الحكم» التي تحكمت في المؤسسين والجهات التي «تلطت وراءهم» حتى أفقدتهم جميعاً، ويا للأسف، القدرة على الهدوء والاتزان والتعقل، فكان منهم ما كان.

يرى الباحث السياسي: موريس ديفرجيه أن الأحزاب السياسية تنقسم، من حيث النشأة، إلى أحزاب نشأت داخل الهيئة البرلمانية، وأحزاب نشأت خارجها. الأولى يقصد بها «تلك الأحزاب التي ظهرت تدريجياً من خلال أنشطة الهيئة التشريعية نفسها، وقد نشأت الأحزاب ـ في أغلب بلاد أوروبا على الأقل ـ عن هذا الطريق، عندما نشأت علاقة عملية ومتصلة بين اللجان الانتخابية، وبين الجماعات التشريعية»[١٠]. والثانية يقصد بها «الأحزاب ذات النشأة الخارجية، و (هي) تلك الأحزاب التي نشأت خارج اطار

(١٠) الدكتور أسامة الغزالي حرب: الأحزاب السياسية في العالم الثالث، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت (١١٧) محرم ١٤٠٨ هـ/سبتمبر (أيلول) ١٩٨٧، ص ٨٥، عن «الأحزاب السياسية» لموريس ديفرجيه، الترجمة العربية، دار «النهار» للنشر، الطبعة الثانية (منقحة) ١٩٧٧، ص ١٢/١٣. نقله الى العربية عن الطبعة الفرنسية: علي مقلد و(المرحوم) عبد الحسن سعد.

الهيئة التشريعية وانطوت على بعض التحدي للحكم القائم، وعلى المطالبة بالتمثيل في البرلمان»(١١). ويُعتبر حزب البعث العربي الاشتراكي واحداً من أحزاب الفئة الثانية، التي تمثل، في نظر ديفرجييه، «ظاهرة أكثر حداثة»(١٢)، كما «ترتبط أكثر بالتوسع في حق التصويت، وبالايديولوجيات المتشدّدة: العلمانية أو الدينية»(١٣). على أن هذه الأحزاب نفسها «ترتبط - في أغلب المناطق النامية - بالحركات القومية والمعادية للاستعمار»(١٤).

فمن أجل الوصول إلى الحكم، اذن، سلكت قيادة البعث سبلاً شتى: منها المزروع بالأشواك، ومنها المزروع بالألغام، والأمر أدْمى لا الأقدام فحسب بل القلوب والنفوس، فيما كان على «الرفاق» وكلهم «أساتذة» أن يتحققوا من تاريخ دمشق ويدققوا في وجوهها وبخاصة الاجتماعي منها.

ومن أجل الوصول إلى الحكم أيضاً، ساير «الرفاق» هذا ثم نفّروه، وخاصموا ذاك ثم صادقوه، ودعموا ذلك، بكل ما لديهم من امكانات جماهيرية واعلامية، ثم تركوه ومشوا، حتى بدوا وكأنهم لا يعرفون ما يريدون، بل لا يقدرون على ما يريدون.

دمشق التي تجاهلها البعثيون

منذ أشهر قليلة، طلع علينا الصحافي الدمشقي زهير

(١١) (١٢) (١٣) (١٤) المصدر نفسه.

المارديني، أحد تلامذة عفلق والمقربين منه وغير منتمٍ الى البعث، على قوله، بكتابه الجديد: «الاستاذ» (قصة حياة ميشال عفلق)(١٥)، وفيه يصف دمشق - ابتداعاً أو اقتباساً أو نقلاً - وصفاً اجتماعياً سياسياً غاية في الدقة والعمق، فيقول:

«هي عاصمة الشرق الأوسط عبر التاريخ، تظل تنبض بِثَرّ الحياة وسرها رغم ما حاق بها من نكبات. هي، هيٍ، دائماً، المشعل الذي يخبو نوره أحياناً فلا ينطفىء، وكثيراً ما تعمه العيون عن القبس الحيي، تخاله خبا وهو يجمع خفاياه لوميض تغشى له الأبصار.

«لم يدرس الرفاق الذين شكلوا القاعدة للحزب (البعث) بناء دمشق الاجتماعي الذي تكوّن خلال آلاف السنين فبات ارثاً عضوياً. قنع هؤلاء أن دمشق لا يمكن أن تكون بعثية فأقاموا بينهم وبينها جداراً من المستحيل، مع انها رحبت بخطوة الاستاذ عفلق الأولى»(١٦). بينما رفضت رفضاً يكاد يكون قاطعاً ونهائياً الاستاذ زكي الارسوزي ومعظم خطواته وتعاليمه الفكرية والفلسفية كما سنبين فيما بعد.

ويذهب المارديني عميقاً، ودائماً ابتداعاً أو اقتباساً أو نقلاً، في

(١٥) ٣٦٦ صفحة من القياس الوسط، مجلداً، الى فهرس الأحزاب والهيئات وفهرس الأعلام، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، طبعة أولى ١٩٨٨.

(١٦) زهير المارديني: الاستاذ (قصة حياة ميشال عفلق) ص ١١٨.

الكشف عن السر الدمشقي فيقول:

«وراء تكوين هذه المدينة التجاري عفوية عائلية وتقييم أخلاقي للانسان يجعل من العلاقات بين الافراد تقاليد انسانية شبه دينية، اذا زالت زال فضل دمشق، تنشأ بين الدكاني وخادمه اذا ائتمنه وشائج أسرة تؤول إلى الشراكة والقربى بالزواج، له مع عملائه وزبائنه المنتشرين في الريف والبلدان العربية المجاورة طراز من التعامل القائم على الوعد والثقة، تطوّر فأصبح تراثاً وأساساً في علاقة التاجر الدمشقي مع العالم، لم يضعفه الزمن منذ الآراميين، وانما متّنه وشدّد أواصره، فكان رأسمال دمشق والدمشقي»[١٧].

«ريشة» المارديني، هذه المرة، أجمل وأفتن، بل أكثر رونقاً وسحراً، ذلك أنها تخطط صحيحاً، وترسم صحيحاً، وتلوّن صحيحاً. اختصرتْ المسافة التي بين وجه دمشق وقلبها، فقبضت علينا الانفاسَ وأرغمتنا على التأمل والتفكر بحرارة الدمشقي وانفعالاته وتناقضاته، حيث جاءت «اللوحة» على الصورة التالية:

«وراء المظاهر التي يشاهدها العابر العادي في شوارع دمشق ما تخدعه عن حقيقتها وتوهمه أنها مدينة قريبة من التحلل، تمسكها التقاليد بغير تعصب: قد تكون دمشق من

(١٧) المصدر نفسه.

أكثر المدن الاسلامية صلاة وصياماً، نسبة عدد الحجاج السنوية منها، أكبر نسبة، يدفع فيها التجار الزكاة، وهي تفتح صدرها لكل من يفد عليها، شرط أن يفهمها على حقيقتها بلا زيف. يأتيها عارف النكدي من الشوف مع الملك فيصل الأول، فيذهب الملك فيصل ويبقى النكدي يتبوأ أرفع المناصب، فهو تارة رئيس تحرير جريدة الأيام (جريدة الكتلة الوطنية)[١٨] وتارة أخرى مدير للعدلية، أو مدير للأمن العام، أو مدير للاعاشة لتنظيمها . . . وأحياناً محافظ جبل العرب (جبل الدروز)، يفد عليها عفيف الصلح من صيدا فتنتخبه نائباً عنها، وسفيراً لها في تركيا، ويظهر (سعيد حيدر) القادم من بعلبك إلى جانب الزعيم عبد الرحمن شهبندر، فإذا بدمشق تكرّمه بعد اغتيال الشهبندر[١٩]

(١٨) ذلك قبل أن تنتقل ملكيتها الى الصحافي نصوح بابيل، الذي أصدر العدد الأول منها في الخامس عشر من شهر آب ١٩٣٢، بينما منح الامتياز الى كل من هاشم الأتاسي، ابراهيم هنانو، جميل مردم بك، سعد الله الجابري، لطفي الحفار، فخري البارودي، وهؤلاء تنازلوا بالاتفاق عن الجريدة المذكورة للاستاذ نصوح بابيل. (بابيل /ص ٦٤/٨٧).

(١٩) اغتيل الزعيم السوري الكبير الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ظهر السبت ٦ تموز ١٩٤٠. انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

فتنتخبه نائباً . . . ومن ثم رئيساً لمجلس النواب»[٢٠].

وعليه، «ليس سهلاً أن تنتزع من دمشق تقاليدها، أو تنتزعها من ماضيها القديم لتقنعها بنظرة جديدة للحياة رغم أنها عطشى لكل جديد، تتقبله اذا كان صادقاً، طبيعتها طبيعة مؤمن حقيقي يبطىء حتى يقنع، فإذا فعل تشبث فعاش بعقيدته الجديدة»[٢١].

والحق أن قياد دمشق سهل وصعب في آن، ذلك «أنها تعيش دائماً على انتظار إيمان كبير كي تحقق فيه ومعه وجودها ومعناها التاريخي»[٢٢]، و«تظنها ماتت، فما ان تجسّ نبضها حتى يفاجئك بطاقة عجيبة على الحياة»[٢٣] و«تهدأ حتى لتظن أنها قبْر ثم تنتفض فتجد الطغيان تحت قدميها»[٢٤] الثابتتين.

هذه المدينة، التي تحمل التاريخ بيد وراية التقدم والمعاصرة بيد أخرى، «استقبلت تمرد الاستاذ عفلق وتطاوله على قادة النضال في كثير من الصبر والحكمة»[٢٥]. بيد أن «المريدين الذين التفوا حوله لم يدركوا سر دمشق»[٢٦]، وانما

(٢٠) الاستاذ: ص ١١٩.
(٢١) (٢٢) (٢٣) نفسه.
(٢٤) نفسه: ص ٢٤.
(٢٥) نفسه: ص ٢٥.
(٢٦) نفسه.

اعتبروها «حجارة وأبنية وشوارع وسابلة»[٢٧] فحسب، ما جعلهم يهزؤون بـ«النواة القوية»[٢٨] الصامدة أبداً. واذ «اتسع الحزب (ريفياً) وكبر قنع بظروفه وامكاناته»[٢٩]، ولربما شعر بالعزة والعظمة أو ما يشبههما، لا سيما أن «عناصره الأولى طلابية»[٣٠] لا غنى لها عن العودة بعد الدراسة إلى الريف، حتى «ترك الأمور تسير على هواها دون ضابط»[٣١] يُذكر. وليس عجباً إذا ما قيل «ان معظم الخلافات والانقسامات التي تعرّض لها حزب البعث في الخمسينات وما بعد كان بعضها عدم فهم دمشق، وعدم الايمان بفعاليتها»[٣٢].

الأحياء ـ المدارس

هل أتاك حديث حي الميدان «الذي يشكل ثلث مدينة دمشق»[٣٣]، وحي العمارة حيث منزل آل الجزائري المعروفين بعلمهم ونضالهم وانسانيتهم[٣٤]، وحي المهاجرين، وحي سيدي عامود؟؟ والأخير «كان مفخرة من مفاخر الحضارة العربية الاسلامية بما فيه من دُور تاريخية كانت تحتوي على معظم الآثار»[٣٥] التي، يا للأسف، دمّرها «القصف الفرنسي

(٢٧) (٢٨) (٢٩) (٣٠) (٣١) (٣٢) نفسه.
(٣٣) نفسه: ص ٥٣.
(٣٤) نفسه: ص ٥٠.
(٣٥) نفسه.

الوحشي»[٣٦]، عام ١٩٢٥، عام الثورة السورية الكبرى، ولما عمّروه حرّروه من اسمه القديم ودعوه «الحريقة»، «ليكون ذكرى للحريق الذي أصاب هذه المنطقة، وهي بمثابة القلب من دمشق الخالدة»[٣٧].

في هذه الأحياء الدمشقية النائمة على أمجادها أراد «الاستاذ» عفلق وصحبه أن يبنوا لهم مجداً، وانما في غفلة من الميدانيين والعماريين والمهاجرين والحريقيين وكل الدماشقة، فإذا البناء غريب هزيل، والبناؤون يصيبون في فعلهم أو منطقهم مرة ويخطئون مرات، بحيث لا تضرب الايديولوجية بجذورها في كل أنواع التربة، كما أن أغلب ما يسمى «أيدولوجية» لا يعدو أن يكون مجرد شعارات سياسية[٣٨] فقط لا غير.

أجل، لقد فشل «الاستاذ» ميشال عفلق في الانتخابات ثلاث مرات، ولكن لا لأن الناخبين هناك «فريقان: فريق يُساق كالقطيع بالعصا (اقطاع الريف)، وفريق يشرى بالأصفر الرنان (تجار المدن)» كما يقول الدكتور جوزف الياس، بل لأن «الاستاذ» في واد والناخبين في واد آخر، أما

(٣٦) (٣٧) نفسه.

(٣٨) الدكتور اسامة الغزالي حرب: المصدر المذكور سابقاً، ص ١٦٤.

البعد، أما الفرق، بينهم وبينه، فعميق، وعميق جداً، لا يمكن ردمه أو سدُّه على طريقة «الأطفال» ولو كانوا «أبطالاً». لقد كانت الأحياء الدمشقية عصية متمنعة، وكان «الاستاذ» أعجز من أن يطوّعها ويسيّرها «بعثياً» وكيفما نريد، ولعلّ حظه السيء مع الوزارة زاده عجزاً أو شعوراً بالعجز.

من الثابت أن الشعب السوري بجميع فئاته رفض الانتداب الفرنسي، وقاومه بضراوة وشراسة ما انفك الفرنسيون يحدثون عنها والألم يغالبهم وقد حدث أن قام الكاتب الفرنسي هنري بوردو[٣٩]، في عهد المفوّض السامي الثالث في سوريا ولبنان: الجنرال ساراي ـ خليفة الجنرال ويغان، بزيارة لسوريا ولبنان، ولما عاد كتب مقالاً قال فيه ما معناه: «.. لقد كانت سوريا هادئة ساكنة في عهد غورو وويغان، ولكنها اضطربت وهاجت في عهد ساراي»، فردّ عليه ساراي نفسه قائلاً: «ان هذا الكاتب يجهل كل شيء أو يكذب.. لقد قامت في سورية وحدها سنة ١٩٢٢ خمس وثلاثون ثورة، ودُفن فيها من الجيش الفرنسي خمسة آلاف

(٣٩) هنري بوردو (١٨٧٠ ـ ١٩٦٣): كاتب وروائي فرنسي. عضو في الأكاديمية الفرنسية ١٩١٩، من مؤلفاته: «روكفليار» و «فسطان الصوف» و «جميلة في ظلال الأرز».

جندي»[40]. على أن معظم هذه الثورات انطلقت من الأحياء الدمشقية، الميدان والعمارة والمهاجرين وسيدي عامود (الحريقه) وغيرها.

الوعي الشعبي

ليس أدل على الوعي عند الجماهير السورية الواسعة وفقدان روح التعصب الديني في سوريا من ذلك الهتاف الداوي: «لا اله إلا الله، سليم جنبرت حبيب الله.. لا اله إلا الله (فلان) عدو الله»، وقد أطلقه المتظاهرون الخارجون من الجامع الأموي في حلب[41]، تعبيراً عن رفضهم المعاهدة الفرنسية ـ السورية التي أعلنها، في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٣، المفوض السامي الكونت دي مارتيل.

ذلك أن المرحوم سليم جنبرت الكاثوليكي الحلبي كان، آنذاك، وزيراً للأشغال العامة وممن طُلب منهم مطالعة نص المعاهدة المذكورة ليصار إلى التصويت عليها في المجلس النيابي السوري، واذ رأى فيها ما لا يعود على سوريا بالخير أعلن، في الاجتماع الذي عقد في بيروت بين دي مارتيل من جهة وأعضاء الحكومة السورية من جهة، رفضه اياها قائلاً للمندوب الفرنسي: «أنا لا أستطيع قبول هذه المعاهدة لانها

(٤٠) بابيل: ص ٣٧.

(٤١) نفسه: ص ٧٧.

تكرّس انفصال جبل الدروز ومنطقة العلويين، هذا فضلاً عن هنات أخرى كثيرة تتضمنها ولا يقبلها أهل البلاد». أضاف: «انني إذا أصررتم يا سعادة العميد على فرضها علينا، فاني أعلمكم انني أقدم استقالتي. (واعلمكم أيضاً أنني أحب فرنسا، ولا يمكن الطعن في عاطفتي نحوها، غير ان هذه المعاهدة ستجر عليكم المصائب»[44]. وقد قدم استقالته فعلاً غير مبالٍ بالتهديدات التي سمعها من دي مارتيل نفسه، ومنها «تعريض مصالحه التجارية للضرر»[42].

أما «(فلان) عدو الله»، فهو وزير العدل ـ آنذاك ـ الشيخ المتعمم سليمان الجوخدار، رئيس محكمة التمييز الشرعية، والسبب أنه صادق على المعاهدة الفرنسية ـ السورية إلى جانب الوزراء المعروفين بانتمائهم للفرنسيين وفي مقدمتهم السيد شاكر نعمت الشعباني[43].

هذا، ولن ينسى لا الفرنسيون ولا السوريون كلمة السيد فائز الخوري، أحد النواب الوطنيين الذين امتنعوا، رغم «الجو الرهيب المشحون بالتوتر وبالقوة (العسكرية) التي أحاطت مجلس النواب من أربعة جوانبه»[44]، عن التصويت في جلسة الانتخابات الرئاسية التي أرادتها السلطات الفرنسية

(٤٢) نفسه: ص ٧٦.

(٤٣) (٤٤) نفسه.

تمهيداً وتسهيلاً للموافقة على المعاهدة، وقد فاز فيها حليف فرنسا السيد صبحي بركات، ومما قاله النائب الخوري: «اننا امتنعنا (عن التصويت) لأن غايتنا البحث عن المعاهدة في جو ملؤه الصراحة، ولأننا نعتقد أن هذه الحكومة المتهدمة وهذه الوزارة (رئيسها حقي العظم)، وهذه الهياكل كلها هي كالهباء المنثور تحت ظل المادة ١١٦ وان قراراتها وأعمالها تنهار وتبطل بشطبة قلم من المندوب القاعد هنا بينكم... ولو كانت الحكومة شيئاً مذكوراً فلماذا يجلس هنا ممثل فرنسا، إن جلوسه بينكم سيف مسلّط على رؤوسكم، يبطل كل أعمالكم، ومن الواجب أن يجلس في مقصورة المتفرجين لا على مقاعد النيابة»[٤٥].

وتحفظ حلب أيضاً، وباعتزاز كبير، قصة ذلك الطالب الصغير الفصيح المرحوم علي الشعباني، الذي حمله رفاقه الطلاب على أكتافهم في تظاهرة احتجاج شعبية ضد اجراء الانتخابات التي دعا إليها في مطلع ١٩٢٠ المندوب السامي دي جوفنيل، وكانت السلطات قد قبضت وقتذاك على الزعماء المعارضين: سعد الله الجابري وأحمد الرفاعي ومنير العمادي وربيع المنقاري. وفيما المتظاهرون يهتفون: «لا للانتخابات. لا لاعتقال الأحرار» خرج السيد مرعي باشا

(٤٥) نفسه.

الملاح، وكان حاكماً على حلب، فخطب في المتظاهرين طالباً منهم التفرق لاتاحة المجال لكي يعمل على اجلاء المعتقلين، فانبرى له الطالب الشعباني وهو على أكتاف رفاقه وقال له: «لماذا سجنت هؤلاء الأحرار أيها الحاكم المأجور؟».

قال الحاكم: «والله يا بني أنا ما قبضت على أحد. وليس عندي خبر».

قال الطالب: «اذن، ليس لك من الأمر شيء».

قال الحاكم: «نعم».

قال الطالب: «ما دام الأمر كذلك، فلماذا تحتل هذا المركز؟ لم لا تستقيل؟».

فأجاب الحاكم: «انني ذاهب إلى المندوب السامي».

ولما حاول (الحاكم) الخروج منعه الطلاب، فأعطيت الاشارة إلى حامية القلعة فاطلقت رشاشات باتجاه المتظاهرين، مما أسفر عن سقوط ثمانين قتيلاً، ومائتي جريح. ثم تدخل فريق من الجنود السباهيين والسنغاليين، وأعملوا سيوفهم في المتظاهرين وشتتوا شملهم»[٤٦].

تلك صورٌ وأحداث من الأيام السورية التي لا تُحصى

(٤٦) نفسه: ص ٥٦.

والسابقة على نشأة البعث العربي الاشتراكي، وقد عرضنا لها، هنا، لنؤكد أن خصوم «الاستاذ» وطنيون أيضاً، ولهم نضالاتهم ومواقفهم التي ليس من السهل على زعيم ناشيء، «خجول» و«انطوائي» و«مثالي» و«مرهف الحس» و«شاعري العبارة» و«حالم النظرات»، كما يراه الدكتور الياس، أن يلغيهم بمقالة في جريدة، أو بخطاب في مجموعة طلابية ليس لديها سوى الأحلام، والأحلام فقط، وقد قال المثل: «لا يفل الحديد إلا الحديد». ولكن «الرفاق» مستعجلون، ويريدون «انقاذ» الأمة في أسرع وقت ممكن!

بين عفلق والحوراني

قد يسأل البعض: لماذا فشل عفلق في دمشق، ونجح الحوراني في حماه؟

ان بعض الجواب عن هذا السؤال مبثوث في المقارنة التي عقدناها في بحثنا السابق، بين الاستاذين: ميشال عفلق واكرم الحوراني. والآن نتابع الرد ـ الاجابة بغية الكمال والمعرفة، وليس من الضرورة أن نكون مع أو ضد أي منهما.

يقول زهير المارديني، الذي عرف عن كثب الاستاذ الحوراني وعمل معه:

«منذ سنة ١٩٣٧ أخذت الأوساط (السورية) المثقفة تتحدث عن المحامي الشاب (أكرم الحوراني) الذي انتسب

سنة ١٩٣٦ الى الحزب السوري القومي الاجتماعي وأصبح منفذ الحزب في حماه. وانسحب سنة ١٩٣٨ لينضم إلى حزب الشباب[٤٧]. بعض يهاجمه بقسوة وبعض يبدي العطف عليه. بل لم يكن مجهولاً منذ سنة ١٩٣٢، (إذ) تردّد اسمه كثيراً بعد محاولة اغتيال رئيس المجلس النيابي السوري السيد صبحي بركات الذي كان متهماً بالتعاون مع الانتداب الفرنسي»[٤٨].

ويلقي المارديني بعض الأضواء على هذه «العملية» الفاشلة فيقول:

«جرت المحاولة في بيروت حينما كان الطالب أكرم الحوراني يدرس الطب في الجامعة اليسوعية، وجاء صبحي بركات إلى بيروت للاتصال بحكومتها. فقرّر الحوراني مع زميله في الدراسة المرحوم (عبد الباسط البني) اغتيال بركات، وأجريا قرعة بينهما لاختيار من يسدّد مسدّسه إلى بركات، كل منهما يريد أن يكون المنفذ، وقعت القرعة ثلاث مرات على

---

(٤٧) انشيء «حزب الشباب» في مدينة حماه عام ١٩٣٨، بقيادة الاستاذ عثمان الحوراني، استاذ التاريخ، ثم دعي «العربي الاشتراكي». حارب الاقطاع ودعا الى المساواة بين الملاكين والفلاحين.

(٤٨) الاستاذ: ص ١٩٢.

البني والحوراني يرفضها مرة بعد مرة، حتى لم يدع مجالاً. في ساعة التنفيذ لم ينطلق الرصاص من المسدّس، فقام أحد مرافقي بركات بقتل البني فوراً. وبما أن القضية أضحت حديث الصحافة فقد عاد الحوراني إلى حماه لاستئناف دراسته في الطب في فرنسا. وحين لم يستطع والده تأمين نفقات دراسته في باريس انتسب أكرم الحوراني إلى كلية الحقوق وتخرج محامياً متدرباً».

وتابع المارديني:

«تعرفتُ على الاستاذ أكرم الحوراني في منتصف الأربعينيات بعد نجاحه في الانتخابات، وعزمه على تأسيس جريدة ناطقة باسم الشباب الطليعي في سوريا. فاختارني من دون الشباب الذين تعرّف إليهم للعمل معه في الجريدة التي أصدرها باسم (اليقظة) وكان أصحابها ثلاثة نواب شبان جاؤوا إلى المجلس النيابي تحدوهم الحماسة لاقامة حركة تقدمية جديدة تختلف عن الحركات السياسية التي كانت سائدة في حينه وهم: (نائب حماه رئيف الملقي، ونائب دير الزور قاسم الهندي، ونائب حماه أكرم الحوراني) وظهر العدد الأول من الجريدة وفي افتتاحيتها توقيع الثلاثة، ولكن سرعان ما دب الخلاف بينهم بسبب تطرف الحوراني وحماسته للاشتراكية. في البداية انسحب الهندي، ثم تبعه الملقي،

وظلت الجريدة للحوراني يديرها وفق أهدافه الاشتراكية وتطلعاته التقدمية.

«كان أكرم الحوراني يلح في مقالاته في (اليقظة) على نظرية الأرض، التي تكوّن الأمة، فلم يخْفَ علينا نحن الذين تعاونا معه على أنه متأثر بآراء الحزب السوري القومي (الاجتماعي)، وكان يهيمن على المجموعة الشابة التي التفّت حوله ومعظمها من مدينة حماه وريف اللاذقية. لم يكن في تلك الفترة على شيء من الصورة التي أخذها عنه الناس فيما بعد، وقليل هم الذين يعرفون أن الطابع الفكري كان غالباً عليها وان بلدته ومن التفّ حوله فيها من الشباب اتخذوه قائداً لهم. وقليل يعرف أنه يحب الشعر ويرويه، وكان شاعره المفضل المتنبي، وكنا نسميه (مجنون المتنبي).

«كنتُ أطالع مقالاته قبل دفعها إلى أسنان المطبعة، كان يبدو عليه صفاء الذهن والعنف، وهما شيئان قلّما انسجما معاً. خُيل إليّ وهو يناقشني في أفكاره أن بذور جنوحه عن عقيدة الحزب السوري القومي (الاجتماعي) واضحة. وجدت في ضحكه القليل توتراً يخفي طاقة كبيرة وقلقاً عصبياً»[٤٩].

وعن نشاط الحوراني البرلماني قال المارديني:

«مواقفه التمردية في البرلمان وقسوته في الهجوم على رجال

(٤٩) نفسه

الرعيل الأول، وقتاله الضاري ضد الرجعية ميزته عن أقرانه في المجلس النيابي، وأخذ نجمه يلمع وتتسع حركته في مدينته، واستطاع في زمن قليل أن يكون المتكلم باسم أبناء ريف اللاذقية وحماه، كما استطاع أيضاً أن يجمع حوله كل النقمة الشعبية التي كانت سائدة في الريف الشمالي مخلصاً لها، ناقماً بضراوة على وضعها الاجتماعي الشاذ.

«خاض المعركة ضد أبناء المدن المتسلطين على الحكم بلا هوادة، وبشجاعة توسّعت حركته في المنطقة بشكل مذهل، وتميزت بنشاط الذين يعملون بلا كد والذين يغلب عليهم التفكير العملي الواقعي، لم يتركوا وسيلة إلا لجأوا إليها للتقرب من الفلاحين، وقطعوا الطريق على المتنفذين الذين بنوا سلطتهم على الوساطات في دوائر الدولة واستخدامها فسدّوا عليهم المنفذ الرئيسي بالكشف عن فضائحهم في الجريدة»[٥٠].

عندما كان الاستاذ أكرم الحوراني يشق طريقه إلى المجلس النيابي، كان الاستاذ ميشال عفلق يعاني عقدة الفشل المتكرر. الأول جذّر علاقاته مع الفلاحين والمسحوقين، والثاني علّق آماله على الطلاب القادمين إلى دمشق من كل اتجاه سوري وعربي. ونجح الحوراني حيث ظل عفلق يراوح

(٥٠) نفسه

مكانه، ما حتّم الدمج بين الحزبين: «البعث العربي» و«العربي الاشتراكي»، على أمل أن يختصر «الرفاق» ـ «الاساتذة» الطريق إلى السلطة، ويقضوا على جميع خصومهم بأقل التكاليف. ولكن الذي حدث أن «الاساتذة» أضافوا، بهذا «الزواج» السطحي المرتجل، إلى نكباتهم نكبة أخرى، ليذهبوا، بعد عقد من السنين، تحت كل كوكب، ولو كل واحد منهم كُوي على داءٍ ما كَرِهَ.

- ٣ -

الحِزبُ المُمزّق

اللغز

يقول الدكتور جوزف الياس: «صحيح ان البعث حزب الطليعة العربية، لكنه حزب مخصاب ولود، عرف كيف يفرّخ أحزاباً وكيف يتمزق أجنحة، وهو مستمر في العطاء»[٥١].

سألت نفسي وأنا أطالع هذه الكلمات: لماذا البعث مخصاب وولود هكذا؟ ثم كان مني التعليق التالي: اذا كان البعث مذكّراً أو مؤنثاً، فلا بد له من مكمّل طبيعي خارجي، لأن الخصب والولادة أمران عضويان لا فائدة منهما إذا انتفت العلة أو تعذّر وجودها. فمن هو ذلك المكمل الذي جعل البعث على هذه الحال؟ وتالياً، ألم يتعب البعث من «العطاء»؟ وإذ لم أجد جواباً عن أي من هذه التساؤلات

(٥١) «النهار»: ١٩٨٩/٨/٢، العمود الثالث.

الواهية واليائسة، عدت إلى البيان المرصوص: «عرف (البعث) كيف يفرّخ أحزاباً وكيف يتمزق أجنحة»، علّي أجد له تفسيراً معقولاً مقبولاً، ومن أسف أن الحظ خانني هذه المرة أيضاً، فانطلقت أسأل المعاجم والقواميس أن تسعفني على الأمر المعقّد والخطير ولكن عبثاً.

- حزب مخصاب!
- حزب ولود!
- حزب عرف كيف يفرّخ أحزاباً!
- حزب عرف كيف يتمزّق أجنحة!

ولكن ألا يلغي فعل «عرف» - هنا - وجودَ العامل الخارجي، الذي يلقّح أو يمزق؟ وفي عدم وجوده كيف يمكننا - عندئذ - حل اللغز؟ بل كيف يمكننا القول ان هذه الوظيفة الطبيعية «التكاملية»: التفريخ أو التمزق، قد تمت بدون علة أو سبب؟

أيضاً، الطريق إلى الحل مسدود، والبيان - بيان الدكتور الياس - مثل مصباح علاء الدين الذي يمتّع صاحبه بكل رغائبه، فاما نعم واما لا. ذلك أن الدكتور الياس يخاف من الأسئلة والتساؤلات التي تفرض الأجوبة «العسيرة» و «القاتلة» على حسب قوله.

نحن، اذن، مرغمون على تجاوز الشكل إلى الجوهر حتى

يسمح الزمان، الذي نأمل أن لا يكون بعيداً، للدكتور بأن يقول كل ما يعرف وكل ما يريد.

في الحقيقة، وُلد البعث ممزَّقاً بل أجنحة وتيارات متباينة متشاكسة، يود كل منها لو يأخذ بناصية صاحبه. ومهما تظاهر «الأساتذة» ـ «الرفاق» بالتوافق والانسجام والتناغم، فان ما حَدث قد حدث، وليس مطلوباً منا دائماً أن نحدّث بالظفر وبلوغ الآمال فيما كل شيء حولنا يدعو إلى الخيبة واليأس والقنوط.

الحزب الانقلابي

كانت سوريا تعيش مع الانقلاب الثالث، الذي أطاح بأمر من العقيد أديب الشيشكلي اللواء سامي الحناوي، عندما كتب «الأستاذ» ميشال عفلق مقالته: «المستقبل». ولكن أي مستقبل؟

هل كان «الاستاذ» آنذاك يترسم الطريق الصحيح، أو هو كتب للكتابة فحسب؟

في دمشق وكل سوريا خبءُ العسكر يُخرج خبءَ السياسة. أما «العفلقيون»، أما «الأرسوزيون»، أما «اللاعفلقيون» و «اللاأرسوزيون»، من البعثيين، فالنار في قلوبهم، ولا من يملك الفرصة والعدة والحظ بل القلق والصمت والانتظار.

قال «الاستاذ»:

«ليس بيننا وبين المستقبل الذي يتحدث عنه البعث العربي والذي هو موضوع عملنا ونضالنا زمن حسابي يُقدَّر بالأشهر والسنين.

«انه زمان نفسي نستطيع أن نحققه منذ الآن وأن نملكه فنملك به الخلود.

«ليس المستقبل هو الزمان الذي سيأتي، فأبطال العرب لم يخلدوا لأنهم أتوا بأعمال عظيمة، بل انهم أتوا بأعمال عظيمة لأنهم آمنوا بالخلود. فالمستقبل هو المستوى النفسي والفكري الذي علينا أن نصل إليه في الوقت الحاضر.

«لسنا بحاجة إلى سنين ولا إلى أشهر، فقد يصل المرء إلى هذا المستقبل في ثانية واحدة، عندما يدرك الفرد ذاته المثالية ويعي ويصمم.

«فالمستقبل الذي يمثله البعثي هو الصورة عن حياة امتنا عندما يتحقق البعث، عندما يتحقق الانقلاب العربي. انه صورة الأمة العربية في حياتها السليمة المقبلة، فعلى هذه الصورة أن تتحقق منذ الآن في البعث العربي حتى ينجح»[٥٢].

(٥٢) عام ١٩٥٠، «في سبيل البعث» ـ دار الطليعة ـ بيروت، طبعة ثالثة ١٩٦٣، ص ٣٥.

وكمن يقطع الطريق على الاسئلة من كل نوع والمتسائلين، قال «الاستاذ»:

«إنّ بيدنا أسلحة كثيرة وقوى كبيرة هي قوى المبادىء التي نعمل لها ونحيا من أجلها، وقوة النظام، ولكن ثمة قوة تفوق كل القوى الأخرى هي أن نجسّم للأمة مستقبلها، وأن نحقق هذا المستقبل منذ الآن وأن نحياه بيننا.

«فلن نقول للعرب انكم ستصلون إلى الحياة الموّحدة الحرة الاشتراكية، وبكلمة واحدة، للحياة البعثية، في المستقبل عندما يتحقق البعث العربي، وانما نقول لهم: هذه هي صورتها منذ الآن. هذه الحياة التي تزول فيها الفروق الاجتماعية والحواجز الاقليمية والنعرات الطائفية، وكل اثر للعبودية والمصلحة الخاصة والجهل والتقليد. عندها سيأتي المستقبل الينا، وينمو فينا ولا يعود شيئاً منفصلاً خارجاً عنا»(٥٣).

وفي العام نفسه، أكثر «الاستاذ» من الكلام عن الانقلاب، فكتب المقالات التالية: «حزب الانقلاب»(٥٤)، «البعث العربي هو الانقلاب»(٥٥)، «التنظيم الانقلابي»(٥٦)،

---

(٥٣) نفسه

(٥٤) نفسه: ص ١٥٣/١٥٨.

(٥٥) نفسه: ص ١٦٣.

(٥٦) نفسه: ص ١٦٤/١٦٦.

«الزمن والحركة الانقلابية»(٥٧)، «الصلة بين العروبة والفكرة الانقلابية»(٥٨)، «من معاني الانقلاب»(٥٩) «حول الانقلاب والقدَر والحرية»(٦٠)، مؤكداً في جميعها أن «الانقلاب طريق إلى الغاية المنشودة، إلى المجتمع السليم الذي ننشده»(٦١).

وحيث يفرّق «الاستاذ» بين البعث العربي والشيوعية يقول:

«ان الانقلاب هو تبديل أساسي للواقع، والمستقبل يجب أن يكون مناقضاً لهذا الحاضر. ولكن هل نبدع المستقبل إذا تجاهلنا الحاضر وسددنا كل طريق يصل بيننا وبينه حتى نؤثر فيه ونبدّله؟ ان هذا هو ما يميزنا عن الحركات الدخيلة التي هي حركة انقلابية أيضاً ولكنها لا يمكن أن تستند اليها حركتنا، لذلك لا يمكن أن تتفاعل مع نفوس أفراد أمتنا، ولا أن تجد لها أي جذر في أرضنا، فهي تبقى مصطنعة لا يُقدّر لها النجاح لأنها لا تعرف روح الأمة ولا تلمس حاجاتها، حائرة لا تعرف الطرق التي تحقق بها فكرتها، وهي كحركة غريبة اقتصرت على اعتبار الواقع فاسداً يجب تبديله، وأتت

---

(٥٧) نفسه: ص ١٦٧/١٦٩.

(٥٨) نفسه: ص ١٧٠/١٧٥.

(٥٩) نفسه: ص ١٧٦/١٨١.

(٦٠) نفسه: ص ١٨٢/١٨٥.

(٦١) نفسه: ص ١٧٨.

بحل عام لا صلة له بواقعنا بل وضع لمختلف المجتمعات»[٦٢].

ودائماً البعثيون مميزون ومتفوقون، ولا أحد يشبههم مهما حسنت نيته واستقامت أفكاره وصحّت تطلعاته، فلنسمعه يقول: «اننا نعرف بين هذه الفئة القليلة من الانقلابيين الذين تضمهم حركة البعث العربي هم قلة في الظاهر، قلة في البدء، ولكن صفتهم القومية الصادقة تجعلهم صورة مصغّرة وسباقة لمجموع الأمة»[٦٣]. لذلك «نحن (ونحن فقط) نمثل مجموع الأمة الذي لا يزال غافياً منكراً لحقيقته ناسياً لهويته، غير مطلع على حاجاته»[٦٤]، أي «نحن سبقناه فنحن نمثله»[٦٥]، ولا بد من أن يكون «بيننا وبينه تجاوب عميق، حتى عندما نتصارع، حتى عندما يُبطش بنا»[٦٦]. بل «هو منسجم معنا لأن طريقه هو طريقنا الآن، وان لم يدر في الوقت الحاضر فسيعلم ذلك في المستقبل»[٦٧].

هل كان «الاستاذ» يعلم أنه هو أيضاً منقَلَب عليه ذات يوم ومن بعثيين لا من سواهم؟

---

(٦٢) نفسه: ص ١٧٠.
(٦٣) نفسه: ص ١٧١.
(٦٤) نفسه: ص ١٧٢.
(٦٥) (٦٦) (٦٧) نفسه

ألم يجعل حسني الزعيم أيضاً الأرض مخصاباً، والنفوس التواقة إلى السلطة عاشقة للانقلابات بطريقة أو أخرى؟

كيف يُربّي «الاستاذ» محازبيه على الانقلابات، والوجع الذي أحدثته له رسالته إلى «الزعيم»[٦٨]، أول الانقلابيين السوريين في العصر الحديث، ملء عقله وروحه؟

يقال ان «الاستاذ»، «القائد» و«المعلم» و«الفيلسوف» لم يكتب هذه الرسالة وانما أكره على توقيعها؟ وسواء صحّ هذا القول أم لم يصح، فان تكثيفه الحديث عن الانقلاب والانقلابيين الذين «تضمهم حركة البعث العربي» لمن الأخطاء القاتلة والمدمرة، وهذه كان ينبغي له، وهو «القائد» و«المعلم» و«الفيلسوف» أن يتجنبها بل أن ينساها وإلى الأبد.

الأحداث في سوريا تتسارع، والصراع على السلطة يأكل الأخضر واليابس وغيرهما. وكما في سائر الأحزاب السورية كذلك في البعث. وهبّت على البعث عواصف الانقسامات من كل اتجاه، ذلك أن جميع أبوابه ونوافذه مفتوحة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ومن تحت ومن فوق، وليس من قائل:

---

(٦٨) نشر هذه الرسالة الدكتور جوزف الياس كاملة في الجزء الثالث من مقالته، رده علينا، «النهار»: ١٩٨٩/٨/٤.

ما يأتي مجاناً يذهب مجاناً!

المهم أن التضخم، الذي كان هدف «الأساتذة» ـ «الرفاق»، أصاب كبد الحزب وقلبه وعقله، وعطلت «الشمولية»، التي طالما دغدغت صدر «القيادة التاريخية»، حاستي السمع والاستيعاب عند «القيادة» نفسها، ففاتها أن الانتشار الشامل والتغلغل والتسييس الشاملين أمور لا يمكن ارتجالها أو اللعب بها مثلما الساحر يلعب بأدواته المعدّة للعمل «الخارق» و«المثير». وفاتها كذلك أن من كان بيته من زجاج أو حتى من صخر يجب الا يرشق بيوت الآخرين ولا بالورد، وأنّ الذي يبني قصوره وقلاعه بحجارة غيره لا بد أن يأتي من يضع يده على هذه القصور وهذه القلاع ويخرجه منها قسراً وربما بثياب النوم، ويتركه يجتر الماضي ويبكي عليه بكاء النساء.

القشّة التي قصمت الظهر

في هذه المرحلة، مرحلة الانشطار البعثي الممتدة بين خروج الشيشكلي من سوريا والوحدة السورية ـ المصرية، تَمّ انسحاب العضو القيادي الثالث: الاستاذ جلال السيد، فكان انسحابه بمثابة القشّة التي قصمت الظهر. وإذ ذاك بدأ التفسخ في «الجسم البعثي» المتعدد الرؤوس والقلوب والأيدي والأقدام. وظهر أن «المؤسسين» لا يعرف بعضهم

البعض إلا على التقريب، كما يُستَدَلّ من الخلاف الذي وقع بين بعض القياديين من جهة والاستاذ السيد الميّال الى الاتحاد مع العراق على راي بعضهم من جهة. ذلك أن السيد نُسب إليه الاقطاع والتقاعس في العمل القومي وحب السيطرة والتسلط، كونه أعلن حل فرع الحزب في بلدته: دير الزور موقتاً ليعاد تنظيمه من جديد. وهو (السيد) فعل هذا لمحو آثار صدام حصل بين أعضاء حزب البعث وبين السُوريين القوميين الاجتماعيين في دير الزور أدى إلى مقتل شاب من الفريق الثاني، وكان من المحتمل لولا هذا التدبير الموضوعي أن يثير حادثُ القتل المشاعر الحادة ويحفز على المناوأة ويحرض على العداء والاستمرار في التقاتل. ولندعْ الاستاذ السيد، وإن كنّا لا نبرئه من مسؤولياته، يحدّثنا عن هذه الأزمة ـ القشة التي هدمت ما هدمت من «الكيان» المبني على عجَل ومن الزجاج الشفاف. قال السيد:

«... وهرع عدد من أعضاء الحزب (في دير الزور) إلى دمشق واستعْدوا القيادة على هذا القرار (حل فرع الحزب) وصبّوا عليّ اتهامات كثيرة لقيت عند بعض المغرضين قبولاً فروجوا لها حتى بلغت قريباً من حد اليقين». أضاف: «قالوا انني اقطاعي، وأنا عندما أنفي هذا فما أنفيه إلا لأنه غير واقع. ولست أستحي أن أكون مالكاً قد ورثتُ عن أبي قرية أو مزرعة كبيرة، فالملكية كانت مباحة مهما تكبر مساحة الأرض المملوكة، بل انها كانت مستحسَنة من جانب

المجتمع . والقانـون يسهّلها للنـاس ويحثّهم على التملك لأن التملك كـان يعني العمل الـزراعي والانتـاج . وكـانت نـظرة النـاس إلى المالكـين نظرة احـترام وتقديـر . ولا تزال رواسب هذه النظرة باقية إلى اليوم بالرغم من ظهور المفاهيم الجديـدة والتيـارات الاشـتراكيـة ومـا إليهـا . والاقـطاع يعني الملكيـة الـواسعـة إذا لم نقـل انـه يعني أمـوراً أخـرى مثـل السيـطرة السياسية والـطغيان الاجتـماعي والترف والـترهل النـاجم عن الجمود والتقاعس في العمل القومي» .

ويتابع السيد : «فالاقـطاع المنسوب إليّ خـرافة . والأمـر لا يحتـاج إلى دليل فـدليله منه كـما يقول المثـل . فانـا الاقـطاعي الكبير لم أكن مشمولاً بقـانون الاصـلاح الزراعي حتى بعـدما ضيّق الملكية وقلّصها وجعلها خمسين هكتـاراً في الأراضي التي نعمـل فيهـا ، أي عـلى ضفـاف نهري الفـرات والخـابـور . والاصـلاح الزراعي هـو الـذي فضح هؤلاء وبـينّ زيف مـا زعموا .

«وفي هذه المناسبة تذكـرتُ قصة خـلال الثورة الفـرنسية . فقد كان كـما هو معـروف في فرنسـا طبقتان ، طبقـة الأشراف وطبقـة الشعب . وطبقـة الأشراف تملك الأراضي في الغـالب الراجح . وكانت موجة الحرية والمساواة هي العـارمة بـين كل الأمـواج . وقد قـام أحد الأشراف في الجمعيـة الوطنيـة ودعـا

طبقتـه إلى التنـازل عن أراضيهـا وكـان اسمـه «جـان» . واستحسن النـاس قـولـه واعتـبروه من المضحّـين في سبيـل الشعب . ولكن تبـين عند البحث أن جـان هذا لم يكن يملك أرضاً وانما ورث المنـزلة الاجتـماعية ولقب الشرف عن الآبـاء والأجـداد فسمّـوه يـومئـذ Jean Sans Terre أي جـان بـلا أرض . ولعـل الشباب الـذين نسبـوا إلي الاقـطاع يعتـبرونني اقطاعياً بلا أرض . لكن هذه الخرافة قـد لقيتْ لها سـامعاً في مركز القيادة» .

وقـال أيضاً : «ففي يـوم ذهبت إلى مكتب الحزب لأسمـع سؤالاً من أحد الحضور ، وكان عدد من القيـاديين والاعضـاء يجتمـع في المكتب ، سؤالاً عن أرضي وملكيتي وحقيقتهـا ومـا يقـال حـولهـا . فعجبت من السؤال وتبـاطـأت في الاجـابـة استهتـاراً مني بـالسؤال الـذي عـرفت دوافعـه . فـما كـان من الاستاذ ميشال عفلق إلاّ أن تصـدّى للجواب جـواب العارف وهو قد نفى طبعاً هذه الشائعة وقال عنها انها مغرضة . فكـان عجبي أكبر مما سمعت من السيد عفلق ، فسألته ومن أين لك أنت بهذه المعلومات ، فقال لقد سألت الضابط «فلانا» الـذي يشغـل منصب مديـر العشائـر في الجزيـرة فمدّني بـالحقيقـة . فقلت لـه : والله لقد أزعجني دفـاعك أكـثر مما أعجبني سؤال الآخـرين . فهذا يعني أنـك قمت بتحقيق وتحـرٍ واستقصـاء .

فقال قمت بتحقيق لأكون على مقدرة بتصحيح الخبر وليس لي قصد آخر. فأنا أعرف جلية الأمر قبل المعلومات الجديدة ولكن المعلومات الجديدة هي رسمية ولا يمكن دحضها أو الرد عليها»(٦٩).

واتهم السيدَ خصومُه البعثيون بالرأسمالية وبضرب الفلاحين بالسياط حتى «يُسمع صراخهم على بعد مئة كيلومتر»(٧٠)، وباستغلال نفوذ الحزب لمصلحته، ما دفعه إلى الاستقالة في ٢١ آب ١٩٥٥، وحسب الرسالة التالية:

«دمشق في ٢١ آب ١٩٥٥.

إلى حزب البعث العربي الاشتراكي بواسطة:

حضرة الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي الموقر.

ظهرت بوادر خلاف بيني وبينكم في وجهات النظر، في ما يتعلق بالقضايا القومية والاجتماعية والخُلقية، ولما لم أستطع تصحيح الخطى وفقاً لارائي ومعتقداتي فاني لم أجد بداً من الانسحاب من الحزب. وآمل أن تبقى علاقات الود قائمة بيننا رغم الانسحاب.

---

(٦٩) جلال السيد: البعث العربي، دار «النهار» ١٩٧٣ ص ١٣٣/١٣٤.

(٧٠) نفسه: ص ١٣٥.

«تعلمون يا حضرة الأمين أني ضحّيت بكل شيء في سبيل صنع الحزب ورعايته فلما شبّ الحزب وترعرع تبين لي أنه أتى على غير الصورة التي رسمتها وعلى غير المثال الذي مثلته في خاطري.

«ان انساناً متجاوباً مع حاجات أمته مرهف الحس يستطيع أن يتصوّر ما يعتلج في نفسي من حرق الآلام لهذا الانسحاب. ولكن القدر لا يُغالب.

«وختاماً أرجو أن يسدّد الله خطاكم ويلهمكم من أمره رشداً والسلام عليكم.

جلال السيد»(٧١)

حزب التناقضات

قد يكون النزاع الذي وقع بين الاستاذ جلال السيد وأعضاء الحزب في محافظة الفرات عجّل هذه الاستقالة، ولكنه ليس السبب الوحيد كما يعتقد بعضهم. والحق أن أموراً كثيرة وخطيرة فرضت ما كان لا بد منه، وقد كشف السيد عن بعضها حيث قال:

«١ - لمستُ وكأنما في داخل الحزب تآمر من فئات ضد فئات ومن جناح ضد جناح، وهذا أمر لا يتفق مع مصلحة

---

(٧١) نفسه: ص ١٣٩/١٤٠.

الحزب ولا مع مصلحة القضية القومية التي نذر الحزب نفسه لها. كما أن هناك تحالفاً من جانب فئات حزبية مع عناصر من خارج هذا الحزب ضد فئات حزبية أخرى. وفي هذا خروج واضح على سلوك الحزب ونظامه الداخلي وتحطيم لمثله وأهدافه. وكان واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أن التماسك أصبح مفقوداً في الحزب وأن أموراً يجري تبييتها في الظلام لتنقضّ فئة على فئة في الحزب، مما دعا الاستاذ عفلق في أوقات كثيرة أن يقترح فصل عميد هذه التحركات اللاحزبية.

٢ ـ لقد انسجم الحزبيون مع الشيوعيين وساروا في تيارهم اللاقومي. ومضغوا الاشتراكية الماركسية ارضاء للشيوعيين وتناسوا كل حديث عن العروبة والقومية والوحدة العربية وتحالفوا مع الشعوبيين وساروا في ركابهم. والمراقب يومئذ لا يستطيع الحكم على حزب البعث بأنه عربي وانما هو منظمة سياسية من المنظمات الشيوعية التي تحمل أسماء غير الاسم الشيوعي كالشبيبة الديموقراطية أو أنصار السلام أو ما هو في معنى ذلك. وتغلب السلوك السياسي وركدت النزعات المثالية.

٣ ـ وتخلّق الحزبيون بأخلاق الشيوعيين وتنحوا عن الخلق العربي الأصيل الذي هو التراث الثمين، مثل الوفاء والايثار

والمروءة والنخوة والنجدة والبذل وما هو قريب من هذا. ووقف هؤلاء الحزبيون موقف العدو من كل مواطن لا يدين لهم أو لا يسير وفق مناهجهم وسلوكهم.

واستباحوا دم الخصوم من المواطنين إذا لزم الأمر ذلك. والدافع العضوي إلى استباحة قتل المواطن هو القناعة بأن هذا المواطن ليس من أنصار الفرد الحزبي لا اليوم ولا في المستقبل، فالتخلص منه تخفيف للاعباء عن كاهل الحزبيين. أما الذين يتملكهم الأمل والتفاؤل وبان مصير هذا المواطن النهائي سيكون مع تيار الحزب القومي فانه لا يسمح بسفك دم المواطن أو التفريط به.

ويمكن أن يوصف موقف الحزبيين من المواطنين مثل موقفهم من الأجانب اعداء الأمة العربية. والمفروض في الانسان الذي يتمتع بكافة الخصائص الانسانية أن يكون رحيماً حتى بالاعداء فضلاً عن كونه رحيماً بابناء أمته ووطنه. وهذا سلوك قد شقّ الحزب شقين لا من ناحية الفلسفة الحزبية ولكن من ناحية الخلق والسلوك.

٤ ـ وسلك الحزبيون مسالك المحاور القومية فتحالفوا مع دول عربية ضد دول عربية أخرى. وما قول القارىء بحلف يقوم بين جماعة اشتراكية وبين دولة يصفها هؤلاء الجماعة بأنها بؤرة الرجعية والتخلف ومرتع الرأسمالية العربية، ويجر الحلف

إلى تعاون واتفاق في بعض الأمور السياسية المحلية، كانتخاب رئيس الجمهورية أو علاقة مع دولة عربية أخرى لا تتمتع بعطف تلك الدولة وما يشبه ذلك من سلوك.

وما قول القارىء بحلف يقوم بين الاشتراكيين وبين زعماء القبائل وكبار ملاّك الأرض في مجلس النواب لتحقيق أغراض معينة»[٧٢].

هذه الأمور وغيرها أكدت للاستاذ جلال السيد، نكرر قولنا اننا لا نبرئه من مسؤولياته، «أن حزب البعث قد «تدوّل» ولم يعد ملك أهله في داخل الوطن، وان تحركاته تتأثر كثيراً أو قليلاً بأطراف تلك الأحلاف الداخلية أو الخارجية»[٧٣] التي المح إلى كثير من عناصرها. وكان من الطبيعي والحالة هذه أن يسير البعث «في طريق مسدود»[٧٤]، و «كأنما هنالك يدٌ خفية تزيّن للبعث مثل هذا السلوك لتنصبّ عليه النقمة وتستطيع تلك اليد بعد ذلك أن تنهي وجوده»[٧٥] وتقضي عليه قضاء تاماً.

وفيما الصراع بين الأحزاب السورية يحتدم ويتفاقم، رغم خروج الحزب السوري القومي الاجتماعي ورئيسه الاستاذ

(٧٢) (٧٣) نفسه: ص ١٣٧/١٣٨.
(٧٤) نفسه.
(٧٥) نفسه: ص ١٣٩.

جورج عبد المسيح من دمشق وكل سوريا، عاد «الاستاذ» ليكتب في موضوع الانقلاب البعثي، حين المسافة بين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ودمشق تكاد تكون أقصر من تلك التي بين حي الميدان وحي الأزبكية الدمشقيين والأزبكية أصبح فيها بعد المقر الجديد لـ «الاستاذ» اذ اتخذ لنفسه شقة شهدت ما شهدت من الأعمال السرية و «المسرحيات» التراجيدية.

نيران كثيرة

في عام ١٩٥٧، وتحت عنوان «علاقة التنظيم بالعمل الانقلابي» كتب «الاستاذ» ما يلي:

«تعلمون أن مرحلة الانقلاب في حياة الأمة، هي المرحلة التي يكون التشويه والانحراف قد طرأ على مختلف الأوضاع فيها، ليجعلاها متناقضة مع مصلحة الشعب متعارضة مع التقدم والنهضة والانبعاث القومي. وتمكن الفساد والتشويه والانحراف وانتشاره يحدث هزات في حياة الشعب، ويخلق نوعاً من الاضطراب والشعور بالحاجة إلى تبديل الأوضاع ومقاومة الفساد. ولكن هذا الشعور لا يتبلور بشكل واضح واعٍ، إلاّ عن أقلية من أبناء الشعب (؟) تدرك واقع أمتها وتصمم على تبديله وتتقدم الصفوف للنضال في سبيل قلب هذه الأوضاع وتغييرها، وتتجه إلى الشعب لتنقل إليه وعيها، عاملة على تنبيهه وتثقيفه وتوضيح واقعه له، جاهدة لتسير

بالشعب في طريق النضال المنظم».

أضاف: «ان التنظيم الانقلابي الذي نحتاجه ولم نبلغ بعد مستواه، يتطلب انقطاع أفراد للعمل الحزبي انقطاعاً تاماً، ليجعلوا من العمل الحزبي الانقلابي شاغل حياتهم، منه يعيشون ويكسبون رزقهم، وفيه يضعون جميع امكانياتهم وكفاءاتهم وآمالهم وطموحهم. وبمثل هذا وحده، يمكن أن تنشأ عند هؤلاء الأفراد، خبرة قومية نضالية عربية نتيجة الاستمرار الطويل والدأب والممارسة ومواجهة المشاكل يومياً، والوقوع في الأخطاء الكثيرة وتصحيح هذه الأخطاء بالتجربة والممارسة والمراقبة، والاتصال اليومي المباشر بحياة الشعب والتعرف إلى مشاكله والصلة الدائمة بحياة الحزب ومعاناة كل مشاكله وقضاياه للخروج من كل هذا بخبرة جديدة في كل يوم وكل سنة».

وعندئذ «يستطيع الحزب أن يخلق أفراداً يكونون في البدء آحاداً يصبحون عشرات ثم مئات وألوفاً، ويكون لكل فرد من هؤلاء بنتيجة هذه الممارسة وهذا الايمان الذي تعزّز بالعمل النضالي المتواصل من الخبرة والكفاءة ما يعدل ألفاً ويستطيع أن يخلق الحركة والحياة في ألف آخرين وأن يكون مصدر إشعاع وتوجيه ووعي وقوة لمجموع الشعب»[٧٦].

(٧٦) في سبيل البعث: ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

ثم كانت الوحدة السورية ـ المصرية التي لعبت «القيادة التاريخية» لحزب البعث دوراً بارزاً ومهماً في تحقيقها، كما بيّنا في ما سبق، وكان حلّ الحزب في سوريا وما نجم عنه من مضاعفات وضعت البعثيين، بكل أجنحتهم وتياراتهم وارتباطاتهم وعلاقاتهم مع الآخرين، بين نيران كثيرة بعضها تحت الرماد وبعضها بدأ يشتعل. واعتبر «الاستاذ» هذه الوحدة «ثورة تاريخية»[٧٧] هيأت لها الأيام والظروف المؤاتية من جهة، والارادات القومية والشجاعة التي من أبرزها وأشجعها الارادة البعثية من جهة. يقول «الاستاذ»:

«ان ما تحقق للعرب في هذا الظرف هو نتيجة ثورة وبداية ثورة، هو لا شك ثمرة لهذا النضال الطويل الذي بدأ قبل حركتنا بزمن، ولكن حركتنا بدأت مستوى جديداً في الفكر والعمل، هذا النضال هو مستوى ثوري يختلف عما سبقه. هذه الوحدة التي هي ثمرة النضال الماضي ستكون بدورها بذرة قوية ومحركاً قوياً لثورات متعاقبة، وقد يختلف نوعها أو مظهرها عن السابق حسب درجة النمو الذي بلغته الحركة العربية الثورية، فعلينا أن نقدر هذه الخطوة حق قدرها، وأن نعرف السهل والصعب فيها، وأن نأخذ مكاننا في قلب

(٧٧) عنوان مقالة كتبها «الاستاذ» في ٢٣ شباط ١٩٥٨، المصدر نفسه: ص ٢٦٦،

المعركة لأن المعركة لم تنته بعد»[٧٨].

التجربة ـ السيف

وسبق لـ «الاستاذ» أن قدّم لهذا القول في مقالة عنوانها: «وحدة سورية ومصر» منها:

«إذا كان العرب قد حققوا بنضالهم وحدتهم في الجمهورية العربية المتحدة، فان هذه الوحدة التي حققوها لا يرون فيها إلا خطوة، وان الآمال لتبدو أقرب منالاً، وأقرب إلى الواقع وأكثر حقيقة من قبل، ولو أن الذين يعيشون في قلب المعركة في أي قطر من الأقطار لا يؤثر فيهم الزمن، فالنضال يشق حجة الزمن ويكشف عن المستقبل للمناضلين المؤمنين وينقل المستقبل إلى الحاضر، ويريهم حقيقة أمتهم، ولو أن كثيراً من الحجب الكثيفة والأمراض تشوّه وجهها، ولكن النضال يعطي الثقة للنفس ويصفي النفس ويطهر الحقيقة ويتيح للمناضلين بأن ينقلوا هكذا ايمانهم إلى العدد الأكبر»[٧٩].

بيد أن «الواقع» جاء عكس ما اعتقد «الاستاذ» وتمنى. كانت التجربة سيفاً ذا حدين: أصاب البعث والوحدويين السوريين بحد، والرئيس عبد الناصر وجميع الذين يرون رأيه بحد آخر، ماحتّم الانفصال، في ٢٨ أيلول ١٩٦١، وظهور

(٧٨) نفسه: ص ٢٧١/٢٧٢.

(٧٩) نفسه: ص ٢٦٢.

كتلة عسكرية بعثية شديدة التماسك اتخذت المقررات السرية التالية:

«١ ـ تحديد مسؤولية حل الحزب (البعث) واعتباره غير قائم حتى ما تبع في الأقطار الاستاذ ميشال عفلق. لأن نواة الحزب وقواه الحقيقية هي في سورية، فان حله فيها يعني حل الحزب واعتبرت ان استمرار الاستاذ ميشال عفلق في أمانة الحزب لا معنى لها.

٢ ـ العمل بالنظام الداخلي، وفسح المجال أمام التطور الحزبي لوصول قيادات جديدة إلى القمة فلا تقطع الطريق عليها القيادات الدائمة، ورفض مبدأ الأبوة الحزبية (*١).

٣ ـ عدم التعاون مع من لا يدين بهذا الأسلوب.

٤ ـ عدم التعاون إلا إذا اقتضت الظروف المرحلية مع كل من تعاون مع نظام الوحدة.

٥ ـ انشاء الحزب من جديد»[٨٠].

جنون التفكك

صحيح أن الانفصاليين أعادوا إلى سوريا جزءاً من دورها كدولة في القلب العربي، لكن النار التي تحت الرماد ظلت

(*١) يعني هذا فصل الاساتذة عفلق والبيطار والحوراني من الحزب، باعتبارهم المسؤولين عن حله، وايجاد قيادات جديدة.

(٨٠) الاستاذ: ص ٢٤٢/٢٤٣.

تنتظر الرياح المؤاتية، رياح الثأر والانتقام. وسيطر «جنون التفكك»[٨١] على العسكر كما على السياسيين، ووُضعت المخططات من كل نوع، حتى كان اليوم الثامن (٨ ـ ٣ ـ ١٩٦٣)، وفيه انتزع البعثيون الوحدويون والاشتراكيون من يد الانفصاليين السلطة والقرار وما إليهما، ليزدهر موسم الضباط الذين منهم الغامض والأصفر الوجه: صلاح جديد، والذي يهجم على الخصوم مشياً: أمين الحافظ وسواهما. وتقرّب صلاح جديد ـ الذي تمرّد على قرار حل الحزب الصادر عن «القيادة التاريخية» أيام الوحدة ولم يمض على انتسابه للبعث سوى شهور، وكان برتبة ملازم ثانٍ في الجيش الأول[٨٢] ـ من «الاستاذ» ميشال عفلق الذي منحه ثقته وتأييده، دون أن يعرف ما الذي يخبئه هذا العسكري الأصفر الوجه لـ «الأساتذة».

من المؤكد أن حُبَّ «الاستاذ» لصلاح جديد مكّن الضابط الطموح من الوصول إلى أعلى المراكز، وقد عُيّن رئيساً لأركان الجيش، ثم سُرّح من الجيش ليعمل في الحزب، وصار الأمين العام المساعد والحاكم المطلق للحزب والحكومة والبلاد[٨٣]، والأمر أثار الشبهات والتساؤلات حول

(٨١) عنوان كتابنا القادم الذي يتناول الأحداث اللبنانية الراهنة.

(٨٢) الاستاذ: ص ٢٨٧.

(٨٣) نفسه: ص ٢٨٥.

هذا القيادي الجديد، فعنف الصراع بين القيادة القومية والقيادة القطرية، وقيل حيناً بين «الأساتذة» والعسكر، وحيناً بين «الأساتذة» و «التلاميذ»، وأحياناً بين «التاريخيين» و «المستقبليين»[٨٤]، إلى أن جاءت حكومة المرحوم الاستاذ صلاح الدين البيطار بشعارها: «عودة العسكر إلى الثكنات»، وهذا وافقت عليه القيادة القومية، فنشأت أزمة بين الحكومة والعسكر، بلغت ذروتها عندما وافقت القيادة القومية على إبعاد عدد كبير من ضباط التنظيم العسكري إلى الخارج[٨٥]، فسارع، حينئذ، صلاح جديد إلى القيام بعمل عسكري قوي وحاسم يضع حداً لسيطرة المدنيين الأقوياء والعسكريين الضعفاء، وتمّ له ذلك يوم الثالث والعشرين من شباط ١٩٦٦، ليأتي بعد خمس سنوات وبضعة أشهر الفريق حافظ الأسد ويأخذ منه بالقوة ما لم يستطع (جديد) الاحتفاظ به زمناً أطول، ليغيّر، فيما بعد، وجه التاريخ في سوريا، ويثير اعجاب خصومه قبل أصدقائه، ويكون شاغل العرب والعالم.

ومن الشقة الحديثة في الأزبكية، التي كان يحرسها مجندون بعثيون، أُخرج «الاستاذ» في منتصف ليل الثالث والعشرين من شباط ١٩٦٦، وتحت جنح الظلام، وسُهّل له السفر إلى بيروت، حيث التقط أنفاسه، ثم إلى باريس فإلى العراق.

(٨٤) نفسه: ص ٢٨٨.

(٨٥) نفسه: ص ٢٨٩.

وظهر الاستاذ الكبير زكي الأرسوزي الذي مكث في الظل طويلاً يعاني الاهمال والفقر والتشرد، وكأن البعث القومي العربي الأصيل قام من الموت ليطرد البعث العربي الاشتراكي المركّب والكثير الغلط؟!

ان هذه الانهيارات والانكسارات الفظيعة التي انتهى إليها البعث العربي الاشتراكي و«المؤسسون القياديون»، في نظر الدكتور جوزف الياس، خصب من «مخصاب»، وأولاد من «ولود»، وأشجار من «شجرة باسقة»، وأحزاب من حزب عرف كيف يمزق نفسه؟!

الخطبة المرثاة

لن ندّعي الرد على هذا «التفسير» القائم على «الاجتهاد» الشخصي جداً، بل نعود إلى «الاستاذ» ميشال عفلق نفسه، وتحديداً إلى خطبته الدمشقية الأخيرة التي ألقاها في مدرج جامعة دمشق، في الاجتماع الحزبي الخاص الذي حضرته فروع الأطراف كافة يوم الجمعة ١٨ شباط، أي قبل ستة أيام من انقلاب ٢٣ شباط ١٩٦٦ الشديد البرد والقرار والانتقام.

كانت هذه الخطبة مطوّلة وشاملة، وبرغم تسيّسها وبساطة انشائها وألفاظها ومرادفاتها، على قلتها، يمكننا، اعتبارها مرثاة، أو شبه مرثاة. ولربما كان «الاستاذ»، تلك العشية،

(٨٦) نفسه: ص ٢٦٧.

يندب حزبه وحظه من السياسة التي غلّبها على الأدب والفن فلم تحفظ له جميلاً، بل استمرت في تعذيبه حتى هجّرته من مدينته العظيمة: دمشق، التي منحته العاطفة والحنان والعزة دون أن يكلف نفسه عناء التحقق من شخصيتها وعمق تكاوينها الضاربة في التاريخ، ليموت ويدفن في تربة غير تربتها!

من هذه الخطبة ـ المرثاة التي تعتبر من «أخطر الخطب الحزبية التي ألقاها «الاستاذ» منذ قيام الحزب حتى ذلك التاريخ»[٨٧]، نقتطع الافتتاحية، أما التفاصيل فنتركها لمن يرغب في المزيد من الاطلاع. قال «الاستاذ»:

«عندما يمضي زمن طويل ولا يتيسر للقيادة أو لبعض القادة أن يجتمعوا بقواعد الحزب، ثم يُتاح هذا الاجتماع وفي ظروف عصيبة.. في ظروف تراكم الأزمات التي تتالت على الحزب يشعر الذي يريد أن يتحدث إلى القاعدة بأن عليه أن يقول كل شيء، وأن يعوّض عن الزمن الذي فات، عن الانقطاع الطويل الذي كان أحد أسباب التردي الذي أصاب الحزب، والتشتت في أفكار الحزبيين، والبعد عن أفكار الحزب وأخلاقيته... انني أشعر الآن بأن مواضيع كثيرة تُعد

(٨٧) نفسه: ص ٣٠١.

بالعشرات تلح عليّ بأن أشرحها وأوضحها لكي أقوم ببعض واجبي نحو هذا الحزب ولكي لا يبقى عذرٌ للحزب والذين ضللتهم الشائعات، وضللتهم أهواء وميول ومصالح لبعض الذين وُجدوا في قيادات الحزب أو في مراكز المسؤولية في السلطة».

أضاف: «لقد تبدلت صورةُ هذا الحزب وتبدلت نفسية أعضائه وإذا كان التعميم غير جائز فان هذا يصحّ على الكثيرين... تبدلت معالم هذا الحزب لا بل بُدّلت وفق مخططات وتصميم وعمل دائب، حتى يتحوّل هذا الحزب إلى حزب آخر في عقيدته وفي سياسته وفي تنظيمه وفي أخلاقيته، وزيادة في التضليل والإجرام بحق الأمة العربية احتفظ باسم الحزب... باسم الحزب الذي هو معروف لدى الشعب العربي منذ ربع قرن بوحدويته وثوريته ونظافته وبتميزه عن كل ما سبقه... حتى تطعن الأمة في أملها. في ثقتها بنفسها... في عقيدتها القومية الاشتراكية، ولكي يعمّ اليأس».

وقال «الاستاذ» أيضاً: «أريد أن يبدل هذا الحزب في تركيبه وعمله، وان يقال للشعب بأن البعض لجأ بعد وصوله إلى السلطة إلى تناحر على السلطة، وعلى الملذات، وعلى الرواتب. يستغرب بعض الرفاق من عبارة وردت في كلمتي

في القيادة القومية بأن يداً أجنبية قد امتدت إلى هذا الحزب. فلنحكم ضمائرنا: ان من غير المعقول أن يزيف هذا الحزب، وإلى هذا الحد بأيد عربية.

«بعد ذلك كيف نصدّق بأن هذا هو حزب البعث وبأنه لم يشوّه ولم توضع المخططات لتبديله لا كرهاً بالقادة وانما بناء على خطة جهنمية بضرب قضية الشعب العربي... فبتفكك هذا الحزب والاساءة إلى ماضيه وتراثه النضالي تضرب قضية الشعب العربي وهذا هدف الاستعمار.

«عندما نكون في اجتماع حزبي نرى نسبة غير قليلة تقدح في الحزب وفي قياداته وتاريخه وسياساته. تماماً كما يفعل الاعداء فهل هناك دليل أقوى وأسطع من هذا القول بأن الأعداء قد تسرّبوا إلى حزبنا ونفذوا إليه»[٨٨].

هكذا تكلم «الاستاذ» قبل أن يصبح «بغدادياً» و«مسلماً». فما بال الدكتور جوزف الياس يصر على القول ان

---

(٨٨) ميشال عفلق: نقطة البداية (أحاديث بعد الخامس من حزيران) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة رابعة، بدون تاريخ، بينما أُرخت الطبعة الثالثة (١٩٧٣)، ص ٢٠٧/٢٠٨، أيضاً: الاستاذ، للماردیني: ص ٣٠٢/٣٠٣.

البعث «مخصاب» و «ولود»، ويشهد له بأنه عـرف كيف يفرخ أحزاباً وكيف يتمـزق أجنحة، وهـو يعلم ـ مثلما نعلم نحن ـ أن هذه «الأحزاب» وهذه «الأجنحة» قـد كسّر بعضها البعض بحديد شهوة الحكم!

ميشال عَفلَق: "استاذ" متناقضات ومجاهَدَة

العدول الـذي أحزننا

يرى الدكتور جوزف الياس، ودائماً في معرض رده علينا، «أن عـدول الاستاذ ميشـال عفلق عن المسيحية إلى الإسـلام شأن يخصه وحده، وحسبه أن يكـون راضياً عـما فعل مقتنعـاً به».

بهذه الكلمات ردّ الكاتب على مجمل قولنا في إسلام عفلق، ولـم يذكـر شـيئاً عن التعارض المستمر بين الدين والعروبة، والـدين والدولـة، و «المذهب الالهي» والمـذهب الـوضعي أو الانساني.

نعم، لقـد أحـزننـا عـدول «الاستـاذ» عن المسيحيـة إلى الإسلام، بل أدهشنا، وجمّد حماستنا القومية، وقزّم عـروبتنا، وسفّه نضالنا من أجل الحرية، زمن يكـثر التنظير والتفكـير في قضايانا العليا: العروبة، المسيحية، الإسلام، الالحـاد. أما

مرد هذا الحزن وهذه الدهشة وما رافقهما من شعور بالفشل واليأس، فإلى مبادرة «الاستاذ» نفسه، وقد عهدناه مؤسساً أو أحد المؤسسين لحزب كان عندما فتح أبوابه للمواطنين من العرب «متسامحاً في نهجه الديني إذ فصل بين القومية والدين»[٨٩]، و «دخل فيه كثير من الأقليات الإسلامية ومن المسيحيين، وكان وجود قطب كبير في الحزب من المسيحيين جاذباً لهم ومشجعاً على الدخول في الحزب»[٩٠]. على أن هؤلاء واولئك المنتسبين من الأقليات «لم يكن لهم مكان قبل حزب البعث في الحركة الوطنية والقومية، بل كانت تلك الحركة تكاد تكون وقفاً على الأكثرية من أهل السنّة»[٩١].

وها هو القطب الكبير، المؤسس الكبير، يموت مسلماً، ليموت معه أحسن وأفضل وجوه البعث العفلقي: التسامح والجذب، بما فيهما من أنس ولطف وجمال وانفتاح وشمولية.

المأساة

لنفترض أن «الاستاذ» اقتنع بالعدول عن المسيحية إلى الإسلام، كما يعتقد الدكتور الياس، فلماذا لم يصرّح بهذه «الوثبة النوعية» فور تحقيقها، أو تراه خاف أن يتناهشه المريدون قبل الأعداء؟

---

(٨٩) السيد: ص ٢٦٧.

(٩٠) (٩١) نفسه

ثم، ألم يعلم «الاستاذ» أن الإسلام والبعث لا يتفقان؟ وما الذي بقي من الحزب في ضمير «الاستاذ» حينما اتخذ الإسلام ديناً وقال: «أشهد أن لا اله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، ثم «ان الإسلام ـ في حقيقته العقيدية التاريخية ـ نظام كلي شمولي لا يفصل الدين عن الدولة، وليست ثمة ناحية في حياة المسلم لا ينظمها بالتشريع أو التوجيه»[٩٢]؟!

إذا المسؤول، وبخاصة إذا كان المؤسس، ترك حزبه ورفاقه ومريديه، فماذا يفعل الرفاق والمريدون، وعلى الأخص الذين ثابروا على ايمانهم بـ «العقيدة الانقاذية» وجاهدوا وناضلوا وتعذبوا وشُردوا وسُجنوا وجاعوا؟

بأي نفسية ورغبة واندفاع سيقرأ جماعة «الاستاذ» غداً مقالاته ومحاضراته وبياناته وأحاديثه؟

انها لمأساة حقاً، أن ينسحب «القائد»، و «الزعيم» من الجبهة، ويدير ظهره لأصحابه ورفاقه وجنوده والمعركة في ذروتها وأدق مراحلها!

---

(٩٢) الدكتور محمد جابر الأنصاري: تحوّلات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠ ـ ١٩٧٠، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت (٣٥) ذو الحجة ١٤٠٠ هـ ـ المحرم ١٤٠١ هـ/نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٠، ص ١١١.

مرة أخرى، يتخلى «الاستاذ» عن البعث والبعثيين. في الأمس البعيد (١٩٥٨)، حلّ «الأساتذة» الحزب ليُرضوا الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ويقنعوه بضرورة القبول بـ «الحدث التاريخي»: وحدة سورية ومصر، لكي يتّقوا الخطر الشيوعي الذي كان محدقاً بهم كما مرّ بنا. واليوم اتخذ «الاستاذ» ـ منفرداً ـ الإسلام عوضاً عن الحزب، ليرضي النبي وبعض المسلمين، وأخشى ما أخشاه أن يكون أصابه (الاستاذ) في النقلة الثانية ما أصابه و «الرفاق» في النقلة الأولى، وعندئذ لا يكون أحرق القومية العربية والاشتراكية القومية فحسب، بل ايمانيه: المسيحي والإسلامي معاً.

منذ حوالي أربعين عاماً كتب «الاستاذ» مقالة عنوانها: «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» منها:

«لقد ظهر البعث العربي في حياة العرب الحديثة وفي وسط الجمود والجحود والنفعية والانحلال حركة ايمان عميق تستقطب النفوس النقية السليمة، وتجتذب الارادات القوية الصادقة وتجمع حولها الافراد المشبعين بحب الأمة العربية، المؤمنين بعظمتها، الذين لم يعمهم ما طرأ على هذه الأمة من فساد عن رؤية جوهرها وامكانيات مستقبلها، ولم تستطع مغريات الواقع ومصاعبه أن تغلب فيها ارادة العمل للكشف عن هذا الجوهر وبعث تلك الامكانيات، نشوء البعث العربي

انما هو دليل ساطع على الايمان وتوكيد للقيم الروحية التي ينبع منها الدين»[٩٣].

على أن «هذه الصفة نفسها، صفة الايمان المميزة للبعث العربي هي التي فرضت عليه الاصطدام بجميع الحركات التي تنكر الايمان أو تتستر بإيمان سطحي زائف»[٩٤]. وقد كان ظهور البعث العربي «ايذاناً بحرب صريحة على الشيوعية، باعتبارها حركة مادية سلبية حاقدة، وعلى القومية اللفظية الرائجة التي تمثل الجفاف والنضوب والعجز عن الخلق»[٩٥].

ان البعث، اذن، حركة ايمانية جديدة لا بد منها، أقصى غايتها أن تعيد «الجاحدين» و «النفعيين» و «الانحلاليين» إلى الايمان «العميق» الذي مركزه «النفس النقية السليمة» فحسب.

ترى هذه الحركة الايمانية الجديدة أن الإسلام من حيث هو دين صرف «مساو لغيره من الأديان في الدولة العربية التي تساوي بين جميع مواطنيها وتحترم حرية عقيدتهم»[٩٦]. بيد أنه (الإسلام) «من حيث هو حركة روحية امتزجت بتاريخ

---

(٩٣) في سبيل البعث: ص ٨٨.
(٩٤) (٩٥) نفسه
(٩٦) نفسه: ص ٨٩.

العرب واصطبغت بعبقريتهم وأتاحت ظهور نهضتهم الكبرى له مكانة خاصة في روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها، إلا أن هذه المكانة لا تُفرض فرضاً بل تولد من الحرية وتستمد من قوة الروح ومن مدى اتصال العرب بروحهم وتجاوبهم الحر العميق معها»(٩٧).

أية حرية هذه التي ستضمن للإسلام مكانته كما حددها البعث؟

لعل «الاستاذ» رأى أن الإسلام في غربة، فنادى بالبعث سبيلاً للمتشككين والمخالفين إلى إسلام حاضر وقوي روحاً وممارسة.

ولعله أيضاً أدرك، بحسه الأدبي والتاريخي، أن الحرية المطلوبة بعيدة المنال، ولن يُعطاها إلا بعد زمن طويل من النضال البعثي القومي الإيماني. لذلك صمّم على متابعة السير في هذا الخط حتى النهاية السعيدة.

نظرة

وإذ مضى على مقالة «العرب بين ماضيهم ومستقبلهم» خمس سنوات، جدّد «الاستاذ» الكتابة عن الدين، محدداً هذه المرة نظرة البعث للدين عموماً وللإسلام خاصة. قال:

«الدين كما يظهر لنا من استعراض تاريخ البشر منذ أقدم

(٩٧) نفسه: ص ٨٩/٩٠.

العصور إلى اليوم، هو شيء أساسي في حياة البشر، فإذن بهذه الكلمة نطرح جانباً ذلك الاستخفاف الرخيص بالدين الذي يظهر عند بعض الشباب السطحيين. فموضوع الدين هو موضوع جدي ولا يمكن أن نحله بكلمة أو بحكم سطحي عابر ولكن يجب أن نفرق بين الدين في حقيقته ومرماه، وبين الدين كما يتوضح في أوضاع معينة»(٩٨).

ويبالغ «الاستاذ» في تبسيط هذه القضية بغية اقناع العامة بالبعث والرسالة البعثية «الخالدة» فيقول:

«المشكلة اذن هي في الفرق بين حقيقة الدين وبين مظهره فرقاً واسعاً جداً، يبلغ أحياناً حد التناقض، يكون المظهر أحياناً مخالفاً كل المخالفة لمرامي الدين الأصيلة ولحقيقته، وحينئذ تتكون الأزمة عند الشعوب والأفراد. والأزمة تتمثل بأشكال مختلفة عند الناس، حسب مستويات الناس الفكرية وحسب تجردهم عن المصالح، أو عبوديتهم للمصالح»(٩٩).

يشجعنا هذا التفسير العفلقي المقتبس أو المسروق عن أئمة الأديان، على القول ان أي فكرة، مثالية كانت أم مادية، ذات جوهر وظاهر في آن. ولكن ما معنى هذا التسليم العفلقي بالحقيقة الإسلامية وكأنها الحقيقة المطلقة الوحيدة؟!

(٩٨) نفسه: ص ١٢٢.
(٩٩) نفسه

ولماذا لا نقول ان الأديان غالباً يختلف بعضها عن بعض في الظاهر، أما في الجوهر فاختلافها قليل جداً ان لم يكن نادراً؟

وبأمر من السياسة التوفيقية يختار «الاستاذ» الإسلام، الثورة التي لا يفهمها إلا الثوريون، فيقول:

«في حياتنا القومية حادث خطير وهو حادث ظهور الإسلام. حادث قومي، وانساني عالمي، ولا أجد أن الشباب العرب يعطون هذا الحادث حقه من الاهتمام، لا أجد أنهم يدرسون ويحيطون بكل ظروفه وتفاصيله وملابساته، لأن فيه عظة بالغة، فيه تجربة هائلة من تجارب الانسانية يمكن أن تغنيهم وتغني ثقافتهم العملية والسياسية وكل شيء»[100].

ثم يسأل عفلق المريدين، جميع المريدين، والذين هم على طريق البعث من الشباب العرب، وانما سؤال العارف: «هل يفكر الشباب أن الإسلام عند ظهوره هو حركة ثورية، ثائرة على أشياء كانت موجودة: اعتقادات وتقاليد.. ومصالح؟.. وبالتالي هل يفكرون بأنه لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا الثوريون؟ وهذا شيء طبيعي لأن حالة الثورة هي حالة واحدة لا تتجزأ، وهي حالة خالدة لا تتبدل، فالثورة قبل ألف سنة وقبل ألفي سنة قبل خمسة آلاف سنة، والآن وبعد

(١٠٠) نفسه: ص ١٢٣.

ألوف السنين: الثورة واحدة، لها نفس الشروط النفسية، ولها نفس الشروط الموضوعية أيضاً إلى حد كبير»[101].

لماذا البعث إذن؟

إما أن يكون البعث مكملاً للإسلام وإما لا بعث ولا من يُبعثون.

الواضح أن عفلق يبحث عن غطاء إسلامي لحركته الايمانية الجديدة: البعث. ويتظاهر «الاستاذ» بأنه يريد البعث ويريد الإسلام في آن. وبما أن الثاني، في حقيقته، غائب أو مغيّب، فالحاجة إلى الأول: قرار لا رجوع عنه ولا يُقاوَم.

التبعّث

تحت وطأة هذا القلق الشديد يمتشق عفلق سيف التوفيقية الميدانية الدمشقية، ويحث الشباب على «التبعّث» قائلاً لهم: «فمن الغريب العجيب، وهذا ما يجدر بكم أن تفكروا فيه وتتأملوه، أن المدافعين الظاهرين عن الإسلام يتظاهرون بالغيرة أكثر من غيرهم وبالدفاع عن الإسلام، هم أبعد العناصر عن الثورة في مرحلتنا الحاضرة، لذلك لا يعقل أن يكونوا فهموا الإسلام»[102].

ويمضي «الاستاذ» في اغراء الشباب وتحريضهم، كمن

(١٠١) (١٠٢) نفسه.

يغسل لهم أدمغتهم ويهيمن على مشاعرهم وعواطفهم، ويقول: «ولذلك من الطبيعي جداً أن يكون أقرب الناس إلى الإسلام فهماً وتحسساً وتجاوباً هو الجيل الثوري، الجيل الثائر على القديم الفاسد طبعاً. وهذا ما نراه، أي ان الجيل الثائر ليس كله ولا أكثره معترفاً بهذه الصلة بينه وبين الإسلام في حين ان الذين يدّعون هذه الصلة ويتشبثون بها هم أعداء الثورة، هم ممثلو الأوضاع القديمة التي يجب أن تزول لكي تنهض الأمة العربية»[١٠٣].

تكشف هذه النصوص جميعها عن أمرين في غاية الأهمية، هما:

١ ـ ان «الاستاذ» لا يمكنه مخاطبة سوى الشباب، المراهقين ومن هم فوق المراهقين بقليل، ذلك أن مثل عقولهم كمثل الأرض البكر التي تتقبل الفلاحة بأي وسيلة وكيفما كان، وتحتضن البذار، أي بذار، أصيلاً كان أم هجيناً.

٢ ـ ان «الاستاذ» يضرب بسيف الإسلام ليأكل ويُطعم من ثمرات البعث ما شاء له أن يأكل ويُطعم.

على أن عدوه اللدود، وربما الوحيد، هو الاستاذ زكي الأرسوزي الذي يعتبر البعث القومي بعثاً «لما هو أصيل

---

(١٠٣) نفسه

وخالد في تكوين الأمة، وغايته ليست الانفصال عن مجرى الحياة الحضارية الحديثة»[١٠٤]، كما يحسب العودة إلى الجاهلية «اعادة اكتشاف أصول الثقافة الحديثة في التراث العربي السابق للإسلام» بل «اعادة اكتشاف العلاقة الصحيحة بين الانسان والوجود في عهد الفطرة وانبثاق الحياة العفوي»[١٠٥] ـ لنا عودة بعد قليل إلى الاستاذ الأرسوزي ـ وليس غريباً أن يغمز عفلق من قناة الأرسوزي دون أن يجرؤ على ذكر اسمه. وإذ ينوه بـ «القوميين اللفظيين» ـ مثلاً ـ و «المتشبثين بالقديم الفاسد» فانما يقصد الاستاذ الأرسوزي والجماعة الأرسوزية فحسب.

وفي طرابلس ـ لبنان ألقى «الاستاذ» حديثاً على الأعضاء والأنصار منه: «ان الحزب يرى أن الدين تعبير صادق عن انسانية الانسان، وانه يمكن أن يتطور ويتبدّل في أشكاله، وأن يتقدم أو يتأخر ولكنه لا يمكن أن يزول»[١٠٦]، ما يفيد «أن الدين في صميم القضية العربية والمواطن العربي الذي

---

(١٠٤) الدكتور ناصيف نصار: طريق الاستقلال الفلسفي (سبيل الفكر العربي الى الحرية والابداع) ـ دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٨، ص ١٩٠.

(١٠٥) نفسه

(١٠٦) في سبيل البعث: ص ١٣٢. كان ذلك عام ١٩٥٦.

نعمل لتكوينه لم نرض له أن يتكون تكويناً ناقصاً زائفاً، وأن نكتم عنه جانباً من الحقيقة أو نصف الحقيقة فنعطيه فكرة تخدمه وقتاً من الزمن ثم لا تعود صالحة»[107]، وقد «تصل بنا إلى الشيوعية، وفلسفتها»[108]. ولذلك «نظرنا ـ منذ بدء حركتنا ـ إلى الشيوعية كشيء خطير وجدي وجدير بأن يعتبر»[109] ويفهم فهماً دقيقاً. أما «النواحي الإيجابية الخطيرة التي أتت بها فلسفة ماركس فقد اعتبرناها ناقصة لأنها لم تعبر عن كل الحقيقة بل أخفت بعض نواحيها، وقد يكون قصْدها من وراء ذلك تقوية العمل وتركيز العزم على مجال محدود من الأهداف القريبة لكي يكون مردود العمل أكبر ونزوعه أقوى وأفعل، تاركة للزمن فيما بعد أن يصلح ما أهملته وأن يكملها..»[110].

بعد هذا التبسيط في تعيين المواقف وشرحها وتقريبها إلى الأذهان الشابة العطشى، أكد «الاستاذ» أن المناضل البعثي «يجب أن تتوافر فيه شروط صعبة جداً وتكاد تكون متناقضة»[111]، ولذلك فهو (المناضل البعثي) «حرب على كل تدجيل باسم الدين والتستر وراءه لمنع التطور والتحرر والابقاء على الأوضاع الفاسدة والتأخر الاجتماعي»[112]، إلا انه في الوقت نفسه «يعرف حقيقة الدين وحقيقة النفس

(١٠٧) (١٠٨) (١٠٩) (١١٠) (١١١) (١١٢) نفسه: ص ٤٢.

الانسانية التي هي ايجابية قائمة على الإيمان لا تطيق الانكار والجحود»[113]. ويعرف كذلك ان جمهور الشعب ليس هو العدو بل هو الصديق الذي يجب أن نكسب ثقته، ونكشف له أنه كان مخدوعاً ومضلَّلاً بعد أن نكون «فهمناه وتجاوبنا معه وشاركناه في حياته وعواطفه ومفاهيمه»[114] مشاركة فعالة وعميقة.

ان هذه المهمات وغيرها تُدخل المناضل البعثي في دائرة الخطر الدائم، ذلك أنه إذا «سلك هذا السلوك (ف) مهدّد بأن يتزمت وأن ترجع إليه عقليته الرجعية التي ثار عليها، وإن سلك سلوكاً آخر معاكساً، ان شهر السيف على المعتقدات الخاطئة، (ف) مهدّد بأن يصبح سلبياً وأن يخون ما في فكرة البعث من إيجابية»[115]. وإذ ذاك «يلتقي بهذا مع السلبية الشيوعية التي رفضناها، أو مع أي شكل من أشكال التحرر الزائف المقتصر على التظاهر والتبجح»[116].

لقد توقفنا طويلاً عند مفهوم عفلق للإسلام، والآن كيف ينظر هذا المفكر، الذي عيّن منه على البعث وعين على الإسلام، إلى العروبة.

العروبة العفلقية

نستطيع التعرف إلى عروبة عفلق، المعروف بكرهه «الايغال في التفكير المجرد»[117]، من خلال مقالتيه: «في

(١١٣) (١١٤) (١١٥) (١١٦) (١١٧) نفسه: ص ٤٢.

القومية العربية» و «القومية حب قبل كل شيء». في كلتيهما يرفض «الاستاذ» بشدة القومية التي تأتينا من اوروبا مع الكتب والمجلات، كونها «تنسينا شخصيتنا وتشوهها»[١١٨]، و «تسلبنا واقعنا الحي وتعطينا بدلاً منه ألفاظاً فارغة ورموزاً مجردة»[١١٩]. وإذا «الاستاذ» يطلب أن نهجر اللفظ قليلاً ونسمي الأشياء باسمائها وحسناتها المميزة، ونستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الإسلام»، فلأن جوهر المسألة ان الإسلام «في حقيقته الصافية نشأ عن قلب العروبة وأفصح عن عبقريتها أحسن افصاح وساير تاريخها وامتزج بها في أمجد أدواره»[١٢٠]، وهو ينفي نفياً قاطعاً «أن يكون ثمة اصطدام»[١٢١] بينهما، كما ليس في الأمر ما يدعونا إلى القول ان القومية العربية نظرية، في حين أنها «مبعث النظريات»[١٢٢]، و «مرضعة الفكر لا وليدته»[١٢٣]، و «نبع الفن وروحه لا مستعبدته»[١٢٤]. وتالياً هي الحرية نفسها «إذا ما تحققت في سيرها الطبيعي وتحققت ملء قدرتها»[١٢٥]. وان شئنا الاختصار، كما يحب «الاستاذ» ويرغب، فان القومية التي

(١١٨) (١١٩) نفسه

(١٢٠) نفسه: ص ٤٣.

(١٢١) (١٢٢) (١٢٣) (١٢٤) (١٢٥) نفسه

نادي هي «حب قبل كل شيء»[١٢٦]، بل «قدَر محبَّب»[١٢٧] لا يمكننا مخالفته.

ويضرب «الاستاذ» بالفلسفة والتاريخ عرض الحائط ليقول ان «قوميتنا كائن حي متشابك الأعضاء، وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل»[١٢٨]. لذلك، علاقة الإسلام بالعروبة ليست «كعلاقة أي دين بأية قومية»[١٢٩]، وسوف يعرف المسيحيون العرب، «عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم»[١٣٠]. ومهما يبعد الواقع عن هذه الأمنية، «فان على الجيل الجديد من المسيحيين العرب مهمة تحقيقها بجرأة وتجرد، مضحّين في سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع، إذ لا شيء يعدل العروبة وشرف الانتساب إليها»[١٣١].

نحو الاسلام

قلة من الباحثين العرب رأت أن «الاستاذ» يسير نحو

(١٢٦) نفسه: ص ٤٥.

(١٢٧) نفسه: ص ٤٧.

(١٢٨) نفسه: (من خطبته في ذكرى الرسول عام ١٩٤٣)، ص ٥٨.

(١٢٩) نفسه (١٣٠) نفسه (١٣١) نفسه

الإسلام بخطى وئيدة ولكنها ثابتة. بيد أن كثيرين يسألون، اليوم، وبمرارة: لماذا أبقى «الاستاذ» على إسلامه بعيداً عن الاضواء وفي معزل عن الجرأة والتجرد؟ بل لماذا نحر «الاستاذ» حزبه ومحازبيه بخنجر غير لماع؟

من هذه القلة، التي ظهر لها بعض علامات «إسلام»، عفلق وقبل عقد من السنين أو أكثر، الدكتور محمد جابر الأنصاري، الذي أثاره حديث عفلق إلى مجلة «العلم والتعليم» التونسية[١٣٢]، فاعتبره «وقفة فكرية استرجاعية وقفها ميشال عفلق في نهاية المطاف، عام ١٩٧٦، من منطلق الموقف الأول مطلع الأربعينات (*٢)، بحيث «يجد نفسه أكثر تصميماً على رفض الفكرة العلمانية القاطعة، وأكثر اقتراباً من روح الإسلام العربي أو العروبة المسلمة، وأكثر ابتعاداً عن المفهوم الأوروبي للقومية والتفسير الماركسي للدين، وأكثر الحاحاً على دعوة المسيحيين العرب للاقتراب الحميم من الإسلام في سبيل تأكيد صدق عروبتهم ذاتها»[١٣٣].

(١٣٢) العدد ٩، السنة الثانية، ١٩٧٦.

(*٢) خطبته في ذكرى الرسول العربي وسائر المقالات التي تضمنها «في سبيل البعث» وبخاصة التي ذكرنا بعض نصوص منها.

(١٣٣) الدكتور محمد جابر الأنصاري: المصدر المذكور أعلاه، ص ١٢٢.

ويتابع الدكتور الانصاري قراءة النص العفلقي النهائي أو شبه النهائي على صعيد العلاقة بين العروبة والإسلام، فيقول:

قال (عفلق) من منطلق الموقف الفكري الأول بعد أن اندمجت به تجربة ثلث قرن من الصيرورة العربية، سلباً وايجاباً، تقدماً وتراجعاً، (ان)» قراءة للتراث تعطي للثورات في العالم، ولثورات هذا العصر، بما فيها الثورة العربية، نسبية معينة، لأنها جميعها ثورات بشرية بحدود طاقة الانسان مهما بلغت هذه الطاقة. وتجربة الأمة العربية من خلال الإسلام فيها شيء مطلق، في حين ان كل شيء آخر نسبي، قد يعيش عشر سنوات، أو مائة سنة ولكن ليس فيه صفوة الخلود»[١٣٤].

هنا يعقّب الدكتور الأنصاري: «اذن» فالرسالة العربية الخالدة» ـ من هذا المنظور (العفلقي) ـ ما هي إلا ذلك المطلق الإسلامي الذي يرفع العروبة فوق ما هو نسبي من يوميات وفلسفات أخرى، ويمنحها ـ وحدها ـ صفة النفوذ وامتداد اللانهائي. وتمسكاً بهذا المطلق الإسلامي المثالي المميّز للعروبة تم رفض المفاهيم النسبية التجريبية المستخرجة من

(١٣٤) نفسه. مجلة «العلم والتعليم» ص ٥.

تجارب القوميات الغربية، وعلى الأخص مفهوم العلمانية ـ المتجذّر في التراث الأوروبي من ثنائية الكنيسة الدولة ـ والذي من شأنه أن يفقد العروبة خصوصيتها المطلقة إذا فصلت عن الإسلام»[١٣٥].

ويتخذ الدكتور الأنصاري برهاناً النص العفلقي التالي كما ورد حرفياً في المجلة التونسية المذكورة. قال عفلق:

«في بداية تجربتنا كانت هناك دعوات واتجاهات قومية تقول بالعلمانية وتعتبر أن القومي العربي هو الذي يتجرد من معتقداته الدينية، ويلتقي مع أخيه العربي على صعيد القومية العربية الحقوقية والرابطة الوطنية. وكان لهذا المذهب رواج كبير بين الشبيبة المثقفة ولكننا لم نستسغه ولم ننخدع به واعتبرناه في أحسن الحالات تفسيراً سطحياً وجامداً غير معبر عن الروابط العميقة التي تربط العربي بقوميته وكان من الجائز الاشتباه بهذه الدعوة (العلمانية) لأن المستعمر الأجنبي الغربي الذي كان يحتل أقطارنا، لم يكن يخفي ارتياحه لهذه العلمانية بل كان يشجعها، لأن ذلك كان يؤدي إلى افقار قوميتنا من دمها ومن نسغ الحياة فيها، ومن أصالتها وروحها، لذلك كان من أول ما تصدّينا له هو هذه القومية المجرّدة. أذكّركم

(١٣٥) نفسه.

ببعض الكلمات التي كانت تشير إلى ذلك، فهناك إشارة في كراس «ذكرى الرسول» إلى القومية التي تأتينا من الغرب على النمط الأوروبي وتشير إلى الفارق بين قوميتنا وبين القوميات الغربية، وإلى ان الإسلام هو تاريخنا وهو بطولتنا وهو لغتنا، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون، وأشياء كثيرة يصعب حصرها وتعدادها. فما الذي يضطرنا، لكي نكون قوميين سليمي الانتماء، أن نطرح كل هذا من حياتنا ونضعه على الهامش؟ فاذن نحن ذهبنا بكل بساطة وصراحة إلى الواقع الحي. وما هو واقعنا الحي؟ هو العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام. ان العلمانية بمعنى الدستور والقوانين لا تميز مذهباً على آخر في القبول للوظائف أو في كذا وكذا، هذه أمور بسيطة ونسلم بها، ونحن نمشي مع هذا العصر ولا نجادل في ذلك إذا كانت المسألة مسألة نصوص دستورية وقانونية»[١٣٦].

وبهذا يكون«الاستاذ» قد أكد، عن قصد أو غير قصد، حقيقتين طالما طاردتاه:

١ ـ أقدمية الاستاذ زكي الأرسوزي، الذي لم يجرؤ على ذكره، وبعثه القومي العربي عليه وعلى بعثه الاشتراكي.

٢ ـ الازدواجية التي استمرت تشد على «الاستاذ» عفلق

(١٣٦) نفسه

حتى استسلم للدين: الإسلام، تاركاً وراءه البعث يتيماً أصفر الوجه جاحظ العينين ومسحوبة منه أعصابه ومميزاته.

وقال الدكتور محمد جابر الأنصاري: «هكذا نرى أن الربط بين العلمانية والاستعمار لا يقتصر على أصحاب النظرة السلفية، فها هوذا مفكر مسيحي (؟) متفهم للعلاقة العضوية بين الإسلام والعروبة - من الداخل - يتنبه لذلك الارتباط بين العلمانية والاستعمار ويرى فيها خطراً، لا على الدين وحده، وانما على حيوية القومية ذاتها. غير أنه يعني بالعلمانية النظرة الفكرية الاعتقادية المناقضة لجوهر الدين لا علمانية القوانين»[137].

ولأن الباحث، كل باحث، لا يمكنه إن يذهب أبعد مما يعرف ويدرك ويتصوّر، أبقى الدكتور الأنصاري الأمر مرهوناً بالأيام، تاركاً الحكم لما قد يستجد ويحدث. قال متسائلاً:

«ويبدو أن عفلق يتحدث عن قبول شيء من هذه العلمانية، ولكن وضْعاً للنقاط على الحروف وحتى نواجه المسألة من جذورها - هل يقبل الإسلام بهذا النوع الدستوري «الحقيقي» من العلمانية؟»[138].

(١٣٧) نفسه: حاشية ص ١٤٢.

(١٣٨) نفسه: ص ١٢٥/١٢٦.

وعملاً بالمنهج الأكاديمي، عاد الدكتور الأنصاري إلى «ان الإسلام كما تجسّد في القرآن والسنّة، وكما عرفه التاريخ وطبقه المسلمون في حياتهم الدينية والدنيوية - دون أدنى تمييز بين الجانبين - لا تعتبر «العلمانية» مسألة مطروحة بالنسبة إليه»[139].

كان ينبغي لهذا الباحث، الذي تميزت كتبه ودراساته بالموضوعية والعقلانية، أن ينتبه لكون عفلق ما عاد مسيحياً، بالمعنى الديني الفكري، وانما هو إسلامي يكتم أسراراً كثيرة لا نعرف، حتى الآن، ماذا أعلن منها، قبل وفاته، وماذا أبقى.

رحم الله البعث العربي الاشتراكي الذي وضعه مؤسسه الاستاذ ميشال عفلق على نار الإسلام حوالي نصف قرن، حتى ذاب شحمُه ولحمه، وثبت لكل ذي عقل حصيف أن «الاستاذ» انما ناضل وجاهد في سبيل الإسلام لا في سبيل الوحدة والحرية العربيتين ولا في سبيل الاشتراكية القومية.

والآن إلى مائدة الاستاذ زكي الارسوزي الفلسفية التي ستبقى ما بقي العرب والفكر العربي.

(١٣٩) نفسه: ص ١٢٥/١٢٦.

- ٥ -

زكي الأرسوزي: "استاذ" يختلف

الحساب الخاطىء

قال الدكتور جوزف الياس، أيضاً في رده علينا: «فلسنا ننكر دور الأرسوزي ووزنه في الفكر القومي العربي، وليس لنا حق الجزم سلباً أو ايجاباً في دوره أو صلته بتأسيس «البعث العربي». لكننا، على ضوء المراجع والوثائق التي بين يدينا، والمقارنات التي أقمنا، نرجح أن يكون الفضل للأرسوزي في تسمية «البعث العربي» على الأقل، مع أن كلمة «بعث» بريق أخاذ، ومن الطبيعي أن يلوكها يومئذ لسان كل دارس أو مختص عائد من الغرب»[١٤٠].

يحسب الدكتور الياس، على ما يظهر، أن مشكلة البعث التي أثرناها هي في تحديد أسهم هذا وهذا من «الرفاق» المؤسسين، وأننا تعاملنا، في ما تقدم في بحوث، مع الحزب وكأنه

(١٤٠) «النهار»: ١٩٨٩/٨/٢، العموده.

حزب واحد لا حزبان، ومع عفلق وكأنه في مستوى الأرسوزي فكرياً وفلسفياً، بينما ايماننا كبير بأن البعث العفلقي ليس إلا بعضاً من البعث الأرسوزي، وهذا الاستاذ ليس كمثل هذا الاستاذ كما سنحاول كشفه وتبيانه الآن.

الاستاذ: اللواء

منذ فتحتُ عيني على الحياة، يقترن اسم الاستاذ زكي الأرسوزي باسم اللواء السليب: «الاسكندرون»، السوري الذي أُلحق بتركيا بحسب اتفاقية أنقرة بتاريخ ١٩٣٩/٦/٢٣، حيث تنازلت عنه فرنسا عندما كانت منتدبة على سوريا ولبنان لكي تكسب تركيا إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

ولطالما نبهت الصحافة السورية إلى هذا الحدث الرهيب قبل وقوعه بسنوات، وحذرت في مقالات شتى من الخطر الذي سينجم عنه، ولكن «السياسة الدولية» أبت الا أن تنفذ تعنتها بل مؤامرتها على اللواء وأهله، مثلما نفذت من قبل ومن بعد مؤامراتها على أوطان وشعوب لا تزال تناضل في سبيل استعادة حقها وحريتها وكرامتها واستقلالها. من الصحافيين الكبار الذين حلّلوا، بموضوعية تاريخية رؤيوية، مسألة الاسكندرون ودعوا إلى الحفاظ على عروبة اللواء وأمن أهله وسلامتهم: المغفور له نجيب الريس، صاحب جريدة «القبس»، كبرى الصحف السورية آنذاك، وهذا كتب في

١١/١١/١٩٣٦ مقالة عنوانها: «لواء الاسكندرون قطعة من سوريا. فرنسا مسؤولة عنه اليوم وغداً» منها:

«واليوم نريد أن نتكلم عن قطعة من صميم هذا الوطن لحماً ودماً وتربة، هاجر إليها في الماضي فريق من الأتراك يؤلفون ربع السكان، فأصبحوا الآن يعتبرونها تركية، ويطالبون بفصلها عن هذا الوطن وإلحاقها بتركيا..».

أضاف: «نريد أن نذكّر فرنسا وحدها بهذه المسؤولية التي أخذتها على نفسها أمام عصبة الأمم، وتعهدت أمام العالم وأمام شعبها وأمامنا بأنها مسؤولة عن حماية بلادنا وضمانتها.. وأما لواء الاسكندرونة فقد اعترفت تركيا بأنه قطعة من سورية، ولكن فيه فريقاً من الأتراك يجب أن يتمتعوا ببعض الامتيازات، وأن تكون اللغة التركية من اللغات الرسمية في التعليم والحكومة. وهكذا تم كل شيء في ما يتعلق بلواء إسكندرون، ثم سُويت بعد ذلك قضية الحدود بين تركيا وسورية، ولم يبق للأتراك اعتراض على شبر من الأراضي السورية».

وقال الريس: «نحن بين أمرين: إما أن تكون نصوص صك الانتداب والدستور السوري والمعاهدة الأخيرة محترمة أو لا تكون. فان كان الأول فاننا لا نعبأ بهذه الاشاعات وتلك الدعايات. أما إذا كان الثاني فاننا لا ندري كيف يكون

مصيرنا ومصير لواء اسكندرونة في المستقبل. فإذا كان الانتداب ألغي والدستور السوري غير محترم، فنحن أمام معاهدة جديدة لم يجف مدادها بعد، وهي تقضي على فرنسا بالدفاع عن سورية من كل اعتداء أجنبي يقع عليها وعلى جزء من أرضها. ففرنسا مسؤولة عن لواء اسكندرون وبقائه على شكله الحاضر طوال مدة المعاهدة أي خمساً وعشرين سنة، وبعد انقضاء هذه المدة يخلق الله ما لا تعلمون»[١٤١].

وبعد سنة وشهر واحد على مقالة الريس هذه، أشارت جريدة «الاستقلال العربي» في عددها ٢٨٧٠ (٢٦ ـ ١٢ ـ ١٩٣٧)، في مقالة عنوانها: «في اللواء الشهيد» إلى اضطرابات وفتن في مدينة اسكندرونة «لأن السلطة (هناك) اعتقلت الزعيم العربي الاستاذ زكي الأرسوزي، فهرعت المدينة العربية للحال وأغلقت مقاهيها وحوانيتها احتجاجاً على اعتقال الرجل المخلص الذي يخدم وطنه بأمانة وتجرد. وعلى اثر هذا الاعتقال قامت في المدينة مظاهرات صاخبة، اتجه المتظاهرون فيها إلى دار الحكومة طالبين اخلاء سبيل الزعيم، فأسرعت السلطات في اصدار الأوامر إلى الجيش

---

(١٤١) عن «تطور الصحافة السورية في مائة عام (١٨٦٥ ـ ١٩٦٥) للدكتور جوزف الياس، المذكور سابقاً، ص ١٢٧/١٢٨، «القبس» السورية: عدد ٩٨٦، ١١/١١/١٩٣٦.

بـاحتلال المـدينة وصـدّ الهجمات ووقعت إذ ذاك مصادمـات عنيفة بين الفريقين. . .»[١٤٢].

أمضى الاستـاذ الأرسوزي في سجن أنـطاكية حـوالي سبعة أشهر، ثم خرج من المعتقل في الثامن من تموز ١٩٣٨، وجاء إلى دمشق يحمـل جرحـاً بليغاً ظل ينـزف ويهيج حتى تـوفي «الجريح» بعـد هزيمـة ١٩٦٧ مظلومـاً مقهوراً، وكـان ذلك في ٢ تموز ١٩٦٨.

من الطائفة العلوية

وُلد زكي الأرسوزي «عام ١٨٩٩ في اللاذقية»[١٤٣] في أسرة من الـطائفة العلويـة، «وترعـرع في أنطاكيـة حيث كـان يقيم والده»[١٤٤]، ودخل المدرسة الابتـدائية، وحفظ القـرآن كاملاً في بضعـة شهور، ثم استيقظ ذهنـه عـلى الغيبيات (مـا وراء الطبيعة) ولما يتجاوز السابعة[١٤٥].

كانت والدته وعلى عادتها، تـولم للمشايـخ، فتقص عليهم

(١٤٢) نفسه: ص ١٣٠.

(١٤٣) الـدكتور نـاصيف نصار: طـريق الاستقلال الفلسفي، المذكور سابقاً، ص ١٣٨.

(١٤٤) من مقابلة معه أجراها الصحـافي زهير المـارديني، ونشرها ضمن كتـابه «عشرة من النـاس» الجزء الأول ـ دار المعـارف ١٩٧٥ ص ١٠٠.

(١٤٥) نفسه

«مناماتـه» الغريبـة العجيبة، ويـأتي هو لينـاقشهم في المسائل الشديدة التعقيد: الله، القضاء، القدر، الأزل، ودائماً يـظهر زكي بينهم «كالديك المفلفل»، إذ يـدهشهم ويدوخهم بخفته وسرعتـه، فسمع بـه أحد أنسبائه وكـان عـائـداً من الكلية الملكيـة في بيروت، فـاستـدعـاه إليـه وسـألـه: «أين أنت من الدنيا، أنت تشغل بالـك بالأمـور الالهية، ألا تعلم أنـه ظهر رجـل يـدعى (داروين) وقـد بينّ للعـالم أن الانسـان من القرد. . . ؟».

الحب والفيض

كـان زكي في الرابعـة عشرة، فأحس بما يشبه العـاصفة أخـذه بعيداً وهـو يصغي لمحدثـه، فقرر أن يختبر بنفسه مـا سمعه ويتحدى العلم والعلماء، فذهب بعد سـاعة إلى (مـزار الـولي) في قريتـه شكمجـا، التي تبعـد عن أنـطاكيـة مسـافـة كيلومترين، وعند المزار اقترب من التابوت ومد قدميـه اعتقاداً منه أن في التابوت قوى خفية لا بد أنها «ستلطشه» تعبيراً عن رفضها «الخرافة الداروينية»، بيد أن التابوت لم يتحـرك. كرر المحاولة فظل التابوت مكانه. ثم ركب عليه يهز نفسه فـوقه، فلم يلحظ شيئاً مما كان يتوقـع، ما جعله يشكك في معتقداتـه ويعود إلى البيت وهو في شبه غيبوبـة، يقوده التعب إلى النـوم العميق، ليبصر في نومه غمامة تحيط به من كل جـانب وتأخـذ بخناقه، فينطلق من قلب الغمـامـة صوت يقـول له: «هـل أنا

موجود أم لا؟!!» ويجيب زكي: «يا رب أنت موجود؟».
وعندما استيقظ قال في نفسه: «ربي لماذا لم تظهر لي في اليقظة، وتظهر في الحلم؟ لقد بدأت أشك في وجودك»[146]، وراحت المنامات تتزاحم عليه في أشكال لا حصر لها.

قال الأرسوزي في مقابلة معه لزهير المارديني:

«في تلك الفترة. كنت أقرأ بنهم الكتب التي تمدّني بأسباب الالحاد. وعندما بلغت الواحد والعشرين من عمري أخذت أستقصي أسباب مشاعر (الحب والفيض) في نفسي، ولما لم أجد في النظام المادي مسوّغاً لها تحوّلت بالتدريج عن أسباب هذه العواطف.. وانتهيت هذه المرة إلى روحانية عاينتها بالتجربة، وأيقنت أن تقاليد الأجداد الأصيلة ذات جذور في الطبع الانساني، وما على الانسان إلاّ أن يتحرر من الأشكال حتى يبلغ المعنى، والمعنى هو هو منذ ظهور الانسان وحتى اليوم، وكل ما هنالك ان الأشكال تتغير طبقاً للمرحلة التاريخية، وكنتُ استعين بصورتين مجازيتين للتعبير عن خلود المعنى وتحوّل الصورة، أحدهما الحياة والجسم الذي تتبلور فيه الحياة، والثاني البركان الذي يظهر ما انطوى في جوف الأرض في فوهة تختلف باختلاف الأقاليم، وأثناء هذا التطور في

(١٤٦) نفسه.

شخصيتي وقع حادث هام في تاريخ الأسرة، (اذ تم إبعادها من أنطاكية إلى قونية (في تركيا) عام ١٩١٦»[147].

ذلك أن والد زكي أنشأ جمعية سياسية سرية، هدفها حكم عربي بدلاً من الحكم التركي، وكانت هذه الجمعية بمثابة فرع لحزب «سورية الفتاة»[148]، وسبق له أن عمل في السياسة ضد الدولة العثمانية، فلما انعقد زكي على الحياة كان والده مشرّداً في جبال العلويين هرباً من السلطات المحتلّة[149].

محطات لا تزول

تلقى زكي دروسه الثانوية في تجهيز انطاكية، وشغف بالرياضيات، فأهدى اليه والده كتاباً في العلوم الرياضية مترجماً عن الفرنسية، فتعلق به وقرأه مرات عديدة حتى حفظه عن ظهر قلب، وحلّ جميع مسائله، وأظهر تفوقاً على اقرانه بسنوات[150].

(١٤٧) نفسه

(١٤٨) هي جمعية العربية الفتاة: اسست في باريس عام ١٩١١ ومؤسسوها سبعة من الشبان العرب السوريين وواحد منهم عراقي. كانت تهدف بادىء الأمر الى النهوض بالأمة العربية وعدم الانفصال عن الترك. المارديني: الاستاذ ص ١٢٩.

(١٤٩) عشرة من الناس: نفسه.

(١٥٠) نفسه

في ١٩١٧ انتفض والد زكي ورفاقه العرب على الدولة العثمانية، وكان من حظ الأرسوزي الأب شرف انزال العلَم التركي عن دار حكومة أنطاكية ووضع العلَم العربي مكانه. «في هذا العام اللاهب سألني والدي: ماذا تريد أن تكون؟ أجبته: استاذاً في الرياضيات»(١٥١).

كان زكي يمارس التعليم، على صغر سنه، عندما دخلت فرنسا أنطاكية، فقاومها والده وبعض العلويين الأحرار، فكانت النتيجة على الأسرة مأساوية، إذ سُرّح زكي من الوظيفة، وحُكم على أخيه نسيب، عضو الجمعية العربية السرية، بالاعدام، بينما مكث الوالد في السجن فترة غير قصيرة(١٥٢).

وهنالك محطة أخرى في حياة الأرسوزي سبقت ذهابه إلى باريس للتخصص بالفلسفة، فقد عين عام ١٩٢٤ مديراً لناحية «أرسو» التي منها انتقل جده إلى الاسكندرونة. «ولما أخذ الفلاحون (الأرسوزيون) يقصون عليّ ما يلاقونه من أهوال الاقطاع، تكوّن عندي ميل إلى الاصلاح الزراعي، فكتبت مذكرة إلى المندوب أطلب فيها تحديد الملكية الزراعية»(١٥٣)، ولكنها لم تلق قبولاً ملحوظاً.

وذهب زكي عام ١٩٢٧ إلى باريس، وهناك حصلت له

(١٥١) نفسه (١٥٢) (١٥٣) نفسه: ص ١٠٢.

أول تجربة ميتافيزيكية (؟) كانت بمثابة الزلزال، بحيث أحدثت فيه انقلاباً جذرياً أكسبه مفاهيم جديدة تختلف عما ألِفه. فتكونت معالم شخصيته تكويناً مميزاً، على ما في رسائله في الفلسفة والفن والأخلاق(١٥٤).

في ١٩٣٠ عاد الاستاذ زكي الأرسوزي من باريس يحمل اجازة في الفلسفة، فعُيّن مدرّساً لتجهيز أنطاكية، وسرعان ما وقع بينه وبين المستشار الفرنسي نزاع فحوّله، مع الوقت، إلى السياسة، وراح يكثف اتصالاته بتلاميذه والعمال والفلاحين باثاً الروح القومية العربية ومبادىء العمل النضالي من أجل التغيير والتحرر من الاقطاع والاستعمار وما إليهما.

يؤسس البعث

وفيما الصراع التركي ـ الفرنسي على أشده، فكّر الاستاذ زكي في تأسيس حزب يكون اسمه «البعث العربي» يجمع شمل العرب ويوحدهم في صراعاتهم مع الأجنبي، وتلقى رسالة من السيد روحي الأتاسي في حمص يدعوه فيها إلى زيارة المدينة، فلبى سريعاً هذه الدعوة، وبعد المباحثات الطويلة بين الرجلين انتسب الأرسوزي إلى «عصبة العمل القومي»، وكان سبباً لانتشار هذا «الحزب» في المنطقة العلوية انتشاراً واسعاً، حتى قيل ان حوالي ثمانية عشر ألفاً أعلنوا

(١٥٤) نفسه: ص ١٠٣.

خلال أسبوع انضمامهم لـ «العصبة» وذلك بتأثير من الأرسوزي نفسه. ولما اطلع الأرسوزي على أوضاع الهيئة المركزية لـ «العصبة» وجّه دعوة إلى الفروع في سوريا ولبنان كي يجتمعوا في دمشق لاتخاذ أهم القرارات لا سيما تأليف «هيئة جديدة»، غير أنه لم يلق تجاوباً، فانفض الاجتماع ليعود الاستاذ إلى «فكرة البعث»[١٥٥]، التي كانت تراوده أيام أنطاكية، فأسس حزب البعث العربي وولى الاستاذ عبد الحليم قدور أمانة القسم السياسي، لأنه (القدور) ـ بشهادة المعلم الأرسوزي والمؤسس ـ «ألمع الشباب وأقواهم حدساً سياسياً»، والاستاذ يحيى السوقي أمانة القسم الثقافي، لأنه، وبشهادة المؤسس نفسه، «أكثر الشباب جداً في قراءاته»، ثم عهد إلى «ابنه الروحي» الأديب والشاعر صدقي إسماعيل في التأسيس على أن يكون منزله المتواضع مقراً للحزب[١٥٦].

أصدرت هذه النخبة ـ الهيئة التأسيسية للبعث العربي القومي ـ في ١٩٤٠ مجلة «البعث العربي»، وكانت تكتب بخط اليد، وفيها بعض أفكارهم وتطلعاتهم القومية التحررية، ولكن الظروف القاسية، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كانت تحوطهم جميعاً، ومنعتهم من أن يتناموا

(١٥٥) نفسه: ص ١٠٥.
(١٥٦) المارديني: الاستاذ ص ١٢٧.

ويتوسعوا، ما دفع الشباب وأصدقاءهم إلى الدخول في جمعية «الاحياء العربي» التي تحولت بعد قليل إلى حزب «البعث العربي»[١٥٧]، وصار «البعث العربي الاشتراكي» بعد دمجه في حزب الاستاذ أكرم الحوراني: «العربي الاشتراكي» كما أسلفنا.

نحو الفلسفة

حيال هذه العراقيل وجد الاستاذ الأرسوزي نفسه وحيداً، فانصرف إلى «مهمة ارساء الأساس النظري لبعث الأمة العربية»[١٥٨]. وفي ١٩٤٣ نشر باكورة أعماله بعنوان: «العبقرية العربية في لسانها»، و«انطلق من الحدس العام الذي عرضه في هذا الكتاب لكي ينصبّ على بلورة أفكاره في الوجود والمعرفة والسياسة والاصلاح»[١٥٩].

كانت حياة الأرسوزي، اذن، غاية في الصعوبة والبؤس والشقاء، ليس أضعفها مرض والدته ثم وفاتها عام ١٩٤٤ دون أن يتسنى لها الحصول على الدواء[١٦٠]. والأمر انعكس على مبدأه الايديولوجي ومعظم فلسفته وتعاليمه كما في المجلدات الأربعة التي أشرفت عليها لجنة تخليد زكي

(١٥٧) عشرة من الناس: ص ١٠٥.
(١٥٨) الدكتور ناصيف نصار: ص ١٣٩.
(١٥٩) نفسه
(١٦٠) الاستاذ: ص ١٢٨.

الأرسوزي، ونشرت بين ١٩٧٢ و ١٩٧٤.

العقل الأرسوزي ومصادره

صحيح أن الأرسوزي تفرغ للفلسفة والتعليم، والأرسوزيين دخلوا في بعث عفلق، لكن فيلسوف القومية العربية ظل يغذي جماعته ومريديه بما يبتدع من أفكار وبحوث وتحاليل كانت للأرسوزيين بمثابة المناعة الشديدة ضد التوفيقية العفلقية الموغلة في مسايرة الدين: الإسلام والتبسيط البياني. ويمكننا القول ان العقل الأرسوزي لم ينل من دمشق والدماشقة قبولاً أو ما يشبه القبول، ما خلا مثقفين نخبويين مستقلين، وهؤلاء مكّنتهم ثقافتهم من فهم العبقرية الأرسوزية وادراك مراميها واستيعابها.

وقال عنه «ابنه الروحي» وتلميذه المرحوم صدقي إسماعيل (١٩٢٤ - ١٩٧٢) في دراسة مكثفة عنوانها: «قومية الأرسوزي وتأثير الثقافات الغربية»:

«كان (الأرسوزي) مدرّساً مهمته الأساسية أن ينقل الأفكار في موضوعية وحياد، غير أن دروسه الأولى، تجاوزت هذه المهمة منذ البداية، فلم يكن هدفه أن يكوّن عقولاً قادرة على التفكير فحسب، بل كانت حرية الفكر في نظره تعني الشخصية الانسانية الواعية التي تناضل في سبيل الانعتاق من كل ما توارثته الحياة العربية الراهنة عن عصور الانحطاط من

مظاهر الجمود والفساد»[١٦١]. أضاف: «ثمة جيل عربي جديد ينبغي أن يظهر. جيلٌ من المؤمنين بالحياة في أقوى تطلعاتها إلى المستقبل وأنبل مراميها»[١٦٢].

ويتساءل الكاتب: «ما هي ملامح هذا الجيل؟» ليقول:

«في تحديد هذه الملامح عمد الأرسوزي إلى التساؤل عن الانسان العربي في الحقبة المعاصرة من التاريخ. من هو؟.. وما هو موقفه من الحياة والحضارة؟ وماذا يستطيع أن يفعل للتعبير عن معنى وجوده؟ أمام هذه التساؤلات تبنى الأرسوزي منذ البداية وجهة نظر واضحة هي القومية، وعمد إلى شرحها في معظم كتاباته، غير أنه من خلال ذلك تأثر بكثير من التجارب الفكرية في هذا المجال»[١٦٣].

ويرى إسماعيل في هذه الدراسة أن أولى هذه التجارب - المصادر يمثلها: شبنغلر في كتابه «انحدار الغرب»، وكيزرلنغ في كتاب «العالم الذي يولد»، وتشمبرلين في كتابه «تكوّن القرن التاسع عشر»، ذلك أن تفكير هؤلاء جميعاً، على اختلاف وجهات نظرهم، ينتظمه «موقف واحد من مفهوم الأمة، هو

(١٦١) صدقي اسماعيل: المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، مطابع وزارة الثقافة السورية ١٩٧٧، ص ٣٠.

(١٦٢) (١٦٣) نفسه: ص ٣٠/٣١.

الايمان بأنها حقيقة حيّة تصدر عنها جميع المظاهر الثقافية في حياة أي شعب»[١٦٤].

فهو، أي الأرسوزي، «استمد من كيزرلنغ مبدأ الموقف الفكري الذي ينبغي أن يكون عليه المثقف المعاصر حين يتبين الحدود الفاصلة بين الثقافات البشرية المختلفة»[١٦٥]، بحيث أن «في هذه الحدود يبدو الشرق بتجاربه الروحية عالماً غنياً بالحدس الفلسفي والديني، لا سبيل إلى تجاهله أمام حضارة الغرب التي تفتقر إلى الكثير من هذه التجارب على الرغم من ان هذه الحضارة تطبع العصر»[١٦٦]. وكذلك بدا للأرسوزي «الحاح تشمبرلين على العامل العرقي في تفسير التاريخ البشري نوعاً من الاكتشاف الجذري في فهم المنجزات الحضارية الكبرى»[١٦٧]. معنى هذا «أن الدم أو المنشأ الواحد للأمة هو الشرط الأول في كل إبداع عرفته الانسانية»[١٦٨]. واللافت عند الأرسوزي أنه برغم وضع تشمبرلين العرق الآري في قمة الهرم، في كثير من التعصّب والمغالاة ـ «لا يرى الآريين يمثلون أكثر من قطب واحد للحضارة، لأن القطب الآخر يمثله الجنس السامي»[١٦٩].

(١٦٤) (١٦٥) (١٦٦) (١٦٧) (١٦٨) (١٦٩) نفسه.

وظهر للأرسوزي بكل وضوح وصفاء «معظم العناصر الأساسية التي بنى عليها (الفيلسوف الألماني) شبنغلر الحضارات البشرية من خلال مفهوم مماثل للأمة»[١٧٠]. ذلك أن «الحضارة هي ثمرة لثقافة أمة معينة تدور في فلكها الخاص وتمثل موقفاً متميزاً عن العالم، على الرغم من خضوعها جميعاً لتطور متجانس يبدأ أولاً بالقصر أو الهيكل، تقوم حوله القرية الكبيرة أو السوق الاقطاعية التي تتحول إلى المدينة الصغيرة. ثم تنشأ العاصمة أو المدينة الكبرى التي تشير إلى ضعف الرابطة القومية وتمثل بداية انهيار الحضارة»[١٧١].

لا شك أن الأرسوزي بحث كثيراً عن ضالته المنشودة في ينابيع ثقافية شتى، فلم يحقق رغبته إلا في التجربة القومية المستندة إلى العرق ـ المنشأ الأول، وبلاده ضاعت بين فرنسا وتركيا وعلى مرأى من الحلفاء جميعهم.

وفي مقارنة سريعة ومقتضبة بين الاستاذين الأرسوزي وعفلق، لا يسعنا إلا الأخذ باعتبار المحن والنكبات التي مرت على الأسرة الأرسوزية، وعلى الاستاذ زكي، دون أن ينال عفلق ما يماثل ولو القليل منها. وهل لنا أن ننسى «الإثم العلوي» الذي

(١٧٠) نفسه

(١٧١) نفسه: ص ٣٢.

ألقته الأيام الطوال والأحداث الجسام على آدميين ذنبهم أنهم يتعلّقون بالحرية ويصرون على تحقيق مطالبهم ـ ضمن الأمة العربية الواحدة الموحّدة ـ العادلة المحقة: الحرية والكرامة والأمن وكسر العزلة النفسية والدينية والثقافية والسياسية والاقتصادية المضروبة عليهم منذ قرون؟

رحلة في صحراء الكون

المهم أن الأرسوزي علوي ذهب فكره بعيداً في صحراء الكون وكل الطبيعة، متسلحاً بلسان عربي فصيح بليغ، بل غاية في الفصاحة والبلاغة، بريئاً من العقد والرواسب، ملحداً أو مشرفاً على الالحاد، لينتزع من تلك الصحراء بل من الطبيعة أسساً لفلسفته القومية لا تزعزعها المصالح والأهداف السياسية وما إليها. حين أن عفلق، الأرثوذكسي المؤمن الآمن المطمئن في الحي الوطني: الميدان، لم يدرك، بل لا يملك أدوات الادراك النفسية والاجتماعية والعصبوية التي ترغمه على الغوص عميقاً في بحار التجارب والعقول الصعبة. وإذ سلك الأرسوزي طريق المخاطر والمفاجآت والأحاجي والأسرار والأعاجيب، سلك عفلق طريقاً بين الطريقين، عبر الحركة القومية الايمانية (؟)، وهذه أوصلته، قسراً أو حباً ورضاً، إلى الإسلام. الأول أعطى روائع ومنجزات وأسس محطات مشرقة على طريق الاستقلال

الفلسفي. والثاني خدعته السياسة فراح يركض وراءها من الميدان إلى المهاجرين إلى الازبكية فإلى بيروت وباريس وجنيف وبون وصولاً إلى بغداد حيث انتهى به المطاف كما انتهى إليه.

يعلل صدقي إسماعيل رحلة الأرسوزي في رحاب الفكر القومي العرقي المتمثل في شبنغلر فيقول: «وقد ميز شبنغلر في التاريخ البشري ثمانية نماذج رئيسية كان لها دور كبير في حياة الانسانية على الرغم من أن كلاً منها كان مغلقاً على الآخر وكانت له نشأته الخاصة ومداه الحتمي. ولم يعن الأرسوزي إلا بالنموذجين المتباينين اللذين عرفهما العالم في عصوره الأخيرة: النموذج الغربي الذي تمثله الروح الفاوستية[١٧٢]، ويتميز بنمو الفردية والنزعة العملية والارتباط بالطبيعة بدافع النزوع إلى المعرفة واكتشاف المجهول. والنموذج العربي الذي يمثل الاندماج «الوجداني» في العالم، والنزعة إلى الخيال، واعتبار الطبيعة بجميع مظاهرها رموزاً سحرية تملأ في وجود الانسان كل فراغ يمكن أن تبعثه التساؤلات التي تمليها شهوة المجهول، ومن ثم فان الطابع المميز للروح العربية هو الايمان

(١٧٢) نسبة الى فوست (Faust) : ساحر الماني: زعموا أنه باع نفسه للشيطان لقاء الخيرات الأرضية. صار خبره موضوعاً أجاد الشعراء معالجته وأخصهم غوته في مأساة بهذا الاسم.

والـدين في حين تحمل الروح الغربية طابع العقل والعلم»(١٧٣).

ثم يستدرك صدقي إسماعيل قائلاً: «ولم يكن هذا التمييز البسيط وحده مصدر النظرة الخاصة التي تذرع بها الأرسوزي في تأكيده على الجانب القومي من الحضارات، بل ان تحليل شبنغلر للثقافة العربية كان على جانب من الأهمية في تحديد موقفه»(١٧٤). ذلك أن «في هذا التحليل تتجلى حيوية الثقافة العربية في احتضان جميع التجارب الروحية لدى جميع الشعوب القديمة في أرجاء المنطقة التي امتدت إليها الدعوة الإسلامية فيما بعد»(١٧٥)، و«لم يكن الإسلام سياجاً سياسياً فحسب لثقافات كل الشعوب، بل كان تعبيراً عن انتمائها جميعاً إلى مصدر واحد جسدته التجربة العربية في سياق تاريخي متفرد أتيح له أن ينشىء حضارة متفردة تمتد جذورها الفكرية إلى أقدم الديانات الشرقية الزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام»(١٧٦).

العبقرية القومية

في الحقيقة ليس أصح من هذا النص الذي انتقاه صدقي إسماعيل من مؤلفات معلمه الاستاذ الأرسوزي، فيلسوف القومية العربية. قال الأرسوزي:

(١٧٣) صدقي اسماعيل: نفسه.
(١٧٤) (١٧٥) (١٧٦) نفسه

«وجدان الأمة أشبه بالعدسة، تنعكس عليها شتى الأفكار والأحداث فتحيلها إلى طيف خاص. تلك هي الأصالة في حياة الأمة، وهي لا تقتصر على ما يبدع ابناؤها من مؤسسات حية متلازمة تعبر عن «عبقريتها»، بل ان أصالتها تكمن أيضاً في مقدرتها على اصطفاء الثقافات التي تلائم بنيانها، مثلما يصطفي الجسم من الغذاء ما يمكن أن يتحوّل إلى خلايا صحية، تتسم بسماتِه وتتيح له النمو الطبيعي والازدهار»(١٧٧).

وعليه، يصبح الإسلام مؤسسة من المؤسسات العربية الحية، كذلك «البعث العربي القومي» - بعث الأرسوزي؛ وكل ما قد تنتجه العبقرية العربية في العهود والعصور القادمة، وليس صحيحاً أن هذا يذوب في هذا، أو هذا يستبعد هذا، أو هذا يلغي هذا، كما حدث للبعث العربي الاشتراكي الذي أذابه مؤسسه في الإسلام. العبقرية القومية امتلاء من كل شيء قومي. العبقرية تأبى الفراغ. العبقرية ترفض أن يفرغها أحد. العبقرية سلطان في المطلق، وانفتاح في المطلق. العبقرية حياة مستمرة أبداً، لأنها لا تعرف الموت. العبقرية لسان لا يتقلص ولا يتمدد لا طولاً ولا عرضاً. «لقد اختارت الحياة من بين تجلياتها الحسية الصوت،

(١٧٧) نفسه: ص ٢٩.

وهو طوع ارادتها، في انشاء لسانها، بياناً عن بنيانها، ورمزاً للتفاهم بين أبنائها، ووسيلة للكشف عن ماهيتها بخلق ذاتها بذاتها أبداً»[178].

بعد التجربة القومية: التجربة الفلسفية بجانبيها الفني والفلسفي. ففي نطاق الحدس الفني أخذ الأرسوزي من الألماني «شلنغل»، خاصة قصيدته الرومانتيكية الرائعة «لوسنيد»، حيث أشار فيها إلى مقطوعة تعبر عن الملامح الأولى لتجربته الفلسفية وشخصيته الفنية:

«ها أنذا في وحدة صامتة يرفُّ عليها الحنين المقدّس
وكل ما حولي لون وضياء
اذكر الحكماء والذين أحبوا الانسانية جمعاء
كما لو انها الحقيقة الخالدة
وأرادوا لها السعادة وانطلقوا من أجلها يعملون
ان وجوههم الحالمة لتبدو اليوم غبراء بلون الرماد
لماذا الأحلام البعيدة وكل ما حولي
لون صادح ونور بهي؟
إن نفحة حارة من الحياة والحب تنساب إليّ مع النسيم
بل انها تهدأ في الفضاء وتتحرك في جميع أغصان الغابة

(178) الأرسوزي: المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص ٦٠، انظر أيضاً ص ٤٧. نصار: ص ١٤٩.

فيستغرق بصري في تأملاته المرهفة
وأتذوق كل شيء..
نضارة الأوراق الخضراء، والأزهار الناصعة البياض، والثمار الذهبية
وأراك بعين الروح، وحيدة أبدية الجمال
أراك في مدار لا نهاية له من التجدد والنماء
حيناً فتاة صغيرة ضاحكة الملامح
وحيناً امرأة شابة في عنفوان البقاع
يزهر فيها الحب والأنوثة والغموض الساحر
وأحياناً أراك الأم الوقور تحمل بين ذراعيها الطفل الوليد»[179].

ان اختيار الأرسوزي هذه المقاطع وغيرها من رائعة «شلنغل» انما هو شهادة على شخصيته الفنية وما تملك من مقدرة لا على اكتشاف الجمال فحسب بل على صونه والمحافظة عليه وتزويجه من جمال يماثله. وليس غريباً، اذن، «ان يشكل موضوع اللسان العربي العمود الفقري في فكر الأرسوزي»[180] الذي وصفه صديقه الاستاذ أنطون مقدسي بأنه «أول فيلسوف قومي عربي في العصور الحديثة»[181]، مع

(179) صدقي اسماعيل: نفسه ص ٣٣/٣٤.
(180) نصار: ص ١٤٦.
(181) نفسه

الأخذ بعلامة الاستفهام التي وضعها الدكتور ناصيف نصار في نهاية نص المقدسي المذكور.

الزواج والأخلاق والصبوة

سأل زهير المارديني الأستاذ الأرسوزي: هل أحببت في حياتك ولماذا لم تتزوج؟ فأجاب: «لأن الظرف لم يسمح لي، بلادي خضعت للنفوذ الأجنبي فكان من الصعب أن يحفظ الانسان كرامته، ويستقل في معيشته عن هذا النفوذ. كنت بين أمرين، الاستسلام لمشيئة السياسة الأجنبية، أو البقاء في عزلة منفرداً، متحملاً المسؤولية لوحدي. في بعض الأحيان أتساءل فيما إذا كان سلوكي هذا منافياً لمشيئة العناية الالهية، ومع ذلك لم أعرض عن الزواج لأسباب شخصية، وانما لأسباب أخلاقية»(١٨٢).

هذا الفيلسوف الشاعر، والايديولوجي الشاعر، والسياسي الشاعر، أي عقل هو عقله؟ وأي قلب هو قلبه؟ ان عقله عربي من قبل الإسلام، وعربي من عصر الإسلام، وعربي بعد الإسلام، وعربي يحاكي بعبقريته «شلنغل» وكل الشعراء والفلاسفة الألمان ممن بنوا القومية الالمانية زمن العجز أو شبه العجز العالمي.

(١٨٢) عشرة من الناس: ص ١١١.

ويتابع الاستاذ زكي الأرسوزي جوابه عن سؤال المارديني:

«أما موضوع الحب فقد عرفه قلبي، لقد أحببت أكثر من مرة، ولكن حيائي كان يبقيني في أحلامي أنسج الخيالات الجميلة الزاهية، دون القيام بالخبرة الشخصية، ولذلك كنت أعتبر نفسي مثالاً للحب، على اعتبار ان خيالي حي، وخصب، ونفسي غنية بالعواطف، يضاف إلى هذا بأني خجول، ذلك كله يساعد على خلق العاشق، لأن الخجل يبعده عن امتحان رأي المحب فيه، والعاطفة والخيال يتعاونان على قيام الصورة مقام الواقع وانشاء الصورة أكمل فأكمل على مقياس المثل الأعلى المنطوي في نفس العاشق. وقد كتبت في الحب، وكانت رسالتي مليئة بالعواطف والحنان والصور الجميلة..»(١٨٣).

وهكذا أكد الاستاذ الأرسوزي، بشاعرية عربية أصيلة، أن الحب لا يكون مع الذل، ولا مع الشعور بالضعف أو الهزيمة أو كليهما. بل ان أسمى درجات الحب أن ينتهي إلى العشق، وهذا أمر لا تسمح به المناخات الخارجية عن العبقرية والمغلقة والمعزولة.

أما الجانب الفلسفي من تجربة الأرسوزي الفلسفية فهو،

(١٨٣) نفسه

كما يراه المرحوم صدقي إسماعيل، «يمتد بجذوره إلى الأفلاطونية الحديثة»[١٨٤]. ودعاه «فيلسوف القومية العربية»، «بالوحدانية العربية»، مستبعداً بذلك عبارة «التصوف» الذي كان يدل في نظره على العزوف عن الحياة، «وضمور التجربة الداخلية»[١٨٥]. على أن «ارتقاء النفس إلى ينبوعها ومصدر انبثاقها يعني الوجد الذي هو أساس التجربة الدينية»[١٨٦]، وفيها «يلوح لدى الأرسوزي كثير من ملامح أفلوطين»[١٨٧]. وبرهانه أن هناك «الواحد» الأبدي الذي تتوجه إليه الكائنات البشرية لأنها تصبو إلى الأمكنة التي غادرتها ولأنها تريد الاقتراب من «الصورة الالهية». هذه الصبوة هي الحافز الأساسي في الانسانية للحياة الأخلاقية «الفكرية والبديعية»[١٨٨].

من هذه الينابيع الافلاطونية والأفلوطينية غرف الأرسوزي كما غرف من مصدرين متباينين في الفلسفة الغربية «نيتشه» و «برغسون»، وهما «يؤمنان بالحياة باعتبارها الحقيقة، الينبوع الأصيل للحرية في وجود الانسان»[١٨٩] من جهة، و «ينكران على العقل أن يكون أكثر من أداة للمعرفة»[١٩٠] من جهة، فكانت النتيجة أن حقق الأرسوزي لنفسه مكانة فكرية

(١٨٤) صدقي اسماعيل: ص ٣٥.

(١٨٥) (١٨٦) (١٨٧) (١٨٨) (١٨٩) (١٩٠) نفسه

فلسفية قومية ترتكز على الحرية فحسب. «وعلى الرغم من ان الأرسوزي كان يدين الحياة العربية الراهنة، ويعتبرها صورة مشوّهة لحقيقة الأمة، تحفل بكل مظاهر الانهيار والتردي والفساد، فقد كان على يقين من أن روح الأمة «الحية» لا تموت، وان انبعاثها القومي وعودتها إلى التاريخ (لا إلى الدين) قدر لا مفر منه»[١٩١] على قول صدقي إسماعيل.

الرحمانية

يبقى أن ننوه بكثير من التقدير بدراسة الباحث الفلسفي المدقق والملم بالقضايا الفلسفية العربية والغربية الدكتور ناصيف نصار: «البعث القومي وفلسفة العبقرية العربية»[١٩٢]، وهي لفكر الاستاذ زكي الأرسوزي، وقد شرح فيها عدداً غير قليل من نصوصه وعلق عليها، كما تمكن من جمع ما تبناه الأرسوزي من أفكار فلسفية في سبع فقرات: البحث الفلسفي في خدمة البعث القومي، اللسان العربي والحياة، الوجود الانساني والتجربة الرحمانية، التجربة الرحمانية وأخلاق البطولة، الأمة تجربة رحمانية مثالية، بين الجاهلية والإسلام والحضارة. ولعلّ لا أحد يدرس، حتى الآن، فكر الأرسوزي مثلما درسه الدكتور نصار، على أننا

(١٩١) نفسه: ص ٤٤.

(١٩٢) نصار: من ص ١٣٧ ـ ١٩٣.

نأمل من صديقنا العزيز متابعة هذه المهمة الجليلة التي بادر إلى تحقيقها من منطلق الباحث الفلسفي الاستقلالي، الساعي حثيثاً في سبيل فكر عربي حر وابداعي.

هل نكون وفينا الدكتور نصار حقه ان نحن أخذنا بقوله في خاتمة دراسته المذكورة؟ قال الدكتور نصار:

«يتضح من نظرة الأرسوزي إلى التاريخ وإلى المرحلة التاريخية الراهنة، أنه حاول التأليف في اطار فكرة البعث القومي وعلى أساس الفلسفة الرحمانية المثالية بين بعض مقتضيات الحضارة الحديثة، وبين القيم العليا التي تجلت في حياة الانسان العربي الجامعي وبين النظرة القرآنية إلى الوجود والحياة. ومحاولته التأليفية هذه تندرج تماماً في سياق حركة التحرر القومي التي تجتاح المجتمعات العربية وسائر مجتمعات ما يسمى بالعالم الثالث. وبالرغم من أنها لا تبدو متضمنة لنصيب وافر من النقد الفلسفي للايديولوجية السلفية، وبما أنها بعيدة عن العقلانية الاجتماعية التي تحتاج إليها كل حركة تحرر قومي، فانها تطرح مشكلة المضمون الفلسفي في الايديولوجية القومية بصورة قوية وجذرية، وبالتالي فانها تدفع بمشكلة التفلسف في الثقافة العربية الراهنة خطوة كبيرة إلى الأمام»[193].

(١٩٣) نفسه: ص ١٩٣.

ثم هل لمفكرينا الأحرار أن يتذكروا ذلك الأنطاكي النبيل: زكي الأرسوزي، الذي أشقته قوميته وفلسفته وصدقيته لأنه لم يساوم بها لحظة واحدة من حياته النضالية على مدى نصف قرن؟

رسالة

وإذ يسأل الدكتور جوزف الياس، فيما يسأل، عن المغفور له، البعثي القيادي المثقف الطيب النبيل، عبد البّر عيون السود، فاليه واحدة من رسائله التي كان يبعث بها الى رفيقه وصديقه المغفور له صدقي اسماعيل، ذلك أن هذه الرسالة المؤرخة في ١٩٤٦/٢/٢٨، والتي لا عنوان لها شأن كل رسائله، لو أردنا عنونتها فلن نجد أفضل من هذا العنوان: «الانسان الكبير»، الذي هو الاستاذ الكبير زكي الأرسوزي.

قال عبد البر عيون السود[194]:

«عزيزي ص

نهار ممطر. أفقت متأخراً، وأتيتُ إلى هذا المقهى الجديد

(١٩٤) عبد البر عيون السود، محطات خاصة في رحلة.. عمر.. معْلَنة، جمعه ومهد له. نصر الدين فارس، قدم له: أنطوان مقدسي، دار المعارف بحمص: الطبعة الأولى ٣٠٠٠ ـ ١٩٨٩/٤، ص ٨٧/٨٨، والكتاب أهداني اياه مشكوراً الشاعر والأديب الدكتور حسن نمر دندشي. لم نأت على ذكرها في «النهار».

الذي يشرف على ساقية المدينة. أمام النافذة فسحة واسعة، ترتجف فيها الساقية تحت حبّات المطر، وتقبع البيوت والمحلات على جانبيها واجمة... لم تكن هذه الرسالة لك، لأنني حملت الورقة معي لأجيب (ممدوح) على رسالة وصلتني منه البارحة. لكن جلستي القريبة من الاستاذ (زكي الأرسوزي) هي التي حوّلتني اليك. إنه استاذك. وها هو يتحدث على الطاولة المجاورة باستمرار كعادته. إنني أسمعه يقول: «قتل المستعمر فينا كل شيء، حتى الخيال، فليس منا من يستطيع أن ينفذ من خلال الشّلل الذي أصابنا الى صورة نبيلة، ترسم مستقبل الحياة العربية». كلام جميل. لكني أعتذر اليك أن رأيتني أنسحب من جلسته الى هذه الطاولة، محتجّاً بالكتابة، هارباً من حديثه في الحقيقة. إنني لم أعد أستطيع أن أستمع اليه، رغم حبّي العميق له.. ها هو بوجهه الانساني الجميل، وبأناقة كلماته وحركاته، وبطفولته وذكائه، يوحي بانسان حقيقي. لكنه في نفس الوقت يُشعرني بمأساة، علّها نتيجة مأساة أعمّ، مأساة حياتنا العربية كلها، إنّه بقيّة من كفاح، وأطلالُ أمل، وصِدْق يخاطب ذاته فحسب. فقد نجح المجتمع في حصاره له، وتهديم أجزاء من نفسه. ولعله كان اذكى منه.. إذ عرف أن استمرار اضطهاده لن ينال منه، فعمد إلى سدّ الآفاق في وجهه مستغلاً أحسن استغلالٍ طبعه الصريح، وافتقاره للدهاء، يظهره

بمظهر (النبي) الذي لا يُجدي التعامل السياسي معه. وقد كانت هذه الخطة ناجحة تماماً. فشبه النبي هذا الذي وصل في تجربته في الماضي إلى مستوى المناضلين والدعاة الأفذاذ لا يستطيع، وقد اقتُلع من بيئته، أن يهبط الى مستوى الأعمال الصغيرة والخطوات البطيئة والمناورات والمصالح التي وجد نفسه فجأة ضمنها. إنه سيستمر في صوته العالي، فاذا وُضعت الحواجز أمامه ارتدّ الصدى اليه، وأصبح مع الزمن يحاور نفسه ويجترّها، ثم لا يلبث أن يصبح خارج التيار. لم يقتله، لأن القتل استشهاد، بل سلبه سلاحه. إنها طريقة أولاد الأفاعي... ما يؤلم فيه هو ما يبدو عليه من أنه فقد القدرة على المعاناة. انه دائماً في مستواه ذاك، وبحالة نفسية واحدة لا تتغير. يتكلم مع الجميع، ويكرّر أفكاره وأحاديثه، دون أن يهتم بمدى الاستجابة، ولا بالتأثير العملي لكلامه. إنه عارض فقط، وقد يكون متفرجاً أيضاً...

حبذا لو اعتزل الناسَ، هذا الانسانُ الكبير. لكن ما يُلاحظ عليه أنه لا يستطيع أن يبقى وحده أبداً. وسيظل شاهداً على كل حال ضدّ هذا الواقع السافل الذي نعيش فيه..

إنه البطل ينعي نفسه. ولا أحسب أن نهايته ستكون عادية. فإذا كانت فهي مأساة أخرى أشدّ من الأولى.

ما الحاجة الى كل هذا الحديث؟

عبد البر عيون السود

حمص ١٨/٢/١٩٤٦»

أما السؤال الذي به يختم صاحبنا عبد البر رسالته، فرؤيوي شفاف، يحمل جوابه بنفسه: ان الحاجة الى الحديث عن الانسان الكبير، الاستاذ الكبير، زكي الأرسوزي، لن تبطلها رسالة متواضعة، بل كيف نسدّ السيل العرم أو الطوفان بحجر ولو من ذهب!

لقد بدأ الأرسوزي نضاله القومي ـ الفلسفي بالرسالة الأولى من رسائل «بعث الأمة العربية» وفيها:

«أما اليوم، وقد استيقظنا من سباتنا على ضوء الحضارة الحديثة، وانقشعت عنا الأوهام بتأثير المعارف العلمية، تلك الأوهام التي تحصل من التباس الوجدان بالطبيعة، فما علينا اذن إلا استكمال شروط هذه اليقظة بالعودة إلى الحياة في ينبوعيها، الانسانية والطبيعة. ونحن إذا كنا نبلغ الطبيعة بالعلم، فاننا نرتقي إلى الانسانية بفقه تراثنا. ومتى استكملنا شروط نهضتنا بانشاء قاعدة كياننا انشاء متناسباً مع تقدم العلم والصناعة، تمكنا من خلق ثقافة انسانية رفعتها على مقياس فسحة قاعدة حياتنا في الطبيعة، وعندئذ نتمكن من ردع الثقافة الحديثة عن شططها في فهم الانسان، كما ردعَنا

العلم الحديث عن شططنا في فهم الطبيعة»[١٩٥].

هذا هو الاستاذ زكي الأرسوزي الذي ظلمه الكثيرون، وتجنبه الكثيرون، وتهرّب منه الكثيرون، وأنكره الكثيرون، لئلا يحرقهم بنار فكره وفلسفته المتوقدة منذ العصر الذهبي العربي القديم السابق على الإسلام.

والسلام على الدكتور جوزف الياس، الذي أبى الا أن يركب معنا المركب الخشن، «زمن بات الصمت أبلغ من التعبير»، وعلى «النهار» الغراء الصابرة الصامدة، كما على الشاعر المثقف شوقي أبي شقرا.

(١٩٥) الأرسوزي: المؤلفات الكاملة، المجلد الثاني ص ١٣. أيضاً المجلد الأول، ص ٢٧٥، أيضاً نصار: ص ١٤١.

- ٦ -

عَوْدٌ على بَدْء

عصبية المحاور

كنت في الصفحة الأخيرة من المجلد الثالث من «مذكرات خالد العظم»[1]، عندما عاد الدكتور جوزف الياس، وعبر «النهار» الغرّاء أيضاً[2]، بالرد على بحثنا ذي الأربع حلقات في الاستاذ الراحل ميشال عفلق وبعثه وعروبته وإسلامه[3]، وسرعان ما قلت لنفسي: مرحباً بالعائد، ومرحباً بالبحث

---

(١) ثلاثة مجلدات من القياس الكبير. الأول: ٤٠٠ صفحة إلى فهرس الاعلام. الثاني: ٥٠٧ صفحات إلى فهرس الاعلام. الثالث: ٤٥٥ صفحة إلى فهرس الاعلام. الدار المتحدة للنشر - بيروت ١٩٧٢.

(٢) الحلقة الأولى: السبت ١٨/١١/١٩٨٩، العدد ١٧٤٨٣.
الحلقة الثانية: الاثنين ٢٠/١١/١٩٨٩، العدد ١٧٤٨٤.
الحلقة الثالثة: الاربعاء ٢٢/١١/١٩٨٩، العدد ١٧٤٨٦.
الحلقة الرابعة: السبت ٢٥/١١/١٩٨٩، العدد ١٧٤٨٩.
الحلقة الخامسة: الاثنين ٢٧/١١/١٩٨٩، العدد ١٧٤٩١.

(٣) انظر الحلقات الأربع، من ٢ إلى ٥.

الموضوعي الهادىء الرصين، ولله درّ الدكتور من باحث أبت غيرته «على البعث ومبادئه» (١/٢)[4] إلاّ أن يظهر «عصبيته» (١/٢)، كل «عصبيته»، ولو كره القراء الكرام وكرهنا.

يحاول الدكتور جوزف الياس، هذه المرة، قفزة نوعية، إذ ينتقل، على قوله، من «التعقيب» و«الاستدراك» و«التوضيح» إلى الرد، والرد الكامل، وطبعاً بمطوَّلات، وما أدراك ما المطوَّلات العقائدية. ولو أحد سأله: ما الخطب؟ أجاب: انه الرفض للرفض، بل الحرب للحرب، فانصر «استاذك» ظالماً أو مظلوماً، ناجحاً أو فاشلاً، طيباً أو خبيثاً، عبقرياً أو غبياً، خادعاً أو مخدوعاً، طوباوياً أو واقعياً، ديموقراطياً أو انقلابياً، زاهداً في الحكم أو راغباً فيه حتى الاشتهاء والانتحار.

المناعة العفلقية

ويتمسك الدكتور جوزف الياس بما يعرف بعثياً، وبعثياً فقط، وهو محصّن نفسه، على ما يبدو، بزنار عفلقي لا يحرق ولا يغرق، ولا أحد يستطيع فكه مهما يكن خبيراً بفكفكة الأحزمة والزنانير وسائر الحواجز والواقيات. «قلنا في صدر

---

(٤) سنحيل داخل النص الى الحلقات الخمس. الرقم الأول يشير الى الحلقة والثاني الى العمود.

مقالتنا، اننا نعقب ونستدرك أو نوضح، فدعا الاستاذ جحا ذلك رداً ورداً كاملاً، وأبى الا أن يرد، فلو علمنا أنه سيجشم نفسه كل هذا العناء، لما كنا عقبنا واستدركنا وأوضحنا، وهو ما زال يصر على أنه يرد على مقالتنا الثلاثية، لذا ردّ برباعية. فهنيئاً للاستاذ طلاقة اللسان، وسيولة القلم، وغزارة الانتاج» (١/١).

ولكن البحوث كما تعلم، يا دكتور جوزف، تقتضي فيما تقتضي العناء والجهد والسهر والمتابعة، فضلاً عن الاخلاص للعلم والحقيقة. ولولا «المناعة العفلقية» المهيمنة على لسانك وقلمك، لشكرت لنا هذا الاهتمام، بأستاذك وبعثك، وهذا العناء. رحم الله ميشال عفلق الذي شُغلنا برحيله وغربته ومعاناته وتحوّله السري إلى الإسلام، حتى كان منك ما كان، ويا ليتك لم تنس أن الذي يتعامل مع «الأساتذة» بروحه وعقله وقلبه ليس مثله الذي يعتبرهم من «الراسخين في العلم» أو المحيطين بعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ولا الذي تتهلل نواجذه عندما يضحك كالذي يفقد توازنه إنْ حزن أو فرح.

كتاب المارديني

لقد أخذ علينا، في الأمس، الدكتور جوزف الياس الاستعانة بكتابي الدكتور سامي الجندي والاستاذ جلال

السيد: «البعث» و«حزب البعث العربي»، في حين سُرّ، وسُرّ كثيراً، باستعانتنا بكتابه، الذي نؤكد للمرة الثانية أهميته: «تطور الصحافة السورية في مائة عام ١٨٦٥ - ١٩٦٥»، ومن عجب أنه ما زال محاصراً بكتابي الجندي والسيد هذين، وربما لن يفك حصاره في المستقبل المنظور. وها هو الآن يأخذ علينا الاستعانة بكتاب الاستاذ زهير المارديني: «الاستاذ - قصة حياة ميشال عفلق»، معتبراً أن معظم ما نقلناه عن المارديني «فضيحة أدبية»، «قرأناه في كتاب سامي الجندي، ويكاد يكون حرفياً، باستثناء كلمات قليلة» (١/٥)، ويلومنا على سكوتنا عن هذه «الفضيحة» (١/٥).

والواقع، يا دكتور جوزف، أن المارديني ليس في كتابه المشار إليه أي اهتمام بالمنهجية التي نعتمد، مهما يكن رأيك فيها، وتعتمد، وانما اكتفى بذكر بعض المراجع التي نقل عنها بتصرف شديد حيناً بلغ السرقة، وخجول أحياناً، ما جعلنا نغض الطرف عن هذه الهفوة المنهجية ونسامحه، ناظرين إلى الغاية النبيلة المتحكمة حتى في جزئيات عمله الأدبي - الصحافي الجميل الرشيق هذا. ومن يعرف المارديني في مختلف ما كتب قبل «الاستاذ» لا يمكنه الا أن يرى إلى ما رأينا، فلماذا قرع الطبول اذن، وضرب

الصنوج؟ بل لماذا «جرُّ العضلات» و «التنكيل» بريشة ناعمة خفيفة، أو هي «العفلقية» محطمة القوارير والريش والصور و «الأيقونات»؟!(*١)

المنطق المحزون والمغموم

ماذا يريد الدكتور جوزف الياس من مطوّلاته الخمس البعثية العفلقية؟

نسأل أنفسنا، ولا نسأل الدكتور الياس، ولكن هل ينفع الجواب يا ترى، أو هو المنطق «التحزبي» بل «العفلقي» المحزون والمغموم؟

يريد الدكتور جوزف الياس، بكل ما لديه من مطبوعات عفلقية، أن يبرىء ساحة «أستاذه» عفلق وربما ساحة رفقائه القياديين أيضاً، ولو كلفه هذا الأمر التنازل عن اللاذقية

(*١) ولكن الدكتور جوزف الياس أبى الا أن يجر، على المارديني، «كل عضلاته»، بغية «تحطيمه» والتأكيد على «جريمته الأدبية»، فجشّم نفسه اكثر مما ينبغي، حيث نشر، في «النهار» الغراء، ابتداء من ٦/٧/٩٠ ولغاية ١٨ منه، ست مطوّلات ونصف المطوّلة، غلبت عليها النزعة الانتقامية لا للاستاذ عفلق، بل لأصحاب الكتب التي عنها أخذ الماريني ما أخذ، ورغم ذلك حملت هذه المطولات «عنواناً رئيساً» سيرة عفلق، ولست أدري: هل ارتاح صاحبنا الدكتور الياس الذي «أتعبناه» صيف ١٩٨٩ اذ أركبناه «المركب الخشن»؟

وطرطوس ودمشق وحمص وحماه وحلب وأنطاكية ودير الزور وكل سوريا.

ويريد الدكتور جوزف الياس كذلك أن يسخّف شعباً يحب زعماءه التقليديين ويرفض التفتيت والتقسيم والقوقعة، ليقول ان الله قد خلق ميشال عفلق واستقال لئلا يشغل نفسه بخلق عفلق آخر، فاما أن نؤمن وإما أن نكفر.

ولتحقيق هذين الهدفين المثاليين، انطلق الكاتب، في مطوّلته الخماسية الجديدة، من حيث انطلقنا نحن في رباعيتنا، من «البعث والسلطة»، وبالأسلوب عينه، ثم قلب لنا ـ فيما بعد ـ ظهر المجن وراح يمارس علينا «القسوة الأكاديمية» (٤/٥)، مؤكداً على أن طلب البعث للسلطة انما هو «طموح طبيعي» مثله مثل «الطموح الطبيعي لدى كل حزب» (٢/١)، ويعدّ قولنا بأن «القيادة التاريخية للبعث قد دمرتها شهوة الحكم» من «سُوَر الغضب»، ما يرفضه الكاتب رفضاً مطلقاً عصبياً لا يلين ولا يتراجع (٢/١). بيد أننا لا نعلم أن بياناً حزبياً أو رئاسياً أو نيابياً أو وزارياً وضع ولم يكن مملوءاً بأعظم الآمال ووعود الاصلاح غير المحدودة، وبايصال الأمة إلى أقصى ما ترجوه من عزة وسعادة وازدهار واستقرار، ما يعني أن القضية ليست في البيانات والشعارات فحسب، بل في النيات والأعمال أيضاً.

قبل أن ينضج «البعث» عقائدياً وسياسياً وشعبياً، تطلعت قيادته «التاريخية» إلى الحكم، فكانت رغبتها فيه أكبر من ارادتها، بل فاقت «حقها الطبيعي» حتى أصبحت شهوة نارية عارمة مضطرمة كما بيّنا في البحث السابق. على أن أي حزب استعجل الوصول أو تسرع في تحصيل «حقه الطبيعي في السلطة» انما انتهت قيادته إلى ما انتهت إليه «القيادة التاريخية» لحزب البعث. والمهم ليس انتزاع السلطة، كما كان يحسب عفلق والبيطار، بل المحافظة عليها وكسب ثقة الأمة وحبها واحترامها.

أما أن يتذرع الدكتور جوزف الياس بـ «ثورية البعث» (١/٧)، و «انقلابيته الداعية إلى تغيير شامل» (١/٧)، و «طليعيته» (٢/١)، فأمر أقل ما يقال فيه انه غير كاف وغير منهجي، ذلك أن من غير الجائز «القفز فوق المراحل أو عبرها، والهروع إلى الأمام»[٥]، بل «من المستحيل إحداث أي تغيير دون الأخذ بالحسبان مصالح المواطنين المتنوعة واهتمامات الجماعات الكادحة والمنظمات

(٥) م. س. غورباتشيوف: بيريسترويكا (والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع)، الترجمة العربية، دار الفارابي ١٩٨٨، ص ٧٠.

الاجتماعية ومختلف المجموعات الاجتماعية، ودون الاعتماد عليهم جميعاً عبر جذبهم للمشاركة في عملية ابداعية ناشطة»[٦]، والأمر جعل الاستاذ الكبير زكي الأرسوزي ينكفىء عن العمل السياسي اليومي إلى التأمل والتفكر والفلسفة، حين استسلم كل من الاستاذين ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار لشهوة الحكم، فانطلقا ينازعان الأحزاب والمؤسسات والأشخاص دون النظر إلى خطورة هذه المرحلة على الحزب والشعب. فكان، في الحالة هذه، لا بد من أن يختلف كلامنا في الحلقة الرابعة: «مقالة الاستاذ الكبير زكي الأرسوزي» كما سماها الدكتور الياس (٤/١)، عن كلامنا في الحلقات التي سبقتها. ومن أسف أن الدكتور الياس، «المنهجي الصارم» (٥/٤)، لم يستوعب هذه الضرورة، فراح يتهمنا بـ «الغلو» و «التسرّع» في أحكامنا وقراءاتنا، فعدّد لنا تسع «تجاوزات» من هذا النوع المزعوم (٥/٣)، وظل على «كرسيه الأكاديمي» ولسانه: «اقعدْ مستقيماً واحكِ أعوج». بيد أنه لم يقعد مستقيماً تماماً.

لذلك لا نرى أي مبرر لاستمرار هذا النقاش إذا لم يلتفت الكاتب إلى الأحداث التغييرية السياسية والعقائدية التي تغطي، في هذه الأيام، العالم الشيوعي الآخذ في التغيّر من

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٥.

أجل الانعتاق والحرية. كما لا نرى أي معنى لهذا النقاش ما لم يبد الكاتب رغبة في التخلي عن تلك «المسلمات» و«الثوابت» البعثية العفلقية، الواقع تحت تأثيرها ويستند إليها دون سواها.

على أن أقصى ما نرجوه من هذا الاكاديمي، الذي قسا علينا ثم قسا، حتى تشنجت أعصابه وارتفعت «حرارة إيمانه بصحة ما يكتب» (٤/٥)، فتجاوزت حدّها الطبيعي ودخلت في دائرة الخطر، أن يخرج، وعلى الفور، من تلك الصفوف الطويلة التي لا هم لها غير القراءة في الكتاب الواحد وعلى الاستاذ الواحد. ولا يحسبن صاحبنا أننا سئمنا النقاش والحوار، بل نؤمن ايماناً ثابتاً قاطعاً بوجوب «اعادة التفكير مرة في كل شيء وعلى نحو تطبيقي، يتناول جميع مجالات الحياة» والعمل الجدي على «ترجمة ذلك إلى لغة الحياة العملية»[7].

اذن، بهذه «المفهومية» بادرنا إلى معالجة غربة الاستاذ عفلق وعروبته وهزائمه وعدوله إلى الإسلام. وبهذه «المفهومية» أيضاً، رددنا ونرد وسنرد لا على الدكتور جوزف الياس فقط، بل على كل من يود المشاركة في هذه المعركة الفكرية والثقافية والسياسية، ولا من ثمن على أي من الراغبين سوى الوضوح والصراحة والموضوعية.

(٧) المصدر نفسه: ص ٣١.

الكتاب الواحد والاستاذ الواحد

ليبق الدكتور جوزف الياس عفلقياً أو كما يحب ويهوى. ولكن زمن القراءة في الكتاب الواحد وعلى الاستاذ الواحد قد انتهى إلى حيث لا رجعة. نعم، انتهى هذا الزمان، وليس منطقياً أن ننتهي معه.

هل نبقى إلى «المائدة العفلقية» حتى تنشف عقولنا وتتقدد أمعاؤنا وتحترق أعصابنا، فيما هجرها سيدها، عفلق نفسه، قسْراً أو طوعاً، إلى «المائدة الإسلامية»، وربما غير آسف؟!

ماذا يفيدنا التشبث حتى العمّية أو الضلال الكبير بالقول ان اشتهاء البعث العربي الاشتراكي للحكم لم يكن سوى «حق طبيعي»، وقد انتحرت قيادته على أبواب السلطة وخرجت من التاريخ؟ وبأي منطق نعتبر الذي تغلبت شهوته على عقله وارادته ضحية مؤامرة ما؟.

أجل، لقد أكْثَرْنا في رباعيتنا من الشواهد والاقتباس واقتطاع النصوص، ذلك لأننا نرفض السرقات الفكرية والأدبية، ونحترم كل صاحب نص أو فكرة أو رأي أو بيان، بمثل ما نتمسك بحريتنا في نقد هذا النص وهذه الفكرة وغيرهما، ونكره التعدي على حق أي من المؤلفين والكتّاب. ولسنا من اولئك الذين يغشّون القارىء بأن يمزقوا له النصوص أو يلزموه بتلخيصهم إياها تلخيصاً غالباً ما يسوده

الهوى والعاطفة. ومن الذي يضمن لنا، ونحن الذين نكتب للخاصة والعامة في آن، أن تكون لدى جميع القراء المصادر والمراجع التي نعتمد؟ ولا من عيب أن يكون جودنا قليلاً، بل العيب أن ندعي الجود، وأخشى ما نخشاه أن يظن الدكتور جوزف الياس أن مطوّلاته العفلقية جود من جوده.

إذا كانت القراءة تشترط الانفتاح والاحاطة والاستيعاب، فإن الكتابة، ولاسيما المبحثية، ينبغي لها أن تكون أمينة وتحليلية واستنتاجية. على أن الجود ليس في الاستنتاج حصراً، بل في الاختيار والتطبيق والعرض والتحليل والمقارنة. وما أندر الجود، وأقل المذاق، وأسوأ الهضم، عند اولئك الذين لا يقرأون إلا في الكتاب الواحد وعلى الاستاذ الواحد، ولا يأكلون إلا من المائدة الواحدة. واذ هال الدكتور جوزف الياس ما أظهرنا من حقائق وبينات، ارتبك عقله وانشغل باله، ان لم يكن قد ندم على تلك الثلاثية التي تصدينا لها. وقال مفتتحاً خماسيته: «قرأنا للاستاذ مصطفى جحا (...) فأخذنا قليل من التعب، وكثير من الدهشة والعجب، واكبرنا هذا الفيض عنده، وتلك الغزارة في قلمه، وان يكن هو اكثر من الشواهد والاقتباس، واقتطاع النصوص، التي تبلغ أحياناً بضع صفحات من الكتاب الواحد»(١/١).

وكان بوده أن يرد علينا فوراً وقبل خمود «الحرارة» أو تلاشيها، ولكن القلم تمنع وعصى رغم الغليان الشديد الذي غالبه. «فقد خشينا في بادىء الأمر الّا نكون في مستوى الرد، وترددنا نحواً من شهر، قبل أن نحزم أمرنا ونقرر، حتى اذا قرّرنا وبدأنا الرد، حالت أسباب خاصة وقاهرة(؟) دون المضي فيه سريعاً. ومع ذلك، فنحن من أعداء التسرع في الكتابة، ولسنا من أنصار السرعة، ولاسيما في رد كهذا، فكلما طال الوقت، كسرت شوكة الحدة وكانت الغلبة للعقل والمنطق»(١/١).

لم نتقصد، أبداً، ارهاق الدكتور جوزف الياس إلى هذا الحد. ولا أردناها مبارزة «طالبية ـ أموية» أو «شامية ـ بغدادية» أو «ارسوزية ـ عفلقية». وبرغم ذلك قرّر الدكتور الياس لا مبارزتنا بل جلْبنا الى «محكمة البعث»، وقد امتلأ رغبة لاسترداد إعجاب زملائه وطلابه وأصدقائه ورفقائه القريبين والبعيدين، فيما غاب عنه أننا لم نفكر في أن نكون عقبة بينه وبين هذا الاعجاب. وغاب عنه كذلك أننا ممتلئون رغبة في تصحيح الأمور ووضعها في نصابها.

ويكمل الدكتور الياس، «المنهجي المتشدد»، استهلاله:

«تحبسُ النفَس، وتركض وراء الاستاذ جحا لاهثاً من مضاء عزيمته وقلمه، من حماسته وغلوه، من كثرة المفردات أو العبارات المحصورة بين مزدوجين. فيالها من فخاخ وأحاج! ويا لكثرة الوخز والغمز واللمز!»(١/١).

أحكمٌ هذا أم تمهيد للحكم؟

نكاد أن نقول: يحق للاكاديمي الصارم القاسي ما لا يحق لسواه. ولكن ما سرُّ تشبيه الدكتور «وخزنا» بـ «العلاج على الطريقة الصينية»(٢/٥)؟!

الحمد لله، ان الدكتور تمكن، بعد حبس النفَس والركض واللهث، من الرد الجامع المانع: أربع مطوّلات وثُمن المطوّلة وخاتمة، فكأنه لا تعب، ولا ركض، ولا لهث، ولا جرّب «العلاج الصيني»، ولا همه «تهويلنا»(٢/٥)، ولا التفت الى منطقنا «التبريري»(٢/٥)!

أعمدة ظلم وظلام

أعمدة، أعمدة، عناوين، عناوين، شواهد، شواهد، ملخّصات، ملخّصات، ولاجديد بعثياً تحت الشمس.

براءة ذمة «الاستاذ» بداية الخماسية ونهايتها. وبين الإستهلال والاختتام: لوم وتثريب وتقريع، وقفز من فوق «القوس» الأكاديمي، واحكمي يا عروبة ما شاء لكِ أن

تحكمي، وانهضوا يا كل «القضاة الالهيين» ما شاء لكم أن تنهضوا.

لماذا؟

لأن «الكنز العفلقي» وقع في يد غير عفلقية أي غير مأمونة الكف والأصابع. ويأبى الدكتور جوزف الياس، ويأبى الله معه، الا أن يسترد هذا «الكنز العظيم» ويعيده الى مكانه الطبيعي. واذن، الحكاية هي هي، مع الدكتور الياس كما مع النصيين المؤمنين والملحدين والوطنيين والقوميين: من ليس معنا فهو ضدنا. القراءة بالعين الواحدة، وفي الكتاب الواحد، وعلى الاستاذ الواحد. على أن الكل مع التفسير وعكسه، ومع التأويل وعكسه، ومع الحرية وعكسها، وما هو حرام هنا حلال هناك والعكس بالعكس.

وبرغم الشواهد الكثيرة واقتطاع النصوص التي يتذمر منها الدكتور جوزف الياس في رباعيتنا ويبيحها لنفسه في ثلاثيته كما في خماسيته، فنحن متّهمون بالقراءة النصفية، الناقصة طبعاً، ومتهمون بتمزيق الآية: «لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى»، ونُعتبر من جماعة «لا تقربوا الصلاة..» أو جماعة «لا إله..»، بل من الذين لا يفهمون، والذين لا يعرفون، والذين لا يدركون، والذين لا يبصرون. واذا قلنا: ان المعرفة ملك لمن يسعى في تحصيلها، قلبوا

الشفاه، وزأروا، وزمجروا، واستصرخوا، ولطموا الجباه
والخدود والصدور، واستفظعوا، واستنكروا، واستهجنوا،
واستغاثوا، واستنجدوا، وساقونا إلى أقرب «محكمة شعبية»،
إنْ لم يحرضوا علينا ذوي الرقاب الغليظة والزنود المفتولة
والعضلات المنفوخة. ومثلما الأجر على قدر المشقة بحسب
بعض الفرق الايمانية، فالجريمة في رأي النصيين على قدر
الاستنتاج، ذلك أن الاستنتاج عند المذهبيين والعقديين
والنظريين اللاعمليين ممنوع، بل مقموع بمختلف الوسائل
والأدوات.

النصيُّون، اذن، دبابير، أصغر كلمة تغضبهم، وأقل
حركة تهيجهم وتخرجهم من أوكارهم، ليعربدوا، ويفتكوا،
ويدمروا، وينهبوا، ويستبيحوا، مثلما هو معروف عند ذوي
«الحق الطبيعي» بل «الحق الالهي» ودفاعاً عنه وعن مالكيه،
«المرسلين» و«الموهوبين» و«الملهمين».

لقد صفعنا الدكتور جوزف الياس بأربع مطوّلات وثمن
المطوّلة وخاتمة مثلما قلنا، وجميعها على طريقة ضرب الحديد
بارداً، فلا حرّر «استاذه» من غربته وانطوائيته وازدواجيته
وعثرته، ولا انتشل «بعثه» من نهر الدم الذي فجرته «القيادة
التاريخية» البعثية بين العاصمتين العربيتين المتضاربتين منذ
عهود وعهود: دمشق وبغداد، وكان لنا، نحن اللبنانيين، منه

نصيب غير قليل. أما «الكنز العفلقي»، ويا له من كنز، فقد
عُرف على حقيقته، ولا أعتقد أنه يستحق هذه الضجة وهذا
الركض الذي تُخشى عاقبته.

بدعة جديدة

ولضرورة الابتداع والاختلاق والابتكار والافتكار، طلع
علينا الدكتور جوزف الياس ببدعة جديدة مفادها أن
«الاساتذة» أبرأ من «يوسف الصديق»، الذي «قُدّ قميصه من
دبر»، أما الجريمة، أما الغدر، أما الخيانة العظمى، فمن
عمل «العسكر» عموماً، و«اللجنة العسكرية» خصوصاً
(٢/٦). وصدّق الدكتور الياس الحكم على اللواء صلاح
جديد بأنه «لغْم زُرع في قلب البعث» (٢/٧)، فكأن البعث
جسد واحد ذو قلب واحد. وهكذا يكون الباحث بعثياً قد
نسف بنفسه كل ما قاله، إنْ في الثلاثية وإن في الخماسية،
عن الخصب والتفريخ البعثين العجيبين الغريبين الشاذين.

ويزيّن لنا الدكتور جوزف الياس، من خلال هذه
الأعمدة، أعمدة الظلم والظلام، أن البعث جسد واحد ذو
قلب واحد، «تزوج العروبة» (٢/١)، و«فرّخ أحزاباً»
(٢/١) لا يمكن حصرها. مبروك، مبروك. من تزوّج وفرّخ
ما مات.

ومن فضائل الدكتور نفسه أنه عاد واكد وجود الأجنحة

التالية: جناح أو الكتلة الأرسوزية، جناح الحوراني، الجناح العسكري = الجناح القطري، جناح عبد الله الريماوي، جناح علي صالح السعدي وحمود الشوفي (١/٢) فقط لا غير. على أن هذا البعث، برؤوسه وقلوبه واقدامه وأجنحته وما بين أجنحته، لغمه عسكري واحد: اللواء صلاح جديد!!

بئس الابناء الذين لا يحمون آباءهم. بل بئس الآباء الذين يتركون أبناءهم للازقة والحانات والشذّاذ والحسّاد والخبثاء والمتآمرين والحاقدين على «العقيدة» و «الشعب» و «الأمة».

أيُّهم الذين أكلوا الحصرم، وأيُّهم الذين ضرسوا؟

قال الامام علي: «حدِّثْ العاقل بما لا يليق، فان لاق له فلا عقل له».

ومن أسف أن الباحث قد حدّثنا بما لا يليق، وهو يلح علينا إلحاحاً شديداً أن نصدّقه، ونصفّق له، ونقدم الاعتذار والاسترحام، حين فاته أن يرى إلى هذه الفوضى البعثية في الخصب والتفريخ والتربية والتعليم والاشراف «الأبوي» والتوجيه، ويحدّد المسؤوليات.

أسئلة وأجوبة

صحيح أن الدكتور جوزف الياس قال مختتماً خماسيته: «ان

هذا ردنا الأخير، فما لنا عودة إلى هذا الموضوع الشائق الشائك في آن» (٥/٤)، ولكنه طرح علينا، في رُحْب مطوّلاته، أسئلة كثيرة، نحاول أن نجيب عنها، أو عن معظمها، بما أمكننا وبدون استطراد أو استرسال:

ـ سأل الباحث متعجباً: «ماذا هناك غير الأخضر واليابس؟ وماذا تحت وفوق الجهات الأربع؟» (١/٣). ويطلب أيضاً أن نوضح بحجارة من بنى البعث أمجاده (١/٤)، وما الأعمال السرية والمسرحيات «التراجيدية» التي شهدتها شقة «الاستاذ» الجديد في حي «الازبكية» ـ الشام؟؟(١/٥).

سبحان الله، نؤكد على الزواج والخصب والتفريخ والتمزق الذاتي، وعلى الأجنحة المتصادمة المتناحرة المتكسرة، والانقلابات والمؤامرات والدسائس والخبائث وما اليها، ونسأل ونتساءل ما شاء لنا أن نسأل ونتساءل!

ان بين الاخضر واليابس، يا دكتور جوزف، الهواء وما يشبهه. ويقال، مع احترامي لك: «فلان أكل هوا»، و «فلان ضربه الهوا»، و «فلان جنّنه الهوى». أما عن عواصف الانقسامات التي هبت على البعث من تحت وفوق الجهات الأربع، فهي العواصف المولودة من العواصف، البعثية لا الجبرانية (نسبة الى جبران خليل جبران

في «عواصفه»)، ومرجع جميعها: النفوس الأمّارة بالسوء، الداخلية والخارجية، ومن لم يصن نفسه لن يصونه الآخرون. لذلك، فان «كل مكان يُنبِت العز طيّب» حسبما يقول شاعرنا الكبير المتنبي[8]. ولا إخالك تظن أن شَقة الازبكية كانت طيبة، وفيها حدث للأستاذ ما حدث. لقد تفجرت «الاسرار» ونُفذت «المسرحيات»، اذ ضرب من ضرب وهرب من هرب. وهكذا تأكد أن الشقة المشار إليها انما كانت شقة الشؤم والحظ السيء والانفلاش حتى الرحيل تحت جنْح الظلام. ولعلّ الكثيرين قالوا آنذاك: لقد تعرى الاستاذ من ثيابه فبرد. معنى القول انه لو بقي (الاستاذ) في «الميدان»، ويا لطيب الحي ودفئه وكرمه وسخائه ومجده، لما شرب تلك الكأس، ولربما جنّب نفسه خطر «الطاعون الأصفر»، «طاعون البعث الأول» (٢/٥): صلاح جديد.

ويتراءى لي أن سؤالك عن «الحجارة»، حجارة أمجاد

(٨) أصل البيت:

«وكل امرىء يولي الجميل محبّب
وكل مكان يُنبتُ العزَّ طيّب»

من قصيدة قالها المتنبي يمدح كافوراً وقد حمل اليه ست مئة دينار
الديوان، بشرح أبي البقاء العكبري المسمّى بالتبيان في شرح الديوان، دار المعرفة، بدون تاريخ، المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٨٣.

البعث، كأنه سؤال العارف، وعلى كل، فهي ـ يا حماك الله ـ من كل مكان قصي ما عدا سوريا. ولو أنها (الحجارة) كانت غير ما نزعم لما ذهبت هباء منثورا. ونرجو أن تعلم أننا قد وضعنا الشيء في موضعه، وعوّلنا على علمك وفضلك، يقيناً منا بأن الشيء، أي شيء، يُطلب من معدنه فحسب. بل يقيناً منا بأنك تعرف جيداً أن الأمور، كبيرة كانت أم صغيرة، انما نجاحها أو فشلها بقوة الاسباب ليس الا. في هذا المعنى قال الشاعر العباس بن الاحنف[9]:

«ما أنت بالسبب الضعيف، وانما
نُجْحُ الأمور بقوة الاسباب»[10]

وقيل في القوم الذين يتعاونون ويتناصرون فيظفرون: «لا يعجز القوم اذا تعاونوا». وقيل العكس في اولئك الذين يكره بعضهم بعضاً، ويحسد بعضهم بعضاً، ويتآمر بعضهم على بعض، وهي حالة البعثيين، قيادة وأجنحة، أساتذة وتلاميذ، «آباء» و«أبناء»، مدنيين وعسكريين. ومهما يكن، فان

(٩) العباس بن الأحنف (أبو الفضل) (ت ٨٠٧): شاعر نشأ في بغداد. له مع الرشيد أخبار. شعره في الغزل. له ديوان.

(١٠) عن كتاب «دلائل الاعجاز»، تأليف: عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: «أبو فهر، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، رقم الايداع ٢١٧٩/٨٤ ص ٣٥٥.

«العيان لا يحتاج إلى بيان»، فانظرْ الى ما كان واحكمْ، ولا تنظرْ الى ما يجب أن يكون.

«الاستاذان»

مسكين ميشال عفلق الدمشقي. وضع نفسه وجهاً لوجه أمام الاستاذ الكبير زكي الارسوزي الأنطاكي، فكانت الريح مؤاتية، والاسباب كثيرة وقوية، كشفنا عنها في ما سبق. العلوي المهجّر انكفأ الى فلسفته وذاته، مثلما قلنا، والارثوذكسي الميداني (نسبة الى حي الميدان) ركب بساط السياسة الشموس اللعين، ولم يعلم أنه ساع بنفسه في هلاكها. «وفي الثلاثينات ظهر حزب البعث كتنظيم بدأ يمارس نشاطه سراً في دمشق اثناء الانتداب الفرنسي وكان تأثيره في وسط الشباب والطلبة بوجه خاص.. وكان برنامج الحزب يحتوي على هدف الوحدة العربية. وقد استطاع ميشال عفلق أن يصل إلى موقع الأمين العام للحزب بعد تصفية زكي الارسوزي أحد الرواد الاوائل لفكرة البعث وأحد المتحمسين والداعين لمبدأ الوحدة العربية»[١١].

بيد أن هذه «التصفية» لم تتعد الحالة الشكلية والآنية. ذلك أن النفوس الكبيرة لا تركض وراء المناصب، ولا

(١١) محمد عبد الحكيم دياب: الثورة العربية المعاصرة، دار المسيرة - بيروت، طبعة ١٩٧٨ ص ١٦٨.

تستعجل الأرباح والمكاسب، ولا تزايد، ولا تزاحم طماعاً، ولا تنافس حسوداً، بل تتوارى، وتنزوي، لتعصر العقول الجبارة، وتخمّر الأجيال، وتروي الأرض العطشى، وتسقي الجنائن والحدائق.

«واندمج حزب البعث مع الحزب الاشتراكي (حزب اكرم الحوراني) تحت اسم جديد هو حزب البعث العربي الاشتراكي سنة ١٩٥٣ ومع نمو الدور القومي لثورة ٢٣ يوليو (تموز) الناصرية وتعاظمه بدأ الحزب يسعى جاهداً لاستمالة القوى الشعبية التي التفّت حول عبد الناصر.. ونما داخل الحزب تيار يشير الى أن البعث حزب بلا قيادة لها نفس شعبية عبد الناصر الذي استطاع أن يشد اليه جماهير الأمة العربية كلها من المحيط الى الخليج دون حزب.. فعمل بعض قادة الحزب، الذين اسقطوا فيما بعد، على ركوب موجة الدعوة إلى الوحدة التي بلغت ذروتها بعد انتصار سنة ١٩٥٦ وفرضت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨.. وشارك البعث في ادارة دفة الحكم في الجمهورية العربية المتحدة وأيضاً شارك أحد قادته البارزين في إسقاط دولة الوحدة بتوقيعه على وثيقة الانفصال سنة ١٩٦١»[١٢].

اذ ذاك تبين لكل ذي عقل وبصيرة أن بساط السياسة

(١٢) المصدر نفسه.

البعثي العفلقي لا يُروَّض ولا يُهجَّن، بل يَخدع ويَغدر، ويتبع المأساة مأساة، والكارثة كارثة.

دغْمتة[١٣]:

لقد تضمنت خماسية الدكتور جوزف الياس، فيما تضمنت، عبارات عديدة طرحها الكاتب إما سهواً وإما تضليلاً، منها: «ومن نحن لندين الرجل (عفلق وكونه مات مسلماً)؟» (٣/٣)، و «أنهم (قادة البعث)، بحكم مثاليتهم وغيرتهم على الوحدة (السورية ـ المصرية)، يُخدعون (بضم الياء طبعاً) بسهولة، ويقبلون أن يكونوا ضحية» (٣/٣)، «والإسلام الذي يشكل أقصى طموحه (عفلق)» (٣/٧)، و «أما عفلق ففنان وأديب، هجر فنه وأدبه إلى العقيدة، فنجح إلى حد ما، وحين جنح إلى السياسة فشل» (٤/٦).

لا نحتاج إلى أكثر من هذه الأدلة لنقول للباحث: لم يبق من خماسيتك، يا دكتور، سوى الحبر، والحبر فقط. واسمح لنا بأن نمثّل لك هذا المثل: «لأمرٍ ما يسُود من يسُود» أي لا يسود الرجلُ قومه إلا باستحقاق. فهل يستحق استاذك ورفقاؤه القياديون أن يسودوا قومهم؟

---

(١٣) دغمتة: نحت من لفظة «دوغمائي» أو «دوغماتي»، أي الجمود العقائدي (البيريسترويكا ـ حاشية (*) ص ٥٧).

أنت قلتها، ـ نرجو أن يكون صحيحاً ـ ونحن من فمك ندينك: «مثاليون.. يُخدعون بسهولة، ويقبلون أن يكونوا الضحية». أين ذهبت، يا دكتور، بالقيادة التاريخية؟ ألا ترى أن قولك هذا ينسف قولك: «ومن نحن لندين الرجل؟»؟، بل ينسف كل «لوائحك» التي قضيت في جمعها وتحقيقها حوالي ثلاثة أشهر؟ وأي عقائدي قومي علماني اشتراكي هذا الاستاذ الذي يشكل الإسلام «أقصى طموحه»؟ وعن أي فن، وأي أدب، تتحدث، والهجر واقع قبل أن نرى من فنه وأدبه ما يُذكر؟ وهل تحسب مقولة الدكتور شاكر مصطفى: «انه (عفلق) السمفونية التي لم تكتمل» (٤/٥) شهادة له أو عليه؟

لماذا الغضب إذن؟

لماذا كل هذه الخماسية؟

لماذا هذه القسوة الأكاديمية علينا؟

لماذا لم تر في بحثنا إلا النقد الكثير والمر، ولم تر فيه الهدف والاخلاص؟

هل قول صديقنا، الصحافي الكبير، والمحلل السياسي البارع، الاستاذ ميشال أبو جودة: «انه (عفلق) البعثي الأول والأخير والوحيد» (٤/٥) مع عفلق أو ضده؟

كيف يكون «أستاذك» عقائدياً ووحيداً في آن؟

يبدو أن «أستاذك» اخترع «بعثاً» على قياسه وذوقه ومزاجه، وإذ لم يجد «الزبائن» الذين يتمناهم، حطم «مخترعه» وواصل «الكشف عن الإسلام» (٣/٧) حتى فتح الله عليه، وهيأ له أن يموت مسلماً، ولكن في عاصمة الأمين والمأمون لا في عاصمة معاوية والوليد[14].

أجل، ان «أستاذك» فاشل في السياسة، ووحيد في العقيدة، ومتنازل عن الفن والأدب، ومثالي، ويُخدع بسهولة. ومع هذا وذاك وذلك ترفّعه عن النقد، وتحرّم مسّ أفكاره، ولا تسمح لأي كان بأن يعترض على عدوله إلى الإسلام ولو بصيغة السؤال!. «فلو شئت (الكلام موجه

(١٤) هو الوليد بن عبد الملك (٤٨ ـ ٩٦ هـ/٦٦٨ ـ ٧١٥ م). الخليفة الأموي السادس (٨٦ هـ/٧٠٥ م). في عهده نعمت الامبراطورية بالاستقرار بعد الحروب الداخلية المنهكة وبلغت أوجها. مدّ حدود الامبراطورية فتوغلت الجيوش العربية بقيادة قتيبة بن مسلم في الشرق واحتلت بخارى وسمرقند وخوارزم وفرغانة. بينما فتح محمد بن القاسم الهند واجتاز السند واحتل دلتاه وبلغ حيدر أباد. أما في المغرب ففتح موسى بن نصير طنجة وطارق بن زياد الاندلس. شيد (الوليد) الجامع الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في القدس. وأعاد بناء جامع المدينة (يثرب). اهتم بطرق المواصلات. وهو أول من أحدث المستشفيات في الاسلام. توفي بغوطة دمشق ودفن بدمشق.

لمطلق باحث) أن تكون منصفاً في دراسة خلفيات إسلام عفلق دراسة علمية رضية، لوجب عليك أن تدرس ظروفه الذاتية، وبيئته الاجتماعية والسياسية وأن تدرس تطوره الثقافي والفكري، عبر آثاره نصاً وربما كلمة كلمة. وقتذاك تستطيع أن تصدر حكماً موضوعياً بعيداً عن السرعة والارتجال» (٣/٢).

لماذا كل هذه «المرافعة» الأكاديمية المتأنية؟

بل لماذا التعجيز، والمكتوب يقرأ من عنوانه؟

لا أعتقد، يا دكتور، أن الذي «يُخدع بسهولة»، ويفشل في السياسة ويهجر الفن والأدب ولا يحقق النجاح المطلوب في العقيدة، يمكنه أن يكون حراً في اختياره الإسلام ـ والدليل صمْته ـ طال أو قصر ـ إلا إذا كان، في بغداد، يمثّل ويَخدع (بفتح الياء) كما خدع، في دمشق، طلابه ومريديه وغسل لهم أدمغتهم ليحشوها بالبعث، وأي بعث!

بكل صراحة، نقول للدكتور جوزف الياس: ان هذه الدغمتة لا تشجع أبداً على تثمين مجمل آرائك وتحليلاتك، والمتعلقة بالانتخابات ودمشق وانقلاب الشيشكلي و«طاعون البعث» وطفولة الأرسوزي وشيخوخته. ونحن إذ نشكر لك ما قلته عن المزارات، نود أن نلفتكم إلى أن وجود تابوت في مزار ليس مستغرباً كما تحسب، ذلك لأن بعض الأعيان

والوجهاء ورجال الدين العلويين والاسماعيليين والاثني عشريين وسواهم من المسلمين، قد يوصي بدفنه في حرم مزارٍ ما ايماناً منه بالشفاعة، شفاعة الولي، القريبة والسريعة، ما يفرض وجود تابوت، أي نعش، أي محمل، في كل مزار ربما. وما أعرفه أن النعش أو المحمل أو التابوت، إذا شئت، ينقل فيه من يكون قد أوصى بدفنه في حرم أحد المزارات، فلا يُسترد، بل يُترك في مكانه وطبعاً فارغاً ومفتوحاً، فيما تدفن الجثة على الطريقة الإسلامية المعهودة. فأين وجه الغرابة إذا ما قال الأرسوزي للمارديني انه اقترب من التابوت ومد قدميه اعتقاداً منه أن في التابوت قوى خفية؟

ليس في حكاية الطفل زكي الأرسوزي ما يدعونا، يا دكتور جوزف، إلى تكذيبه وتسفيهه كما تعتقد. وهل وحده الأرسوزي صاحب طفولة غير عادية؟ بل لماذا تستكثر عليه عبقريته الطفلية وحفظه القرآن وهو ابن سبع سنوات، حين تقول بخرفه وشيخوخته الفانية؟

ان طفولة فيها انخطاف، نعم انخطاف، ورعب وقلق واسئلة كثيرة حول الله والانسان والنشوء والتطور والايمان والالحاد والموت والقيامة، لا يستبعد أن تنتهي إلى شيخوخة مرتبكة مضطربة ممزقة وربما خرفة أيضاً. لذلك فان فلسفته، كما هي مبثوثة في مختلف أعماله المنشورة، انما أنجزها وحققها

خلال الفترة الغنية بالتجارب والآلام والانكسارات والممتدة بين الطفولة الانخطافية والشيخوخة الفانية. أما رواية الجندي، التي يعتبرها الباحث «خطيرة» (٣/٤)، وفيها أن الأرسوزي لم يقرأ القرآن «قراءة جدية» حتى عام ١٩٤٦، وأنه «بدأ يدرس العربية سنة ١٩٤٠» (٢،٣/٤)، فينبغي لنا توضيحها على الوجه التالي:

- ان «القراءة الجدية» التي يطلبها الجندي لا تنفي حفظ القرآن، كما لا تنفي القراءة بمعناها العام.

- ان درس العربية للأرسوزي، عبارة واسعة، وواسعة جداً. ذلك أن درس العربية، وكل لغة، أمر لا يجوز التهاون به. ولعل الجندي لم يدقق، كما يجب في مقولته هذه. بل من المحتمل أن يكون الدرس هنا على مستوى فقه اللغة وفيه، ولا نستطيع القطع في أن يكون الأرسوزي تمكّن منه قبل ذاك التاريخ. بيد أن وجه «الخطورة»، كما ظهر للدكتور جوزف الياس، لا يتعدى الأمنية الهزيلة والحلم الملغوم، وعربية الأرسوزي رحمانية وقومية قبل أن تكون مدرسية. فما بال الباحث الذي يتهمنا بأننا نتقبل كل ما نقرأ، ونأخذه كما هو دون شك أو تمحيص (٢/٥)، لا يشك في رواية الجندي هذه ولا يمحصها؟

ومهما يكن، فان صاحب «الرحمانية» اذ يعلن «عن انشاء

فلسفة عربية يتحوّل بها ما نسجته الحياة عفواً إلى مستوى من الشعور، بحيث نشترك مع العناية (الالهية) في تعيين مصيرنا، نشترك بذلك هذه المرة ونحن أحرار»[١٥]، فانما يعلن «فلسفة تؤدي بنا إلى نتيجتين هامتين: الأولى ارساء فكرة البعث على قواعد صحيحة، والثانية إسهام العرب إسهاماً جديداً وحاسماً في التراث الانساني»[١٦]. فكيف يكون هذا الفيلسوف الرحماني والقومي، العقلاني أو غير العقلاني، قد انتظر أربعين سنة حتى تعلّم العربية؟!

تهمة

لقد أزعج إعجابُنا بالأرسوزي وتعاطفُنا معه واحترامُنا له الدكتور جوزف الياس أيما إزعاج، فانفعل، وتضايق، وارتفعت حرارته، حتى قال، وبمنهجية قاسية صارمة: «فهنيئاً للأستاذ جحا بعثه الجديد، البعث القومي العربي الأصيل» (٣/٢)؟! وفي الخاتمة يستفسر ماذا يكون ردُّنا لو سألَنا عن أي بعث نتكلم في كتابنا «لبنان في ظلال البعث» الصادر أواخر ١٩٧٨، ويتمنى علينا أن نعيد طبع هذا الكتاب تحت عنوان «لبنان في ظلال البعث القومي العربي

(١٥) زكي الارسوزي: المؤلفات الكاملة. الصادرة عن مطابع الادارة السياسية للجيش والقوات السورية بدمشق. المجلد الثاني ١٩٧٣ ص ٤.

(١٦) الارسوزي: المجلد الأول ١٩٧٢ ص ٣٢.

الأصيل» (٥/٣)، بغْية التمييز بين ما يسمى «البعث السوري» وما يسمى «البعث العراقي».

في الحقيقة، عرض علينا بعضهم عام ١٩٨٠ وعام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤ وعام ١٩٨٧ مثل هذه الفكرة، وفي حال موافقتنا يُطبع الكتاب في بغداد ويوزع في جميع أرجاء العراق وغير العراق، فكنا في كل مرة نرفض رفضاً قاطعاً هذا العرض المغري ونقول: لا فرق عندنا، على صعيد المسلكية والممارسة العملانية، بين هذا البعث وهذا البعث، وان كنا نفرق بين الأرسوزي وعفلق.

وكما يؤلمنا أشد الألم أن يحترق جزء من لبنان الحبيب بنيران «البعث السوري»، يؤلمنا كذلك، وبالقدر نفسه، أن نرى بعض اللبنانيين يموتون بين الشام وبغداد. حبذا لو تنبّه الدكتور الياس لكتابنا «أبعد من زحلة وصور: حرب الوفاق الشرق الأوسطي» (من ١ نيسان إلى ١ تموز ١٩٨١)، واطلع فقط على الفصل الخامس منه: «رسالة من الملجأ» (من ص ١١٧ ـ ١٢٧)، فان فيه ما يغنيه لا عن الجواب فحسب بل عن السؤال أيضاً.

احتكام إلى خالد العظم

بعد هذه الجولة المقتضبة في خماسية الدكتور جوزف الياس، ومعالجة أكثر القضايا التي أثارها، يسعدنا أن نطلب

الاحتكام إلى أحد أبرز الديموقراطيين السوريين والعرب: خالد العظم، والوقوف على رأيه في «القيادة التاريخية» لحزب البعث، وليس القصد التشفي والانتقام، بل السعي إلى الفصل بالعدل بين رأي الدكتور الياس، في هذه «القيادة»، ورأينا. وعسى أن يجد الباحث لدى هذا اليميني المستنير، «المتمسك بالمركزية الشديدة»[17]، والاداري «الذي ليس في الامكان تسييره على غير ما يرضاه»[18]، ما يساعده على القراءة في غير كتاب وعلى غير أستاذ.

ولكن لنستمع أولاً إلى علاّمة الشام الكبير: محمد كرد علي، يقول في المغفور له خالد العظم:

«جاءني أحد كتاب الصحف الدمشقية يلتمس حديثاً ينشره في جريدة فأجبته إلى طلبه، وإنْ كنتُ من أكره الناس لمثل هذه الأحاديث، ولا يضايقني أكثر من الصحافيين والمصورين. وجرّنا الحديث إلى ذكر رئيس الدولة السابق، السيد خالد العظم فسألته ماذا تعرف عنه؟ فسكتَ كأنه لا يعرفه إلا بالاسم، فقلت له: وأنت تشتغل بالمصالح العامة، أما بلغك أن السيد العظم عفّ عن راتب الرئاسة ولم يدنّس بالنفقات المستورة؟ وأنه أنفق من ماله عشرين ألف ليرة

(١٧) مذكرات خالد العظم: المجلد الثالث ص ٣٦٠.
(١٨) المصدر نفسه: المجلد الثاني ص ٢٣٤.

سورية على الولائم والدعوات باسم سورية مدة سبعة أشهر، وكان مثال الحاكم العادل في رياسته دفع غوائل كثيرة عن بلده، ومنها لما نقل مدير مصرف سورية ولبنان أموال فرع دمشق إلى زحلة، وبالطبع كان موعَزاً إليه بعمل ذلك من المحتلين فهدّد ابن العظم أن يعيد الأموال في الحال وإلا يرسله إلى السجن فاعيدت، عمل هذا وقال للذين ادعوا أن الأموال تحفظ هناك ليس بصحيح فهذه أموال سورية وإذا نهبت فلينهبها ابناؤها الذين جمعت منهم فهي مالهم لا ينازعهم فيها منازع»[19].

ومن مآثر الرئيس العظم، كما عدد كرد علي بعضها، أنه عندما احتل الانكليز سوريا، وطردوا الفرنسيين الفيشيين منها، جاءه أحد المحتلين الجدد «يحمل دفتراً فيه مئات من أسماء أهل دمشق وغيرها وطلب إليه نفيهم أو تسليمهم للبريطانيين بدعوى أنهم أعداء بريطانيا العظمى فتبسم العظم وقال لمخاطبه: ليس عندنا هنا أعداء بل أحباب، وما رمي به هؤلاء المتهمون لا أصل له إلا في مخيلة أصحاب الأخبار وكتبة التقارير. وتناول الدفتر منه وطواه، ولم يظهر عليه أحد أسدل الستار عن تلك المأساة المنتظرة»، إلى فضله على «نهضة

(١٩) محمد كرد علي: المذكرات، مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٤٨، الجزء الثاني ص ٦١٣/٦١٤.

البلاد الصناعية والاقتصادية. وكان كل ما يأتيه في حياته يقصد به النفع العام ينفق من ماله مغتبطاً ولا يقول ولا يتبجّح» حين أن «صدقاته السرية والرواتب التي يدرها على ذوي الستر من المحاويج والمعوزين»[20] لا يعرفها إلا الله.

والآن إلى بعض ما يقوله المرحوم الرئيس العظم في البعث والقياديين البعثيين. قال في «باب انقلاب الشيشكلي»:

«وكان وزراء (معروف) الدواليبي[21] قد أُخلي سبيلهم بعد

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) اثر استقالة حكومة الرئيس حسن الحكيم، وفيها التوتر السياسي على أشده بين الشيشكلي وحزب الشعب، «أصر رئيس الحزب رشدي الكيخيا على تأليف وزارة «شعبية» تتحدى الأركان، وتولى الإقدام على ذلك السيد معروف الدواليبي، فاعلن تأليف الوزارة على الوجه الآتي:

معروف الدواليبي: رئيساً ووزيراً للدفاع الوطني، شاكر العاص: وزيراً للخارجية، أحمد قنبر: وزيراً للداخلية، عبد الرحمن العظم: وزيراً للمالية، منير العجلاني: وزيراً للعدلية، هاني السباعي: وزيراً للمعارف، محمد مبارك: وزيراً للزراعة، جورج شاهين: وزيراً للاشغال العامة، علي بوظو: وزيراً للاقتصاد الوطني، محمد الشوّاف: وزيراً للصحة.

وحين وصل الى علم الشيشكلي نبأ هذه الوزارة، استشاط غيظاً، لاسيما أنها لم تستشره في من يتولى وزارة الدفاع، فضلاً عن انها اسندت هذه الوزارة الى مدني. فانفجرت القنبلة «التي

أشهر من اعتقالهم، فعادوا الى عملهم السياسي. وانضم إليهم الحوراني والبيطار وكانا قد وحّدا حزبيهما في حزب واحد سمي حزب البعث العربي الاشتراكي. وبهذه الانقلابة التي أقدم عليها الحوراني ضد رفيقه وزميله (أديب الشيشكلي) في الحزب السوري القومي (الاجتماعي) سابقاً، وبالمؤامرات والتقلبات السياسية المتعددة، أثبت الحوراني أنه لا يسير مع أحد إلا ما دام أمله بالوصول إلى هدفه مستمراً، فإذا لم يحصل ذلك انقلب عليه. غير أن الشيشكلي لم يسكت هذه المرة بل أبعد الحوراني والبيطار وعفلق إلى بيروت، حيث مكثوا مدة لم يكفوا فيها عن مؤامراتهم. فطلب الشيشكلي من حكومة لبنان إبعادهم، فسافروا إلى روما واستقروا فيها مدة، ثم رجعوا لسورية بعد أن **أقسموا على ترك السياسة**»[22].

أرأيت، يا دكتور جوزف، كيف ان القيادة البعثية، في

= كنا دائماً نتحاشاها» اذ لم ينتصف الليل حتى كان جميع الوزراء وابن خال الشيشكلي حسني البرازي، وغيرهم ـ عدا جورج شاهين ـ في معتقلات المزة الشهيرة. وهكذا حصل الانقلاب وصدر بلاغ بأن مجلس الدفاع الأعلى تولى شؤون الأمن واضطر إلى اتخاذ بعض التدابير (مذكرات خالد العظم، المجلد الثاني ص ٢٧٨).

(٢٢) المصدر نفسه: ص ٢٨١.

الفترات الحرجة والصعبة، تقسم إما على ترك السياسة، وإما على حل الحزب؟

ما الفرق بين وعد هذه القيادة المشار إليه ووعد عفلق لحسني الزعيم عام ١٩٤٩، وقد ثارت ثائرتك، في الثلاثينية، لأننا ذكّرنا به؟

كما عفلق كما البيطار كما الحوراني. لسان جميعهم: سلامتك يا راس. والبعث مثلما جاء يذهب. الأحزاب والعقائد يمكننا تغييرها وتبديلها مثلما نغير أو نبدل الثياب. لم لا؟

وتشاء الظروف والأسباب أن يتسلّم المرحوم صلاح الدين البيطار وزارة الخارجية في حكومة المرحوم صبري العسلي، فيعلق العظم على هذا الحدث:

«والمضحك في الأمر أن أحداً لم يخطر بباله أن صلاح البيطار سيتسلّم وزارة الخارجية. حتى هو نفسه لم يحلم بها، لو لم يقترحه أحمد قنبر. ولست أدري ان كان اقترحه على سبيل المزاح أو على سبيل التمنين. وعلى أي حال فقد تمسّك البيطار بالاقتراح. وهكذا كُتب لسورية قبل الوحدة (السورية - المصرية) أن يكون البيطار آخر وزير للخارجية فيها، كما كُتب له أن يلعب الدور الذي لعبه في ١٩٥٧ وفي

المحادثات التي أدت إلى الوحدة»[٢٣].

وعن مصير هذه الوحدة قال العظم:

«فالذي يكرّس الانفصال، فعلاً، هو حزب البعث، وعلى رأسه صلاح البيطار. فهو الذي يرفض الوحدة مع مصر اليوم، مع أنه كان ينادي بها في الأمس كسلّم يوصله إلى مقعد الرئاسة. فلما أن وصل إلى مرامه حتى ينبري يعمل للاتحاد دون الوحدة. وهكذا أصبح يسير على خطانا، ثم يشتمنا بلا خجل، والفرق بيننا وبينه أننا نقول بالاتحاد العربي والوحدة العربية، سواء كنا في الحكم أو خارجه»[٢٤].

ويصفه بـ «المتقلّب»، لأنه «يستقيل من حكومة الوحدة لأن المصريين لم يقطعوه سورية، هو وحزبه، ليتصرف بمقدراتها كما يشاء. ثم يعود إلى المطالبة بالوحدة بعد أن أقصاه الشعب في ١٩٦١ عن مجلس النواب. لكنه يتراجع عن المطالبة بالوحدة ويعمل للاتحاد، عندما يتسلم الحكم بعد ٨ آذار ١٩٦٣. لانه بذلك يحتفظ بادارة سورية والسيطرة عليها، دون تدخل عبد الناصر»[٢٥].

وعن علاقة البعث بالأميركيين يقول العظم:

---

(٢٣) المصدر نفسه: ص ٣١٥.
(٢٤) المصدر نفسه: المجلد الثالث، ص ٢٠٥.
(٢٥) المصدر نفسه.

«.. وقد تطورت سياسة أمريكا فيما بعد (الانفصال)، فعمل الامريكيون مباشرة أو بالواسطة على قلب الأوضاع في سورية، وأيدوا حزب البعث الذي كان دائماً على صلة بهم، وفرحوا بالثورة التي قامت في العراق، وارتاحوا لما جرى في سورية، واستبشروا خيراً باقامة الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسورية اعتقاداً منهم أنها ستنهي قضية فلسطين على الوجه الذي تريده اسرائيل والولايات المتحدة التي تعهد رئيسها كنيدي بايجاد الحل المناسب لها خلال ١٩٦٢»[٢٦].

ويكشف العظم عن تعنّت البعث وتسلطه وأنانيته حيث يقول:

«.. ولأن كل حكومة في العالم إذا لم تنل رضى ميشال عفلق وأتباعه هي غير شرعية ولا تمثل بلادها! ولا بد من الاعتراف بأن ثورة العراق ألهبت في صفوف الجيش السوري عواطف الأخوّة، فراحوا ينادون بالاتحاد مع العراق، واستبدلوا شعارات الوحدة مع عبد الناصر بشعارات الوحدة مع سادة بغداد»[٢٧] البعثيين الذين انقلبوا على عبد الكريم قاسم.

ويقارن العظم بين سياسته وسياسة البيطار، بعد الانفصال، ومما قاله:

(٢٦) المصدر نفسه: ص ٣٠٩.
(٢٧) المصدر نفسه: ص ٣٦٧.

«وهو (البيطار) لا يريد أن يسيطر عبد الناصر كما سيطر في عهد الوحدة الأولى، ونحن مثله. لكنه يراوغ ويناور ولا يصارح، ونحن على عكسه، نعلن على لساننا ما يجيش في فؤادنا. وهو لا يستطيع الوقوف على قدميه وراء كرسي الحكم إلا شاهراً بيده سلاح قانون الطوارىء، ونحن نفخر بأننا نعتمد على تأييد الرأي العام الحر ونلغي حالة الطورىء. وهو يطلق نار الجيش على الطلاب، ونحن نأخذهم بالرأفة واللين. وهو يملأ السجون شباباً ورجالاً، ونحن لا نحرم المتظاهرين من نعمة الحرية ونطلق سراح من يوقفهم رجال الأمن، قبل حلول المساء. وهو يقطع الماء والكهرباء عن الاحياء الثائرة ضده، ونحن نترفع عن استعمال هذا السلاح الانساني. وهو يصدر قانوناً بعزل أخصامه السياسيين ليخلو له ولانصاره الجو، **فهو معقّد التفكير كمعلمه ميشال عفلق**. وهو لا يقل عن عبد الناصر في الانتخابات، ونحن نبتعد عن تدبير كهذا يحرم المواطن من اختيار ممثليه، مهما كانت عقيدتهم».

ويمضي العظم في المقارنة:

«وهو (البيطار) يفتح باب التسريح من الوظائف على مصراعيه ليُخرج من لا يدين بالبعثية العفلقية البيطارية، ونحن لم نسرح سوى موظف واحد دانه مفتشو الدولة بسوء

استعمال وظيفته، ونعيد الأساتذة الذين سرّحهم وزير التربية رشاد برمدا عندما أثبت التحقيق براءتهم. وهو يحشو الوظائف بالمنتسبين لحزبه العقائدي، ونحن لا نسند الوظائف إلا لمستحقيها بالمسابقة ووفقاً للحاجة. وهو يغلق كافة الصحف ولا يبقى في الميدان إلا جريدته «البعث»... ويوقف أخصامه السياسيين ويسجنهم ويحيلهم إلى المحاكمة أمام محكمة استثنائية»[٢٨].

لكن هذا البعثي القيادي الذي بنى أمجاد حزبه بحجارة القمع والاضطهاد والتسريح والتنكيل، «يطلب من عبد الناصر الا تجرى انتخابات نيابية في سورية خلال ٢١ شهراً لأنه كان قانعاً بفشله وفشل حزبه»، ثم «يتنكر لسيده عبد الناصر الذي مرّغ وجهه على أقدامه سنين طويلة»[٢٩].

ويصل بنا الرئيس العظم إلى خواتيم مذكراته ليقول: «ان عيون المخدوعين (بالبعث) قد تفتحت فيما بعد، عندما تحقق لها أن «انفصاليتي» مساوية «لانفصالية» عفلق والبيطار، من حيث رفض التسلط المصري المطالبة بحفظ ما اسميه «الكيان السوري» وما يسميه البيطار «الوجود السوري» مع الخلاف

(٢٨) المصدر نفسه: ص ٤٢٨/٤٢٩.
(٢٩) المصدر نفسه: ص ٤٢٨/٤٢٩.

في الظاهر على أمور عديدة»[٣٠].

ولم يتردد العظم، الذي خبر قادة البعث وعرفهم عن كثب، في التأكيد على «شهوة الحكم»[٣١] عندهم، والتي طغت على كل ما كان يأمله منهم محازبوهم ومريدوهم وأصدقاؤهم والناس كافة.

الخاتمة

وبما أن لنا عودة إلى «مذكرات خالد العظم»، السياسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية، القيمة والغنية بكل ما يفيد،

وبما أننا لم نقصد الاحتكام إلى خالد العظم إلا سعياً للفصل بالعدل بيننا وبين الدكتور جوزف الياس في مسألة البعث وقيادته التاريخية،

نكتفي بهذه الأحكام العظمية على البعث وقيادته التاريخية، كما مبثوثة في المذكرات المشار إليها، والسلام على الدكتور جوزف الياس، الذي لم نرغب في ارهاقه ولا إزعاجه، وانما حرصنا على أن يعرف، مثلما نعرف نحن وسوانا، أنه كان بوسع سوريا وغيرها من البلدان العربية

(٣٠) المصدر نفسه: ٤٣٩.
(٣١) المصدر نفسه: ٤٣٩.

تجنّب الكثير الكثير من الكوارث والنكبات لو تطورت عندنا الأفكار العقائدية الثورية والاشتراكية في شكل طبيعي وواقعي.

٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٩

مُلحق

بينما كنا، الدكتور جوزف الياس وأنا، نتساجل على صفحات «النهار» الغراء، طلعت علينا «النهار العربي والدولي»[1] بحديث أجرته مع الدكتور عبد المجيد الرافعي، النائب اللبناني وعضو القيادة القومية والأمين العام القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي في لبنان، وفيه سألت المجلة «ضيفها» عن حقيقة اسلام ميشال عفلق وأسبابه ونتائجه على البعث والبعثين، فرد الدكتور «الضيف»، نزيل بغداد، بالوقائع التالية التي نوردها هنا دون تعليق:

س - لماذا أعلن المرحوم ميشال عفلق مؤسس حزب البعث اسلامه، وهل هي إشاعة أم حقيقة؟

ج - انها ليست إشاعة، انها واقع وأوصى به وقال: «انني أنا باقتناع وبفهم عميق وبمعاناة وعمق تفكير وصلت الى أنني أنا مسلم».

س - ما هي مبررات اعلانه الاسلام؟ الا يتناقض ذلك مع مفهوم البعث لحزب علماني؟

---

(١) الاثنين ٤ - ١٠ أيلول ١٩٨٩ السنة ١٢ العدد ٦٤٣.

ج ـ هذا اقتناع بين الانسان وربه.

س ـ أليست هناك خلفية سياسية؟

ج ـ أبداً أبداً ولو كانت لها خلفية سياسية لكانت أذيعت منذ اليوم الذي اكتمل فيه هذا الاقتناع. الاستاذ ميشال منذ ١٩٤٣ تتذكرون قوله في ذكرى الرسول العربي وكان واضحاً انه يعاني فكرياً من هذه الناحية وهو في طريق تكوين اقتناعات وهذه الاقتناعات ينظر اليها من الناحية الروحية وقال: «اننا قد لا نُرى في المساجد نصلي مع المصلين ومع الصائمين، لنا من روحيتنا، وبعمق المعاناة أو التفكير ان الاسلام ثورة في المجتمع العربي هو روح العروبة»، وهذا الاقتناع فعل ايمان بكل معنى الكلمة لا تنفي ان العلمانية هي باختصار عدم تدخل الدين بالدولة وليست الايمان. أنا مؤمن والرفيق صدام حسين مؤمن ورفقاؤنا في لبنان سواء كانوا مسيحيين أم مسلمين شيعة أم سنّة أم دروزاً كلنا مؤمنون، لكن هذا علاقة روحية بين الانسان وربه وليست تدخل الدين في السياسة. فاسلام المرحوم القائد المؤسس الاستاذ ميشال عفلق الأمين العام للحزب ايمان نتج من تفكير عميق ومعاناة الى أن توصل الى هذا الاقتناع.

س ـ في رأيك الم يعتنق الاسلام كضرورة سياسية لأن اكثرية العرب من المسلمين؟

ج ـ كما قلت لو كان ذلك لكان أعلن اسلامه منذ ذلك الوقت، واعتبر ذلك بمثابة عملية سياسية، وعندما فاتح المرحوم الاستاذ ميشال الرئيس القائد صدام حسين بقضية اعتناقه الاسلام، لم تعلن لئلا تفسَّر تفسيراً سياسياً وتُعتبر وكأنها توسل لمجموعة كبيرة من المسلمين في الوطن العربي في مواجهة مصاعب كانت من الممكن أن تكون الجبهة تتعرض لها على صعيد العراق وايران، وأنا أؤكد ان هذا الاسلام هو نتيجة اقتناع ذاتي عند المؤسس، أسرّ لنا به منذ سنين عديدة وعاد فأكّده أكثر من مرة. وكانت آخر مرة منذ أقل من سنة، وهنا استطيع القول انه منذ مدة قليلة وبعد خطاب ٧ نيسان الأخير للاستاذ عفلق كنا في زيارة لاحدى السيدات المسلمات المتنورات والمتدينات فقالت اننا سمعنا خطاب رئيسكم (هي طرابلسية وصديقة لعائلتي) هذه الأقوال لا يقولها الا مسلم فقالت لها زوجتي اننا نعتبر الاستاذ ميشال مقتنعاً اقتناعاً بأن الاسلام ثورة وروح العروبة. ونقلت بعد أيام الى الاستاذ ميشال ما قالته السيدة فقال بابتسامة: ان هذا صحيح «معها حق...».

الفصل الثاني
فارس الخوري

تمهيد:

لـو لم يكن الـزعيم السـوري المـوهـوب والعصـامي والذرائعي، المغفور له فارس الخوري، معاصراً ومعروفاً لدى أكـثرنا، لقلنـا انـه واحـد من أبـطال الـروايـات أو القصص الخيـالية، التي يتكلف كتّـابها ومؤلفـوها عـادة التخيّل والتصـوّر والتمثيـل والتشبيه والحنكـة في تـوزيـع الأدوار والتعقيـد حتى الإعجـاز أو ما يقـاربه. ذلـك أن سيرة الـرجل الـذي نتذكـر اليوم، وبعد ثمانية وعشرين عـاماً عـلى رحيله[1]، بل احتفـالاً

(١) عن نهايـة الزعيم الـراحل فـارس الخوري، روى أحـد الأطبـاء الذين كانوا يعالجـونه الـدكتور أسعـد رزق ما يـلي: «كنت أعاود الاستـاذ فارس الخـوري، في مستشفى السادات (في دمشق) مرة كل يومين، وكان قلبه وكليته يعملان عـلى خير مـا يرام، ولكنني كنت أنظر دائماً إلى هذا الانسان القـوي كيف أصيب بـالكسر والفالـج وبالحصر في البـول وبالارتجـاج في الـدمـاغ وبالماء في الخـاصرة وبمختلف الأمراض والأوجـاع وكان هـذا المشهـد يحز في نفسي دائـماً. . . واستمـرت الحال على هذا =

بصدور «أوراق فارس الخوري»[2] - بعض أوراقه - انما هي سيرة شاعر مميز وسياسي حكيم وقانوني عليم وديبلوماسي متفوق واجتماعي محبوب ووطني شديد الاخلاص لسوريا التي منحته حبها وثقتها، وقومي عربي صحيح الرأي والرؤية.

أوراق الفارس

ولكم كان سروري عظيماً وبليغاً حين ناولني الشاعر شوقي

= المنوال حتى مساء السادس والعشرين من كانون الأول ١٩٦١ حيث زرته، ولأول مرة رأيت ضعفاً في عضلة القلب فقمت بوصف الأدوية اللازمة، وأخبرت على الفور نجله (الوحيد) صديقي (المحامي) الدكتور سهيل الخوري، وقلت له ان حالة الوالد تستدعي الاهتمام وان الوضع الصحي في خطر.. وظل الفارس يأخذ مقويات القلب حتى مساء الثاني من كانون الثاني ١٩٦٢ حيث أصيب بوذمة (بفتح الواو والذال: زيادة وانتفاخ) رئة حادة.. وقضى.. بعد اسعافات قمت بها بالاشتراك مع الدكتور منير السادات كمحاولة أخيرة منا لابقاء هذا المريض الفذ على قيد الحياة.. ولا حول ولا قوة الا بالله!!» (ذكره محمد الفرحاني في كتابه: «فارس الخوري وأيام لا تنسى.. مطبعة دار الغد - بيروت ١٩٦٥، ص ٥١٩).

(٢) ٤٤٦ صفحة من القياس الكبير، متضمناً صوراً إلى فهرس الاعلام والمراجع، تنسيق وتحقيق وتعليق كوليت الخوري، دار طلاس - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٩.

أبي شقرا كتاب «أوراق فارس الخوري»، الذي توقعت منذ سنين ظهوره كاملاً لا مجزّأً، لاعتقادي القاطع بأنه لا بد سيقدم إلى المكتبة العربية شواهد حية صادقة وثرية على قضايانا الوطنية والقومية، للنصف الأول من هذا القرن وبضع سنين. وربما لن أستطيع التعبير عن الشعور الذي استحوذ عليّ آنذاك، وانما قد تأكد لي أنني أحرزت شيئاً ثميناً، وثميناً جداً، على كونه الكتاب الأول (١٨٧٧ - ١٩١٨)، بل أوراق الفارس، وعسى البقيّةُ غير بعيدة.

جمعت حفيدة الفارس، الأديبة والصحافية كوليت سهيل الخوري هذه الأوراق، ونسّقتها وحققتها وعلّقت عليها، شرحاً أو تفسيراً أو تأكيداً، ما كلّفها جهداً ملحوظاً مشكوراً، ووعَدَتْ أن تتابع مهمتها، فنرجو لها أقصى ما تحب وترغب. وفي مقدمة المجموعة التي تم لها نشرها:

«خمس وعشرون سنة أي ربع قرن تماماً وهذه الأوراق أمانة في عنقي، والأيام تحاسبني والرهبة تكبلني وتمنعني عن الإقدام على تحقيقها فالعمل أكبر مني بكثير.

«ربع قرن تماماً وأنا أنتظر عبثاً أن يعرض علي فردٌ أقدر مني أو مجموعة أفراد متمكنين القيام بهذا العمل الضخم لأقدّم له أوْلهم كلّ ما بامكاني من مساعدة وتفانٍ وامتنان».

و «لكن الزمن مرّ واشتدت محاسبة الأيام وثقلت الأمانة على كاهلي حتى كدتُ أنوء بها فوجدتُني مضطرة لأن أقْدم بمفردي على هذا العمل وها أنا أردّ الأمانة، بكل أمانة إلى القراء»[٣].

ولمن قد يسأل: لماذا نشرُ أوراق فارس الخوري في هذه الأيام، قالت كوليت:

«من ناحية وفاء لبلادي، وتذكيراً بمرحلة هامّة من تاريخنا، وتكريماً لكل من ناضل ويناضل وسيناضل من أجل هذا الوطن.

«ومن ناحية ثانية لأنني اعتقد أنه قد آن لهذا الفارس الذي أسهم بأقواله وأعماله وخطبه ونضاله في إحياء مرحلة من تاريخنا، والذي أخشاه بعد موته بصمتنا... آن لهذا الفارس... أن يترجل»[٤].

على أن الأمر يخصها هي أيضاً، وربما أكثر من سواها، لذلك «آن لهذا الفارس الذي خبّأتُ طفولتي في عباءته الواسعة فجعل مني أديبة...» و «آن لهذا الفارس أن يتنفس من جديد في حروفي... وفي الكلمات...»[٥].

وتبعاً للترتيب الزمني، قسمت كوليت هذه المجموعة من

(٣) أوراق فارس الخوري: ص ١٣.

(٤) (٥) نفسه

أوراق جدها الخالد إلى ثلاثة أبواب أو أقسام: القسم الأول (١٨٧٧ - ١٩١٤) (من ص ١٥ - ١٠٠) ويتضمن ما كتبه الفارس عن نفسه وعن نشأته، كما وعن أصل الأسرة، والمدارس الابتدائية التي مرّ بها، والكلية الانجيلية (الجامعة الأميركية)، حيث أكمل دروسه ونال سنة ١٨٩٧ الشهادة العلمية أي رتبة البكالوريوس الأميركانية المماثلة لرتبة مجاز في العلوم والفنون الافرنسية[٦]، ثم عن قدوم فارس إلى دمشق ليمارس المحاماة والسياسة. والقسم الثاني (١٩١٤ - ١٩١٨) (من ص ١٠١ - ٢٣٥)، يمكننا القول ان هذا القسم في مجمله يلخص قصة شعب مع نظام تفسّخ وتفكك، بل مع طغاة تغلّبت أهواؤهم على واجباتهم، وشهواتهم على عقولهم. وفيه نقرأ مذكرات الفارس عن شهداء

(٦) نفسه: ص ٧١، وعن فارس الخوري في الكلية (الجامعة) يقول الدكتور جبرائيل جبور في كتابه: «هؤلاء خدموا الشرق» (ص ٩٥) ما يلي:

«وهكذا فقد استطاع فارس أن يكمل دروس الكلية بسنتين بدل أربع وهو أمر لا أعرف أحداً من طلبة الكلية استطاع أن يقوم بمثله.

وقد تميز فارس كما يظهر من سجله الذي رأينا في الكلية بمقدرة خاصة في الرياضيات والفلك واللغة العربية وأحرز علامة التسعين في كل من هذه الفروع».

القافلة الأولى: عبد الكريم الخليل ورفاقه، وشهداء القافلة الثانية: الشيخ عبد الحميد الزهراوي ورفاقه، واعلان الثورة العربية، واعتقال (شقيق الفارس) (المحامي) فائز الخوري، ويوم الشهداء الثاني، وتفنيد أسباب الاعدام، والقافلة الثالثة، والتحقيق ثم السجن، ومواجهة خطرة مع جمال باشا في سجن خان الباشا، والتحقيق في السجن، وشكري القوتلي وحزب الفتاة، والافراج عن فارس بكفالة، والاشتراك مع الرفاق في رفع العلم العربي. والقسم الثالث: ملحق (١٨٧٧ ـ ١٩١٨) ويحتوي على قصائد اجتماعية وسياسية، إلى تخميس قصيدة ابن زيدون[7]، وستة أيام من

(٧) ابن زيدون (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ/١٠٠٤ ـ ١٠٧١ م) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون، المخزومي الأندلسي، أبو الوليد. شاعر وكاتب ووزير، ولد بقرطبة، لأب قاض. من أسرة عربية الأصل. درس الأدب واللغة والأخبار، وانقطع إلى ابن جهور أمير قرطبة بل من ملوك الطوائف بالاندلس، فاتخذه وزيراً، فأعجب به الأندلسيون. ثم كاده ابن عبدوس، فحبسه، ففر واختفى. وقيل ان ابن جهور اتهمه بالميل الى المعتضد بن عباد، فحبسه، فاستعطفه ابن زيدون برسائل عجيبة فلم يعطف، فهرب. واتصل بالمعتضد صاحب اشبيلية فولاه وزارته، وفوّض اليه أمر مملكته فأقام مبجّلاً مقرباً الى ان توفي بأشبيلية في أيام المعتمد على الله ابن المعتضد. أحبّ ولّادة بنت المستكفي، فكانت تقربه مدة، =

سنة ١٩٠٣، وورقة أدبية، ورسالة من فارس، وقصيدة غزل.

القصيدة التي تراجع عنها

بيد أن حفيدة الفارس ضمّنت الملحق المذكور قصيدة جدها الهجائية العنيفة الحادة: «عتاب ووداع للسلطان عبد الحميد يوم خلْعه ١٩٠٩»، برغم «الندم» الذي ظل يغالب الشاعر مذ ثبت له أن السلطان عبد الحميد قد ذهب ضحية الصهيونية العالمية بل «ضحية ثأر اليهودية العالمية»[8]، لأنه

= وتقرب غريمه ابن عبدوس أخرى. وصوّر الشاعر هذه الأحوال في شعره، المتصف بالعذوبة وتوفر النغم الموسيقي والسهولة. شهر غزله واستلطافه خاصة، كما شهر من نثره الكثير رسالتاه: «الجدية» التي استعطف بها ابن جهور في أثناء سجنه، و«الهزلية» التي كتبها على لسان ولّادة، يسخر فيها من ابن عبدوس ويهجوه، فقد ملأهما بالاشارات، والأسماء التاريخية، والأمثال، والأبيات المقتبسة، وأجاد صوغها، فكان لها قيمتها الأدبية والعلمية والتاريخية. ولعلي عبد العظيم: «ابن زيدون: عصره وحياته وأدبه» وللدكتور وليم الخازن: «ابن زيدون واثر ولّادة في حياته وأدبه» (الأعلام ـ الزركلي ـ دار العلم للملايين، المجلد الأول، ص ١٥٨ والموسوعة العربية الميسرة ـ دار نهضة لبنان ١٩٨٠، المجلد الأول ص ١٠٠) وكذلك لنهاد رفعة عناية: «ابن زيدون» ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٣٥٧ هـ/١٩٣٩ م.

(٨) الفرحاني: ص ٣٠٢.

(السلطان) أبى أن يتنازل لها عن فلسطين، وحتى وفاته.

في هذه القصيدة قال الفارس الذي تستّر بلقب «خليل الله» مخاطباً عبد الحميد:

«ملكْتَنا فشهدنا منك طاغيةً
لم يلْقَ نِدّاً له المشهود والقدم
نيرون عندك أو فرعون قد غُفرت
زلّاته واستحبّت شاهها العجم[9]
حجّاجُ عصرك بل تولي العقاب بلا
ذنْب ومزّاك عنه الجمْع والنهم

(٩) يقصد أحمد شاه قاجار. وهو من سلالة قاجار التي حكمت ايران (١٧٨٦ ـ ١٩٢٥). أسسها آغا محمد خان وتوالى عليها فتح علي ١٧٩٧، محمد الثاني ١٨٣٤، ناصر الدين ١٨٤٧، مظفر الدين ١٨٩٥، محمد علي ١٩٠٦، وآخرهم أحمد شاه ١٩٠٩ ـ ١٩٢٥، الذي خلع حين نقل التاج الى رضا بهلوي، والد الشاه محمد الذي ثار عليه الامام الخميني ورجال الدين والأحزاب اليسارية الايرانية فاضطر الى الهرب، فلم يحمه أي من حلفائه وأصدقائه الملوك والرؤساء، سوى الرئيس الراحل أنور السادات، وفي مصر توفي الشاه المخلوع، من دون أن تتمكن عائلته من نقل جثمانه الى إيران. (كتابي: سجين الصحراء الفار عاملي الامام موسى الصدر، ١٩٨٨، الفصل الأخير: الثورتان).

قد اخترعتَ ضروباً للمظالم والـ
تنكيل ما فكّروا فيها ولا حلموا
خليفةَ الله قد خالفتَ ما أمرتْ
به الشريعة والتنزيل والكلم
وسيرةُ الخلفاء الراشدين بها
خيرُ المواعظ للظُّلام لو فهموا»

وقال:

«ركبتَ مركب جُور ليس يقبله
ممّن يخلّفه في قومه الصنم
دمّرتَ دارك يا هذا فانت اذن
عدوُّ نفسك وقد مسّك اللممُ
حشدتَ حولك غدارين كم سفكوا
واستنزفوا ثم لا قيدوا ولا غُرموا
المخلصون تواروا عنك وانهزموا
والمفسدون على أبوابك ازدحموا
اسرفتَ في نهب بيت المال فانتهبتْ
منه الجواسيس ما شاؤوا وما غنموا
عصابة ثقلت في الناس وطأتهم
صمّوا عن الحق في أغراضهم وعموا

اخترتهم واختيار المرء شاهدُه

يا ليتهم رفقوا بالخلْق أو رحموا

خانوك لما رأوا منك الخيانة في

بنيك والمرء موسوم كما يسم»

وتتصاعد نقمة الفارس على السلطان، الذي جرّدوه نفوذه وهيبته وكرامته، فيقول مقرّعاً محتقراً:

«تأبى الشريعة أن تبقيك حارسها

وأنتَ بالغدر والاغواء متَّهم

فاليوم تَعْلمُ عقبى من يخون ومن

يطغى وتندم إذ لا ينفع الندم

هبطتَ من قمة الأمجاد منحدراً

كصخرة حطها من شاهق عَرِم

ففي هبوطك عاد الملْك مرتفعاً

وفي هلاكك كلّ الخلق قد سلموا

كانت بإقبالِك الأقدارُ عابسةً

فاصبحتْ بعد أن ادْبرتَ تبتسم»[١٠]

أصحيح أن الأقدار بعد عبد الحميد تبسّمت وزرعت الأمن والاستقرار، أم أن الذين جاؤوا بعده، ولا سيما جمال باشا، ألبسوا المشرق، كل المشرق، السواد، واغتالوا الفرح

(١٠) أوراق فارس الخوري: ص ٤٠٩/٤١٢.

والبسمة والأمل، فراح الناس يترحمون على عبد الحميد ويلعنون الظروف والأحداث ومن وراءها؟

الوجه الآخر لعبد الحميد

عن انهيار السلطة واستيلاء الاتحاديين على مناصب الدولة ومراكزها، كتب المؤرخ الدمشقي العثماني في الهوى والولاء، المغفور له عبد العزيز العظمة (١٨٥٦ - ١٩٤٣)، وهو عرف الفارس والفارس عرفه. قال: «لما أجّل السلطان عبد الحميد مجلس النواب (المبعوثان) ولم يُدع إلى الاجتماع ثانية، تآمر عليه بعض الناس في مدينة سلانيك وأسسوا جمعية سياسية دعوها (جمعية الاتحاد والترقي) وجعلوا لها فروعاً في سائر البلاد العثمانية وفي مصر وأوروبا، فأخذت هذه الجمعية تبث الدعايات وتنشرها ضد السلطان في جميع الأنحاء وتطلب إعادة الحكم النيابي، وأنشأت لذلك صحفاً متعددة كانت تطبعها في مصر وأوروبا وسلانيك وترسلها مغلقة إلى كل من تأنس منه الميل إلى الحرية من أبناء الأمة وموظفيها، وقد أربى عدد الصحف التي أصدرها الاتحاديون على الأربعين جريدة تحت اسماء مختلفة، ولم تثبت منها سوى ثلاث وهي المسماة «مشورت» و«ميزان» و«عثمانلي» والباقية اختارت الاحتجاب من تلقاء نفسها بعد صدور بضعة أعداد منها».

أضاف: «انتشرت دعوة الاتحاديين أولاً في المدارس العالية

بالعاصمة (اسطنبول ـ الاستانة) كالمدرسة الحربية، والطبية والبحرية، والملكية، والحقوق، والهندسة، والسلطانية، ومدرسة «نمونة ترقي» وغيرها من المدارس الرسمية وأخذ تلامذتها ينقلون دعاياتهم إلى أوطانهم ثم أن الضباط الذين تشرّبوا روح الثورة في المدرسة راحوا ينفثون سمومهم في أفراد الجند أيضاً حتى أصبح الجيش الثالث في سلانيك كله من منتسبي جمعية الاتحاد ولم يشذّ عنها سوى الفريق شمسي باشا في مناستر وقائم المقام ناظم بك في سلانيك، فقتلهما الاتحاديون جهاراً واتفقوا مع عصابات البلغار وكاتبوا الجيش الثاني في أدرنة، واستمالوه إلى حظيرتهم ونادوا بالدستور العثماني (القانون الأساسي) في مدينتي سلانيك ومناستر يوم ١٠ تموز سنة ١٣٢٤ مالية (١٩٠٨ م)، فرأى السلطان النزول عند رغبتهم كي لا تتفرق الكلمة، وتتهلهل الآراء، وأعلن العمل بالقانون الأساسي في العاصمة وسائر الولايات أيضاً، بعد أن كان يؤجله لاعتقاده بأن الأمة لم تبلغ من النضوج السياسي درجة تؤهلها للسيطرة على الأحكام العامة بعد».

وعن الأحوال التي سادت مع خلع السلطان عبد الحميد قال عبد العزيز العظمة: «عقيب اعلان الدستور استولى الاتحاديون على مناصب الدولة ومراكزها بأجمعها واحتكروها لأنفسهم، ثم بُوشر بانتخاب النواب (المبعوثان) على درجتين

فانتخب للمرة الأولى عن دمشق عبد الرحمن بك اليوسف، وسليمان أفندي الجوخدار، ومحمد أفندي العجلاني، وشفيق بك المؤيد، ورشدي بك الشمعة، وجبران أفندي لويس، وما لبث المجلس ان اجتمع في العاصمة ورأسه أحمد رضا بك[11] زعيم الاتحاديين ونائب الأستانة، وراح يتناقش في الأمور المودعة إليه وإذ ذاك اعلنت دولة اليونان الحاق جزيرة كريد (كريت) وضمها إليها، ونادت اوستريا (النمسا) بالقضاء على ولايتي البوسنة والهرسك اللتين كانت تحتلهما مؤقتاً، وأعلن الرئيس فرديناند أمير البلغار انفصاله واستقلاله عن الدولة العثمانية، وأبْدت سائر الدول بعض التحفظات تجاه عجرفة الاتحاديين وغطرستهم».

---

(١١) أحمد رضا (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠) سياسي تركي من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين الذين عملوا ضد السلطان عبد الحميد بعد انقلاب المشروطية. كان وزيراً للمعارف في «بورصة» ثم ترك وظيفته وسافر الى باريس وانتخب رئيساً لفرع جمعية الاتحاد والترقي فيها. وهناك أصدر جريدة سياسية باللغتين التركية والفرنسية اسمها «مشورت»، ولكنه عاد الى اسطنبول بعد انقلاب المشروطية سنة ١٩٠٨ وأصبح مشاوراً عاماً للاتحاد والترقي ثم انتخب نائباً عن اسطنبول فرئيساً لمجلس المبعوثان العثماني، واحتفظ بهذه الرئاسة لمدة ثلاث سنوات عين بعدها عضواً في مجلس الأعيان. توفي سنة ١٩٣٠.

ثم «كان لدعاية الاتحاديين أثرها السيء في سورية حيث لا مجتمع سياسي (كذا) يرجع إليه الناس في مشوراتهم وآرائهم. ولما رأوا من الاتحاد ذلك النفوذ العظيم في قلب الحكومة رأساً على عقب وتسلمهم زمامها تبعهم البعض أمل الوصول معهم إلى الغايات التي تصبو إليها نفوسهم ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن تلك الاستفادة إنْ هي إلا احتكار منحصر ببعض أشخاص من صناديد الاتحاد ومن سواهم، ففترت همتهم وأدركتها الدعايات الأجنبية التي كانت لهم بالمرصاد ومنّتهم بأماني بنوا عليها القصور العوالي (...) فطلبوا من الاتحاديين التساوي معهم في جميع وظائف الدولة بحيث يكون منهم الوزراء في عاصمة الدولة أيضاً، ولما لم يجابوا إلى طلبهم ترك أكثرهم حزب الاتحاد والترقي وانخرط في الائتلاف الذي تأسس في العاصمة لمناوءة الاتحاديين وتخليص الأحكام من أيديهم. ثم تألف في دمشق حزب آخر دعوه (الجمعية المحمّدية) وانضم إليه عدد غير قليل من الدمشقيين وغيرهم».

إذ ذاك برزت في العاصمة «أفواج القناصة (التشايمي) التي جيء بها من بلاد الروم وقلبت ظهر المجن لضباطها وقادتها من الاتحاديين وطردتهم من بينها وجاءت بسلاحها إلى ساحة (أيا صوفيا) بالاستانة حيث مجلسُ المبعوثان في نفس

يوم ٣١ آذار سنة ١٣٢٥ مالية (١٩٠٩ م)، وقتلت خطأ ناظم باشا وزير العدلية ظناً بأنه أحمد رضا بك رئيس المبعوثان، والأمير محمد ارسلان نائب اللاذقية، توهّماً بأنه حسين جاهد مبعوث الاستانة وروح الجمعية الاتحادية، وصاحب جريدة «طنين»، وعمّ الهياج يومذاك العاصمة والولايات كلها.

«وعلى أثر ذلك قام الفريق محمود شوكت باشا البغدادي[12] قائد الفيلق الثالث في سلانيك واصطحب معه عصابات

(١٢) محمود شوكت باشا (١٨٥٦ ـ ١٩١٣) ولد في العراق، وهو ابن سليمان بك الذي كان متصرفاً للبصرة، وشقيق حكمت سليمان، رئيس الوزراء العراقي في العهد الملكي. تخرج من المدرسة العسكرية في اسطنبول وقضى حوالي تسع سنوات في المانيا وخدم في الجيش الألماني، ثم عين والياً لولاية (قوصوه) في عهد الثورة العربية الكبرى، ثم انيطت به قيادة الجيش الثالث، ولما قامت محاولة للاطاحة بالدستور سنة ١٩٠٩ دخل محمود شوكت باشا الى الاستانة بجيشه فسحق الحركة. وعلى أثر خلع السلطان عبد الحميد أصبح أقوى شخصية في البلاد. وعلى الرغم من أنه لم ينتم الى حزب الاتحاد والترقي، فانه كان يؤيد سياسته، أصبح في عهد الاتحاديين وزيراً للحربية مدة من الزمن، ثم رئيساً للوزراء. وفي سنة ١٩١٣ دبّر له خصوم الاتحاديين مؤامرة فاغتالوه وهو في عربته يتجه الى مقر رئاسة الوزراء وكان في السابعة والخمسين من عمره.

البلغار وبعض كتائب الفيلق الثاني والثالث وزحف بهم على العاصمة واحتلها. وأبى السلطان عبد الحميد مقاومته ومقاتلته بما كان لديه من الجند الثابت على ولائه والخاضع لأمره ضناً بدماء الأمة من أن تراق هدراً»[13].

ولما تمكن «جيش الاحتلال هذا الذي دعوه جيش الحركة»[14] من العاصمة «قبض على من قام ضد الاتحاديين بقلمه ولسانه وأعدمهم جميعاً، وأجلى من شاغب عليه عن بلادهم، ثم حصل على قرار من مجلس المبعوثان دون سواهم بخلع السلطان عبد الحميد فخلعوه وأجلسوا أخاه محمد رشاد أفندي باسم السلطان محمد الخامس»[15].

وعند ضعف هذا السلطان وقلة ارادته، وهو المدين للاتحاديين إذ رفعوه إلى العرش السلطاني، «ازداد تسلطُ (هؤلاء) على أمور الدولة، واستولوا على الكليات والجزئيات من وظائف الحكومة، وارسلوا السلطان المخلوع إلى سلانيك ـ معقل الحرية بنظرهم ـ وأسكنوه هناك مدة في قصر التاجر (الأطني) الايطالي تحت الاحتياط والمراقبة، ولما اشتبكوا

(١٣) عبد العزيز العظمة: مرآة الشام (تاريخ دمشق وأهلها). تحقيق: نجدة فتحي صفوة، كتب التوطئة حفيد المؤلف الدكتور عزيز العظمة، دار رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن، طبعة أولى ١٩٨٧، ص ٢٠٦/٢٠٧.

(١٤) (١٥) نفسه.

بالحرب مع اليونان أعادوه إلى العاصمة وأسكنوه قصر (بكلربكي) على شاطىء البوسفور فأصيب وهو فيه بعلة (ذات الرئة) التي تنبعث على الأكثر من تأثير البرد فمات متأثراً منها في شهر ذي القعدة ١٣٣٦ هـ (الموافق) ١٠ شباط ١٩١٨ ميلادية رحمه الله»[16].

وعلى قول المؤرخ الدمشقي العثماني عبد العزيز العظمة نفسه، كان السلطان عبد الحميد «ذا عزم وارادة، بعيد النظر، كارهاً للحروب، وُفّق في توطيد دعائم الأمن ونشر العلوم وانماء الزراعة وتوسيع التجارة في جميع انحاء السلطنة الواسعة، وقد امتاز برفضه الاستقراض من الأجانب طيلة مدة حكمه التي ناهزت الأربع وثلاثين سنة، وفي النهاية عومل من قبل تلامذة المدارس التي انشأها كما عومل قبله عمه السلطان عبد العزيز من جانب الذين سلّحهم بنفسه»[17].

الاتحاديون

لقد اتهم الاتحاديون السلطان عبد الحميد بـ «استبداده المطلق»[18] و «اضاعته البلاد»[19]، و «منحه الرتب العسكرية لمقربيه بدون استحقاق، وغضه الطرف عن تلاعبهم وإخلالهم بأمور السلْطَنة»[20] و «صرفه الأموال جزافاً»[21]

(١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) نفسه.

و «اعدامه الشباب الذين كانوا يشاغبون عليه»(٢٢). حين أظهر الاتحاديون أنفسهم «من ضروب الاستبداد ما لم يحلم به نيرون والنمرود»(٢٣)، وأثاروا الفتن وحرّضوا الأقوام بعضها على بعض، فكان أن «أضاعوا ثلاثة أرباع بلاد السلطنة، وهي اقليم الروم (روم ايلي) باجمعه المؤلف من ولاية يانيا واشقودره وقوصوه ومناستر وسلانيك ومعظم ولاية كريد (كريت) وطرابلس الغرب وبحر الجزر (الأرخبيل)، ثم بلاد العرب كلها وهي مصر، الحجاز، اليمن، نجد، العراق، وسورية، ثم ولاية أدنة (كيليكيا)»(٢٤)، و «استخدموا الجواسيس الذين أربوا على جواسيس السلطان المخلوع بأضعاف»(٢٥)، و «اعدموا في الحال كل من تجاسر وانتقد أعمالهم وأبدى رأياً أوْ فاهَ بكلمة ضدهم»(٢٦)، والأمر حرك الانتفاضات والثورات الشعبية، هنا وهناك وهنالك وفي كل مكان، بمساعدة ودعم الدول الكبرى آنذاك: بريطانيا وفرنسا وبروسيا وايطاليا، لتضع، وبعد أقل من عقد، نهاية الحكم العثماني لمنطقة الشرق الأدنى(٢٧)، وقد «كان من أطول عهود

(٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) (٢٦) نفسه.

(٢٧) «الشرق الأدنى مصطلح غربي نقلناه نحن عن الغرب ـ ويقصد الغرب به اجمالاً الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لأنه أقرب بقاع العالم الشرقي اليه، وليس هذا القرب جغرافياً فحسب بل فكرياً وعاطفياً أيضاً، فالشرق الأدنى مرتبط العصور الوسطى عندهم بالحضارات =

= القديمة وبظهور الديانات السماوية. ويجب الاّ نعجب أن يطلق الغرب مصطلح الشرق الأدنى على جزء تدخل في نطاقه بلاد كاليونان هي الآن جزء من العالم الغربي تماماً، فالواقع ان عملية استغراب (Westernisation) اليونان التي انتهت بدخول اليونان في العالم الغربي لم تبدأ الا في اواخر القرن السابع عشر. قبل هذا القرن كانت اليونان ليس فقط من الناحية السياسية بل من الناحية الحضارية أيضاً جزءاً منفصلاً تمام الانفصال عن العالم الغربي له مقوماته وطابعه الحضاري الذي لم يكن ليختلف عن الطابع الحضاري الغربي فحسب بل كان معادياً له.

«وحين بدأ الغرب يهتم بالشرق كان من الطبيعي أن يكون الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أولى مراحل هذا الاهتمام، فأطلقوا عليه الشرق الأدنى، ويطلقون عليه كذلك Levant (الشرق أو المشرق) وهو مصطلح تجاري، يشمل بصفة عامة تلك البقعة من العالم التي تصل القارات الثلاث معاً: أفريقيا وآسيا وأوروبا والتي كانت بسبب هذا الموقع الجغرافي الفريد بقعة حيوية في تاريخ الحضارات الانسانية. ولم يكن في ذهن الأوروبيين حين سمّوه الشرق الأدنى، تحديداً دقيقاً أو مطلقاً (كذا) لهذه المنطقة انما هذا التحديد الضيق جاء في أعقاب الأبحاث الجغرافية في أواخر القرن التاسع عشر والعشرين» (الدكتور محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤) مكتبة الانجلو المصرية ـ بدون تاريخ ص ٥).

السيطرة الأجنبية التي عرفتها المنطقة في تاريخها الطويل»[٢٨].

هل ينفع الندم؟

مهما يكن رأينا في قصيدة الشاعر الفارس: «عتاب ووداع للسلطان عبد الحميد» من جهة، ودفاع المؤرخ الدمشقي عبد العزيز العظمة عن السلطان عبد الحميد نفسه من جهة، فان شاعرنا قد تراجع عن قصيدته هذه حينما تأكد له «ان اليهود كانوا يستخدمون مختلف القوى العالمية على ما بينها من تناقض وخلاف وتنافس لمعاضدتهم ومساندتهم من أجل احتلال فلسطين تمهيداً للتوسع فيها على حساب سكانها العرب ويقيموا دولتهم التي يمنّون نفوسهم في أن تضم ما بين الفرات والنيل، ومساعيهم في هذا السبيل»[٢٩]. لذلك «يخطىء من يظن أن انتصار الدول الحليفة في الحرب العالمية الأولى هو الذي أدى إلى نكبة فلسطين لما رافقه من صدور وعد بلفور في أثنائه، لأن اليهود، في الوقت الذي كانوا فيه يفاوضون هذا الوزير البريطاني لكي يقطع لهم وعده المشهور.. كانوا في الوقت نفسه يتصلون بالقيصر الألماني غليوم الثاني من أجل الغاية نفسها.. وقد انتهز القيصر المذكور زيارة الصدر الأعظم طلعت باشا[٣٠] لبرلين في عام

(٢٨) الدكتور محمد أنيس: نفسه، ص ٣.

(٢٩) الفرحاني: ص ٣٠٢.

(٣٠) طلعت باشا (١٨٧٤ ـ ١٩٢٢): أحد مؤسسي جمعية الاتحاد =

١٩١٦ وعرض عليه مشروع اعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين ولما عاد رئيس الوزارة العثمانية إلى الأستانة دعا نواب القدس في مجلس المبعوثان لأخذ رأيهم فيه فرفضوه»[٣١].

يُفترَضُ أن يكون الفارس قد اطلع ـ قبل القصيدة ـ على نشاطات مؤسس الحركة الصهيونية، الكاتب اليهودي المجري: تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤)، في المنطقة العربية، وعلى محاولاته اليائسة حيث كان يرجو نيل موافقة الباب العالي: السلطان عبد الحميد، على مقابلته إياه، والمساعي الفاشلة التي بذلها القيصر الألماني للغاية نفسها[٣٢].

= والترقي القائمين بانقلاب المشروطية سنة ١٩٠٨. وقد أصبح فيما بعد اكثر زعماء الحزب نفوذاً، وكان آخر رئيس وزراء في عهد الاتحاديين. بدأ حياته موظفاً صغيراً في دوائر البريد، وبعد المشروطية أصبح نائباً في مجلس المبعوثان وشغل وزارات البريد والبرق والداخلية في عدة وزارات، وبعد استقالة سعيد حليم باشا عين رئيساً للوزراء. وعلى الرغم من دراسته البسيطة كان طلعت باشا يتمتع بذكاء شديد وشعبية كبيرة ويجيد عدة لغات. على أثر قبول تركيا لشرط الهدنة عام ١٩١٨ هرب منها مع أنور وجمال على باخرة المانية. ولكنه اغتيل في برلين على يد رجل أرمني. هذا وتؤكد الكتب التركية على «نزاهته» و«استقامته» و«وطنيته».

(٣١) الفرحاني: ص ٣٠٢.

(٣٢) توسع الدكتور أمين عبد الله محمود في هذه المحاولات الهرتزلية =

وإذْ فاته هذا ثم ندم فيما بعد على موقفه من عبد الحميد، فان القصيدة بعد الندم تُعتَبر «ذنباً» جسيماً، بل من شعر الشماتة والعقوق. «لم أندم في حياتي على شيء ندمي على (القصيدة) التي نظمتها اثر اعلان الدستور العثماني وهجوت بها السلطان عبد الحميد حيث تأكد فيما بعد بما لا يقبل الجدل ان هذا الخليفة قد راح ضحية ثأر اليهودية العالمية التي ساءها رفضه لاقتراح تيودور هرتسل واتخاذه مختلف الوسائل لمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين ووضعه قانون (الجواز الأحمر) الخاص بكل يهودي يدخلها للسياحة والزيارة، ومنعه إياهم من تملك الأراضي مما أدى لحنقهم عليه، وشروع منظماتهم بالعمل مع الدول الاستعمارية على مناوأته شخصياً وعلى كيان الدولة العثمانية يوم اتخذوا من مدينة (سلانيك) وكْراً رئيسياً لدسائسهم ومؤامراتهم لأن هذه المدينة تضم عدداً كبيراً من (الدُونمة) اليهود الذين انتحلوا الإسلام وتظاهروا باعتناقه والعمل له وتغلغلوا بواسطة ذلك في مختلف وظائف الدولة العثمانية حتى تمكن فريق منهم من بلوغ أعلى المناصب فكان

= والمساعي القيصرية، في كتابه المفيد: «مشاريع الاستيطان اليهودي ـ منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى»، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت رقم (٧٤) شباط ١٩٨٤. لنا تعليق عليه في كتابنا «نحن وصنمية التاريخ» طبعة ١٩٨٦، ص ٢٣٠/٢٤٧.

منهم الوزراء والنواب والصحفيون والكتاب والأساتذة والتجار... وكان أحد الثلاثة الذين انتدبهم مجلس المبعوثان العثماني لابلاغ السلطان عبد الحميد الثاني قرار خلعه عن العرش، نائب يهودي يدعى (عمانوئيل قره صو أفندي)»[٣٣][١*].

(٣٣) النص الحرفي لصيغة «الندم» الذي اعترف به المغفور له فارس الخوري لصديقه وحافظ أسراره الاستاذ محمد الفرحاني، (ص ٣٠٢)، وقد نقلته حفيدة الفارس الى «أوراق فارس الخوري»، ص ٤٠٤.

(١*) أما قصة قره صو، فقد رواها الزعيم السوري فخري البارودي في الجزء الأول من مذكراته، قال:

«ومما يؤسف له ان الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع الى عبد الحميد ـ وهو سلطان المسلمين ـ غير عمانوئيل قره صو أفندي، وهو زعيم يهود سلانيك، وكانت وقعت له حادثة تاريخية مع عبد الحميد طرده على أثرها من القصر. ففي سنة ١٩٠٠ دخل قره صو على السلطان بفضل القرين عارف بك وابلغه أنه موفد من قبل الجمعية العالمية الصهيونية وأنه قادم يطلب اليه اعطاء تلك الجمعية الأراضي الواقعة في المثلث القائم ما بين يافا وغزة والبحر الميت مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية الى الخزينة ـ السلطانية ـ الخاصة، وعشرين مليوناً تقرضها الجمعية الى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة..

فغضب السلطان وطرده من حضرته..»

ويتابع الزعيم البارودي: «وعلى الأثر ألف اليهود جمعية سرية اكثر أعضائها من اليهود المعروفين بـ(الدونمة) والدونمة كما هو =

ومهما تباينت الآراء والأحكام، وتعارضت الشروح والتفاسير، فان الجرأة الأدبية، كما أظهرها صاحبنا الشاعر الفارس، تغسل ما في النفوس والقلوب من الأحقاد والضغائن، وتلغي قصائد الظلم والافتراء، وتسخّف أدب الشماتة والعقوق. أما الآداب والأفكار والفنون التي تقاوم الاحتلالات الأجنبية والنظم الفاسدة والأحكام التعسفية من أي جهة أتت، وتدعو إلى الرحمة والرأفة والعدالة والسلام بين الشعوب، فلها المجد والخلود، مهما تعاظم الطغاة وكره الطّامعون والحاقدون.

وقفنا، أمام قصيدة الفارس: «عتاب ووداع للسلطان عبد الحميد»، طويلا ذلك أن الموضوع غني ومثير وينبغي لنا أن نكشف ملابساته، وما يحوطه من غموض وسوء فهم متعمدين وغير متعمدين. والآن إلى الفارس وما كتبه عن نفسه ونشأته وأصل أسرته، فإلى القصائد التي تضمنها الكتاب الأول:

= معروف ومشهور، لقب يطلقه الاتراك على جماعة اليهود الذين هاجروا الى تركيا من اسبانيا واستوطنوا سلانيك، وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالاسلام مع احتفاظهم باطناً بالدين اليهودي - ومنهم جاويد بك وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي، فاتصلت بأحرار الترك، ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كانور ونيازي وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب الثاني وخلع عبد الحميد.. وظل اليهود ذوي نفوذ قوي في أوساط الاتحاديين=

«أوراق فارس الخوري»، ثم إلى الفارس السياسي والدَيبَلوماسي، على أننا سنتخطى، قدر المستطاع، الكتاب الأول، دون أن ندّعي الاكتفاء والغنى عن تلك الأوراق التي ما زالت في عنق الحفيدة الأديبة كوليت الخوري.

أصل الفارس

وُلد فارس بن يعقوب بن جبور بن يعقوب بن إبرهيم بن يوسف بن ابرهيم بن الخوري جرجس أبو رزق[٣٤]، سنة ١٨٧٧[٣٥] (*)في قرية نائية تدعى الكفير من أعمال حاصبيا «التابعة لولاية سورية في العهد العثماني وهي اليوم من الأراضي اللبنانية»[٣٦]. أخذ فارس تاريخ ولادته «بطريقة التقدير»[٣٧] لأنه لم يجد له «تاريخاً مكتوباً»[٣٨]، بل يذكر «انه عند تحرير النفوس الأول في بلاد سوريا جاءت إلى الكفير لجنة التحرير، فذهب بنا والدي إليها وأوقفنا أمامها، أنا

= وكانوا في جملة العناصر التي بثّت الفساد في الشعب التركي وفي حكامه..

عن الفرحاني: ص ٣٠٣.

(٣٤) أوراق فارس الخوري: ص ٢٣.

(٣٥) نفسه: ص ٣٩.

(*) بينما ذكر الفرحاني ان ولادة فارس كانت في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٧٣. ص ٢٩.

(٣٦) الفرحاني: ص ٢٩.

(٣٧) أوراق فارس الخوري: ص ٣٩. (٣٨) نفسه.

وأخي أيوب، وكان ذلك سنة ١٣٠٠ رومية (مالية) أي سنة ١٨٨٤ ميلادية. فقدرت اللجنة عمري خمس سنوات وعمر أخي أيوب ثلاثاً، وسجلت ولادتي سنة ١٢٩٥ (مالية) وهذا التاريخ يقابل سنة ١٨٧٩»[٣٩]. وبما أن ذهابه إلى مدرسة صيدا الأميركانية كان سنة ١٨٨٧، وهو آنذاك «فتى عمره لا يقل عن العشر سنوات ولا يزيد عن الاثنتي عشرة سنة»[٤٠]، فقد ترجح الرأي عنده أن ولادته «كانت ١٨٧٧ أو قبلها بقليل»[٤١]، حين تخطّىء الحفيدة كوليت جميع الذين يرون أن ولادة الفارس كانت ١٨٧٣[٤٢].

وحسبما أخبره جده جبور، فان الخوري جرجس الجد الأعلى «نزل الكفير مع أخيه عبد الله أبو رزق وهما من سكان قرية عين حليا من أعمال الزبداني السورية، وقد خربت قريتهما بسبب فتنة قامت بين أهلها منذ نحو ٣٠٠ سنة، أي حوالي سنة ١٦٠٠ ب.م»[٤٣] (*).

(٣٩) (٤٠) (٤١) نفسه

(٤٢) نفسه: ص ٤٢، حاشية رقم (٤).

(٤٣) نفسه: ص ٢٤.

(*) عن هذه الفتنة قالت كوليت خوري: «أما الفتنة التي وقعت قبل ٣٠٠ سنة (٤٠٠ سنة الآن) في عين حليا، فقد سمعت عنها من أهالي بلودان الرواية التالية: كانت الصبية عائدة من العين وعلى كتفها الجرة الملأى... فالتقت بالشاب الذي =

وإلى الكفير رحل مع الخوري وشقيقه جماعة من أهل عين حليا «منهم جد عائلة أبو جمرة وخلف والحاج وغيرهما». وكانوا جميعاً حرفيين «يشتغلون بالنسيج والحياكة»[٤٤]، وقد «نقلوا صنعتهم معهم وفتحوا الأنوال وغزلوا القطن والحرير

= اعترض طريقها قائلاً: «أنا عطشان»... وعندما اكتفت بنظرة شزراء ترد بها عليه رفع يديه وأمسك بالجرة وأمالها الى أسفل وشرب منها..

«كانت الفتاة مسيحية والشاب مسلماً. ولا أعرف من كان من بيت رحمة ومن أسرة هلال.. المهم أن اسرة الفتاة التي اعتبرت تصرف الشاب إهانة تمس العرض قررت أن تخطّب ابنتها الى أحد أقربائها ودعت أهل القرية إلى حفلة الخطوبة... ورتّب أخو الفتاة الذي يدعى كيروز جميع الأمور فوقف كل شاب من اسرة الفتاة متأهباً... وفي لحظة محدّدة من الاحتفال دنت الفتاة العروس فجأة من الشاب الذي شرب من الجرة فأساء الى العرض، وسحبت من صدرها سكيناً وطعنته به وهي تصرخ «إلحقني... أنا أختك يا كيروز...» وهبّ كيروز ومعه شبان الاسرة... وقامت معركة بين الاسرتين ثم بالطبع بين الطائفتين ... لم تهدأ الا بعد اشهر باحتراق القرية بأكملها، ومهاجرة سكانها... وهكذا، كما قال لي المسنّون من أهالي بلودان ومنهم الخوري اليان أبو عقل، وأبو موسى غانم نداف: «هكذا... راحت الضيعة بشربة مي» (ص ٢٤/٢٥، حاشية رقم ٣).

(٤٤) نفسه: ص ٢٥.

والصوف، وصنعوا منها الأقمشة المختلفة يبيعونها في القرى المجاورة ويحملونها إلى ناحية صفد وساحل عكا وجبل نابلس، وبقيت هذه تجارتهم ومرتزقهم إلى آخر القرن التاسع عشر»(٤٥).

ويعتبر المؤرخ والنسّابة عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦) في كتابه «تاريخ الأسر الشرقية» أن أصل عائلة فارس الخوري «من رجل يوناني جاء بتجارة إلى سوريا في القرن السادس عشر فانكسر مركبه على شاطىء صيدا فأخرج بضاعته إلى البر وباعها ببضعة آلاف دينار وأحب الاقامة في بلاد الشام فنزل الكفير وأنشأ فيها صناعة الغزل والنسيج وبنى كنيستها وأقام ابنه جورجي كاهناً فيها وكان من هذا الكاهن سلسلة النسب المدرجة أعلاه»(٤٦). ولكن الفارس شك لا في صحة هذه الرواية المعلوفية فحسب، بل في صحة «أكثر الانساب التي كتبها الاستاذ النسابة المموما إليه»(٤٧).

إلى مذهب جديد

كان الجد جبور «تقياً عاقلاً اقتنى الكتب الطبية القديمة ودرس منها شيئاً كثيراً»(٤٨) حتى أخذ «يطبّب المرضى مجاناً

---

(٤٥) (٤٦) نفسه

(٤٧) (٤٨) نفسه: ص ٢٦.

لوجه الله تعالى ويعطيهم العقاقير والأدوية»(٤٩) ويكون «استحضرها بنفسه»(٥٠)، وغالباً يجري «عمليات جراحية لا يُستهان بها ودون أجرة»(٥١). ولقد أدرك صاحبنا الفارس جده هذا فقال: «وكنت أرى في طفولتي بيته كأنه مستشفى تُحمل إليه المرضى من قرى البقاع واقليم البلان ووادي التيم، فيطعمهم ويعالجهم بما عنده من العلم. ورأيته يشق الاعضاء الملتهبة ويبترها بمبضعه ويصب الزيت الغالي في الجروح ليطهرها»(٥٢).

ولشدة ولع «الطبيب» جبور بمطالعة الكتب، «اهتدى من نفسه إلى مذهب جديد في النصرانية خرج فيه على التقاليد الكنسية وتمرّد على الاكليروس في زمانه»(٥٣)، وما لبث أن ظهر له أن «مذهبه ينطبق على المذهب البروتستانتي فرحل إلى بيروت عندما بلغه أنه وصل إليها مبشرون من الافرنج يدعون إلى مذهب جديد»(٥٤). وهناك اجتمع بالمبشرين الأميركيين الانجيليين: يونس كين (جونس كنج) وعالي سميث، و «أطلعهما على آرائه الدينية فسرّا به وأرشداه إلى

---

(٤٩) (٥٠) (٥١) (٥٢) نفسه

ـ (٥٣) نفسه: ص ٢٩.

(٥٤) «جونس كينغ من أوائل التبشيريين الأمريكان الذين جاؤوا بلادالشام. أما عالي سميث (أو ايلي سميث) (Elie Smith) فقد أرسل أولاً الى مالطة ليتولى أمر مطبعة الارسالية فيها ثم =

مـذهبها وأعـطيـاه نسخـة من الكتـاب المقـدّس المـطبـوع في مالطة[٥٥] بالعربيـة ورسائـل جدليـة أخرى، فحملهـا وعاد إلى الكفـير وقـد ازداد رسـوخـاً في عـقيـدتـه وأعلن انشقـاقـه عن المذهب الارثوذكسي واعتناقه المذهب البروتستانتي وشاركـه في هذا الانشقاق أخوه ميخائيل الملقب أبو سمرة الخوري»[٥٦].

لا يتردد الفارس في الافصاح عن اعتزازه بما حققه جده جبور من اتصاله بالمرسلين الانجيليين، بل يعتبره رائد البروتستانتية السورية التي تحدّتْ الصعاب والعقبات. «وقد رأيت في مكتبة الجامعة الأميركية مجلدات المرسلين القديمة وفيها

= جاء بيروت عام ١٨٢٧ لسنة واحدة وغادرها ليعود اليها سنة ١٨٣٤ ويبقى فيها حتى وفاته سنة ١٨٥٧. والجـدير بـالذكـر أن عـالي سميث أو ايلي سميث كـان يتكلم العربيـة بطلاقـة ويلمّ باللغات القديمة وبعض اللغات الحديثـة. وهذا الـذي باشر بترجمة التوراة والانجيل من اللغتين الاصليتـين العبريـة واليـونـانيـة سنـة ١٨٤٩ وسـاعـده في ذلـك المعلم بـطرس البستاني. وبعد وفاته أخذ زميله كورنيليـوس فانْ دايـك على عاتقه تتمـة مشروع الترجمـة أيضاً بمسـاعدة البستـاني. وأنجز العمل سنة ١٨٦٠» (كوليت خوري، ص ٢٩ حاشية ٨).

(٥٥) «في عام ١٨٣٤ نقل المرسلون الأمريكان مطبعتهم من مـالطة إلى بيروت. وفي ذلك العام أيضاً أسس ايلي سميث وزوجته أول مدرسة للبنات في بيروت» (كوليت خوري، المصدر أعلاه).

(٥٦) أوراق فارس الخوري: ص ٣٠.

أن جدي هذا أقدم بروتستانت سوريا مع بيان ما لاقاه من الاضطهاد والمقاومة من رجال الدين وأهل وطنه الارثوذكس».

أضاف: «كان اعتناق جدي للمذهب الجديد حوالي سنة ١٨٣٠، أي قبل ولادة أبي بنحو ١٥ سنة. وكان صديقاً للمرحوم ميخائيل مشّاقة[٥٧]، اتصل به عندما كان هذا كاتباً للأمير سعد الدين الشهابي في حاصبيا وكان الأمير قد أعطاه مزرعة في الحولة اسمها «الخريبة» باعها ورثته بعد موته»[٥٨].

ويؤكد الفارس ان هذه المعاشرة قد مكّنت العقيدة البروتستانتية في نفس جده «وزادته ثباتاً ومتانة أمام أنواع الاضطهاد التي كان يصبها عليه مطران حاصبيا وجماعة الارثوذكس في وادي التيم، على أنه لم يعدم نصيراً يشد أزره في هذا الضعف» ذلك أن «صديقه المرحوم حمد نوفل شيخ الدروز

(٥٧) الـطبيب ميخائيـل مشاقة (١٨٠٠ - ١٨٨٨) من مواليـد رشميا لبنـان. وهو ميخـائيل بن جـرجس بن ابـراهيم بن جـرجس بتراكي الذي لقب بمشاقة لاحترافه تجارة مشاقة الحريـر. برع في علوم الـطب والريـاضيات والفلك والجغرافيـا والانسـاب والـلاهوت والمـوسيقى وغيرهـا. وله مؤلفـات عديـدة منهـا: «الرسالة الشهابية في قواعد الحان الموسيقى» و«الجواب على اقـتراح الأحباب». من اسرة كـاثوليكيـة، اعتنق عام ١٨٤٧ البروتستانتية فكتب في هذا الموضوع رسائل وكتيبات.

(٥٨) أوراق فارس الخوري: ص ٣١/٣٢.

في أقليمه حفظ له عهد الأخوة المعقود بينهما، وكان يمدّه بالرأي والبأس الشديد عند الحاجة»[٥٩].

البروتستانتية في بلاد الشام

والواقع أن التبشير المسيحي في فلسطين وبقية بلاد الشام كان، قبل حكم مؤسس السلالة الخديوية محمد علي (١٨٣١ - ١٨٤٠)، «محصوراً ومتعثراً بسبب العقبات المريرة التي واجهته» وأبرزها «معارضة الحكومة العثمانية لهذا النشاط والعراقيل الرسمية التي كانت تضعها في طريقه»[٦٠]. ولا عجب إذا ما قيل ان احتلال محمد علي للمنطقة السورية «خلق المناخ المناسب لنمو الارساليات التبشيرية المسيحية» ذلك أنه منذ بداية الحملة المصرية «وجّه القائد العام لها (ابرهيم باشا) بياناً إلى السلطات المدنية والدينية في فلسطين يطلب منها رفع القيود عن المسيحيين واليهود المقيمين في البلاد والزوار

(٥٩) نفسه

(٦٠) الدكتور علي محافظة: مقالة «النشاط التبشيري الألماني في فلسطين بين عامي ١٨٤١ - ١٩١٨». مجلة «دراسات تاريخية» الصادرة عن لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق، العدد الثاني، رمضان ١٤٠٠ هـ/ حزيران (يونيو) ١٩٨٠ م ص ٥٣.

الأجانب»[٦١]، والأمر ألغى الرسوم المفروضة على الحجاج المسيحيين للقبر المقدّس في القدس، وسمح لليهود ببناء كنيس لهم هناك، وكذلك مُنحت جمعية يهود لندن (London Jews Society) حرية العمل للتبشير في فلسطين. وهكذا أخذت فلسطين تشهد «نشاطاً تبشيرياً وتنافساً حاداً بين الارساليات التبشيرية من مختلف الكنائس المسيحية»[٦٢]، لتنطلق من هناك شمالاً وشرقاً وجنوباً وفي كل اتجاه. ولما أزيل حكم محمد علي عن المنطقة «اضطرت الدولة العثمانية إلى أن تغمض عينيها على استمرار (هذا) النشاط التبشيري»[٦٣] الآخذ في النمو، ارضاءً للدول الأوروبية الكبرى التي ساندت السلطنة» في قهر محمد علي واعادة بلاد الشام إلى سلطتها»[٦٤]. فكان ان «انتهزت الدول الأوروبية والمؤسسات الدينية التبشيرية هذا الوضع الجديد لتزيد في نفوذها ونشاطاتها المختلفة في الأقطار الشامية بوجه عام وفي فلسطين بوجه خاص»[٦٥].

على هذا الصعيد، فان التبشير الألماني في فلسطين انما تعهده ملك بروسيا فريدريك فيلهلم الرابع لما عُرف عنه من اهتمام كبير بالشؤون الدينية منذ صباه. «ولما أصبح (فريدريك) ولياً للعهد، بلغ به الحماس الديني أن يفكر في انشاء وطن مسيحي في الأراضي المقدّسة تتولى الدول الأوروبية الكبرى حمايته»[٦٦].

(٦١) (٦٢) (٦٣) (٦٤) (٦٥) (٦٦) نفسه.

وإذ «تسلّم العرش البروسي عرض مشروعه الرومانسي هذا على امبراطور النمسا وقيصر روسيا فلم يبديا اهتماماً به»[٦٧].

فتخلى عنه مرغماً «واتجه الى السعي لمنح الكنيسة اللوثرية حقوقاً مماثلة لتلك التي تتمتع بها الكنائس المسيحية الأخرى في القدس»[٦٨]. ولكنه رأى أن الأمر «لا يمكن أن يتم إلا بالتعاون بين الكنيسة الانجيلية البروسية والكنيسة الانكليكانية في انكلترا». .[٦٩]، على أن تكون الخطوة الأولى في هذا السبيل قيام مطرانية (أسقفية) بروتستانتية في القدس»[٧٠]، وكان الملك البروسي يأمل «أن تؤدي مساعيه ومساعي الحكومة البريطانية لدى الباب العالي إلى اعتراف الحكومة العثمانية بالطائفة البروتستانتية كملّة مسيحية مستقلة»[٧١]، توصّلاً إلى جعل مطرانية القدس «المحور الذي تدور حوله كافة الكنائس البروتستانتية»[٧٢]، وهذا ما تم فعلاً بعد مزيد من المفاوضات والمباحثات التي استغرقت بعض الوقت، وصرف النظر عن الحصول على اذن خاص من الباب العالي لهذه الغاية، «باعتبار ان الأسقف الذي سيُعيَّن في القدس، سيتمتع بحق الاقامة في أي جزء من الممتلكات العثمانية، كأي مواطن بريطاني، وباعتبار أن النشاط التبشيري سيمارسه (وسائر المبشرين) لن يتناول رعايا السلطان المسلمين»[٧٣].

(٦٧) (٦٨) (٦٩) (٧٠) (٧١) (٧٢) (٧٣) نفسه.

الفارس الانجيلي

المهم أن فارس الخوري أخذ عن جده الذي توفي سنة ١٩٠١، البروتستانتية، كما أخذها والده يعقوب المولود حوالي سنة ١٨٤٥، والمتوفى سنة ١٨٩٤ عن ثمانية أولاد، خمسة ذكور وثلاث إناث أصغرهم فائز. وهذا مر ذكره في الفصل الأول «البعثيون الأوائل». ومن الواضح أن الفارس قد تأثر بجده جبور إلى حد بعيد، فيما لا نعرف عن الوالد يعقوب سوى أنه «كان قوي البنية مفتول العضلات معتدل القامة، ذا عقل راجح وتهذيب جم، ولا هم له إلا العمل (في أرض أبيه جبور الذي كان نجاراً) وتربية أولاده»[٧٤].

اذن من الكفير الحاصبانية انطلق فارس ـ التلميذ ـ الظاهرة إلى صيدا، فإلى الكلية الانجيلية (الجامعة الأميركية) في بيروت، ومنها إلى دمشق حيث استوطن، ليصبح بعد قليل محامياً لامعاً وسياسياً واقعياً وواضحاً ومتحرك النهج، فاستحق التكريم والتعظيم، وعُدّ من كبّار سوريا المعاصرين، بل من أبرز رجالاتها المخلصين ممن عملوا في الحقل الوطني والتعليمي والسياسي والديبلوماسي والأدبي.

هؤلاء شهدوا له

ما أكثر الذين شهدوا لفارس الخوري، فأظهروا محاسنه

(٧٤) أوراق فارس الخوري: ص ٣٥.

ومكارمه وفضائله، وقدّروا مآثره ومنجزاته المتعددة، وتنافسوا على مدحه وتقريظه.

ـ ففي عام ١٩٤٧ كتب الشيخ علي الطنطاوي، في مجلة «الرسالة» القاهرية، يروي قصة معرفته بالاستاذ فارس الخوري وأثر تلك المعرفة في نفسه. قال:

«أقيمت في ردهة المجمع العلمي العربي في دمشق من نحو عشرين سنة (يقصد عام ١٩٢٩) حفلة تكريم لشاعر النيل حافظ ابرهيم[٧٥] حضرتها أنا وأخي سعيد الأفغاني[٧٦]، وكنا

(٧٥) حافظ ابراهيم (١٨٧١ ـ ١٩٣٣) لقب بشاعر النيل، ولد بالقرب من ديروط بصعيد مصر ومات في القاهرة، كان أبوه مهندساً، وأمه سيدة تركية. مات أبوه وهو في الرابعة، فقضى حياة مضطربة في كفالة خاله، ولم يتلق تعليماً منظماً. ثم دخل المدرسة الحربية في القاهرة، وعين ضابطاً في السودان، فاشترك مع بعض زملائه في حركة تمرّد على القوّاد الانجليز، وأحيل الى الاستيداع، وعاد الى القاهرة، حيث بقي فترة طويلة دون عمل وكان الوفاق الوطني حافلاً بالاصوات الكبيرة، فاتصل بكثير من الزعماء في ميادين السياسة والفكر والاجتماع، وبخاصة الشيخ محمد عبده. وشارك مشاركة قوية في الأحداث السياسية معبراً عن مشاعر الطبقات الشعبية ثم عين في وظيفة بدار الكتب المصرية، وكان الاستعمار البريطاني يحرّم على موظفي الدولة الاشتراك في السياسة فلزم حافظ جانب الحذر وقلّ انتاجه أو ما كان ينشر منه. وقد غلب الطابع السياسي والاجتماعي على شعر =

يومئذ في مطلع الشباب، نقصد مثل هذه الحفلات لننتقد الخطباء، ونبتغي لهم المعايب، فمن لم نعب فكرته عبْنا أسلوبه، ومن لم ننتقص انشاءه انتقصنا القاءه. وخطب كثيرون في الحفلة، وقال فيها حافظ بيتيه المعروفين:

«شكرتُ جميل صنعكم بدمعي
ودمعُ العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفني
على ما ذاقه طعم السرور»

ولم يسْلم من ألسنتنا...

وكان فيمن خطب رجل قصير القامة، عظيم الهامة «جداً»

= حافظ. اسلوبه فخم جزل دون تعقيد أو مبالغة في المعاني. وكانت له طريقة مؤثرة في القاء شعره في المحافل، عكس شوقي الذي كان يكلف بعض اصدقائه القاء شعره نيابة عنه. طبع ديوانه في حياته في ثلاثة أجزاء صغيرة (١٩٠١ ـ ١٩٢٢)، ثم طبع بعد وفاته شاملاً لكثير من شعره الذي لم ينشر في الطبعة الأولى. وله كتاب نثري «ليالي سطيح» على اسلوب المقامات. وله ترجمة غير دقيقة لرواية «البؤساء» الفرنسية (مراجع عديدة) وخاصة «الموسوعة العربية الميسرة» المجلد الأول ص ٦٨٦ وأعلام الزركلي.

(٧٦) باحث وناقد سوري. له: «اسواق العرب» و«عائشة والسياسة» وغيرهما.

أبيض الشعر، ألقى قصيدة لا أزال أذكر ان مطلعها كان:

«ليالي التصابي قد جفاني حبورها
ولِمّتي السوداء أسفر نورها(٧٧)

ومن لي بأفكار الحقيقة بعدما
تجلّى على وجهي وفودي نذيرها

تذكرتُ أيام السرور التي مضت
فيا ليت شعري هل يعود سرورها»

لدن لي مع الأصحاب سهْمٌ مسدّد
وحظي من ريم الكِناس غريرها(٧٨)

أسفتُ على عهد الشباب ولم تعد
تثير فؤادي مقلة وفتورها

وأدنتني الأيام من هوّة الونى
فاصبح بين قاب قوسٍ شفيرها

وكادت صروف الدهر تطوي صحائفي
وهل بعد هذا الطي يرجى نشورها»

---

(٧٧) اللمة، بكسر اللام جمع لمم ولمام: الشَعر المجاوز شحمة الاذن قد يكون سمي بذلك لأنه شام المنكبين وقاربها.

(٧٨) الكناس، بكسر الكاف وفتح النون: بيت الظبي.

ويتابع الشيخ الطنطاوي:

«ونخلص الى لقاء حافظ.. وقال (الفارس) أنه جدّد عهد الشباب، وهي قصيدة طويلة لا أرويها، وكان صوته قوياً على انخفاض، مدوياً على وضوح، كأن له عشرة أصداء تتكرر معه، فتحس به يأخذك من أطرافك، ويأتي عليك من الأقطار الأربعة، فتسمعه باذنيك وقلبك وجوارحك، بل تكاد يدك تلمس فيه «شيئاً» ضخماً.. على صحة في المخارج، وضبط في الاداء، وقوة في النبرات، وثبات في المحطات، واعتداد في النفس عجيب، تشعر به في هذا الصوت الذي يكون له هذا الدوي كله، وهو يخرج من فم صاحبه باسترسال واسترخاء، لا يفتح له شدقه، ولا يحرك لسانه، ولا يمد نفَسه، ولا يجهد نفْسه، وأنْسانا بهذا الصوت وهذا الالقاء، ان ننقد القصيدة أو نجد لها العيوب، وملك به قلوبنا وقلوب الحاضرين، فصفقنا له حتى احْمَرّت منا الاكف!!

«وقلت لسعيد: من هذا؟

قال: هذا فارس الخوري.

وكنت قد سمعت باسم «فارس الخوري» قبل ذلك بزمان، سمعت به منذ كنت تلميذاً في السنين الأواخر من

المدرسة الابتدائية ايام الملك فيصل (١٩١٩) وكنا نعرفه علماً من أعلام السياسة وركناً في وزارة المالية، ولكنني لم اره قبل هذه الحفلة».

وقال أيضاً: «ومرّت الأيام، وخرجتُ من الثانوية، واشتغلت بالسياسة (كما كان يشتغل لداتي يومئذ) وصرت سنة ١٩٣١ رئيس اللجنة العليا لطلبة دمشق، ومحرراً في الجريدة الوطنية الكبرى، جريدة «اليوم» التي كان يقوم عليها الكاتب الوطني الخطيب الأديب الذي علّمنا تقديس الشرف وتقدير الرجولة، عارف النكدي، وكانت اللجنة تأتمر بأمر الكتلة الوطنية التي كان لها (في تلك الأيام) قيادة الأمة وكانت هي وحدها تحمل لواء الجهاد، والعمل على الاستقلال، فكنت أتصل بكبار رجالها، وكنت أحضر بعض مجالسهم، وهناك عرفت فارس الخوري من قرب، فوجدت فيه رجلاً وديعاً طريفاً حليماً واسع الصدر، ولكنه كان مع هذا كله هائلاً مخيفاً، تراه أبداً كالجبل الوقور على ظهر الفلاة لا يهزه شيء ولا يغضبه ولا يميل به الى الحدّة والهياج، يدخل اعنف المناقشات بوجه طلق واعصاب هادئة فيسدّ على خصومه المسالك ويقيم السدود من المنطق المحكم والنكتة الحاضرة والسخرية النادرة والعلم الفياض والامثال والحكم والشواهد، ويرقب اللحظة المناسبة حتى اذا وجدها ضرب

الضربة الماحقة وهو ضاحك. ثم مدّ يده ليصافح الخصم الذي سقط لا يرفع صوته ولا يثور ولا يعبس ولا يغضب ولكنه كذلك لا يفرّ ولا يُغلب!!

«وما رأيته يناقش أحداً الا شبهته باستاذ يناقش تلميذاً مدلّلاً غبياً، فانت تلمس في لهجته ولحظته وبسمته وكلمته، صبره عليه، وتملكه منه واشفاقه عليه».

واذ تتلمذ الطنطاوي على الفارس في كلية الحقوق في دمشق يحدّث عنه: «وخرجتُ من الكلية، وكنتُ أراه في الترام أو ألمحه في الطريق، فأجد من ايناسه وسؤاله عني وحفاوته بي، مايملأ نفسي شكراً، وهذه مزية من مزاياه يشعر كل من يلقاه أنه صديقه الأوحد، وانه أقرب الناس اليه، وأنه لا يشتغل الا بذلك ومعرفة أمره، والعناية به. وكنتُ ازور المجمع العلمي العربي وهو من كبار أعضائه فأراه أحياناً في مناقشات أدبية أو لغوية، فاذا هو في مجال العلم والحفظ، كما في مجال الرأي والفكر، واذا هو متسلّط غلاّب في مصاولات الأدب كما كان الغلاّب المتسلط في مصاولات السياسة!!»[79].

ـ على أن الفارس رفيقاً في مدرسة صيدا الأميركية، صار فيها

(٧٩) عن الفرحاني: ص ٢٢.

بعد أديباً وعالماً ومربياً وقساً، هو المرحوم حنا خباز (١٨٧١ ـ ١٩٥٥) من مواليد حمص. ومما قاله في رفيق الصبا، الفارس:

«رفيقي فارس يعقوب (هذا كان اسمه في مدرسة صيدا الأميركية عام ١٨٨٩) باهي المحيّا. ولكن ليس كل جماله في محياه. فما لا تراه العين أعظم جداً مما تراه. وويل لمن ليست ثروته الا ما تراه العيون. كان علماً بين الرفاق. اصغرهم سناً. واصفاهم ذهناً. واوفرهم جهداً. واجملهم نفساً. وارهفهم حساً. واعلاهم كعباً. واطولهم باعاً. واثبتهم وداً. وأوفاهم وعداً. . هذا الفتى. وكنت أظنه في الرابعة عشرة. لا ادري أي علم أو أي فن لا يعرف. هو قاموس عام لكل مطلب وفن. . كنت في التاسعة عشرة يومذاك وقد قرأت عشرات من الكتب وكنت أظن أنني اعلم أترابي وهذا فارس وهو أصغر مني سناً يبزني ويبز من هم أعلم مني علماً واطلاعاً»[٨٠].

ـ وفي «مذكرات نسيم الحلو»، الرفيق الآخر للفارس في مدرسة صيدا، نقرأ: «كانت المدرسة هذه السنة أي من ١٨٨٧ ـ ١٨٨٨ أكثر تنظيماً اذ ترتبت الصفوف من الأول الى

(٨٠) نفسه: ص ٣٢ عن «فارس الخوري: حياته وعصره» للاستاذين جورج حداد وحنا خباز.

الرابع وكنا نحن من عداد الصف الرابع. .

«ومن بين التلاميذ الجدد، صبي من بلدة الكفير، وسيم الطلعة قصير القامة بسام المحيا، دخل في الصف الأول. .

«واذا استغربت تخصيصي اياه بالذكر، فهو فارس بن يعقوب الخوري حسبما دُوِّن في سجل المدرسة. أما الآن وفي سنة ١٩٤٩ فهو الاداري الكبير السياسي الخطير دولة فارس بك الخوري الذي تولى رئاسة مجلس النواب ورئاسة مجلس الوزارة في الجمهورية السورية، وهو الذي انتدبته دولة سوريا ليمثلها في معضلات السياسة الهامة في لندن وواشنطن وباريس والقاهرة وغيرها، ويعرفه رجال السياسة كما يعرفون ترومن وتشرشل وغيرهما من مشاهير السياسة العالميين. ومنذ دخوله المدرسة الى خروجه والصداقة وثيقة العرى بيننا»[٨١].

ـ وكتب الصحافي الفلسطيني المجاهد المغفور له محمد علي الطاهر[٨٢]:

(٨١) عن أوراق فارس الخوري: ص ٥٢ حاشية (١٥).

(٨٢) محمد علي الطاهر، أبو الحسن (١٣١٢ ـ ١٣٩٤ هـ/١٨٩٤ ـ ١٩٧٤ م): مولده بنابلس نشأ بها وسافر صغيراً إلى مصر فلما كانت الحرب الكونية الأولى اعتقلته السلطات الانجليزية مع عدد ممن كان لهم نشاط ظاهر. وأصدر بعد الحرب جريدة «الشورى» اسبوعية (١٩٢٤) وكتب بها كثيرون من كبار كتاب العرب، دفاعاً =

«الشخصية الطوْد فارس الخوري . . .

شخصية ضخمة فخمة، لا يمكن الاحاطة بها ووصفها في مجلدات عديدة فكيف في كتاب؟!!

ذلك أن دراسة شخصية فارس الخوري تحتاج إلى كتب عديدة ليشرح كل منها جانباً من عظمته ونبوغه وعبقريته.

فكتاب عن فارس المعلم، وكتاب عن فارس الخطيب، وكتاب عن فارس السياسي، وكتاب عن فارس الشاعر، وكتاب عن فارس المحامي، وكتاب عن فارس المحدّث الراوية، وكتاب عن فارس عضو البرلمانات ورئيس

= عن قضاياهم المختلفة في سورية وفلسطين والعراق ومصر والمغرب. واقفلت الجريدة وطورد، ففر مرات من وجه الشرطة وقبض عليه (١٩٤٠) وفرّ، واستسلم لمصطفى النحاس فعفي عنه. وسجن ثانية (١٩٤٩) بأمر رئيس الوزراء ابراهيم عبد الهادي، وأطلقه حسين سري في السنة نفسها. ودوّن أخباره في كتب نشرها بمصر، منها «نظرات الشورى» و«أوراق مجموعة» و«معتقل هاكستب» و«ظلام السجن» وله «ذكرى الأمير شكيب ارسلان» و«رسائل بو رقيبة وخمسون عاماً في القضايا العربية». ولما قامت ثورة عبد الناصر (١٩٥٢) بمصر لم يكن باسعد مما كان قبلها فيها، وغادرها الى بيروت (١٩٥٥) وتوفي بها (الزركلي، المجلد السادس ص ٣١٠).

البرلمانات، وكتاب عن فارس رئيس مجلس الأمن الدولي، وكتاب أهم وأوسع يرسم صورة خالدة عن فارس الخوري المواطن العربي والانسان.

«لولا النقطة التي توضع فوق حرف الخاء من لقب فارس الخوري لكان مقامه عند الأمة كرسي رئاسة الجمهورية!!

«أعني لو أنه كان يلقب بـ«الحوري» أو بـ«الجوري» لما زاحمه على سدة الرئاسة أحد، بل كانت تسعى اليه الرئاسة طائعة غير منقادة، فلو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض من تحته، ذلك أن دستور سورية ينص على أن رئيس الجمهورية يجب أن يكون مسلماً، وفارس الخوري وُلد مسيحياً ولكنه عربي الأصل والقلب واللسان.

«حضرتُ جلسات وشهدت أمسيات مع هذا الفارس الفذّ الوقور في مجالس كثيرة، فاذا بالجميع دونه بكثير، فهو اذا تكلم أصغوا، واذا قال وافقوا أو صدعوا، وان صمت سألوا، وإن أجاب سكتوا فقوله فتوى، ورأيه حجّة، وكلامه فصل الخطاب»[٨٣].

- ونسمع الدكتور مأمون الكزبري، رئيس مجلس النواب التأسيسي السوري سابقاً، يقول في من سبقه الى هذا المنصب:

(٨٣) عن الفرحاني: ص ٢٥٤/٢٥٥.

«ليس الحديث عن فارس الخوري بالسهل الهين اللين، ولا الإلمام بتراثه الضخم الذي خلفه لنا بالمستطاع في أسطر قليلة، لأنه كان عظيماً، وعظمة الانسان بعض من صفات الخالق فهو الذي وهبه العقل الراجح الذي استمد منه الايمان بالله، والقلب الكبير الذي تدفقت منه وطنيته الصادقة، والنفس الكريمة التي خلقت فيها الشعور بكرامة وطنه وحريته وسيادته.

«كل ما في فارس الخوري يوحي لنا الاعجاب به، والاكبار لشخصه، والتغني بذكراه، والتأسي بخطاه. فطلعته المهيبة، وبلاغته تقارب الاعجاز، واعتداده بكرامته، واعتزازه بوطنيته، وثقته بنفسه، وايمانه بحق وطنه في السيادة والاستقلال، جعلته في مقدمة رجالات العرب الذين ضحوا بهناءة شبابهم، وناضلوا نضالاً مستعيراً، وكافحوا كفاحاً مريراً في سبيل الوطن العربي، وعملوا على تحقيقه في ساح النضال الداخلي وفي المحافل الدولية، فكان مع اخوان له عضداً قوياً، وسنداً متيناً في العمل على اجلاء المستعمر الناصب عن أرض الوطن العربي».

وعن فارس الخوري الذي اقترن اسمه باستقلال سوريا، وذكْرُه بذكْرِ الديموقراطية، بل عن فارس الخوري البرلماني قال الدكتور الكزبري نفسه: «.. فقد شغل فقيدنا الكبير منصب

رئاسة مجلس النواب مرات ومرات فكان في هذا يرسي قواعد الديموقراطية الصحيحة في نفوس ساستنا الناشئين، ويقرر تقاليد برلمانية جديدة بما أوتي من علم وخبرة وتعشق للحرية، وتفهّم للعدالة الاجتماعية، حتى لقد غدت بعض هذه القواعد من تقاليد مجالسنا النيابية المتعاقبة بل ان بعض هذه التقاليد قد ادخلت في صلب هذه الانظمة الداخلية البرلمانية، وليس هذا بغريب عنه فقد كان ينبوعاً ثراً في التشريع بما أوتي من ملكة طبيعية في الفهم القانوني مما رشحه لشغل اكبر المناصب الدولية حتى سمي عضواً في لجنة القانون الدولي»[٨٤].

- ومن حلب كتب الأديب سامي الكيالي[٨٥]:

(٨٤) نفسه: ص ٢٥٨/٢٥٩.

(٨٥) سامي بن علي بن محمد الكيالي (١٣١٦ - ١٣٩٢ هـ/١٨٩٨ - ١٩٧٢ م): أديب باحث. مولده ووفاته بحلب. تعلم بها. وكان أمين السر العام لبلديتها مدة ٢٥ عاماً، ومديراً لدار الكتب الوطنية فيها، ومن أعضاء مجمع اللغة في القاهرة. أصدر مجلة «الحديث» شهرية سنة ١٩٢٧ - ١٩٦٠ ونشر ٢٦ كتاباً من تصنيفه، منها «نظرات في التاريخ والنقد والأدب» و«شهر في اوربة» و«سيف الدولة وعصر الحمدانيين» و«الفكر العربي بين ماضيه وحاضره» و«المرأة هذا الفجر الأبدي» و«الراحلون» و«صراع في سبيل القومية العربية» و«يوميات في أميركة» =

«من الأحاديث التي لن أنسى أثرها في نفسي، حديث الاستاذ فارس الخوري مع الدكتور حسين هيكل(٨٦)، فقد

= و «الحركة الأدبية في حلب» و «الأدب العربي المعاصر في سورية» و «خمر وشعر» و «من خيوط الحياة» كلها مطبوعة (الزركلي ـ المجلد الثالث ص ٧٥).

(٨٦) الدكتور محمد حسين هيكل كما عرف (١٣٠٥ ـ ١٣٧٦ هـ/١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م)، كاتب وصحافي ومؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة، في مصر. ولد في قرية كفرغنام (بالدقهلية) وتخرج من مدرسة الحقوق ـ القاهرة (١٩٠٩) ثم حصل على «الدكتوراه» في الحقوق من جامعة السوربون ـ باريس (١٩١٢) وافتتح مكتباً للمحاماة بالمنصورة. واكثر من الكتابة في جريدة «الجريدة» وترأس تحرير جريدة السياسة اليومية (١٩٢٢) ثم الاسبوعية. ودرّس القانون المدني في الجامعة المصرية القديمة. وكان من أركان الحزب الدستوري المناوىء لسعد زغلول وحزبه. وولي وزارة المعارف مرتين، ثم رئاسة مجلس الشيوخ (١٩٤٥ ـ ١٩٥٠) وكان أول ما أصدر مجلة «الفضيلة» يطبعها على «البالوظة» ويوزعها في قريته. وصنف كتباً طبع منها «حياة محمد» و «في منزل الوحي» و «ثورة الأدب» و «الصدّيق أبو بكر» و «الفاروق عمر» و «عشرة أيام في السودان» و «ولدي» و «تراجم شرقية وغربية» و «في أوقات الفراغ» و «جان جاك روسو» الأول منه، وثلاث قصص: «زينب» و «أنيس» و «هكذا خلقت» و «الامبراطورية الاسلامية» نشر بعد وفاته. وتوفي بالقاهرة، فجمع ما قيل =

زرناه قبل بضع سنوات ودارت بين الرجلين العظيمين أحاديث طلية في شتى الشؤون التي تثير الأمة العربية سواء منها السياسي والقومي والاجتماعي والفكري، وكانت الكتب التي كتبها هيكل عن محمد وأبي بكر وعمر و «في منزل الوحي» موضع حديث أطول، وقد دهش الدكتور دهشاً عظيماً من وفرة اطلاعه العميق على الكثير من أدق الفترات الحاسمة في تاريخ الاسلام، وكانت دهشته اكثر حين كان يسرد النصوص التي يستشهد بها من آيات وأحاديث وقصص وشعر وكأنه يقرؤها من كتاب، وقال لي الدكتور هيكل بعد أن ودعناه، وقد استمرت الجلسة اكثر من ساعتين، انني لم اكن اتوقع أن تمتد جذور ثقافته في الاسلاميات إلى هذا الحد البعيد، والواقع، وهذا ما يعرفه كل من اتصل به (يقصد فارس الخوري) أنه كان لايثير موضوعاً الا ويدعمه بالحجج والبراهين، وكان رحمه الله إلى سعة اطلاعه وعمق ثقافته وبليغ بيانه، على جانب كبير من الاتزان والكياسة في جدله ومناقشاته، فاذا احتدم الجدال، دعم وجهة نظره بالنص اثر النص وبالسند اثر السند الى أن يقنع مجادله مهما كانت شقة الخلاف واسعة»(٨٧).

= فيه من تأبين ورثاء في كتاب «الدكتور محمد حسين هيكل» (الزركلي، المجلد السادس ص ١٠٧).

(٨٧) عن الفرحاني: ص ٢٦٦.

ـ أما السيد حسن الحكيم، رئيس الحكومة السورية الاسبق، فقد قدم لكتاب الاستاذ محمد الفرحاني: «فارس الخوري وايام لا تنسى» بكلمة تؤكد على عمق الصداقة بين الحكيم والخوري من جهة، ومكانة الفارس عند من يُفترض أن يكون منافسه على الرئاسة والقيادة من جهة. قال الرئيس الحكيم: ان «الاستاذ (فارس) الخوري علَم من أعلام هذه الأمة وقائد من قادة الرعيل الأول فيها، فاذا أطريت في هذه المقدمة مبدأه القويم، ونضاله الشاق، ومكانته العلمية، وعبقريته الفذة، فانما اعبّر في ذلك ـ وأنا الصديق الحميم له ـ عما تردده البلاد من عبارات التقدير العظيم لرجلها العظيم»[٨٨].

وألمح الحكيم الى مبدأ التربية الوطنية «الذي يساوي بين أفراد الأمة في الحقوق والواجبات والذي لا تجد التفرقة الدينية والمذهبية الى نفوس معتنقيه سبيلاً»[٨٩]، مثبتاً أن الفارس قد «اعتنق هذا المبدأ القويم عن عقيدة وايمان»[٩٠]، حيث رأى أن «انحلال الرابطة القومية في امة من الامم من شأنه أن يفسح المجال أساساً للنعرات الطائفية وحتى للنزعات العنصرية والاقليمية ولانتشار الكثير من العقائد

---

(٨٨) نفسه: ص ١٠.

(٨٩) (٩٠) نفسه.

والافكار المنافية لمصلحة الوطن العليا»[٩١] بل لمصلحة الأمة بأجمعها. ومن كان هذا مبدأه، فلا بد أن يكون «الوطني الصادق»[٩٢] و«المؤمن بالله وبالشعب والوطن»[٩٣]. فكيف اذا ما اجتمعت هذه الصفات وهذه السجايا في من كان ذا «علم واسع»[٩٤]، وتعبير صحيح، ولسان فصيح، وحجة قوية وبديهة حاضرة أبداً!

ومهما كان رأينا في الأوسمة والجوائز والالقاب، لاسيما السياسية منها، فلا أدل على مكانة صاحبنا الفارس هذه من تقدير الجمهورية العربية المتحدة مركزه العلمي الكبير ومنحها اياه عام ١٩٦٠ ـ قبل الانفصال ـ وشاح النيل وجائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية[٩٥]».

لقد كان الفارس «يأبى أن يلطخ في نقاشه وجه الحقيقة بالاساليب الخادعة، أو أن يقلب قيم الحق بالادعاءات الباطلة. بل يقارع الحجة بالحجة ويرغم معارضيه على الاصغاء الى اقواله واحترام سديد آرائه بعد أن يفحمهم في حلبة المنطق ويتركهم لاهثي الانفاس»[٩٦].

---

(٩١) (٩٢) (٩٣) نفسه

(٩٤) نفسه: ص ١١.

(٩٥) حسن الحكيم، الفرحاني: نفسه.

(٩٦) نفسه.

هذا هو فارس الخوري الكفيري الدمشقي العربي الدولي على أقلام بعض رفقائه وبعض عارفيه وألسنتهم، فما هو سر هذا الاعجاب وهذا التقدير وهذا الوفاء؟

لعلّ نظرة الى القليل من شعره ونثره تكفينا ما نحن اليه ساعون بقلب سليم.

الفارس والشعر صُنوان

اذا سلّمنا بأن فارس الخوري ولد عام ١٨٧٧، لا عام ١٨٧٣، نتفق على أن الشعر قد «نزل» على صاحبنا الفارس ولّما يبلغ العشرين. ذلك أن قصيدته الرثائية ذات الثمانين بيتاً، التي نظمها عام ١٨٩٥ إثر وفاة المستشرق الطبيب والمعلم كورنيليوس فان دايك، من أوائل المرسلين الانجيليين الذين جاؤوا بلاد الشام، ان دلت فعلى أن الفارس قد ولد شاعراً، بل مطبوعاً على الشعر:

«قد كان شهماً تقياً فاضلاً ورعاً
كزاهدٍ بحبال الله معتصم
قد كان للفضل معضاداً ومنتصراً
زاكي الشذا في السجايا عاطر الشيم
قد كان استاذنا في كل مشكلة
فصل الخطاب لدى اشكال مختصم»[٩٧]

---

(٩٧) أوراق فارس الخوري: ص ٢٦/٢٨.

والواقع أن الفارس والشعر صنوان لا ينفصلان، وان بدا لنا أنه غلّب السياسة على الأدب. وبين السياسة والشعر، عند فارس الخوري، كما بين العين والاذن في الرأس الواحد، فلا هذه تغني عن هذه، ولا الرأس بدونهما يمكنه أن يكون مخزناً للعبقريات.

قبل هذه القصيدة الرثائية، وفي عام ١٨٩٢ ألقى الفارس، في حفلة اقيمت في الكلية الانجيلية (الجامعة الأميركية)، قصيدة طويلة أيضاً عنوانها: «الآمال» منها:

«أخيّ اصطبرْ إنْ كنت صاحب مأرب
فدربُ العلى صعب ومركبه وعرُ
وكن ذا أمانٍ سَميٍّ طِلابُها
ولا يُشْنكَ الخدُّ المورّد والخصر
وخذْ ما تسنّى مدْرجاً نحو غيره
بلا سلّم لا يُرتقى البرجُ والقصر
وعند انتخاب السلم انظرْ علوها
وغاية مرماها فهذا هو السرّ
وليس ارتفاع الكعب منها بنافعٍ
اذا كان حدُّ الرأس يُشكى به القصر»[٩٨]

---

(٩٨) نفسه: ص ٢٦١.

تُرى هل كان الشاعر، آنذاك، وهو ابن الخامسة عشرة، ينثر على زملائه حِكَماً وامثالاً لملمها من بطون الكتب التي قرأها أو اطلع عليها، أو كان يخطط لنفسه النهج والمستقبل؟

لا شك أن الذي أوصل الفارس الى الكلية في بيروت هو الصبر فحسب. ولو كان صاحبنا ممن تثنيهم الخدود المورّدة والخصور الغضاض الطرية عن مآربهم العظيمة البعيدة، لبقي في الكفير يطارد العصافير، ويغني «العتابا» و«الميجانا» ويدبك ويرقص في المناسبات، ويتزوج وينجب الأولاد، فيسلخ عمره في الفلاحة البدائية التي لا تثمر ولا تغني.

من الرحلة «السرية» الى صيدا، التي هيأتها له المرحومة والدته: حمدة بنت بطرس عقيل الفاخوري[99]، تعلّم الفارس

(٩٩) نفسه: ص ٣٧. كانت حمدة «صغيرة السن عندما تزوجت. ونعرف انها كانت قصيرة القامة صبوحة الوجه وكانوا يتحدثون عن جمال عينيها الفاتحتين وعن نقاء بشرتها الوضاءة. وقد عرفت بمقدرتها وشجاعتها.

«وكان الفارس مولعاً بأمه، فهي التي لعبت الدور الأساسي في حياته (...). وقد كان يذكرها على الدوام ويحدثنا عنها بقوله: «حمدة عظيمة، هي التي علمتني». واذكر أنه كان لنا في بلودان في الخمسينات جارة طيبة هي الحاجة حميدة حبوباتي وكان جدي يزورها بين الحين والحين وقد قال لها مرة «لاتعجبي من زيارتي لك، فانا أحب دائماً أن اطمئن عنك =

أن المجد يؤخذ ولا يعطى، وأن البروج والقصور لا تُرتقى الا درجة فدرجة، ومحال أن يصل المستعجلون. أما اذا وصلوا فمحال أن يستمروا أو يمكثوا طويلاً فوق مهما تصوّنوا وتحصّنوا. ولذلك نراه عام ١٨٩٨ يتمثل بالشاعر الوزير ابن زيدون، فيخمّس له قصيدته: «أضحى التنائي»، التي طارت شهرتها وذاع صيتها، فاذا الاصيلة تلد أصيلة مثلها، فكأن هذه من رحم تلك، وكأن الوزير الأندلسي قد بُعث في دمشق على ما بين المغرب الفلسفي، المتمثل بابن رشد، والمشرق المتمثل بابن سينا، من قطيعة كرّسها المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري في معظم مؤلفاته[100] (*).

ومهما يكن مسعى الدكتور الجابري الفلسفي، فان «ابن

= لأنك تحملين اسماً جميلاً غالياً على قلبي. اسم أمي» (كوليت الخوري، ص ٣٧).

(١٠٠) انظر الحوار الذي دار بين المفكرين «الاكاديميين»: الدكتور محمد عابد الجابري. الاستاذ بجامعة محمد الخامس، والدكتور فهمي جدعون، استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة الكويت: مجلة «العربي» العدد ٣٧٠ السنة ٣٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٨٩، ص ٩٧/١٠٥.

(*) التخميس عند الشعراء: هو أن يضاف ثلاثة أشطر الى شطري البيت.

عبد ربه[101] مع جلالة قدره وعظمة شأنه حينما أراد أن يبرهن للمشارقة أن في بلاد الأندلس أدباء عظماء لا يقلون درجة عن ادبائهم واندفع بهذا الخاطر الى تأليف كتاب عظيم سماه «العقد الفريد» ولم يخرج في تأليفه عن الطريقة الشرقية ولم يتعدَّ إلى ذكر غير أدبائهم وشعرائهم. وقد لاحظ ذلك أدباء المشرق، فكان الصاحب بن عبّاد[102] يحرص كثيراً للحصول

(١٠١) هو أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب بن جدير بن سالم (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ/ ٨٦٠ - ٩٤٠ م): الأديب الامام صاحب «العقد الفريد». من أهل قرطبة. كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن ابن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سمّاه «الممحصات» وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة. وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه «العقد الفريد» فمن أشهر كتب الأدب. سماه «العقد» وأضاف النسّاخ المتأخرون لفظ «الفريد» وله ارجوزة تاريخية ذكر فيها الخلفاء وجعل معاوية رابعهم ولم يذكر الامام علياً فيهم، وقد طبع من ديوانه؛ خمس قصائد وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام. وللدكتور جبرائيل جبور كتاب سماه «ابن عبد ربه وعقده» وللاستاذ فؤاد افرام البستاني «ابن عبد ربه» (الزركلي، المجلد الأول ص ٢٠٧).

(١٠٢) هو اسماعيل بن عبّاد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني (٣٢٦ - ٣٨٥ هـ/ ٩٣٨ - ٩٩٥ م): وزير غلب عليه =

على كتاب «العقد الفريد» ليرى فيها اذا كان يستطيع بواسطته معرفة حركة الأدب العربي في الأندلس، فلما وصل الكتاب الى يده ونظر فيه ما زاد على أن قال: «بضاعتنا رُدّت الينا»[103].

= الأدب، فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة، ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوين) واليها نسبته، وتوفي بالري ونقل الى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف جليلة، منها «المحيط» في مجلدين في اللغة. وكتاب «الوزراء» و«الكشف عن مساوىء شعر المتنبي» و«الاقتناع في العروض وتخريج القوافي» و«عنوان المعارف وذكر الخلائف» رسالة، و«الاعياد وفضائل النيروز» وقد جمعت رسائله في كتاب سمي «المختار من رسائل الوزير ابن عباد» وله شعر في «ديوان» وتواقيعه آية الابداع في الانشاء. ولمحمد حسن آل ياسين كتاب «الصاحب بن عباد، حياته وأدبه» وللخليل مردم بك «الصاحب بن عباد» مدرسي. (الزركلي، المجلد الأول ص ٣١٦). وعن الدولة البويهية وملوكها ووزرائها صدر كتاب «تاريخ الدولة البويهية» (مقاطعة فارس) للدكتور حسن منيمنة، الدار الجامعية ١٩٨٧ م.

(١٠٣) نهاد رفعة عناية: ابن زيدون، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٩ م ص ١٣.

والآن الى بعض من قصيدة ابن زيدون وبعض التخميس الذي بادر اليه شاعرنا الكفيري الدمشقي .

الفارس وابن زيدون

١ ـ قال ابن زيدون :

«أضحى الثنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا»[١٠٤]

وقال فارس الخوري :

«كانت أشعَّتُكم تجلو دياجينا
وقربُكم عن شؤون الدهر يسلينا
وبعد ما لعبتْ خمْرُ الهوى فينا[١٠٥]
أضحى الثنائي ... الخ ...
وناب عن ... الخ ...»[١٠٦]

٢ ـ قال ابن زيدون :

«يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا»

---

(١٠٤) قصيدة ابن زيدون، عن نهاد رفعة عناية، ص ٢٤/٢٧ .
(١٠٥) الاشطر الثلاثة التي أضافها الفارس.
(١٠٦) أوراق فارس الخوري : ص ٢٦٦/٢٦٧ .

وقال فارس الخوري :

«لئن تكن حجبت عنكم نواظرنا
فما خلتْ ساعةً منكم سرائرنا
«واذ تحنُّ الى النجوى خواطرنا
يكاد حين ... الخ ...
يقضي علينا ... الخ ...[١٠٧]

٣ ـ قال ابن زيدون :

«حالت لبعدكم أيامنا فغدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

وقال فارس الخوري :

«حبٌّ قديم به ارواحنا اتحدت
وجمرةٌ للتلاقي طالما اتقدتْ
حتى اذا باللقا نار الجوى بردت
حالت لبعدكم ... الخ ...
سوداء وكانت ... الخ ...»[١٠٨]

تشابه في الايقاع، وتشابه في الاحساس، تجاوزا الجغرافيا والزمان معاً.

---

(١٠٧) (١٠٨) أوراق فارس الخوري : ص ٢٦٦/٢٦٧ .

٤ ـ قال ابن زيدون :

«ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لارواحنا إلاّ رياحينا»

وقال فارس الخوري :

«لله ساعات أنسٍ عندما التأما
شملُ الهناء بكم والوجد ما نأما
سقيتمونا بماء اللطف ريّاً ظما
ليسق عهدكم ... الخ ...
كنتم لارواحنا ... الخ ...[١٠٩]

٥ ـ قال ابن زيدون :

«من مُبلغُ المبلسينا بانتزاحِهم
حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا»

وقال فارس الخوري :

«الدهرُ جرّ علينا في رواحهمُ
ذيولَ ذلٍ فهل همْ بانشراحهمُ

(١٠٩) أوراق فارس الخوري : ص ٢٦٦/٢٦٧ .

لم يعلمونا ما دهانا من براحهم
من مبلغ ... الخ ...
حزناً مع الدهر .... الخ ...»[١١٠]

الواضح أن التخميس لا يتعدى التفسير الشعري المقيد والمكبل، ذلك أن الخلق والابداع ما أتت بهما القصيدة الأم فحسب. أما القصيدة الوليدة، أما البنت، فمن ثوب أمها فصّلت ولبست، ومن زينتها و «أكسسوارها» استعارت فتزينت وتحلّت.

ماذا كان في خاطر صاحبنا الفارس حتى خمّس رائعة ابن زيدون؟

ربما لا شيء سوى عرض «عضلاته» الشعرية فقط.

ولكن لماذا عرض «العضلات»؟

«ان من يقرأ شعر ابن زيدون ونثره ويتقصى أخباره وأخبار عصره يجد أنه من الغبن اَن نقول عنه بأنه شاعر فقط أو ناثر ممتاز، وما أجدرنا أن ننصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربي. لا لكلفه بالصنعة التي بغّضت الينا اكثر شعراء العصور الماضية بل لأن هذا اللون الرائع من الصنعة المحببة

(١١٠) أوراق فارس الخوري : ص ٢٦٦/٢٦٧ .

التي تمتزج بالنفس وتهيمن على القلب وتحبب فيها أشد الناس بغضاً إليها فانه عرف كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للافتتان في الأداء والتعبير، والابداع في تصوير أروع المعاني الساحرة وأدق الخوالج النفسية، فاذا بها نفس تطرب الى الجمال وتعنى بالتعبير، وطبيعة سمحة لا التواء فيها ولا تكلف»(١١١).

لا شك أن صاحبنا الفارس كان يعرف هذا، ويعرف كذلك أن ابن زيدون الذي عثر على سعادته في ولّادة التي «تلقفت العلوم والفنون وامتلكت ناصية الشعر، وحدب العلماء والمثقفون على تربيتها بما يليق ببنات الملوك»(١١٢)، ما لبث أن ضاع منه هذا «الكنز» العظيم، اذ برز له منافسان يقاسمانه حبّ ولّادة، الشاعرة والعاشقة: أبو عامر بن عبدوس، وأبو عبد الله ابن القلاس، فنجح الشاعر بابعاد الثاني بعد «زجرة عنيفة محكمة جعلته يؤثر السلامة»(١١٣)، وبقي الأول «صلاية على رقبة شاعرنا حتى ادركته المنيّة»(١١٤). وان كنا لا نعتقد أن ولّادة تنازلت عن ابن زيدون، أو أغرمت بابن عبدوس، «وهو رجل جاهل، لا

(١١١) نهاد رفعة عناية: ص ١٧.

(١١٢) الدكتور وليم الخازن: ابن زيدون واثر ولّادة في حياته وأدبه، منشورات المكتب العالمي - بيروت ١٩٦١ ص ٤٦.

(١١٣) (١١٤) نفسه.

ذكاء فيه، ولا علم عنده، مع اعتزازه بنفسه، ومحاولته تغطية جهله»(١١٥). معنى القول ان ابن زيدون سعد وشقي في آن، بل ان حالتين في أقصى التباين والتباعد: السعادة والشقاء، تحكمتا في شعره وربما لولاهما لما كان ذلك الشاعر الذي جمع العاطفة الخالصة وحمّى الغرام الى الألم واللوعة، حتى قال فيه أحمد شوقي:

«شاعراً أم مصوّراً
كنتَ أم كنتَ مطربا
انت في القول كله
أجملُ الناس مذهبا
بأبي أنت هيكلاً
من فنون مركّبا»(١١٦)

على أن ابن زيدون عاهد ولّادة عهداً لا يمكن نكثه ولا رفضه:

«لما اتصلتِ اتصال الخِلْب بالكبد
ثم امتزجتِ امتزاج الروح بالجسد.

(١١٥) نفسه، عن تاريخ الفكر الاندلسي لغونزاليس بالنشيا. نقله عن الاسبانية: الدكتور حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥، ص ٨٢.

(١١٦) عن نهاد رفعة عناية: ص ١٦.

ساءَ الوشاةُ فكأني منك، واتقدتْ
في صدر كل عدو، جمرةُ الحسد
«لو استطعتُ، اذا ما كنتِ غائبة
غضضتُ طرفي، فلم أنظر الى أحد»(١١٧)

واذا باعدت الحبيبة، أو هجرت قسراً أو عمداً، قال:

«باعدتِ، بالإعراض، غير مباعدِ
وزهدتِ، فيمن ليس منك بزاهد
وسقيتني، من ماء هجرك، ما له
أصبحتُ أشرق بالزّلال البارد
هلّا جعلتِ، فدتكِ نفسي، غاية
للعتب، أبلغها بجَهد الجاهد
لا تفسدنْ، ما قد تأكد بيننا
من صالح، خطراتُ ظنٍ فاسد
حاشاكِ من تضييع ألف وسيلة
شجي العدو لها، بذنبٍ واحد
إنْ أجْنه خطأ، فقد عاقبتني
ظلماً، بأبلغ من عقاب العامد

(١١٧) ديوان ابن زيدون، الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت، بدون تاريخ ص ٩٣. الخلب: حجاب رقيق للكبر. غضضت: صددت.

عودي لما أصفيتنيه من الهوى
بدءاً، فلستُ لما كرهتِ بعائد
وضعي قناع السخط عن وجه الرضى
كيما أخِرَّ اليه أوّل ساجد»(١١٨)

لايعتقدن أحد أننا راغبون في الموازنة بين ابن زيدون والفارس، ولكنها جولة خاطفة وسريعة على من صهره الحب والعذاب والعهد الصادق القاطع. على أن بين سيرة هذا وهذا فرقاً كبيراً، وكبيراً جداً من جهة، وأن ديوان الفارس ما زال مخطوطاً نرجو أن يبصر النور في القريب العاجل من جهة. وفي رأينا، تمثل الفارس بابن زيدون لا لأنهما على درجة واحدة من المعاناة والمتاعب والأحزان، بل لأن الفارس أدرك بحسه وفهمه أن صاحبه حمل لواء الزعامتين في النظم والنثر، اذ انك «تقرأ نثره فلا تكاد تصدق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية، فاذا عدت الى شعره أنساك ابداعه روعة ما قرأت من نثره»(١١٩). ولا ريب أن الفارس قد اطلع على مجمل ما قيل في ابن زيدون فأعجب به ايما اعجاب، وسرّه أن يبلغ مابلغه على صعيد الأدب والثقافة.

(١١٨) الديوان: ص ٩٤.
(١١٩) نهاد رفعة عناية: ص ١٨.

لقد روى صاحب «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» أبو العباس المقّري [120] محدثاً عن ذلاقة لسان ابن زيدون، أي طلاقته في المنطق: «أن ابنته توفيت، وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم، فقيل انه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد» [121].

---

(١٢٠) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقّري التلمساني (٩٩٢ ؟ - ١٠٤١هـ/١٥٨٤ ؟ - ١٦٣١ م): المؤرخ الأديب الحافظ، صاحب «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» أربعة مجلدات، في تاريخ الأندلس السياسي والأدبي. ولد ونشأ في تلمسان (بالمغرب) وانتقل الى فاس، فكان خطيبها والقاضي بها. ومنها الى القاهرة (١٠٢٧ هـ) وتنقل في الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفي بمصر ودفن في مقبرة المجاورين. وقيل: توفي بالشام مسموماً، عقب عودته من اسطنبول، والمقّري نسبة الى مقّرة (بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة) من قرى تلمسان. له (عدا نفح الطيب) كتب جليلة منها «أزهار الرياض في أخبار القاضي عيّاض» أربعة أجزاء، و «روضة الاندلس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس» و «حسن الثنافي العفو عما جنى» و «عرف النشق في أخبار دمشق» وأرجوزة سماها «إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنّة» (الزركلي، المجلد الأول ص ٢٣٧).

(١٢١) عن نهاد رفعة عناية: ص ١٩.

وقال بعض الادباء: «من لبس البياض وتختّم بالعقيق وتفقّه للشافعي وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الظَرْف» [122].

وقال ابن بسّام [123]: «كان أبو الوليد (ابن زيدون) غاية منظوم ومنثور وخاتمة شعراء بني مخزوم» [124].

ويا للمصادفة، كتب الى الفارس في ٢٤ شباط ١٩٠٥ صديقه الدمشقي المغفور له محمد كرد علي، صاحب «خطط الشام» رسالة، حكى فيها كيف ان سرية من الشرطة وثلة من رجال الدرك العثماني سرت ذات يوم فأحاطت بداره في الحاضرة (في دمشق) ورصدت السطوح والزقاق والشوارع، فيما كان (كرد علي) متغيباً في القرية، فدخلوا دارته على حين غرة بزعامة موظفيْن عهد اليهما تفتيش أوراقه وكتاباته وكتبه

---

(١٢٢) نفسه.

(١٢٣) علي بن بسام الشنتريني الأندلسي، أبو الحسن (. . . - ٥٤٢ هـ/ . . . - ١١٤٧ م): أديب من الكتّاب الوزراء، نسبته الى شنترين (المسماة اليوم Santare´n) في البرتغال. اشتهر بكتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» في ثمانية مجلدات، تشتمل على ١٥٤ ترجمة مسهبة لأعيان الأدب والسياسة ممن عاصرهم أو تقدموه قليلاً (الزركلي - المجلد الرابع ص ٢٦٦).

(١٢٤) عن نهاد رفعة عناية: ص ١٩.

ومراسلاته، وطفقوا ينقّبون في النضائد والخزائن ويبحثون في المخبآت والقماطر ويفتحون الصناديق والأصونة ويحلّون عقد الصرر وينْفضون الخرائط ويرفعون الزرابي[١٢٥] والباري[١٢٦] ويقلبون الأثاث والحصير ويتطلعون الى ما وراء المقاعد والمتّكآت والكراسي والدكّات ويلجون الغرف والابهاء والمقاصير ويستنطقون كل طفل صغير، وبالجملة لم يتركوا زاوية الا راقبوها وحواشيها ولا فطنة الا واستنفدوا الوسع في البحث فيها ثم انقلبوا بعد زهاء ساعتين ظافرين غانمين يحملون وريقات سوّدها في الفترات وكتباً بعثها أو بعثها اليه جهابذة الكتّاب وصفوة الأحباب، كأنهم (الشرط والدرك فتحوا فتحاً مبيناً أو نبشوا كنزاً ثميناً وفرحوا بما تم على أيديهم ولا فرحة اليابان بفتح منشوريا أو استيلاء البريطانيين على ركاز (كنوز) جنوبي أفريقيا. ويخلص كرد علي الى أنه علم بالخبر فاضطر الى التغيب أياماً ريثما انقشعت السحابة وانجلت الحقيقة وظهر البريء من الأثيم)(؟)، وقد فرّ على وجهه فرار ابن زيدون وتمثل بقوله وهو يخاطب ولّادة ويستنهض الأديب ابا بكر للشفاعة ويستفرد أبا الحزم بن جهور:

---

(١٢٥) الزرابي: ما بسط واتكىء عليه. السجاد (فارسية).

(١٢٦) الباري: الحصر المنسوجة من القصب (فارسية).

«عدا سمعه عني وأصغى إلى عِدى
لهم في أديمي كلما استمكنوا عطُّ[١٢٧]

بلغتُ المدى اذ قصّروا فقلوبهم
مكامن أضغانٍ أساورها رُقْطُ

يولّونني عُرضَ الكراهة والقِلى
وما دهرُهم إلّا النفاسة والغَمطُ

ولما انتخوْني بالتي لست أهلها
ولم يُمْنَ أمثالي بأمثالها قَطُّ

فررتُ فان قالوا الفرار أرابه
فقد فرّ موسى حين همّ به القبط»[١٢٨]

هذه الأبيات من قصيدة في أربعين بيتاً نظمها ابن زيدون بعد فراره من السجن، مستنكراً التهم التي الصقها به حسادُه واعداؤه. مطلعها:

---

(١٢٧) عطُّ: الاديم الجلد.

(١٢٨) أوراق فارس الخوري: ص ٣٥٣/٣٥٥. محمد كرد علي: (١٨٧٦ - ١٩٥٣): مؤرخ وأديب سوري من الكبار. من مؤسسي المجمع العلمي في دمشق ورئيسه. انشأ جريدة «المقتبس» ١٩٠٨. من مؤلفاته: «خطط الشام»، «تاريخ أحمد بن طولون»، «فلاسفة الاسلام» «المذكرات».

«شحـطْنا ومـا بـالـدار نـأي ولا شحْطُ
وشطّ بمـن نهوى المـزارُ ومـا شـطُّوا»[١٢٩]

وهكـذا نـرى ابن زيـدون يـلاحق صـاحبنا الفـارس ويحاصره، ولكن لا كحصار عَسِ والي دمشق: حسين ناظم باشا[١٣٠]، بل حصار البلاغة والذلاقة والبديهة السريعة. أما ان فرّ صديقه العلاّمة محمد كرد علي من وجه المداهمين والمفتشين، فهو الى «محاصرة» أقرب وأشوق، بل يأبى أن يفارقه وخاصة في ساعات التجلي و«الوحي» والالهام.

لندعْ ابن زيدون في مقامه المتعالي على الجراح وكل مظاهر الأسف والأسى والخوف والقلق، كي ننظر في بعض من نثر الفارس وشعره متلمسين بلاغته وبيانه وجمال تعابيره وصوره.

البليغ والتصويري

ها هو صاحبنا الفارس يكتب في ١٢ تشرين الثاني ١٩٠٤ إلى صديقه الاستاذ محمد كرد علي:

«أيها الأخ الحبيب أعزّك الله

وعدتُك أمس بالاقبال عليك اليوم فلم أجد بداً من إنجاز الوعد والاحتفاظ بالكلام خوفاً من أن تنحي علي باللوم

(١٢٩) ديوان ابن زيدون: ص ١٢٤/١٢٧. شحطنا: بعدنا.
(١٣٠) ولاة دمشق في العهد العثماني: جمعه وحققه ونشره صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٤٩، ص ٩٥.

والتعنيف وتسوّد لي طرساً يُسوّد به وجهي فاني ما زلت أحذر وخزات لسانك واتجانف على طعنات يراعك ويزيدني حذراً علمي بأنك ممن لا يصفح عن زلة ولا يجيز لمتعلل علة، فقد رميتني بوفاء الهمة وضعف العزيمة لأني أبطأت بالكتابة اليك وانت تحسب أن الابطاء كان لغير سبب سوى العجز والكسل».

أضاف: «لقد حسبتَ غلطاً وركبتَ شططاً واقبلت تسوّيء عليّ عملي بدون أن تسألني عنه سبباً لعليّ أبسط لديك ما يستقيم به عذري ويبرئني من المعاير التي القيتَ عليّ ظلها. وعندما احتلتَ لي بعذر زعمتَ أني «شغلت شغل النحيين» (أي كمن ينشغل عن الأهم بالأدنى)! فلّله درك ما أوسع صدرك واكثر تسامحك حتى اخترت لي ذات النحيين تشبّهني بها وأنت أعرف الناس بحكايتها. فهلا استخرجت من دائرة محفوظك غيرها تقابلني به وتخلصني من الانخراط في سلكها والوقوف في صفها؟»[١٣١].

هذا التمكّن من اللغة والفكرة مردّه، لا شك، الى سعة الاطلاع والمقدرة على الاستيعاب، حفظاً وفهماً. على أن صاحبنا اذ يكتب الى الأديب العلامة محمد كرد علي، فانما

(١٣١) أوراق فارس الخوري: ص ٣٠٩/٣١٠.

يكتب ملتزماً الفصاحة والبلاغة وكل مبادىء العربية الراقية الأصيلة. ولربما حسب البعض أن في الأمر تكلفاً وتصنعاً، والصحيح أن البيان يفترض البيان، تماماً مثلما الحجة تقابلها الحجة، واليقين لايقرعه الا اليقين. وهل أقل من أن يعرف الفارس لمن يكتب ولماذا وكيف؟

وفي ٨ كانون الأول ١٩٠٤، وبمناسبة حلول عيد الفطر، كتب اليه أيضاً:

«أيها الأخ الأديب

طلع صباح اليوم فتهلّلت له قلوب المسلمين لأنهم أفطروا بعد طول الصيام واستراحوا بعد تمادي العناء وظهروا بأبهى ما عندهم من الثياب يتمشون في الاسواق بوجوه مشرقة وأسرّة مبرقة تقرأ عليها آي الابتهاج والسرور وأمائر النشأة والحبور.

أما أنا فقد خرجت في الساعة الثالثة وأخذت أطوف من بيت إلى بيت مهنئاً أركان الولاية ووجهاء المدينة بعيد الفطر هذا وداعياً لهم بأن يحيوا إلى أمثاله ممتّعين بالخير والصفاء ومحفوفين بالطمأنينة والرخاء»[١٣٢].

(١٣٢) نفسه: ص ٣٢٣.

ثم يباشر تهنئته هو شخصياً، وانما كتابة، والسبب كما سنرى:

«وكنت أود، لو وجدتك في الحاضرة[١٣٣]، أن أقوم بتهنئتك شفاهاً في منزلك العامر فأقول لك مايحضرني من العبارات بدون تعمّل ولا اعنات فكر، لأن اللسان أسهل مراساً من القلم. أما الآن فقد صار واجباً علي أن اكتب اليك أمحضك التهنئة والدعاء بأن تكون أيامك كلها مواسم، وثغور الحياة في وجهك مفترّة بواسم، وأن يفسح لك في سبيل العمر فسحة طويلة، لتتمكن من ايلاء العلم والوطن خدمة جليلة، تبقى للآتي من الأحقاب، أو تحفظ لك في الذراري والأعقاب»[١٣٤].

يُفهم من هذه الرسالة أن الفارس كان يعلم، على حداثته، كيف الدخول من الأبواب العالية الى القلوب الكبيرة، دون أن يخدش المشاعر ويؤذي الرغائب، فكأنه يؤسس للمستقبل، اذ يزرع جميلاً ليحصد جميلاً. ذلك أن عيدي الفطر والأضحى، في دمشق كما في العواصم العربية والاسلامية، مناسبتان عزيزتان كريمتان، فلا بد من المشاركة والتهنئة حسبما يقتضي التعايش والتفاهم والتساكن، بل

(١٣٣) حيث دارة العلامة محمد كرد علي.
(١٣٤) أوراق فارس الخوري: ص ٣٢٣/٣٢٤.

حسبما يقتضي الواجب الوطني والقومي. ان هذا جزء من اسلوب الفارس لا يتجزأ، كما سنبين فيما بعد.

ويُفهم من هذه الرسالة أيضاً أن الفارس أحب اللقاءات والاجتماعات، واستهوته السهرات الأدبية والفكرية، فكان يسعى اليها بلا كلل ولا ملل. وغالباً يؤرخها إما نثراً وإما شعراً، والأمر جعل منه نجماً دمشقياً يتباهى به علماء المدينة وأدباؤها وشعراؤها وكتابها وسائر أعيانها ووجهائها.

ففي منزل الشاعر الكبير والناثر البليغ، المرحوم سليم عنحوري[١٣٥]. اجتمع ذات ليلة من آذار ١٩٠٦، الفارس مع

---

(١٣٥) هو سليم بن روفائيل بن جرجس عنحوري (١٢٧٢ - ١٣٥٢ هـ/١٨٥٦ - ١٩٣٣ م). أديب، من الشعراء من أعضاء المجمع العلمي العربي. مولده ووفاته في دمشق. تقلد بعض الوظائف في صباه. وزار مصر سنة ١٨٧٨ م. فتعرف الى السيد جمال الدين الأفغاني، واتصل بالخديوي اسماعيل، وانشأ مطبعة «الاتحاد» وصحيفة «مرآة الشرق» ولم يلبث أن اقفلها. وعاد الى دمشق، فتولى أعمالاً كتابية، واكثر من مطالعة كتب «الحقوق» واحترف المحاماة حوالي سنة ١٨٩٠ ثم كان يقضي فصل الشتاء من اكثر الأعوام في القاهرة، فأصدر فيها مجلة «الشتاء» وكان كثير النظم، قليل النوم، حتى انه لم ينم أكثر من ثلاث ساعات في اليوم. فكانت بناته تتناوب السهر معه، ويكتبن ما يملي =

عدد من رجال الفكر والعلم، فانفرطت سبحة الفارس وتساقطت حباتها على الأرض، فقام الجميع مع الفارس يلمّون الحبات المتناثرة، فعادت وانتظمت الّا حبة واحدة ظلت متوارية عن الأنظار. وحين عاد الفارس الى داره أنشأ قصيدة في ثلاثة وخمسين بيتاً أرسلها الى الشاعر سليم عنحوري، تترجم حُبَّ صاحبنا الفارس للسُبح وعلاقته بها وحزنه على ضياع الحبة في تلك العشية التي تمنى لو بقيت على رونقها وجمالها، ويطلب منه الاهتمام بها، آملاً أن يعيدها اليه في أسرع وقت ممكن. قال:

«حلّت بدارك سبّحتي
فجمعتها وأضعت حبّه
صُدع الفؤاد بفقدها
وغدوتُ أرجو منك رأبه
هي حبةُ القلب التي ملكتْ
حشاشته ولُبَّه
ضيَّعتُها في ليلةٍ
حلّت بها في النفس كربه

= من نظم وغيره. له كتب ودواوين، منها «كنز الناظم ومصباح الهائم» و «آية العصر» وغيرهما. (الزركلي - المجلد الثالث ص ١١٨).

فضَيْتُها والقلب لا
يقضي تلهّفه ونَدْبه
فوددتُ أبقى في حما
ك لعل خيراً في المغبّة»[١٣٦]

لا نعرف هل الشاعر العنحوري قد رد عليه بقصيدة مماثلة، أو عثر على الحبة الضائعة فاعادها اليه وانتهى الأمر بسلام. وتشاء الاقدار، بعد خمسين عاماً على هذه «الحادثة» وفي احدى أمسيات آذار ١٩٥٦، وفيما أصدقاء الفارس: الوزير بديع المؤيد العظم والشيخ عبد القادر المغربي والشيخ شاكر الحنبلي والدكتور نجيب الارمنازي والدكتور اسعد الحكيم والاستاذ أحمد حسين، زعيم مصر الفتاة، والاستاذ محمد علي الطاهر والاستاذ جودت المارديني، يزورونه في دارته كعادة شيوخ الشام في كل ليلة، حيث يوالون جلسات السمر والحديث في كل أمسية عند واحد منهم على التوالي، انفرطت بغتة سبحة العلامة الشيخ شاكر الحنبلي، فسارع الجميع الى جمع الحبات كلها، ولكن حبة منها أبت أن تظهر، حالها في ذلك حال حبة سبحة الفارس قبل نصف قرن. وفي اليوم التالي بعث العلامة الحنبلي الى صديقه الفارس يطالبه بحبة

(١٣٦) أوراق فارس الخوري: ص ٣٦٥/٣٦٦.

السبّحة ويعتبره مسؤولاً عنها، وذلك بقصيدة من نفس الوزن، كما صنع الفارس مع العنحوري. ومما قاله العلاّمة الحنبلي:

«في مجلس الاشياخ أصـ
غينا الى شيخ الشباب
أعني (أبا الحسن) المجاهد
ذا الحديث المستطاب[١٣٧]
بجهاده ونضاله
وثباته قهر الصعاب
فهو الوفي لصحابه
وهو الأبي عن الكذاب
فكلامه وبيانه
حلو يسيل له اللعاب
وحديثه مهما تكرّر
واستطال حلا وطاب
فاحذر يراعته
فان لحدّها ظفراً وناب
خلب العقول بنطقه
حتى الجهاد له استجاب

(١٣٧) يقصد المجاهد الفلسطيني الاستاذ محمد علي الطاهر.

وسبّحتي قد هزّها وجْداً فمزّقت الاهاب
وتبعثرت حباتها . وتناثرت مثل الحباب»

وقال أيضاً:

«فمضى يلم شتاتها ويعدّ منها ما أصاب
فاذا بواحدة تغيب وتختفي وسط الرحاب
وكأنما تبغي ثرى حتى توارت في الحجاب
أحسنْ قِراها يا جوادُ وردَّها بعد الغياب
لا زال بيتك عامراً وشيوخ صحبك في شباب»[138]

يبدو أن الفارس قد سكت عن هذه القصيدة «التأريخية» الظريفة، مثلما سكت العنحوري عن قصيدته تلك التي سبق ذكرها. لعلّ في الديوان المنتظر ما يكذب ظننا فنجد جواب

(١٣٨) عن الفرحاني: ص ٤٠٨/٤٠٩.

الفارس على قصيدة صديقه الحنبلي الدامغة.

وفي سنة ضياع سبّحة الفارس (١٩٠٦) قدم الأديب رشيد عطية[139] الى دمشق ونزل في فندق «الخراب» قرب مئذنة الشحم وقام بزيارة للفارس وكان قد سمع عنه وتعرف اليه من خلال قصائده والرسائل. لكنه (رشيد) لم يجده في البيت فترك له خبراً، وبقي في دمشق خمسة أيام لم يرد له

(١٣٩) رشيد بن شاهين بن أسعد عطية اللبناني (١٢٩٩ ـ ١٣٧٥ هـ/١٨٨٢ ـ ١٩٥٦ م): أديب لغوي، من كبار الكتاب، صحافي، مدرس. نعته الشاعر المهجري جورج صيدح بشيخ الصحافة ومعلم اللغة العربية في البرازيل. ولد وتعلم في سوق الغرب ـ لبنان، وشارك في تحرير «لسان الحال» ببيروت. ودرّس في المدرسة البطريركية. وصنّف «الدليل الى مرادف العالي والدخيل» وسافر الى مصر (١٩٠٦) فعمل في تحرير المقطّم. وعاد الى بيروت (١٩٠٨) ورحل (١٩١٣) إلى البرازيل، فانشأ مجلة «الروايات العصرية» في ريودي جانيرو، وجريدة «الأخبار» ثم انتقل الى سان باولو فانشأ جريدة «فتى لبنان» سنة ١٩١٤ ـ ١٩٤٠. ومن كتبه «الإعراب عن قواعد الأعراب» مدرسي، في ثلاثة أجزاء و «اقرب الوسائل في انشاء الرسائل». وله نظم، منه «جزاء المكر» تمثيلية شعرية. وأشرف على طبع ديوان البحتري فضبطه بالشكل وشرح غامضه (الزركلي ـ المجلد الثالث ص ٢٣).

الفارس الزيارة، فاستاء منه وعندما عاد إلى سوق الغرب بعث اليه بقصيدة عتاب وتثريب، منها:

«أفْديه من ظبي نفور كانس
يصمي الفؤاد بسهم طرفٍ ناعسِ[140]
ألِفَ الجفاء فلا تراه لحظةً
فكأنه في ربقةٍ من حارس[141]
يخشى النسيم اذا سرت خطراته
ويخاف إنْ لمسْته كف اللامس
راسلتُه فرأيت منه رقّة
تُجري الحياةَ بقلبِ عودٍ يابسِ
وتعير أربابَ القريض بلاغةً
وتعيد رونق كل معنى دارس»

وقال أيضاً:

«يا بدر ما عهدي بشيمتك الجفا
فلم الجفا شأن الجَهوم العابس
أظننتَ كلَّ الردّ يقبُح فعله؟
ردُّ الزيارة غيرُ ردّ البائس

(١٤٠) كانس: الذي يدخل في كناسه (بيته).

(١٤١) الربقة (بكسر الراء): العروة في الحبل.

فلكم غرستُ لك الولاءَ بأضلعي
فاضعتَه وأضعتَ حق الفارس
أسجيَّةٌ فيك الصدودُ تأصلتْ
اعراقُها ام خُلّة من «فارس!»[142]

واذ قرأ الفارس القصيدة ـ الرسالة، شعر بالذنب، وأي ذنب: صدُّ صديق أديب وشاعر. أهذه «سجية» الفارس حقاً؟ أم ان قلبه كان منشغلاً بمن هو أهم من رشيد والرشيدين؟ الحقيقة أن موعداً مع الحبيبة قد خيّب آمال الرشيد وزعزع ثقته به بعدما والاه حتى الفداء والتضحية. على أن الفارس سارع الى الرد والاعتذار بقصيدة تكفلت رجوع الرشيد عن غيه وغضبه. قال الفارس:

«روحي الفداء لغادة املود
قد أولعتْ بالمطل في الموعود
تمضي الشهور ولا تمنّ بموعد
هو للمتيّم غاية المقصود
تعب الرسولُ وكلّ يوم ينطوي
ألقى عليه علائم المردود
حتى أتاني مرة وبوجهه
نبأ يبشّرني بقرب سعودي

(١٤٢) أوراق فارس الخوري: ص ٣٧٦/٣٧٨.

«قالت اذا ما الزهرة انبلجت له
فليلقني في الموضع المعهود»
فأقمتُ في ليل أراقب شرقه
بنواظرٍ قرحى من التّسهيد
وقفتْ كواكبه وناء بصدره
وصباحه أمسى بغير عمود»[143]

وبعد عرض حاله مع الحبيبة والمواعيد الصعبة، يطلب الفارس من صديقه العفو والغفران:

«أكرمْ بزلتي التي نتجت لنا
مظلومة ستكون عِقدَ الجيدِ
لولا الاساءةُ من ثمود تعاظمت
ما كان أُرسِل «صالحٌ لثمود»
مني اليك تحيةٌ تجري على
سلْكِ المودة والولا الممدود»[144]

وهكذا أعاد الفارس الى صاحبه ثقته به، فجدّدا، بفضل الشعر اللائق الطريف، العهد والمودة، ويا لنعم العهد والمودة.

الحريص على الحب

هذا، ولقرينة الفارس السيدة أسماء (ام سهيل)

(١٤٣) عمود الصبح: ضوؤه.
(١٤٤) أوراق فارس الخوري: ص ٣٨١/٣٨٥.

الفلسطينية المولد[145]، قصيدة بعث بها صاحبنا من اسطنبول، حيث كان ينفذ ما أشرطه عليه جمال باشا السفاح بعدما خرج عام ١٩١٨ من سجن خان الباشا في دمشق، على ما سيأتي في هذا الكتاب، وكانت السيدة أسماء قد كتبت اليه رسالة غاضبة تعاتبه فيها بشدة، وتتهمه بانشغاله عنها، وانصرافه الى البنات التركيات، خاصة في فترة الأعياد.
قال شاعرنا:

«لله درّكِ ما أحلى مزاياكِ
وما أعزك في نفسي و«أسماكِ»
لقد تعلّمتُ منكِ الحبَّ أجمعه
حتى تعلّم قلبي كيف يهواكِ
«عندي من الشوق نيران مضرّجة
وليس يطفئها في الناس الآكِ
عندي من الحب آياتٌ مفصّلة
ما كنتُ أعرف الحب لولاكِ
عندي من الوجد ما لو تعلمين به
لطال ليلكِ واشتدت بلاياكِ
ولكي يهدّئ من روعها، ويبعد عنها كوابيس الظنون

(١٤٥) قال الفارس: «وفي سنة ١٩٠٩ تزوجت بالآنسة اسماء جبرائيل عيد من أهالي عكا، وكان عقد زواجي في ٢٢ آب من تلك السنة» ص ٨٨.

والشكوك والأوهام، ينبغي له أن يحدثها عن حاله الاغترابية وما يسودها من هموم ومتاعب وأوجاع لا شيء يزيلها مثل عودته اليها، مؤكداً أن عينيها له بمثابة الحارس والحامي، قال:

«أغمضتُ باصرتي عن كل غانية
كأنما راقبتْ عينيَّ عيناكِ

فانتِ عندي أحبُّ الناس قاطبة
سبحانه الله أرضاني وأرضاكِ

وكيف أنسى عهوداً بيننا سلفتْ
لاعشتُ ان كنتُ انساها وأنساكِ

بل كيف أنسى عيوناً طالما ذرفت
دمعاً لأجلي تفرّى منه خدّاكِ

أم كيف أنسى فؤاداً خافقاً حذراً
عليّ بالوجد ضمّتْه حناياكِ»

بل كيف ينسى ابنة الأصل الأصيل والعرْق الكريم؟ وحرصاً على حبها ومستقبلها فهو يدعوها الى الصبر، الذي لا سبيل الآه، حتى يحقق الله ما يرغبان. وما عند الله ليس ببعيد. قال:

«كريمةَ الأصل والاعراقُ مُتْرَعَة
بالنبل حيّا الذي بالفضل ربّاكِ

فما عدا الصبر نلتِ الحسن أجمعه
لو كنتِ أحرزته تمّت سجاياكِ

تجلّدي في مرارات الفراق إلى
أن يسمح الله لي يوماً بلقياكِ

مني عليك تحيات مطيّبةٌ
بالحبّ لولا النّوى بلّغتُها فاكِ»(١٤٦)

وظلت السيدة أسماء على موعد مع الفارس الذي ما قال الاّ أطيب الكلام وأجمله.

أما الثورة العربية الكبرى، أما نهاية سجن الخان المشؤوم، فكانت على الأبواب. وحينما هبّت على دمشق رياح التغيير كان الفارس يدخل على اسماء، يحمل قمر ورد في يد، وقصيدة في اليد الأخرى.

مع الثورة العربية عاد الفارس الشاعر الى عاصمة الأمويين، لينعم بدفء الحب والبيت ويمارس السياسة بنجاح فائق ومثير، متخذاً من سيرة صاحبه ابن زيدون، شهيد الحب والعهد، العبرة والاعتبار.

السياسي التوفيقي

كان فارس الخوري السياسي مثل الزيت البلدي في راحة اليد، فاذا ما استطاب المقام لبث ما شاء له أن يلبث، ولا

(١٤٦) أوراق فارس الخوري: ص ٤٣٩/٤٤٦.

يسمح لأحد بأن يزلقه عن مكانه. أما ان غشيه ما قد يعكّر صفوه أو يزعجه أو يقلل من أهميته، ينسحب من بين الأصابع تاركاً وراءه الرائحة الطيبة والذكر الحسن. ويتراءى لي أن صاحبنا الفارس عندما جاء دمشق «في تموز من صيف سنة ١٨٩٩»[١٤٧]، وكان على وشك أن يسافر إلى مصر «اجابة لدعوة المرحوم الدكتور يعقوب صروف صاحب «المقتطف» (ليساعده) في تحرير «المقتطف» براتب ١٥ جنيهاً في الشهر»[١٤٨]، لولا الطاعون آنذاك في بلاد النيل واقامة الحواجز الصحية[١٤٩]، صمّم على البقاء في عاصمة معاوية بن أبي سفيان والسلسلة المروانية من أمية القرشية، مهما قست الظروف وتردّت الأحوال. ولعله قال في نفسه: ان الذي لا يستطيع العيش في الشام لا يستطيع العيش في عاصمة أخرى. ذلك أن دمشق تضم بين جناحيها إلى العرب الذين قدموا إلى برّها، «برّ الشام»، في الالف الرابع قبل المسيح، بقية من العبرانيين والآشوريين والبابليين والحثيين والمصريين والفرس واليونان والرومان والغال والأرمن والترك والكرد والشراكسة والتتار والافرنج وغيرهم من العناصر السامية والآرية والقفقاسية المنتمية الى سام ويافث وحام أولاد نوح، «اندمجت في العنصر العربي واستعربت معه واصبح الكل

(١٤٧) أوراق فارس الخوري: ص ٧٧.

(١٤٨) نفسه. (١٤٩) نفسه.

شعباً عربياً واحداً يفاخر بالعروبة ولا ينتمي الى سواها»[١٥٠].

ولدن وصول صاحبنا الفارس الى دمشق كان «سجل الحكومة الرسمي لتحرير نفوس المدينة باعتبار المذاهب عام ١٣١٤ مالية (١٨٩٩ م)» كالآتي[١٥١]:

المذهب	الذكور	الاناث	المجموع
مسلمون	٨٣٨٠٢	٩٤٩٠٢	١٧٨٧٠٥
روم ارثوذكس	٣١٥٣	٣٠٢١	٦١٧٤
روم كاثوليك	٢٥٠٥	٢٦٢٥	٥١٤٠
أرمن قدماء (ارثوذكس)	١٩٦	١٦٤	٣٦٠
أرمن كاثوليك	٩٠	١٠٢	١٩٢
سريان اورثوذكس	٢٤٦	٢٦٩	٥١٥
الكلدان	٢٤	٢٤	٤٨
لاتين	٣٩	٥٦	٩٥
مارونيون	١٠٣	١٧١	٢٧٤
انجيليون (بروتستانت)	٧٥	٥٨	١٣٣
	٩٥٢٢٣	١٠٦٠٢٨	٢٠١٢٥١

(١٥٠) عبد العزيز العظمة: ص ٢٣.

(١٥١) نفسه.

وعليه، كان المطلوب من البروتستانتي: فارس الخوري الكفيري ـ الحاصباني، لا أن يعرف من أين تؤكل الكتف فحسب، بل الكتفان والرقبة. ويتسنى له هذا بأن يحفظ جيداً أحد المثلين بل كليهما: «الناس عبيد الاحسان» و«من نظر في العواقب سلم من النوائب». دليلنا على ما نقول ان الفارس عاش ومات زعيماً سورياً، دون أن يتوارى ولو لحظة واحدة عن مدينته الحبيبة أو يهرب مع الذين هربوا من السياسيين والعقائديين، عندما هبت على البلاد زوابع الانقلابات وعواصف التغيير.

الا يكفي الفارس فخراً واعتزازاً أنه عندما سرى خبر مرضه ونقله الى المستشفى قد تعجّل زيارته والسؤال عنه كبّار دمشق وكل سوريا، السياسيون والدينيون والاقتصاديون والاجتماعيون، ومن زارها وقتذاك من الرؤساء والوزراء والسفراء والمندوبين العرب والدوليين؟

ففي أواخر أيار ١٩٦٠، مرّ الزعيم الهندي الراحل الباانديت جواهر لال نهرو في دمشق، في زيارة رسمية للاقليم السوري، فاصرّ على أن يعود صديقه الحميم فارس الخوري، وبينما الزعيم الضيف ينحني أمام سرير الفارس بخشوع وتأثر، قال له الفارس: «منذ زمن بعيد كنتَ قد دعوتك الى دمشق وقلت لك اننا نتوق لرؤيتك هنا. وأنا

الآن مسرور وآسف في وقت واحد، مسرور لأنك هنا عندنا، وآسف لأنني لم اتمكن من استقبالك كما يجب، فأنا طريح الفراش كما ترى، أهلاً وسهلاً». فأجابه الرئيس نهرو: «شفاك الله ايها الصديق، ان الهند حكومة وشعباً تصلي من أجلك وتدعو لك بالشفاء وتحفظ لك اسمى مركز في نفوس أبنائها وأعطر الذكر»[١٥٢].

وكان لجريدة «الأيام» ان انتهزت هذه الفرصة الثمينة، فغمزت صباح اليوم التالي من قناة الذين لم يزوروا «الشيخ المريض» بانفسهم من أركان «الجمهورية العربية المتحدة» وصدّرت صفحتها الأولى بالعنوان الضخم التالي: «نهرو يزور الخوري: لا يقدّر العظيم الا العظيم»[١٥٣].

وأوفد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وكان هو أيضاً يزور دمشق، وزير الصحة التنفيذي السوري الدكتور شوكت القنواتي «لزيارة المريض الكبير وابلاغه تمنياته بالشفاء العاجل»، فشكر الفارس للرئيس «التفاتته» هذه، وطلب الى الوزير القنواتي أن يبلغ الرئيس امتنانه ويقول له عن لسانه «لقد كنتُ أعد مجيئي الى هذا المستشفى (مستشفى المجتهد)

---

(١٥٢) الفرحاني: ص ٥١٢.

(١٥٣) نفسه: ص ٥١٣.

بهذه الحالة نقمة، ولكن الالتفاتة الكريمة التي بدرت نحوي من الرئيس جمال جعلتني اعدها نعمة»، وكذلك طلب الى الوزير أن ينقل للرئيس هذا البيت من الشعر:

«اذا ما الفجائع اكسبتني رضا
ك، فما الدهر بالفاجع»[١٥٤]

وزاره، ربما غير مرة، الرؤساء: السيد شكري القوتلي والدكتور ناظم القدسي والسيد حسن الحكيم، وسواهم من الرؤساء والزعماء والأقطاب والنقباء وسادة القوم.

ولما خرجت جنازته من بيته في «المهاجرين» خرجت وراءه سوريا الرسمية والشعبية، وهي تشعر بأنها انما تقوم بواجب عزيز، وتهتف بلسانه:

«قل لشيوخ العروبة ان يوماً
عليهم مثل هذا لن يعودا»[١٥٥]

واذا عرفنا قصة الفارس مع جمال باشا السفاح، أحد ابرز المتعطشين للدم في القرن العشرين، وكيف استطاع أن يرد عنه المكائد والمؤامرات، على ما روى في القسم الثاني من أوراقه، وكيف ادار ظهره للاتحاديين وانضم الى الانفصاليين

---

(١٥٤) نفسه: ص ٤٩٩.

(١٥٥) نفسه: ص ٥١٢.

والعروبيين، ينبغي لنا أن نستكشف اسلوب هذا الرجل الفذ، الذي طوى عهوداً وأجيالاً، دون أن يتزحزح من مكانه الا في رحلة رسمية أو ديبلوماسية، عدا النفي الذي تعرّض له ثلاث مرات كما سنبين.

قصته مع جمال باشا

قبل الانطلاقة في مهمتنا هذه، أدعوكم الى قراءة بعض ما كتبه صاحبنا الفارس تحت عنوان «مجابهة خطرة مع جمال باشا». قال:

«تركني توفيق بك مدير الشرطة في الفندق، وذهب مع وكيل الوالي لمقابلة جمال باشا، وإخباره بما تم لهما معي في الليل السابق، وعاد الي المدير الساعة العاشرة، وقال ان الباشا يستقبلك الآن. فذهبنا سَويّة ودخلت عليه وحدي، وبقي المدير ينتظرني خارجاً، وكان عنده وكيل الوالي.

«حيّيتُه وجلست. فابتدرني بلهجة جافة يرافقها الغضب وقال:

- الا تذكر ما قلته لك يوم قابلتني في الشتاء الماضي وتجرأت أن تدافع أمامي عن أصحابك الخونة الذين نالوا جزاءهم العادل؟ لقد قلتُ لك إن صحيفتك عندي ملوّثة

فعليك أن تهتم بتنظيفها. وها قد تحققت ظنوني بما جاءني عنك من الافشاءات الدالة على اشتراكك السابق مع اولئك المجرمين، وآمالك العقيمة بالانتقام لهم. ولا حاجة بي أن اسمع منك الآن شيئاً مما أدليت به للمحققين هذه الليلة، فقد عرفته كله وهو يكفي عندي لادانتك، فقد قررت إقراراً مؤوّلاً بصلاتك مع هؤلاء الخائنين، ولم تقل ان الرافعي[١٥٦] قابلك وصرّح لك بوجود جمعية فسادية تتهيأ لافعال الانتقام؟

(١٥٦) اسمه عبد الغني الرافعي: شاب فار من الجندية، قبضت عليه الشرطة وزعمت أنها لدى تفتيشه عثرت معه على أوراق في غاية الخطورة، تشعر بوجود جمعية متفقة مع الشريف فيصل على احداث ثورة في البلاد انتقاماً لدماء الأشخاص الذين اعدموا أخيراً ١٩١٥/١٩١٦. وتحت وطأة التعذيب الشديد لوّث الرافعي هذا بأكاذيبه أكثر من أربعين شخصية وألصق بهم الجرائم الفظيعة، نذكر منهم: امير اللواء شكري الأيوبي والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وعبد الستار السندروسي وشكري القوتلي وامير اللواء عبد الحميد قلطقجي والميرالاي زكي بك العظمة والدكتور أحمد قدري ورشيد افندي الرافعي وخالد بك الأيوبي وسعدي بك المنلا من طرابلس وعبد الله افندي مالك وحبيب السلْعُون وميخائيل القصير والحوذي محمد الدرزي من قرية العبادية وأبو فياض زهوة من حاصبيا وأبو محجوب عزت الذهبي، وقد جيء بمعظمهم الى «اللوكندة» ـ الفندق ليصار الى التحقيق معهم ومحاكمتهم. (أوراق فارس الخوري ص ١٩٤).

هذا وحده يكفي.. وأنت تؤاخذ بهذا الإقرار، فلو كنتَ مخلصاً نحو دولتك لكنتَ قبضتَ عليه في الحال وسلمته لأقرب مخفر، او كنتَ على الأقل أسرعت إلي وأخبرتني بما سمعت، وكنت أنا تلافيت الشر قبل وقوعه، إذ ان (الأمير) فيصلاً كان بذلك الحين في دمشق مقيماً معي في المقر العام ومرافقاً لي في سفراتي، يخدعني ويراوغني، وأنتم تساعدونه في تغريره، وكان أخوه (الأمير) علي بالمدينة في متناول الحكومة، فلو أخبرتني بحقيقة ما يضمرون كنت قبضت عليه وعلى أخيه واحتفظت بهما رهينة على ذلك الشيخ الخرف[١٥٧] فلا يجسر بعدها على العصيان حين يكون أولاده في قبضة يدي، أما الآن فماذا أفعل؟ وكيف أتلافى الخطب بعد أن خدعني وأخذ المال والسلاح وفرّ ليقاتلني به؟»

وتابع جمال باشا تأنيبه للفارس وتقريعه وتهديده:

«أرأيت عظم الشر الذي جنيته على الدولة والوطن بسكوتك وإخفائك للجرم؟ أنت رجل قانون وعليك صفة النيابة ويقولون إنك عالم بالحقوق وتدّعي أنك مخلص للدولة. أهكذا يكون الاخلاص في عرفكم؟ وبهذه النيات السيئة تريدون أن تقنعوني بسلامة طويتكم؟ لو كنتَ رجلاً

(١٥٧) يقصد الشريف حسين، وكان آنذاك أميراً على مكة.

جاهلاً لما آخذتك على سكوتك، ولكنك عاقل ومبعوث في البرلمان[١٥٨] وتقدر العواقب وتعرف جيداً وخامة النتائج، فهل لك أن تنبئني عمّا حملك على السكوت وكتمان هذه المعلومات الهامة التي وصلت اليك؟ أنا لا أسألك الآن عما انكرته من الاتهامات الخطيرة ولكن أسألك وأريد الجواب عما اعترفت به فقط. أليس عادلاً وقانونياً؟ قل أنت الذي تشتغل بالقانون وتحتج بمواده».

وبعدما وجم الباشا لاهثاً، واقام ينتظر من الفارس الجواب، قال الفارس:

«نعم يا سيدي معكم الحق في ما قلتم، إنه واجب أدبي على كل عثماني مخلص أن يسعى بجميع الوسائل المشروعة لمقاطعة الشرور قبل وقوعها، ولكن القانون لم يرتّب عقوبة عن عدم الاخبار على الأشخاص غير المسؤولين بحفظ الأمن وأنا لست بحاجة للدفاع القانوني عن نفسي من هذه الجهة، ولكنني استميح عذركم لأبسط لكم عذري بهذا التقصير الأدبي الذي يحق لكم أن تؤاخذوني به اذا لم يكن لي معذرة مقبولة، فانه لم يخطر لي البتة أن ذلك الثرثار الذي صادفته عرضاً في الشارع يخاطبني بصورة جدية عن هذه الجمعية

(١٥٨) انتخب فارس الخوري عام ١٩١٤ بأكثرية عظيمة نائباً عن دمشق في مجلس المبعوثان، وكان مقره في اسطنبول.

الخيالية وهو لا يعرفني وأنا لا أعرفه.

«وأول ما تبادر لذهني اذ ذاك أنه جاسوس يعمل لاستدراج الناس الى كلام مريب يبيض به وجهه بتقرير يرفعه الى رئيسه، وهو ظن حازم في مثل هذا الظرف لا يجوز لعاقل أن يتصوّر غيره، اذ ان الجد في مثل هذا الحديث الخطير لا يعرقل صدوره من مثله إلى مثلي على ما بيننا من فقدان كل صلة أو معرفة، وما عساي أن أفعل مع هذا التصوّر الذي استقر في ذهني غير أن أصدره وازدري بحديثه وأقول له: «انصرفْ في طريقك ليس لي شأن بما ترهف».

«وهذا ما فعلتُ خصوصاً وقد كنت مضطرب الفكر على شقيقي (فائز) الذي كان يعاني خطر الاحتضار بالحمّى وأنا ذاهب لآتيه بالطبيب، ولو تركتُ عملي وجئت أخبر بما سمعت لكنت أُرمى بالسخف والرياء أو بالسعاية والنميمة وليس ذلك من خلقي.

«فان كنتُ قد قصرت بسكوتي فشفيعي النية الحسنة وقد اكدت أمس لحضرة الوالي ورفاقه أن كل ما قاله الرافعي عني غير هذه المحادثة اختلاق وافتراء».

ولكي يبعث الفارس في نفس الباشا الميل الى الرحمة والتسامح قال:

«واني اؤكد لكم يا دولة الوزير انني لست من القائلين بالثورات، ولا من أنصار العصيان، فلا اشتركت ولن اشترك بجمعية تجنح الى العنف والشدة في سبيل تنفيذ منهاجها، بل أنا من دعاة السلام وطلاب الحق بالطرق الدستورية المشروعة، وماضي حياتي يشهد لي باحترامي للقوانين وتمسكي باحكامها، وليس من خلقي أن ارتكب فعلاً ممنوعاً ومعاقباً عليه قانوناً، ولو كنت من أعضاء هذه الجمعية وكان الرافعي يعرف ذلك كما يدعي لما كان يخبرني بوجودها خبراً جديداً، فإخباره اياي في الصورة التي يرويها هو نفسه يؤكد كوني غريباً عنها على فرض وجودها».

ويتفنن الفارس في الرد على التهم الموجهة اليه من الرافعي، ويمضي في القاء الحجة تلو الحجة اثباتاً لبراءته من كل ظن سيء ووشاية وسعاية، خاصة أنه (الفارس) كان في حوران لمهمة جمع الحبوب للحكومة كما يعرف الباشا نفسه، عندما دعي لمقابلة الوالي. «ولو كنت موصوماً بما وصمني به هذا المهذار عبد الغني الرافعي لكنت فررت من مواجهة التحقيق ووسائل الفرار والتواري عن الأنظار موفورة لدي، ولكنني مطمئن القلب واثقٌ من نفسي أني لم ارتكب جرماً، هذه تحقيقاتكم في ديوان الحرب في عاليه قد تناولت كل كبيرة وصغيرة من الحادثات السياسية منذ ثماني سنوات وإلى اليوم

ووقفتم على كل ظاهر وخفي من عمل كل شخص معروف فهل مرّ لي ذكر في صفحات هذا التحقيق أو نسب الي فعل ينكره الحق أوْ يدينه القانون؟ ولم أكن بعيداً عن المعترك السياسي منذ اعلان الدستور وقبله بل اشتركت بأعمال كثيرة كلها مبررة شرعية، وهذه سيرتي الحديثة في السنوات الثلاث الأخيرة في مجلس المبعوثين يعرفها أصدقاؤكم الكثيرون في العاصمة، فهل وجدتم فيها ما يريب؟»

كان الفارس يخاطب الباشا بهذه الكلمات الهادئة الناعمة المقنعة، ويميل ببصره نحو توفيق بك لعله يدعمه بكلمة فلم يُبد حراكاً.

«وأخيراً التفتُ اليه وقلت له: اليس كذلك يا توفيق بك؟ فاننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل؟ فبلع (البك) ريقه وقال: ضوغري (أي مظبوط)»[١٥٩].

وبعد مساع حميدة بذلها، لدى الباشا، كل من الأمير شكيب ارسلان ومبعوثي اسطنبول: علي حيدر بك بن مدحت باشا وصلاح الدين جمجوز بك، ومبعوثي كربلاء والديوانية: توفيق بك (غير المدير توفيق) ونوري بك، وجميع هؤلاء من «أساطين الاتحاديين»، وقد «ألحوا على جمال باشا

(١٥٩) أوراق فارس الخوري: ص ١٨٧/١٩٢.

بـالافـراج عني»، تمّت «تخليـة سبيـلي» و«اطلق سراحي»[160].

على أن الأمير فيصلاً «كتب لجمال باشا وعيداً صريحاً إن أوقع بنا سوءاً بأنه يقابل كل فعلة بأشد منها بأسرى الاتراك المعتقَلين في الحجاز وبعضهم من أركان جمعية الاتحاد والترقي» (...) و«ان هذا التهديد اكرهه على الجنوح إلى سياسة الرفق واللين فلم يعدم أحداً بعده بجرم سياسي»[161].

تحمل هذه «المواجهة الخطرة»، التي يفترض أن نصدقها، في ما تحمل، عيّنة واضحة وكبيرة من الاسلوب أو النهج الذي اختطه الفارس لنفسه مذ أخذ يشتغل في السياسة، بل منذ دخل دمشق. ولقد كان صاحبنا صادقاً في قوله: «انني لست من القائلين بالثورات، ولا من أنصار العصيان». ولو كان عكس ما قال لكُشف أمره ونال جزاءه، قبل أن يصل «الترياق» الاسطنبولي (الاتحادي) إلى خان الباشا.

رجل الأزمات والملمّات

ان فارس الخوري، اذن، سياسي يلبس لكل وقت عباءة وقفازاً، وليس ثورياً، ولا عقائدياً ملتزماً. ويمكنه الانضمام الى أي حافلة سائرة، اذا كان وصولها الى المحطة مضموناً مكفولاً. أما وان بدا له أن هذه الحافلة قد تخرج عن خط

(١٦٠) نفسه: ص ٢٣٩/٢٤٠.

(١٦١) نفسه.

السلامة المرسوم، فلن يتردد في الهبوط منها، لينتظر حافلة أخرى يكون حظها أسعد من سابقتها.

الم يأت الفارس الى دمشق ليتخذ منها الوطن النهائي والمقر الأوحد؟

الفارس مستعد ليجرب كل الحافلات وكل المراتب. فالمهم عنده أن يصل الى حيث يريد، وأن يبقى على مكانته وهيبته، ذلك أن عقداً كثيرة تحاول الاستبداد به: فهو بروتستانتي، وطالب زعامة، وحديث العهد بدمشق، وانكلوسكسوني الثقافة. فلا عجب اذا ما ابتعد عن الثورات والثوريين، وعن جميع الأحزاب والجمعيات السرية والمشبوهة، لاسيما وغايته هي أن يأكل العنب دون أن يقتل الناطور، حتى وُصف بـ«رجل الازمات والملمات».

الجامعي المحنك

يروي المغفور له خالد العظم (١٩٠٣ - ١٩٦٥)، رجل الدولة وداهية السياسة في سوريا، أو «المليونير الأحمر» كما دعي[162]، قصة جرت عام ١٩١٩ للاستاذ فارس الخوري في كلية الحقوق - جامعة دمشق، حيث كان يدرّس مادتي المالية وأصول المحاكمات الحقوقية، وكان خالد طالباً، قال:

(١٦٢) عمر المدني: من مقدمة «مذكرات خالد العظم» (ثلاثة مجلدات) الدار المتحدة للنشر - بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٢. (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب).

«كان اعز استاذ علينا المرحوم فارس الخوري. فكنا نحبه ونحب سماع محاضراته التي كان يلقيها بطلاقة وبلغة صحيحة أرفع من اللغة شبه العامية التي كان يستعملها اكثر زملائه، هذا التعلق بفارس الخوري ما كان يشوبه عند البعض منا الا ما كان يبادههم به من وخزات تخجلهم أمام رفاقهم. واذكر على سبيل المثال ان الاستاذ الخوري كان ذات مرة يملي علينا محاضرته من غير تسرع لنستطيع تسجيل أقواله. فتوقف عن الكلام فجأة وسأل زميلنا الطالب صادق العظم كيف كتبت كلمة «عبء» ولم يكن ضالعاً باللغة العربية شأن اكثرنا الذي تلقى دروسه باللغة التركية. فارتبك صادق وقال «ع ب ي ء»، فسخر منه الخوري وقال: «الم تتعلم قواعد اللغة العربية؟» فاحمرّ وجه صادق وظهر عليه انفعال نفسي وأجاب: «لقد أخذت شهادة المدرسة الاعدادية بمدارس الترك ولم يكونوا يعنون باللغة العربية». وأضاف: «هل جئت يا استاذ لتعليمنا اللغة أم لالقاء محاضرة في علم المالية؟» وأدرك الخوري أن الأمر قد وصل الى حد يخشى عنده مغبة ملاسنة كلامية تضعف هيبة الاستاذ في أعين الطلاب. فتلافى الأمر وضحك وقال له: «الحق معك. لكن لا بأس من أن تصحح ما كتبت بازالة حرف الياء ليستقيم الأمر» وراح يلقي على مسامعنا ما كان يفعله الاتراك لمحو كل أثر عربي بقصد تتريك العرب وجعلهم ينسون قوميتهم.

فحوّل بذلك مجرى الأفكار. وعاد الصفاء يخيم في أنحاء الصف. وقام صادق واعتذر من الاستاذ على جوابه الحاد وانتهى الأمر بسلام»[١٦٣].

ماذا كان يحدث لو أن الفارس تشدّد وعنف في ذلك اليوم؟

عندما رأى الفارس عين ابن العظم قد احمرت، تذكر أن أولاد «الذوات» لا يُؤْتون بالقوة. بل حسب أن الملاسنة الكلامية اذا اشتدت ستجُر الى طرد ابن العظم و«حلفائه» العظميين وغير العظميين من الصف، فالى التقاذف بالشتائم والمشادة والصراع، وعندئذ ستتسامع دمشق، بكل أبوابها وأحيائها، بهذا الخبر، فيكون الفارس وحده، ووحده فقط، الخاسر الأكبر. وسيقال حتماً ان ابن العظم «كسر عظم» البروتستانتي، ما يعني حرق أوراق صاحبنا في حين يبحث عن مزيد من الأوراق ومزيد من الدعم.

هذه عيّنة أخرى من اسلوب الرجل الذي يعرف تماماً ما يريد وما الهدف الرامي اليه. وبين هذه العينة وهذه نلحظ اللباقة والكياسة وحسن التخلص، اذ لا فرق بالنسبة اليه بين التخلص من الباشا والتخلص من ابن «الذوات». هذه «علقة» وهذه «علقة». وعلى قول أحد الفلاسفة: «أنت لن تسبح في النهر مرتين». فما بالك اذا السباحة في نهر الخطأ أو

(١٦٣) مذكرات خالد العظم: الجزء الأول ص ١٣٩.

الفارس الوزير

«كان السوريون كسائر اخوانهم العرب حتى آخر العهد العثماني يتغنون بسالف مجد العروبة، ذاكرين فتوحات الأمويين والعباسيين والأندلسيين ومتمنين قيام دولة عربية مستقلة، مهما كانت صغيرة، لتكون نواة لوحدة شاملة في نهاية مراحل التطور.

«ومنذ اعلان الحرية في الدولة العثمانية (١٩٠٩)، اتجهت أفكار عشاق العروبة من السوريين لطلب الاصلاح الاداري في الولايات وانتهى بهم الأمر الى طلب الاستقلال لسورية والالتجاء في هذا الشأن الى فرنسا ذات العلاقات التاريخية من ثقافية واقتصادية في سورية»[١٦٤].

وكان الفارس واحداً من هؤلاء السوريين الذين عرفوا «حدودهم» فوقفوا عندها إن قسْراً أو عمداً، والأمر دفع صاحبنا في الوزارة الفيصلية الأولى دفعاً، وهذه شُكلت بعد انتهاء حفلة مبايعة الرؤساء الروحيين للفيصل (٨ آذار ١٩٢٠)، واستقالة حكومة المديرين، على الوجه التالي: السيد علاء الدين الدروبي لرئاسة مجلس الشورى، السيد

(١٦٤) يوسف الحكيم: سوريا والعهد الفيصلي، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة ١٩٨٦، ص ٦٩.

رضا الصلح لوزارة الداخلية، الفريق عبد الحميد قلطقجي لوزارة الحربية، السيد جلال زهدي لوزارة العدلية، السيد سعيد الحسيني لوزارة الخارجية، السيد فارس الخوري لوزارة المالية، السيد ساطع الحصري لوزارة المعارف، السيد يوسف الحكيم لوزارة الأمور النافعة (التجارة والزراعة والاشغال العامة)[١٦٥].

وفي الثاني من أيار، أي بعد أقل من شهرين، استقالت وزارة الدروبي لأسباب لا مجال لذكرها الآن، فكلف الملك فيصل السيد هاشم الأتاسي بتكليف الوزارة الثانية، فاحتفظ الفارس بوزارته، بينما تبادل السيدان الصلح والدروبي وزارتيهما، وحل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر محل السيد سعيد الحسيني، والمقدم الركن يوسف العظمة (بطل ميسلون) وقد قلّده الملك رتبة الزعيم «كولونيل» الفخرية تقديراً لغيرته وتعزيزاً لمهمته، محل الفريق عبد الحميد قلطقجي[١٦٦].

واذ الملك فيصل، المبعد عن عاصمته، وبعض وزرائه وباطنته ينتظرون في الكسوة، البعيدة عن دمشق حوالي ستة وعشرين كيلومتراً في اتجاه الاردن، خبراً يأتي من دمشق التي احتلها الفرنسيون، أطل عليهم ـ ليلاً ـ احسان الجابري «كالبدر حاملاً الى جلالة الملك نتيجة المفاوضات التي قام بها

(١٦٥) نفسه: ص ١٤٤. (١٦٦) نفسه: ص ١٥٩.

هو وعلاء الدين الدروبي وفارس الخوري مع السلطة الفرنسية في دمشق، وقد ساعدهم على انجازها المعتمد الفرنسي الكولونيل كومس ومعاونه الكولونيل تولا، وكلاهما من الأصدقاء المخلصين للملك. وملخصها الاتفاق بين الفريقين على اساس استقالة وزارة الأتاسي القائمة فوراً واعتبارها مستقيلة بحكم الأمر الواقع، وعودة الملك الى العاصمة حيث يعهد الى السيد الدروبي أمر تأليف وزارة جديدة من اشخاص اتفق عليهم، وهم خليط من بعض الوزراء الحاليين والوزراء الجدد الذين تثق بهم السلطة الفرنسية، للعمل معاً على ادارة البلاد وبروح السلام والطمأنينة»[١٦٧]. فكان ان احتفظ الفارس، وللمرة الثالثة، بوزارته، وظهر وزراء جدد هم السادة: عبد الرحمن اليوسف لرئاسة مجلس الشورى، وعطا الأيوبي لوزارة الداخلية، وبديع المؤيد لوزارة المعارف، وجميل الالشي لوزارة الحربية، كما اعيد السيد جلال زهدي للعدلية التي شغلها في الوزارة الأولى[١٦٨].

عندئذ «ظهر على وجه الملك التردد والحيرة بين عزة نفسه الأبية وبين المصلحة العامة، مصلحة سورية العزيزة، غير أن لباقة الاستاذ (احسان) الجابري في حديثه وتصويره العواطف

(١٦٧) (١٦٨) نفسه: ص ٢٠٥/٢٠٦.

الصادقة التي يكنها لجلالته كومس وتولا الفرنسيان وممثلو الدول الأجنبية، وفي طليعتهم قنصل ايطاليا العام، تصويراً بديعاً قد أثر جميل التأثير على جلالة الملك فوقع المراسيم وامتطى القطار وتبعناه جميعاً»[١٦٩].

بيد أن عودة الملك الى دمشق لم تكن سوى ليوم وبعض اليوم، ذلك أن الجنرال غورو، المقيم في بيروت، ابرق إلى جلالته يطلب منه المغادرة فوراً، وقد حمل اليه هذه البرقية، الكولونيل تولا، وفيها: «اتشرف بابلاغ سموكم الملكي أن حكومة الجمهورية الفرنسية ترجو أن تغادروا دمشق باسرع ما يمكن وسيكون تحت تصرفكم قطار خاص يتحرك بسموكم وبحاشيتكم من محطة الحجاز (في دمشق) في الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تموز»[١٧٠]. فاستنكر الملك هذا البلاغ، وابرق الى الدول الحليفة بواسطة ممثليها في العاصمة السورية قائلاً: «ان دخول الجيوش الفرنسية دمشق مخالف لقرارات مؤتمر الصلح ولمبادىء عصبة الأمم. كما أن المعاملة التي يلقاها من السلطة الفرنسية منافية للحقوق الدولية بصفته حليفاً حارب مع الحلفاء تحت راية جلالة والده وزعيماً على سورية باقرار فرنسا وبريطانية العظمى وممثلاً للسوريين، كما يعلمه المؤتمر

(١٦٩) نفسه: ص ٢٠٥/٢٠٦.
(١٧٠) نفسه: ص ٢١٠.

المشار اليه، ومليكا على سورية بانتخاب ممثليها»[171].

ومن أسف أن هذا الرد لم يلق تجاوباً في أي من العواصم الأوروبية، حتى ولا في لندن. ولما كان لابد من الرحيل، أخذ أعيان البلاد يتوافدون على القصر الملكي «مقدمين لمليكهم عواطف المحبة والاجلال، متمنين له العافية والتوفيق في الحل والترحال بعون الله جل شأنه»[172]. وفي الساعة المحدّدة من صباح ٢٨ تموز، «كان الملك وذووه وحاشيته في القطار الخاص، فسار بهم من محطة الحجاز إلى درعا»[173]. و «بهذه الفاجعة الأليمة، انتهت حياة الاستقلال والملكية في سورية ليبدأ عهد الانتداب»[174] وهذا أيضاً ما كان سوى عهد القلاقل والثورات والمتاعب والخصومات السياسية والعقائدية التي لم تحسب لها السلطات الفرنسية أي حساب.

اما الفارس، فقد غاب عن الحكم، اثر حادثة خربة الغزالة ـ حوران التي قتل فيها الرئيس علاء الدين الدروبي والوزير عبد الرحمن اليوسف اللذان كانا يرافقان الملك في القطار[175]، ليعود اليه في ٢٨ حزيران ١٩٢٢، ضمن حكومة الاتحاد التي

(١٧١) (١٧٢) (١٧٣) (١٧٤) نفسه: ص ٢١٠.

(١٧٥) تفاصيل هذه الحادثة ذكرها يوسف الحكيم في كتابه «سورية والانتداب الفرنسي» دار النهار للنشر طبعة ١٩٨٣ ص ٣٤/٣٧.

الفها صبحي بركات بقرار أصدره المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو[176].

حزب الشعب

بعد وقت قليل استقال الخوري أو هو أُبعد، ونشطت الحركة الوطنية في مطلع ١٩٢٥ فور تعيين الجنرال ساراي مفوضاً سامياً، وهو «أول فرنسي حر جاهر حين وطئت قدماه ساحل ميناء بيروت، بحق أهل البلاد في تسلمهم الحكم وعزم فرنسا على تحقيق أمنيتهم»[177]، وقد رأى الوطنيون «أن ينظموا صفوفهم ويوحدوا آراءهم فباشروا بتأسيس حزب الشعب الذي كان فارس الخوري في مقدمة مؤسسيه وهو الذي وضع نظامه وكان نائباً لرئيسه الزعيم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وكان من أقطابه حسن الحكيم وفوزي الغزي وسعيد حيدر وغيرهم»[178]. ثم نشبت في هذه الأثناء الثورة السورية في جبل الدروز بقيادة سلطان باشا الأطرش، فاعتقل الفارس وفوزي الغزي وآخرون ونفوا الى معتقل أرواد في حين اشترك الشهبندر والحكيم وحيدر بالثورة فعلياً وبعد إخمادها لجأوا الى مصر، كما سيتبين معنا في الفصل الرابع.

(١٧٦) المصدر أعلاه: ص ٨٨.

(١٧٧) نفسه: ص ١٢٤.

(١٧٨) الفرحاني: ص ٦٠/٦١.

الى المنفى

ولدن تشكيل الحكومة الجديدة في ٢٤ أيار ١٩٢٦، كلف الفارس برئاستها عن الوطنيين بينما رأس الدولة الداماد أحمد نامي بك، ثم عادت هذه الحكومة فاستقالت في ١٢ حزيران ١٩٢٦ بعدما لمس الوزراء الوطنيون: «سوء نوايا الفرنسيين»[١٧٩]، فسيق هؤلاء: الخوري والحكيم والبرازي والحفار، الى الحسكة في الجزيرة السورية ـ ومعهم فوزي الغزي وأديب الصفدي وبدر الدين الصفدي وسعد الله الجابري وعبد المجيد الطباخ واسماعيل حقي، وأقاموا هناك ثمانين يوماً ساءت صحتُهم خلالها بسبب شدة الحرارة، ثم نُقلوا الى أميون ـ الكورة في لبنان، حيث اجبروا على الاقامة خارج سورية حتى ١٨ شباط ١٩٢٨، رجعوا بعدها الى وطنهم في ٢٤ منه بالاعتزاز والتكريم[١٨٠].

المعزول

أنهى المفوض الجديد هنري بونسو، الذي خلف الجنرال ساراي، حكم الداماد، وعهد الى قاضي دمشق الشرعي الشيخ تاج الدين الحسني بتأليف حكومة «موقتة» استمرت بالحكم أربع سنوات أو تزيد، فأشرَفت على انتخابات عامة لاختيار الجمعية التأسيسية الأولى التي وضعت الدستور

(١٧٩) (١٨٠) نفسه: ص ٦٢/٦٣/٦٤.

السوري، ليُبعَد الفارس عن هذه الجمعية «بسبب عدم تخصيص مقعد نيابي لطائفته القليلة العدد في سورية وهي البروتستانت»[١٨١]، حين دخلها شقيقه الأصغر المحامي فائز الخوري كنائب عن دمشق «لأنه كان قد غيّر مذهبه وأضحى ينتمي لطائفة الروم الارثوذكس وأسباب تغييره هي أسباب شخصية بحتة حدثت قبل هذه الانتخابات لسنوات قليلة»[١٨٢].

الكتلوي

عندئذ وجد الفارس نفسه معزولاً عن السلطة، حلمه الاكبر، فراح «يعمل خارج الجمعية التأسيسية، فشارك في تأسيس الكتلة الوطنية مع هاشم الأتاسي وابرهيم هنانو وجميل مردم وسعد الله الجابري ولطفي الحفار ومظهر ارسلان وحسني البرازي وتوفيق الشيشكلي وغيرهم» وغدت هذه الكتلة «نقطة الارتكاز في نيل سورية استقلالها»[١٨٣].

ظل الفارس «كتلوياً» زهاء ربع قرن، وظل نجمه يتألق، بين رئيس للحكومة ورئيس لمجلس النواب ووزير ودبلوماسي. والذي عُرف عن «الحزب الوطني»، الذي كان معقله دمشق، حيث لرجال أمثال شكري القوتلي وفارس

(١٨١) نفسه: ص ٦٢/٦٣/٦٤.

(١٨٢) (١٨٣) نفسه: ص ٦٢/٦٣/٦٤.

الخوري ولطفي الحفار وصبري العسلي أتباع شخصيون، أنه «عكس السياسة الدمشقية بأضيق صورها، فلم يطرح أي منهاج مفصل، ولم يمارس أي نظام على أفراده»[184]، ولا هو حقق «قيادة ذات بنية تنظيمية واضحة»، وانما «كانت قوته الانتخابية لا تعتمد على الخصائص الفردية التي يتحلى بها قادته على رغم قدرات بعضهم، بمقدار اعتمادها على سحر سجلهم الوطني، وتدعّمها بالاحوال العائلية والارتباطات بالاحياء البلدية المختلفة»[185]، خاصة أن الصلات العائلية في دمشق كانت لا تزال «أهم من الفرد»[186] مهما يكن شأن هذا الفرد، ما يؤكد على ضرورة الاقامة في الشارع الواحد والانتساب الى الطائفة من جهة، ورابطة النسب وهي «أقوى من الولاء لقضية سياسية عامة»[187] من جهة.

لا يلزمنا، اليوم، الكثير من الشجاعة الأدبية لكي نقول ان الكتلة الوطنية بدأت تتلاشى بعد موت أحد أعضائها المؤسسين المرحوم سعد الله الجابري في ٢٠ حزيران ١٩٤٧، ذلك أنه كان «اكثر رجالها شجاعة واستقامة، وربما كان هوالرجل الوحيد الذي بقيت له سمعته ونفوذه رغم تجارب

(١٨٤) باتريك سيل: الصراع على سورية، ترجمة: سمير عبده ومحمود فلاحة، دار الأنوار بيروت، طبعة أولى ١٩٦٨ ص ٤٨/٤٩.

(١٨٥) (١٨٦) (١٨٧) نفسه.

السنوات التي سلفت»[188]. لقد تحطمت الكتلة الوطنية لتعظم بالمقابل مكانة الرئيس شكري القوتلي، الذي طالما عارضه الجابري في مسألة تعديل الدستور «بشكل يمكن معه تجديد انتخابه رئيساً للجمهورية خمس سنوات أخرى»[189].

وللمرحوم ميشال عفلق رأي في الكتلة الوطنية والاسباب التي ادت الى افلاسها وانهيارها. قال: «ولفَهْم افلاس «الكتلة الوطنية» لا بد للمرء من أن يأخذ بعين الاعتبار أن الرجال الذين تألفت منهم كانوا لا يمكلون النظرة الشاملة، وكان طموحهم محصوراً في صيانة وجودهم السياسي، وفي الحفاظ على قدر محدود من استقلال البلد، فلقد تخلفوا عن الرأي العام، ولاسيما أن الشباب الذين كانوا منذ سنوات عديدة عرضة للافكار البعثية والشيوعية حيث منح البعث الشعب طموحاً في الميدانين الوطني والاجتماعي». أضاف: ان «الكتلة» لم تعن بالوحدة ولا باستقلال الدول العربية الأخرى، فقد بدت راضية باستقلال محدود وغير حقيقي، يتطابق ومفهوماتها، حتى ان القوتلي فكر عام ١٩٤٥ في عقد معاهدة مع فرنسا، وهذا هدف مجيد قبل سنوات عشر. ولكنه يعتبر خيانة فيما بعد الحرب»[190].

(١٨٨) (١٨٩) نفسه.

(١٩٠) نفسه: من حديث أجراه سيل مع عفلق في بيروت بتاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٦١.

ويسجل خالد العظم على الفارس في ارتياحه لانقلاب حسني الزعيم (١٩٤٩) مأخذاً دستورياً كبيراً قد لاينسى: «وعلمتُ بعد خروجي من السجن أن حسني الزعيم كان مجتمعاً مع فارس الخوري، فيما كنت أتحدث الى (صديقي): فريد (زين الدين) وفرزت (المملوك)[١٩١]. فلما اجتمعا اليه، وجدا منه رجوعاً عن الفكرة التي كان أظهر ميلاً اليها. وقال ان فارس الخوري أظهر له ارتياحه للانقلاب، وشجعه على المضي عليه، وقال له: «لم لا تستلم الأمور بنفسك؟ تولّ الأمر كله، ودع شكري القوتلي جانباً فانه غير محبوب والأمة تسير وراءك».

ويحاول العظم تحليل هذا الموقف الصادر عن صاحبنا الفارس فيقول: «هكذا كان موقف رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري، صديق شكري القوتلي، ورفيقه في الجهاد الوطني وعضو الكتلة الوطنية وعميدها. فماذا حمله على مساندة هذه المعركة غير الدستورية؟» ويضيف: «ألم يكن (الفارس) على رأس القوة التشريعية والقوة التنفيذية من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٩؟ أو لم يكن يترك رئاسة مجلس النواب ليتسلم رئاسة مجلس الوزراء، فيتركها ليعود مرة أخرى إلى

(١٩١) الأول صهر ابن عم خالد العظم، وقائم باعمال الأمانة العامة لوزارة الخارجية.

رئاسة مجلس النواب؟ فاذا كانت ثمة أخطاء، فهو مشترك فيها أو ساكت عنها، اذ لم يترك أحد هذين المنصبين مرة واحدة، مستقيلاً أو محتجاً. لكن شكري القوتلي أقصاه عن رئاسة الوزارة في ١٩٤٦ وحال دون سفره الى مصر. ولم يستدعه لتأليف الحكومة اثر استقالة جميل مردم في أواخر ١٩٤٨، ولا أخذ رأيه وهو في باريس، حيث كان يمثل سورية في الأمم المتحدة اذ ذاك، بل كلف هاشم الأتاسي بتأليف الوزارة. ثم استدعاني لتأليفها ولم يخبره ولم يكلفه. ألم تكن هذه العوامل الشخصية كافية للحقد على شكري القوتلي والانتقام منه؟»[١٩٢].

والحقيقة أن الخطأ التدميري انما هو خطأ الكل. والمسؤولية تقع على الجميع، وليس من الضرورة توزيعها عليهم بالتساوي.

الخاتمة

واذ نصل الى الكلمة الأخيرة في هذا البحث، نجدنا أمام أرتال من العبارات أقل ما يقال فيها انها غاية الاثارة، درج الفارس على اطلاقها خلال مدة حكمه وبعد تخليه عن الحكم في ٧ شباط ١٩٥٥ وإلى وفاته، منها: «أن من الضروري تسليم الحكم لجماعة الاخوان المسلمين ليقيموا حكم القرآن

(١٩٢) مذكرات خالد العظم: الجزء الثاني ص ١٩٨/١٩٩.

والسنّة في الأمة»[١٩٣] و «هذه الامة الاسلامية، اذا ما اثيرت بأفرادها العاطفة الدينية بشكل جيد واحسن تسييرها فباستطاعتها أن تغير مجرى التاريخ»[١٩٤] و «يمكن تطبيق الاسلام كنظام دون الحاجة للاعلان عنه انه اسلام»[١٩٥] و «ليس كالاسلام معالجاً للنفس البشرية ومداوياً لكافة الامراض الاجتماعية ومانعاً لاستفحال الشر»[١٩٦] و «كما أن الشيوعية تحتاج لدكتاتورية حازمة تشق لها طريق الانتشار والازدهار والثبات، فالاسلام أشد حاجة لمثل ذلك»[١٩٧] و «لو خُيِّرتُ بين الاسلام وبين الشيوعية لاخترت الاسلام فان الاسلام هو الدرع الحصين ضد الشيوعية»[١٩٨] و «أنا مؤمن بالاسلام وبصلاحه لتنظيم أحوال المجتمع العربي وقوته في الوقوف بوجه كل المبادىء والنظريات الأجنبية»[١٩٩] و «ان شريعة موسى الكليم استهدفت امور الدنيا فقط وليس في التوراة اشارة ما إلى خلود بعد الموت أو ثواب في الآخرة على عمل صالح في الدنيا»[٢٠٠] و «ان اليهود أصحاب عقيدة رهيبة وسياسة متصلة المراحل»[٢٠١] و «الشيوعية من صنع اليهود»[٢٠٢]

---

(١٩٣) الفرحاني: ص ٢٦٥.
(١٩٤) نفسه.
(١٩٥) نفسه.
(١٩٦) نفسه: ص ٢٦٨.
(١٩٧) نفسه: ص ٢٦٩.
(١٩٨) نفسه: ص ٢٧٠.
(١٩٩) نفسه: ص ٢٧٢.
(٢٠٠) نفسه: ص ٢٨٠.
(٢٠١) نفسه: ص ٢٩٢.
(٢٠٢) نفسه: ص ٢٩٧.

و «أوصيتُ بعدم قبول الهدنة (العربية ـ الاسرائيلية) والآن أوصي بعدم الصلح مع اليهود»[٢٠٣] و «مصيبة العرب هي منهم وفيهم»[٢٠٤] و «ان رقي سورية ونجاحها لا يتوقفان على رقي النصارى بل على رقي المسلمين»[٢٠٥].

نعم، لقد استوقفتنا هذه العبارات الواضحة الصريحة التي ينقصها اعلان من صاحبنا الفارس عدوله عن البروتستانتية الى الاسلام. ولكن الفارس مات، حسبما نعلم جميعنا، على بروتستانتيته التي ورثها عن جده جبور الخوري، ما يدعونا إلى الاعتراف بأهمية النهج الوطني التعايشي الذي حافظ عليه زهاء ستة عقود. أما نهجه السياسي فموضوع آخر، ذلك أن نجاحه أو فشله مرتبط بالنجاح أو الفشل لأرهاط من السياسيين السوريين كانت لهم آراؤهم وأفكارهم ومصالحهم ورغباتهم وميولهم ونزواتهم وتحالفاتهم وارتباطاتهم المحلية والاقليمية والدولية.

ومهما يكن، فلا يسعنا الا أن ننحني لهذا العصامي الكبير الذي أعطى دمشق وكل سوريا مثل ما أخذ منها: حباً وكرامة وتحناناً، غير مؤطرٍ بعقيدة أو ايديولوجيا أو ما يماثلها.

---

(٢٠٣) نفسه: ص ٣٠٤.
(٢٠٤) نفسه: ص ٣٠٨.
(٢٠٥) نفسه: ص ٣٤٢.

الفصل الثالث
خالد العظم

تمهيد:

كنا وعدنا، في الحلقة السادسة من الفصل الأول، بالعودة إلى الزعيم السوري المغفور له خالد العظم «ومذكراته»، وما أكثر الأسباب والدوافع التي تعيدنا، الآن، إلى هذا الزعيم ومذكراته، منها، على سبيل المثال، أن بحلول الثامن عشر من شباط ١٩٩٠ يكون مضى على وفاته خمس وعشرون سنة[٢]، قضينا، نحن اللبنانيين، ويا للأسف، ثلاثة أرباعها تقاتلاً وتناحراً وتقاطعاً وتقاسماً، حتى ضاعت منا أو كادت أعزُّ آمالنا وأمانينا، وبات انقاذنا عملاً انسانياً محضاً.

---

(١) أنظر ص ٢٢١.

(٢) توفي خالد العظم في منزله بعين الرمانة ـ بيروت يوم الخميس في الثامن عشر من شهر فبراير (شباط) ١٩٦٥، ودفن بناء لوصيته، بجوار الامام الأوزاعي في الشطر الغربي من العاصمة اللبنانية، له «مذكرات خالد العظم» ثلاثة مجلدات، قدّم له في اقتضاب شديد ودون تحقيق: عمر المدني، الدار المتحدة للنشر ١٩٧٠.

ولعلّ أكثر ما يذكّرنا بالرئيس السوري خالد العظم الخوف على ديموقراطيتنا من الزوال، وعلى حريتنا من النظام الفردي التسلطي القمعي الاستبدادي، ذلك أن الرجل الذي نتذكر ديموقراطي اجتماعي من الطراز الأول، وقد «اشتغل في خدمة بلاده نيفاً وخمسة وثلاثين عاماً»[٣]، ولكنه أُقصي عن مدينته (دمشق) وبيته ورزقه وأنصاره وأصدقائه، لأنه قاوم، بما أوتي، نظام الحزب الواحد ذي الجهاز البوليسي الدكتاتوري التعسفي، وأكد على حق سوريا في الديموقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية والسيادة.

وتفيدنا مراجعة «مذكرات خالد العظم» على صعيد العلاقات اللبنانية ـ السورية، وهي اليوم مدار جدال حاد، كأن تجعلنا جميعاً، لبنانيين وسوريين، أقرب إلى العقلانية والموضوعية في معالجة قضايانا المشتركة، بل أقرب بعضنا إلى بعض، في إطار من المصارحة والمكاشفة، خاصة وأن الرئيس العظم قد توسّع في موضوع الانفصال الجمركي السوري عن لبنان من جهة، والنقد السوري من جهة، حسبما في الفصلين الأول والثاني من المجلد الثاني. على أن الاقتصاد بالنسبة إلى الدولتين الشقيقتين هو العنصر المقرر والأساسي، فإذا استقام استقام ما سواه،وإذا اختل اختل ما سواه،وان أقصى ما نرجوه أن

(٣) المذكرات: ج ١ ص ١٨٠.

يتمكن البلدان التوأمان من إرساء قواعد التفاهم والتعاون الواضحين الصادقين فيما بينهما، فينهض لبنان من تحت الانقاض ويعاد تعميره حسب الأصول الحديثة، وتحل سوريا أزمتها الاقتصادية الخانقة وتسترد مكانتها الانتاجية الزراعية، وتخفف من أعبائها الكثيرة الثقيلة الناتجة في معظمها من حاجتها الدائمة المستمرة إلى التسلح وفرض الأحكام العرفية التي طال أمدها.

وإذا كان من اضافة إلى ما تقدم، فان لـ «مذكرات خالد العظم» قيمة أدبية وتاريخية وتثقيفية عالية، ما يجعلها مرجعاً صالحاً لأمور شتى، مثل التربية والمعلوماتية لا على المستوى السوري فحسب، بل العربي والعالمي. وقد كشف صاحبنا عن تمرّس بعلم الرجال، وحسٍ فني، وخبرة في نقل الأحداث والوقائع، ووصف وتصوير الأماكن التي زارها والمعالم التي عرفها.

بيد أن في ذكرياته الخاصة، كما بثها في الفصول الثلاثة الأول من المجلد الأول، مجموعة من التحف الأدبية النابضة المتناسقة، تحكي ولادة الباشا الصغير في ٦ تشرين الأول ١٩٠٣، وطفولته البورجوازية، ونشأته المميزة وحيداً بين شقيقتين، ورحلته مع العائلة إلى استنبول (الاستانة) حيث كان مقر والده، المرحوم محمد فوزي باشا العظم، ناظر

الأوقاف في الوزارة التركية التي رأسها عام ١٩١٢ الصدر الأعظم المشير أحمد مختار الغازي، أحد مشاهير قواد السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ ـ ١٩١٨)، ودراسته في مدرسة «غلطة سراي»، أرقى المعاهد التركية آنذاك، وكانت تشرف عليها هيئة من المعلمين الافرنسيين، واندلاع حرب البلقان، وعودة العائلة إلى سوريا، ومعرفته الأولى بجمال باشا وأنور باشا، والحرب الكونية الأولى، ودخول الجيش البريطاني دمشق. وتحكي كذلك عن الملك فيصل في سوريا، وحفلة زواجه عام ١٩١٩ من سنية راشد باشا مردم بك، بحضور الأمير فيصل نفسه والوجهاء، ثم عن فجيعته الأولى بوفاة والده، بعد شهرين على زواجه، ليفجع ثانية بوفاة الزوجة سنية صباح يوم السبت في ٢٤ تموز ١٩٢٠، ولما يمضِ على زواجهما أكثر من عشرة أشهر. «وكان يوماً شؤماً عليّ وعلى البلاد، إذ دخل الجيش الافرنسي بنفس النهار إلى دمشق. فكان حزني مزدوجاً: على فقد الرفيقة التي أخذتها لمشاركتي الحياة، وعلى البلاد التي فقدت استقلالها وحريتها»[٤].

سرّ الباشا الأب سرّ الابن

ولا بأس من الاعتراف هنا بأن بعض الحزن انتابني، فيما كنت أقرأ ما كتبه صاحبنا عن فجيعته بوفاة والده، لا لأن أبا

(٤) نفسه: ص ١١٧.

خالد «كان أرأف أب وأطيب أب وأحسن أب خلقه الله»[٥]، ذلك أن من حق أي منا أن يعتبر والده الأرأف بين الآباء كافة والأطيب والأحسن، بل لأن خالداً استطاع التعبير، بلغة حية صادقة، عما أحدثته هذه الفجيعة في نفسه وفي بيته، فكان مثال الابن المخلص الوفي للأب المحب الحنون المدرك المستنير.

«ولم يكن والدي قد دربني على ممارسة ادارة أي جزء من موارد رزقه بل كان أول ما فكر به هو حمايتي من مواطن ارتيادي المقاهي والملاهي جميعها، حتى دور السينما. ثم زوجني ووضع أساس أسرتي العتيدة على أمل اكمال نواقص تدريبي وتمريني على الحياة فيما بعد ذلك. غير أن القدر لم يمهله فمات فجأة. ولم يترك له القدر حتى فرصة المرض ليزودني بنصائحه الثمينة عن معرفته العميقة بخفايا هذا العالم وأسرار النجاح فيه». لذلك «كانت حرقتي بفقده مزدوجة: انهيار عماد الدار وفراقه الأبدي، فضلاً عن انقطاع أملي في الافادة من خبرته وتجربته في الحياة.

و«اكملت سيري على طريق الحياة وحيداً لا تقودني يد والد حنون شفيق، أعمل على اكتساب الخبرة واستخلاص المفيد من المضر، والحسن من السيء بقدر ما يستنتجه عقلي.

(٥) نفسه: ص ١٢٠.

ولهذا أمسيت منكمشاً على نفسي، شاكاً في الجميع، وفي كل ما يقال، عديم الاعتماد على أحد، سيء الظن بأقرب الناس وأخلصهم»[٦].

والواقع أن الحياة ليست دائماً هدية من الأب إلى الابن. ولربما في الشوك والعذاب حياة أجمل مما في الورد والهناءة. ولو كانت الأمور ستجري رتْباً وتنظيماً، دون أي خلل أو عائق يُذكَر، لفقدنا، بكل تأكيد، حرارة الفرح والاندفاع والمبادرة، ولما كان الخَلْق والابداع اللذان بهما يتميز الانسان من سواه.

ولكن الذي يبدد هذا الحزن أن خالداً لم يُعْدم المساعد الأمين: المرحوم كامل الياسيني، وقد أبت شهامته ومروءته إلّا أن يشهد على أمانة هذا المساعد وصِدْقيّته وأنفته وعفته: «وأكثر ما عانيت من مرارة هو أن والدي لم يخلف لي من أصدقائه الذين غمرهم بفضله سوى صديق واحد تبرّع بالاشراف على أشغالنا وظل وفياً لهذه المهمة حتى توفي رحمه الله. وأرى من واجب الاعتراف بالفضل والاقرار بوفاء هذا الرجل لذكرى والدي أن أسجل هنا أني مدين له بما اكتسبتُ من معرفة تسيير أشغالي الخاصة، وبما قام به من رحلات وكرسه من وقت في هذا السبيل. وهذا الرجل هو المرحوم

(٦) نفسه: ص ١٢٤.

كامل الياسيني».

لقد «جمع هذا الرجل إلى المقدرة على تصريف الأمور بحنكة ومعرفة كاملتين، ميزة الحديث الحلو والروح الأنيسة في المجالس الخاصة» على أنه «كان يبدو في المجالس العامة لمن لا يعرفه غليظ الجسم، كئيب الوجه، عابسه». والحقيقة أنه «كان يخفي، وراء نظارته السوداء، عينين تسترقان من دماغ محدثه خفايا أفكاره، ويملك خلف تجاعيد وجهه روحاً رغدة تطلق النكتة الناعمة أو اللاذعة دون أن تتحرك هذه التجاعيد»[٧].

كان عبد الله بن الزبير[٨] يقول: «الأصيل يجود»، أي من كان شريف الأصل يجود بماله ونفسه. والثابت أن والد خالد

(٧) نفسه

(٨) عبد الله بن الزبير (١ - ٧٣ هـ/٦٢٢ - ٦٩٢): ابن الزبير بن العوام وأسماء كبرى بنات أبي بكر واخت عائشة زوج النبي. اشترك في فتوحات فارس ومصر وشمالي افريقيا. حارب الى جانب عائشة في معركة الجمل (عن هذه المعركة انظر كتابنا «قضايا مشرقية» طبعة ١٩٨٧، الفصل الأخير: «حرب المبشّرين بالجنة»). عاش في المدينة وعارض خلافة يزيد الأول ابن معاوية دون أن يتحالف مع الامام الحسين. ثار على ولاة الأمويين في الحجاز وأعلن نفسه خليفة. حافظ على نفوذه في العراق بعد معركة مرج راهط. قضى عليه الحجاج وأخضع مكة والمدينة لنفوذ البيت الأموي.

العظم وكامل الياسيني أصيلان، إذ جاد كلاهما على صاحبه بماله ونفسه. «وعندما بعثت والدتي وراءه (كامل الياسيني) وطلبت إليه أن يتولى الاشراف على شؤوننا وتوجيهي إلى ممارسة هذا العمل، لم يتردد لحظة عن تلبية رغبتها. وهكذا بذل وقته وجهده في سبيل خدمتنا عشر سنوات، حتى أخذ منه الكبر قدرته على العمل. لكنه ظل يرشدني بنصائحه المخلصة.

«وكان منذ بدء عمله معي قد رفض أن نعين له راتباً أو مكافأة سنوية. وقال للمرحوم عطا بك الأيوبي ـ وكان المشار إليه أيضاً من خلصاء والدي وأصدقائه المقربين ـ ان لمحمد باشا فضلاً عليّ في حياتي المعنوية والمالية، فما حصلت عليه من الثروة كان مما قدمه لي من مساعدة ودعم. فعليّ أن أردّ جزءاً يسيراً مما حباني به أبو خالد من معروف. هكذا أجاب الياسيني على واسطة المرحوم الأيوبي. وعبثاً ذهبت محاولاتنا للتعويض عليه»[٩].

يأسرك خالد العظم بهذه المواقف الانسانية المؤسسة على الوفاء، والوفاء فقط. فكأنه يكتب لك وعنك، وتطمئن إلى أفكاره وآرائه، ويحبّبك الحياة والعمل بالمعروف: «كان موقف الياسيني أول درس لي في الوفاء وتقدير المعروف، تلقيته من

(٩) المذكرات: ج ١ ص ١٢٤/١٢٥.

رجل قد يكون لوالدي فضل عليه أقل مما كان له على سواه. لكن عرفان الجميل ظهر منه واختفى لدى الكثيرين»[١٠].

وضمّن المؤلف الجزء الأول من المجلد الأول، إلى دراسته الحقوق في الجامعة وذكرياته فيها، آراءه في الطور الانتقالي بين نظامين مختلفين، والتأميم والاشتراكية، والموسيقى العربية والأغاني الشائعة، ولمحة عن سيرة والده وحياته السياسية، ومشاهداته في مصر حين ابتعد إليها بنفسه عن أخطار الثورة السورية (١٩٢٥)، وتعليقه على المظاهرات الشعبية التي تجرى لاستقبال الزعماء، ومعلوماته الجغرافية عن دمشق عندما كان عضواً في بلديتها، ثم عرضه للمعاهدة السورية الفرنسية في ١٩٣٦ ومحتوياتها الأساسية، وكشفه عن أثرها السيء في، الليرة السورية، إذ «أصبحت الليرة التركية الذهبية تساوي ٧٥٠ قرشاً سورياً بعد أن كانت ثابتة على ٥٥٠ قرشاً» والسبب «اعلان الحكومة الفرنسية تخفيض سعر الفرنك فتبعته الليرة السورية»[١١]، والأمر أدى إلى انقسام الكتلويين واستبدال رئيس مجلس الوزراء آنذاك جميل مردم بلطفي الحفار[١٢]. ويختم صاحبنا ذكرياته الخاصة بسفره عام ١٩٣٤ مع زوجته الثانية «ليلى» إلى استنبول ومشاهداته فيها،

(١٠) نفسه (١١) نفسه: ص ١٧٩.
(١٢) نفسه: ص ١٨٣.

وانتقاله من هناك موفداً من شركة الشمينتو السورية إلى أوروبا لدراسة عروض توسيع المعمل.

ان الذي يميز هذا القسم من المذكرات من الأقسام الستّة: «من الانتداب إلى الاستقلال»، «الشؤون المالية والاقتصادية»، «عهد الانقلابات العسكرية»، «سورية قبيل الوحدة»، «الوحدة مع مصر»، «سورية بعد الانفصال»، حرارة اللغة، وتنوّع الموضوعات، والفرح، والحزن والطيش، والنزق، والانفعال، والهدوء، والرزانة، والتربية الصحيحة، مجتمعة كلها، في مائة وتسعين صفحة من الأدب السياسي والاجتماعي الراقي، حين تغلب الجدية على مجمل الصفحات المائة والستين بعد الألف، التي تؤلف الأقسام الستّة المذكورة.

ففي كل صفحة تقريباً، من القسم الأول، قصة أو طرفة أو مأساة أو رأي أو نصيحة أو ملاحظة اجتماعية في غاية الأهمية، ويحاصرك المؤلف بانسانيته وصراحته وعاطفته ومحبته ووطنيته. وأنّى لك أن تختار هذا أو هذا فيما الاختيار صعب، وصعب جداً. بل أنّى لك أن لا تحب، رغم السياسة والسياسيين، دمشق والدماشقة، والدفء الاجتماعي الذي تغمرك به المدينة دون النظر إلى شكلك أو لونك أو هويتك.

صحيح أن خالد العظم دمشقي حتى العصبية، ولكنه عربي أيضاً وأممي انساني، ويحترم حقوق الآخرين في المُلكية،

والحرية والاستقلال والعيش الكريم. «ولدتُ ليلة النصف من شهر شعبان ١٣٢١ (هـ). وقد عثرتُ بعد جهد كبير على ما يقابل ذلك التاريخ في حساب الأشهر والسنين الشمسية وهو ٦ تشرين الثاني ١٩٠٣ (م). وروت لي المربية الزنجية التي اولتها والدتي أمر العناية بي واسمها منكشة (أم سميح) أن مدينة دمشق كانت تلك الليلة مزهزهة بالأنوار - أنوار القناديل الصغيرة ذات العلب المعدنية المملوءة بزيت الزيتون وبوسطها خيط من القطن يضيء ويرسل في الجو نوراً ضئيلاً أصفر. وكانت المئات من هذه القناديل تعلق على الجدران وعلى أقواس النصر المكسوة بالسجاد وبأغصان الحور والصفصاف.. وكانت الجماهير تسير بـ«عراضات» تحمل الأعلام المزخرفة بالألوان المتعدّدة يقودها شخص يصرخ بملء صوته قائلاً، مثلاً: «يا فوّتْني عالصرايا..» فيردد الناس قوله. ثم يبتكر جملاً أخرى: مثل: «يا مرحبا باللي جاي..» إلى آخر ما هنالك مما يسمونه بالانكليزية Slogan فيثير الحماس وهو محمول على الاكتاف يتهادى وسيفه يلمع في الفضاء».

على أن فرحة الوالد الباشا بالمولود الجديد «تفوق، بالطبع، فرحته بعيد ذكرى ولادة السلطان» عبد الحميد الثاني. «ولكن حدوث العيدين في ليلة واحدة زاد القوم بهجة وسروراً، كيف لا وقد مضى على زواج والدي خمسة وعشرون

عاماً أنجب فيها بنتاً واحدة وغلامين ماتا قبل الثالثة من عمريهما. وكانت أمي سافرت إلى حمص والتجأت إلى جامع سيدنا خالد بن الوليد، حيث صلّت وابتهلت إلى الله أن يهبها غلاماً. ونذرت أن تسميه خالداً تبركاً باسم الصحابي الجليل. وهكذا أُسميتُ باسمه وأضيف إليه اسم «سليم» نزولاً عند رغبة أحد أصدقاء والدي، هو الشيخ تقي الدين نقيب الأشراف. وقد روى له أنه رأى النبي صلّى الله عليه وسلم فقال له: «بشّر محمد فوزي باشا بسليم» فتلقى والدي - وكان على درجة كبيرة من التقى وحب الرسول - هذه الرواية بانشراح وتفاؤل وأصبح اسمي «خالد سليم» مما دعا الشيخ مصطفى نجا من علماء بيروت وأدبائها[13]، صديق والدي الحميم والشاعر الرقيق، إلى نظم قصيدة كذكرى لمولدي هذه هي:

«بدا من كريم للوجود كريم
محياه كالبدر المنير سليم

(١٣) مصطفى بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد عبد القادر نجا (١٣٦٩ - ١٣٥٠ هـ/١٨٥٣ - ١٩٣٢ م): مفتي بيروت (سنة ١٣٢٧ هـ، إلى أن توفي) مولده ووفاته فيها له كتب، منها: «نصيحة الايمان في التربية والتعليم» و«كشف الأسرار» تصوف، و«أرجوزة في التربية والتعليم» وثلاثة موالد. و«تفسير جزء عم» و«إرشاد المريد» في التجويد. وله نظم جمع في «ديوان».

تجلى بأفلاك السعادة مشرفاً
وعن مثله هذا الزمان عقيم
هو ابن الذي قد فاز بالمجد والعلى
محمد فوزي العظم وهو عظيم
همام وفيٌّ بالعهود مهذّب
تقيٌّ سخيُّ الراحتين حليم
عفيفٌ شريفُ النفس أوصاف ذاته
قد استلهمتها في السماء نجوم
على الصدق مطبوع وبالنفع يعتني
وبالخير يسعى دائماً ويقوم
حَباهُ بشعبان المعظم ربُّه
غلاماً به عقد السرور نظيم
فاهديه من حسن الثناء مع الهنا
به وله مني الدعاء يدوم
ولادته قل يا مؤرخه بها
أتى خالد بالعز وهو سليم»[14]

اذن، بالعز جاء خالد العظم، بل «ولد وفي فمه ملعقة ذهب» مثلما يقال. من دار الباشا القديمة «الكائنة في حي سوق

(١٤) المذكرات: ج ١ ص ٤/٣.

السـاروجة»[١٥] انـطلق خالـد متحـرراً من الـذهب والفـراش الناعم الوثـير، ليغالب الأيـام التي حبلت بما لم يكن متـوقَّعاً.

وقبل أن يكمل الفتى السعيد، الذي قبّـل يد جمـال باشـا كما كان يفعل من هو أكبر منه سناً وأرفع مكانة[١٦]، وشهد موكب الحج، وركب القطار والبـاخرة والعـربة السلطانيـة، وضمّه موكب السلطان محمد الخامس رشاد في استنبول، وعرف أول طيارين وصلا إلى دمشق، واصـطاف بسوق الغـرب والمتين، رحم الله أيام مصايفنا الخلابة، عقده الثاني، كان يحاول لملمة نفسه وقد شتتهـا الحزن عـلى الوالـد والزوجـة، ولربمـا اعتقد الحاسدون والمبغضـون والحاقـدون أن الغصن الطري النـاعم تحـطم ولن ينهض بعـد الآن، وان الـدار، التي استقبلت البـاشاوات والقـوّاد والبكـوات والـوزراء والنـواب والسفـراء والقنـاصل وغـيرهم من الأكابـر والأعيان، فقـدت والى الأبد مجدها ومكانتها. أما الرد الحـاسم على هؤلاء وهؤلاء فهـو أن خالداً شحذ ذهنه واستجمـع قواه وشمـر عن ساعـديه ونـزل يعـارك الحياة، رافضـاً أن يقال، ولـو همسـاً، أن محمـد فوزي بـاشا العـظم، «زعيم دمشق وسوريـا غير المنـازع»[١٧]، مات دون أن يخلفه من يبقى بعده ويقوم مقامه.

(١٥) نفسه: ص ٤.

(١٦) نفسه: ص ٦٩.

(١٧) نفسه: ص ١٥٢.

«لم أكن حتى مجيء الأمير فيصل إلى دمشق أعنى بالسياسة حتى من بعيـد. لكن المحيط والجـو الـذي خلقه فيصـل، وارتيـادي النـادي العـربي، وسـماعي المحـاضرات والخطب الحـماسية التي كـان يلقيهـا الخـوري (حبيب) اسـطفـان[١٨] أو الـدكتور (عبـد الرحمن) شهبنـدر، طوّر تفكـيري وجعلني من المتحمسين للعروبة والديموقراطيـة. وكنت انقل الأقـوال التي

(١٨) هو الخوري المـاروني يوسف (حبيب) اسطفان (١٨٨٨ ـ ١٩٤٦) ولد في بتاتر ـ الشوف، وتوفي في البرازيـل، «نسر العبقريـة» كما دعاه الاستاذ فريـد اسطفـان في كتابـه «حبيب اسطفـان» (رائـد من لبنان. عـرّف الامـيركيتـين روحانيـة الشرق الحضـاري)، الصادر عن دار لحد خاطـر ١٩٨٣، قـدم لـه المرحوم يوسف ابرهيم يزبك. نشأ جدل بين الخوري يوسف ومـطرانه الجديد السيد أغناطيـوس مبارك المتحمس لـطلب الانتداب الفرنسي واعلان دولة لبنـان الكبير، اذ أمر المطران كاهنه بأن لا يخطب في الاجتماعات السياسية التي تعقد ضد طلب الانتداب، فرفض الخوري يوسف طلب المطران وقال انه يمتثل لنواهي مطرانه في الشؤون الكنسية واما في السياسـة فهو لبناني وليس من ولي عليه في لبنانيته، وانه يخطب لاجل استقـلال وطنه. ولـما عنف الجـدل بينهـما سـافر الى دمشق، وبعد أسابيـع شاع في بـيروت أن الخـوري يـوسف خلع ثوب الكهنوت وارتدى بزة ضابط في الجيش العـربي. «وشاهـدتُ أناساً قد بكوا»، على ما جاء في مقدمة يوسف ابرهيم يزبـك للكتاب المذكور، ص ٣٦/٣٧.

اسمعها إلى والدي وادافع عنها. لكنه كان يهز برأسه شكاً في المستقبل الذي كنت أتصوره زاهياً براقاً، أما هو فكان يقول لي، خاصة في أواخر أيامه، ان لا بد من مجيء الافرنسيين إلى هذه البلاد فتصبح كالجزائر والمستعمرات الافريقية الأخرى. وكان منقبض الصدر كثيراً ويردد اللوم على الزعماء السياسيين الشباب، مثل (جميل) مردم والشهبندر والشيخ (كامل) قصاب، ويقول: لقد استبْدَلْنا بالافرنسيين الاتراك، وعلى أي حال، فالدولة العثمانية كانت دولة اسلامية»[18].

ثم كبر اهتمام خالد بالسياسة حتى أصبح نائباً فوزيراً فمندوباً عن بلاده إلى فرنسا والأمم المتحدة فرئيساً لمجلس الوزراء، وترشح عام ١٩٥٥ لرئاسة الجمهورية، غير أن «الحظ لم يخدمه»، فتقدم عليه شكري القوتلي مدعوماً من الرئيس المصري جمال عبد الناصر والملك السعودي سعود بن عبد العزيز ورئيس حكومة العراق نوري السعيد، ومن حلفائهم في الداخل من أحزاب وكتل وتجمعات وهيئات نيابية وغير نيابية.

وتعلّم خالد العظم من الصراع التركي ـ الأوروبي على سوريا وكل البلاد العربية أن المرونة في السياسة والحنكة في اتخاذ القرارات المصيرية وفهم المخططات الدولية لا بد منها،

(١٨) المذكرات: ج ١ ص ١٥٢.

بل ضرورية لكل من يشتغل في الشأن العام، وبدونها يستحيل أن تحرز البلاد أي تقدم، بل تفقد شخصيتها وسيادتها لتحصد التخلف والحاجة وربما الجوع والافلاس أيضاً. على أن القاعدة الصحيحة في اختيار الرؤساء والقادة أن يختار من هم الاكفأ علماً ومعرفة والأفضل سمعة وعملاً.

وها هو صاحبنا يكتب بصفاء واضح ووعي ثابت عميق، عن الحقبة من الزمن بين دخول الأمير فيصل دمشق فاتحاً بتشرين الأول ١٩١٨ وخروجه منها مهزوماً بتموز ١٩٢٠، فيقول: «فبهذه الأشهر الاثنين والعشرين مرت سوريا بأكثر أيامها غلياناً ونشاطاً. فهي، بعد أن خرجت من دور الهدوء المطلق أيام الاتراك، استفاقت دفعة واحدة ووجدت نفسها حرة طليقة بعد القيود والمظالم، فراح شبانها وشيبها يروحون ويجيئون في الشوارع هاتفين منشدين.. يسقطون من يشاؤون ويهتفون لمن يحبون دون معارض، لا الدول الكبرى تنجو من سخطهم ولعناتهم ولا رجال السياسة العظام من هتافاتهم العدائية». أضاف: «ولم يكن رجال الشرطة يعارضون مظاهراتهم، ولا الحكومة تحاسبهم. وكيف تفعل ذلك وهي التي تدفعهم إلى الشارع بدلاً من أن تسوقهم إلى المدارس أو الثكنات لتعلمهم وتصنع منهم جنوداً وضباطاً يقودون معركة الاستقلال التي لا بد أنها قادمة.. وهذا شأن الحكومات الضعيفة التي تستند إلى الشارع لتثبت أقدامها. فهي تلهب

القوم حماساً واندفاعاً ولكنها في سبيل تجهيز جيش منظّم وتدريبه على صنعة الحرب لا تتحرك قيد انملة . . . وعندما تهب ريح المعركة ويهجم العدو على الحدود تسارع للتفاوض وتسريح الجيش. . ثم ترفع الاعلام البيض وتلقي عن أكتاف أعضائها أعباء المسؤولية وتستقيل تاركة الحبل على الغارب، وآل علي تندب علياً»[١٩].

بيد أن الهزائم والانكسارات والخسائر الجسيمة في الأرواح والممتلكات التي سببتها ثورتا ١٩٢٠ و ١٩٢٥ - ١٩٢٦، لم تمنع صاحبنا من القول: «صحيح أن الغلبة كانت في النهاية للأقوى وانتهت الثورة (الثورتان) بدون نتيجة عاجلة، الا ان البلاد رفعت رأسها بها (بهما) عالياً. كما أن الثورة (الثورتين) أذكت (أذكتا) في النفوس روح الوطنية وفتحت (فتحتا) باب الصراع السلمي المتواصل ضد الانتداب حتى جرّ ذيل فشله وانسحب من سوريا إلى غير رجعة».

وقال مستدركاً: «لا أدعي بأن قوانا الذاتية قهرت فرنسا وأخرجتها من البلاد عام ١٩٤٥، ولكنني أتشبث في أن مضي البلاد في مناهضة الانتداب من جملة الأسباب القوية التي تذرعت بها بريطانيا لانذار الجنرال دوغول لسحب قواه من سورية.

(١٩) نفسه: ص ٩٩/١٠٠.

«ولو كنا قابلين بالانتداب أو حتى بوجود فرنسا بشكل من الأشكال، لما كان ثمة سبيل لبروز تشرشل في الميدان مهدداً وفارضاً ارادته لتنجلي فرنسا عن هذه البلاد»[٢٠].

ومهما قيل في الملك فيصل، سلباً أو ايجاباً، فان «رجال الغيب» الذين تعاون معهم هم أيضاً مسؤولون عن فشل المشروع العربي الرامي إلى اقامة مملكة عربية موحدة، ذلك أنهم أخضعوه إلى رغبتهم في كتم اتفاقه مع رئيس الوزراء الفرنسي، ابان الحرب الكونية الأولى، جورج كليمنصو، ليوقّعوا بعد ست عشرة سنة، ككتلويين وطنيين، على المعاهدة المعقودة في ١٩٣٦ بين سوريا وفرنسا، المصدّقة من مجلس النواب السوري بالاجماع، فيما لا تختلف هذه المعاهدة مع ذلك الاتفاق، «وان كان في المظاهر والتعابير فروق تبْدو كأنها كبيرة لأول وهلة»[٢١]. حتى ان المرحوم سعد الله الجابري قال اثر عودته من باريس: «لم يبق لدى الافرنسيين سوى أن يعطونا مرسيليا»، وقال المرحوم فارس الخوري واصفاً المعاهدة: «انها معجزة القرن العشرين»[٢٢].

واذا ما عرفنا الظروف التي أماتت المعاهدة المشار إليها،

(٢٠) نفسه

(٢١) نفسه: ص ١٠١.

(٢٢) نفسه

مثل: دخول الخيول الالمانية فرنسا من جهة، واستيلاء الجيوش البريطانية على الشؤون السورية، إلى درجة أن البريطانيين لم يتركوا للفرنسيين سوى مقعد صغير يجلس عليه ممثل فرنسا، من جهة، أدركنا كيف ان القوى الكبرى تتحكم في قضايا الشعوب المستضعَفة، وتلعب بها وتسيّرها مثلما تحب وترغب.

وتبرز لصاحبنا، بعد كل هذه المخادعات التي انطلت على بعض السوريين وبعد قيام الدولة العبْرية ١٩٤٨، «فكرة ضرورة الاعتماد على صداقة احدى الدول الكبرى للحصول على دعمها عند الحاجة» ليستنتج أن «الحياد المطلق والابتعاد عن التفاهم مع أحد الافرقاء الأقوياء يؤدي في الغالب الى اتفاق كلمة الجميع ضدنا كما حصل عام ١٩١٩ وعام ١٩٢٠ حينما توزعوا الانتدابات في مؤتمر سان ريمو، ويؤدي - على كل حال - إلى وجودنا منفردين إذا عمد فريق إلى التحرش بنا كما حصل ١٩٤٨ عندما وقعت الواقعة بين الدول العربية وبين اسرائيل، فالتفتنا ذات اليمين وذات اليسار فلم نجد غوثاً ولا معيناً»[٢٣].

صُورة

قبل متابعة البحث في أفكار الرئيس العظم ومواقفه من

(٢٣) نفسه

الأشخاص والأحزاب والدول، نتوقف أمام صورة رسمها صاحبنا بالكلمات، تمثل المرحوم والده اجتماعياً وسياسياً، وعسى أن نكشف عن القاسم المشترك بين الباشا الأب والباشا الابن. قال خالد العظم:

«لم يصادق (والدي) - مع معاشرته جميع الناس واتصاله بهم كزعيم شعبي - غير نفر قليل كانوا يلازمونه ليل نهار. وهم مصطفى بك سليمان بك، وكامل الياسيني، وعاطف فوق العادة جارنا في حارة داود آغا، والشيخ توفيق المتيني، والمرحوم سليم قصاب حسن[٢٤]، والأخير كان شاعراً مهذباً وذا حظوة كبيرة لدى والدي. حتى أنني أذكر أنني دخلت مرة عليه، وكان يصلي فهمست بأذن والدتي ان خبراً ورد الآن أن سليم قد توفي بحمّى التيفوس خلال الحرب العالمية الأولى،

(٢٤) هو محمد سليم بن أنيس بن سليم بن حسن القصاب، المعروف بقصاب حسن (١٢٦٩ - ١٣٣٤ هـ/١٨٥٣ - ١٩١٥ م) فاضل، له شعر وتواشيح وعناية بالأدب. من أهل دمشق، أصله من الموصل، انتقل منها أحد جدوده إلى دمشق سنة ١١٨٠ هـ/ وبها ولد صاحب الترجمة وتوفي. له «نشأة الصبا» و«سحر البيان» ديوانه الثاني، و«جهد المستطيع في أنواع البديع» شرح بديعية له، مطلعها:

«لولا نسيم الصبا من حي ذي سلم
ما كان قلبي صبان للبان والعلم»

فشهقت والدتي. وأدرك الأمر والدي فنفرت الدموع من عينيه وقطع صلاته وقعد يندب رفيقه ويبكي عليه، وقد بلغ منه التأثر أكبر مدى».

أضاف: «واعتاد والدي استقبال ضيوفه كل يوم، من الصباح حتى الظهر. فيأتيه المئات من وجهاء القوم وأصحاب المصالح يرجونه التوسط لحل مشاكلهم فكان يشير إلى أحد الاصدقاء بأن يرافق صاحب المشكلة إلى المركز المختص ليوصي به. وعندما يحين وقت صلاة الظهر، كان المرحوم والدي يرمي بنربيش أركيلته أرضاً فيقوم جميع الزوار فوراً، وينصرف كل منهم في سبيله. ويدخل إلى «الجواني» وهو القسم من الدار المخصص للسيدات ويتناول معنا طعام الغداء. وكان المرحوم يجلسني إلى يساره، ثم يجلس والدتي وشقيقتي الكبرى. وتجلس على يمينه شقيقتاه وشقيقتي الصغيرة. واستمر الحال هكذا حتى تزوجت في ١٩١٩ فحرتُ بأمري، هل أترك زوجتي تجلس في آخر المائدة وحدها وأبقى أنا محتفظاً بمقعدي قرب والدي؟ فاخترت أن أجلس إلى جانبها في المؤخرة، فارتاحت هي رحمها الله لرقتي في مجاملة شعورها. ولم يطل هذا الترتيب الجديد أكثر من شهرين إذ انتقل والدي إلى أعلى عليين وصرنا نتناول طعامنا في غرفة أخرى صغيرة نجلس فيها على الأرض. وكان الطعام

يُقدَّم لنا بصحون عادية موضوعة في منتصف الحلقة، وذلك وفقاً لقواعد الحزن الذي فرضته والدتي على حياتنا الجديدة. وقد لبست السواد هي وكل من في البيت. وصرنا نجلس في غرفة مفروشة بمقاعد حول الجدران، مغطاة بأقمشة سوداء. وكان على الأرض سجادة مقلوبة على وجهها وعلى الشبابيك قماش أسود» ما جعل الدار «كأنها مهجورة» مثلما ساد البيت «سكون وهدوء مخيفان»[٢٥].

وكان أبو خالد يتنزه، بعد ظهر كل يوم، في مركبته، وهي «أجمل المركبات الخاصة»[٢٦] و«يجلس بعد تناول العشاء، مرة أخرى، في قاعة الاستقبال في القسم البراني من الدار. فيتوارد الأصدقاء الأخصاء إلى جلسة مرح ومزاح لا يحضرها غريب. وتدوم السهرة إلى نحو منتصف الليل، حين يرتمي نربيش الأركيلة مرة أخرى، فينصرف الزوار». وفي تلك السهرات كان أبو خالد «يتلقى من رفاقه أخبار البلد اليومية، فيضع الخطة للعمل بعد أن يتشاور مع جماعته في اليوم التالي، فيتوزعون العمل. وهؤلاء كانوا وجهاء البلد وأصحاب النفوذ والكلمة المسموعة، كل في حيه. منهم: الشيخ تاج الدين الحسني، عبد القادر الخطيب، يحيى

---

(٢٥) المذكرات: ج ١ ص ١٤٩/١٥٠.

(٢٦) نفسه

الصواف، مسلم الحصني، أحمد القضماني، محمد المجتهد، الياس عويشق، ناصيف أبو زيد، يحيى لينادو، وغيرهم». وكانوا يؤلفون «مجموعة متراصة يتزعمها والدي، أشبه ما تكون بالحزب السياسي. وكانوا يدافعون عن مصالح البلد المحلية، دون أن يمسوا سياسة الدولة العثمانية العامة، بل كانوا يساندونها تجاه الجماعات التي كانت تتصل بالافرنسيين وبالانكليز وتعمل لفصل البلاد العربية عن الكيان العثماني». حين كان «والدي شديد الايمان والعصبية للاسلام. وكان يردد ان العرب لم يصلوا بعد إلى مستوى يستطيعون فيه ايجاد كيان مستقل يقف تجاه المطامع الأجنبية. فكان من هذه الجهة ضد الاستعمار»[٢٧].

ولأبي خالد من الأتراك موقف واحد لم يتغير: «فما كان يعتبرهم مستعمرين لبلادنا، بل يعدّهم قوماً يجب عليهم التفاهم مع الأقوام الأخرى الداخلة في الامبراطورية العثمانية، كالأرمن والأكراد وغيرهم»[٢٨].

وبعد أربعة عقود، تخللتها حربان كونيتان غيّرتا العالم، كل العالم، أيما تغيير، يعلن صاحبنا، الباشا الابن، بصراحة وشجاعة واضحتين، أن والده كان محقاً وواقعياً لا خيالياً:

(٢٧) نفسه

(٢٨) نفسه

«ويتبيّن الآن صدق حدس والدي، عندما نشاهد ما هو قائم الآن بين العرب من عداء واعتداء على السيادة، وما انحدرت إليه أوضاع الدول العربية التي اقتُطِعت من جسم الامبراطورية العثمانية»[٢٩].

الا يُفهم مما تقدّم أن البك الابن كان سر الباشا الأب وامتداداً له بما اكتسب من علوم وثقافات وخبرات العشرينات والثلاثينات والأربعينات والخمسينات التي يناقض بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعضاً؟

الحجر الذي كاد يقتله

ورسم صاحبنا بالكلمات أيضاً صورة للمرحومة والدته تعني، فيما تعني، المقدرة لدى أم خالد على الرد الفوري على الاحسان بالاحسان، اذ روى أنه، عندما كانت العائلة تقضي صيف ١٩١١ في بيت استأجرته في بلدة سوق الغرب قرب عاليه، وفيما هو جالس على أرض الشرفة، المصفوفة حجارتها صفاً غير محكم، انشق حجر وسقط على الشرفة التي تحته وسقط معه. وكان قبل دقائق، بل قبل لحظات، أولاد مستأجر الدار السفلى يلعبون على شرفتها تحته. الا أن مربيّتهم أدخلتهم صحن الدار وأغلقت الباب بينما كان صاحبنا يهوي مع قطعة الحجر، فنجا هؤلاء من شر كان

(٢٩) نفسه

محتوماً. ولما انتبهت المربية أسرعت إلى فتح الباب فالتقطت خالداً من الأرض وحملته إلى داخل الدار وهو فاقد الوعي، بيد أن والدته لم تشاهد الحادث لأنها كانت مشغولة بأمر آخر.

وإذ سمعت أم خالد صوت انفجار الحجر التفتت صوب ابنها فلم تره، بل رأت فوهة مفتوحة إلى جانبها، فتأكد لها أنه وقع منها. ونظرت إلى الشرفة فلم تره أيضاً، لأن المربية المشار إليها أخذته إلى الداخل. عندئذ تصورت أم خالد ان سقطة ابنها تجاوزت الشرفة إلى الوادي السحيق، فانتفضت تواً وهرعت نزولاً على الدرج «قفراء بدون غطاء رأس». في هذا الوقت سقطت وراءها القطعة الثانية من الحجر الذي سقط من قبل، ولو لم يكن خالد في عناية المربية لوقعت هذه القطعة الثانية من الحجر فوقه وهرسته هرساً. وبمنتصف السلّم تلاقت أم خالد الراكضة هلعاً بالمربية المسرعة صعوداً لتطمينها على سلامته وعندما اطمأنت الوالدة على ابنها، رغم غيبوبته، «أمسكت خاتماً ماسياً ثميناً كان باصبعها وقدمته للمربية هدية وعربوناً على دينها عليها»[٣٠].

وهكذا يكون صاحبنا قد نشأ في حضن أم لطيفة سخية محبة، وعلى أب واقعي ومخلص أشد الاخلاص لأسرته

(٣٠) نفسه: ص ٢٢/٢٣.

وأصدقائه ووطنه ووظيفته ورؤسائه.

فالى خالد العظم السياسي الوطني المستقل الدستوري الديموقراطي الاجتماعي.

مذهبه في الكتابة

قلنا، في ما تقدم، ان خالد العظم كشف عن تمرّس بعلم الرجال وخبرة في نقل الأحداث والوقائع ووصف وتصوير الأماكن التي زارها والمعالم التي عرفها. أما مذهبه في كتابة المذكرات فقد حدده على الوجه التالي:

«وقد يأخذ عليّ بعض القراء جنوحي، في بعض الأحايين، إلى التوقف في أثناء ذكر حوادث معينة عند بعض الوجوه، فابتعد عن الجادة وأسير في الطريق الصغير. وعذري في ذلك أنني أرى أن ليس هنالك طريق صغير. وقد يسهل تفهم الوقائع الكبيرة وتعليلها وايراد مسبباتها ونتائجها بايضاح الوقائع الصغيرة ووصف الشخصيات ـ ونحن في الطريق ـ وتعداد محاسنها ومواطن ضعفها ليتسنى للقارىء أن لا يكون أمامه الحادث التاريخي وحسب، بل الآلة والمحرك والفاعل والمفعول به، وبذلك تكون الصورة مجسّمة قدر الامكان»[٣١].

وإلى الذين قد لا يعجبهم اسلوبه ويحسبونه تطويلاً، حين يراه هو أقصر مما كان يريد، يقول: «والقارىء حر في رأيه،

(٣١) المذكرات: المجلد الثالث ص ١٠٣.

كما أنا حر في رأيي. ولا أنا أجبره على قراءة ما اكتب، ولا هو يجب أن يجبرني على كتابة ما يريد. وقد لا يستسيغ البعض ما أذكره عن بعض الرجالات. أما أنا فلا أستسيغ أعمال أولئك الرجالات أكثر مما لا يستسيغه القارىء في أسلوبي. واني أكتب مذكراتي لا مذكرات ذلك القارىء الناقد، كما اني أعبر عما شعرت به تجاه الحوادث ورجالها لا عما يشعر به كل قارىء»[٣٢].

وإذ يعترف صاحبنا بأنه لو أراد «اجتناب كل ما يمس برجال السياسة لكانت هذه المذكرات صفحات بيضاء وليس فيها سطر»[٣٣] واحد، فلكي يؤكد للقارىء، «عندما يشتري هذا الكتاب أو يستعيره»[٣٤]، أنه «مدعو للاطلاع على الحوادث من الزاوية التي رأيتها منها»[٣٥]. وفي حال كان للقارىء رأي آخر، فمردّه «الى اختلاف الزوايا أو اختلاف العقليات»[٣٦]. وبما أنه ليس طامعاً بأن تدرّس مذكراته هذه جبراً في المدارس ـ رغم ثقته بأن فيها «درساً عميقاً يفيد منه

(٣٢) نفسه
(٣٣) نفسه
(٣٤) نفسه
(٣٥) نفسه
(٣٦) نفسه

الجيل الناشىء»[٣٧]، فعلى القارىء، اذا لم يجد فيها ضالته، أو التمس ما لا يأتلف مع طبعه أو عقيدته، أن يلقي الكتاب جانباً، لعل غيره «يقرأه فيعجبه»[٣٨].

حوادث

ومهما يكن، فان التاريخ كما فهمه الكاتب «ليس مجرّد سرد الوقائع المادية»[٣٩] وانما «هو مجموعة من الحوادث الواقعة يقدم لها المؤرخ، ثم يصفها، ثم يعللها، ثم يضيف إليها ما جرته من حوادث متتالية وما الحقته بمصلحة قوم من نفع أو ضرر»[٤٠]. على أن ذلك يتسم، بل يجب أن يتسم، «بالطابع الشخصي الذي يتميز به كل مؤرخ عن سواه»[٤١]. واذا ما قرأنا عدداً من كتب التاريخ فلا بد أن نلحظ «الاختلاف في سردها أو تعليلها أو تحبيذها أو نقدها»[٤٢]. والمطلوب من الدارس المدقق «أن يتصفح مجموعة من كتب التاريخ ليستخرج منها كلها رأياً خاصاً»[٤٣] يظهره على الناس. «ولو سمح الانسان لنفسه بأن لا يقرأ الا ما يعجبه، لجاز

(٣٧) نفسه
(٣٨) نفسه
(٣٩) نفسه
(٤٠) نفسه
(٤١) نفسه
(٤٢) نفسه
(٤٣) نفسه

للحكومات أن تشرف على تسجيل التاريخ حسب مصلحتها، كما تشرف على الاذاعات اللاسلكية»[٤٤] وسواها من وسائل الاعلام والتوجيه.

اذن، نحن أمام كاتب يعرف ما هو قائل، ويدرك مسؤوليته عن كل صفحة بل عن كل كلمة وكل حرف من مذكراته. أما الأهداف أما الغايات فعلينا درسها وتحليلها ومعالجتها ليصار إلى رفضها أو قبولها، ولكن دون الانقياد للمصالح الشخصية والعواطف والأهواء الآنية الانفعالية. وكما بذل صاحبنا الكثير من عمره وراحته وصحته لكي يقدم لنا هذا السفْر الغني بالمعلومات المهمة والأفكار الراقية، فمن حقه علينا أن نخلص لقضايانا، ونحكّم العقل البارد الهادىء، ونتواضع، ونوسّع آفاقنا، ونثمّر المواقف الصادقة السليمة، ونعتبر من التجارب التي عرض لها، ونتعظ من الأخطاء والعثرات التي دلّل عليها وندّد بها وحمل على مرتكبيها.

لقد أزعج خالد العظم الكثيرين، وضايقهم، وفضح ألاعيبهم وحيلهم، وليس عجباً أن ينعته الرئيس السوري الأسبق هاشم الأتاسي، وعلى مسمع من رئيس الوزراء،

(٤٤) نفسه

حينذاك، صبري العسلي، بـ«فرعون»[٤٥]، والسبب، على ما روى صاحبنا، «حقد رئيس الجمهورية على الحكومة وسياستها»[٤٦]، ذلك «أنه في احدى زيارات رئيس الوزراء (صبري) العسلي هاج الرئيس (الأتاسي) وماج وبدأ يطلق الكلام جزافاً بصوت عالٍ متهدج ـ على الرغم من شيخوخته ـ[٤٧] ويمد يده بحيث تكاد تمس وجه العسلي صارخاً «إلى أين تريدان ايصال البلاد أنت وفرعون» (وهو يقصدني بهذا النعت). فحبس العسلي أنفاسه وأمسك يده من الافلات لدفع يد الأتاسي عن وجهه. فكان هذا الأخير يردد باللسان وباشارة اليد: «الدماء ستجري هكذا. (ويشير بيديه كأنه يذبح أحداً). الدماء ستجري هكذا ولا تصلون إلى أغراضكم». ويرفع صوته إلى درجة مسموعة من الموظفين المنصتين لهذا الجدال في الطابق الأرضي من القصر. وفي ختام التمثيلية، ارتمى الرئيس على ظهره وبدأ يشخر ويزبد،

(٤٥) المجلد الثالث ص ٤٠١.

(٤٦) نفسه.

(٤٧) ولد الرئيس هاشم الأتاسي في حمص سنة ١٨٧٥ وتوفي ودفن فيها سنة ١٩٦٠. رئيس المؤتمر السوري ثم رئيس الوزارة في الحكم الفيصلي بعد جلاء الأتراك. رئيس الجمهورية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ و ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ و ١٩٥٤) والحادثة التي يرويها العظم جرت عام ١٩٥٥.

ثم غاب عن رشده وتدحرج إلى أرض الغرفة، فوجم العسلي خوفاً من أن يكون أصابته نوبة ففارق الحياة، فيقال انه هو الذي قتله»[٤٨]. واستنجد العسلي بالموظفين «فهرعوا وحملوا الأتاسي إلى غرفة نومه واستدعوا الأطباء على عجل. وظل الرئيس الأتاسي مريضاً مدة طويلة لا يستقبل أحداً حتى الوزراء أنفسهم. وظلت علاقاتنا به على هذا الشكل من الجفاء، حتى انتهى أمره في الرئاسة، كما انتهى عمر الوزارة نفسها»[٤٩].

ودعي خالد العظم «المليونير الأحمر» لأنه كان أول من قال بضرورة الانفتاح على الدول الشرقية، والاستعانة بها على تجهيز الجيش السوري وتطوير وسائله القتالية. فكان أن تعرّض للانتقادات القاسية من جهات عديدة، رسمية وغير رسمية، وحورب من معظم الدول العربية والأجنبية، فلم يلن ولم يتراجع، بل استمر يعمل بما هو مقتنع به، ويقاوم الاغراءات التي كانت «تهندس» العلاقات السياسية والتحالفات والكتل والتجمعات الساعية إلى تحقيق مكاسبها حتى على حساب الشعب. «كان في مقدمة العوامل التي تذرعت بها الولايات المتحدة وسائر الدول الغربية لدعم فكرة

(٤٨) المجلد الثالث ص ٤٠١

(٤٩) نفسه: ص ٤٠٢.

الوحدة السورية المصرية هو التخوف من أن تسير سورية في فلك سياسة الاتحاد السوفياتي. وقد طار صواب ساستها لمعارضتنا حلف بغداد ولعدم رضائنا عن مبدأ ايزنهاور، وخاصة للصلات الجيدة التي بدأت تظهر بيننا وبين الاتحاد السوفياتي على أثر الزيارتين اللتين قمتُ بهما لموسكو وعقدتُ فيهما المعونة الاقتصادية وعقود شراء الأسلحة للجيش السوري»[٥٠].

واذ تمسّك صاحبنا بحرية سوريا في معاهدة من تشاء، وفي تعزيز قواتها الذاتية، أُلصقتْ به تهم عديدة بأنه أصبح «عاملاً أدخل النفوذ الشيوعي إلى سورية، مركز ثقل العالم العربي»[٥١] وأسمته «الدوائر الاستعمارية: «المليونير الأحمر»[٥٢]، وأخذت تبذل أقصى جهودها وتستخدم جميع عملائها لاقصائه عن الحكم وابعاده عنه نهائياً. وقد نجحت في عدم فوزه برئاسة الجمهورية في ١٩٥٥ كما أشرنا وفي ١٩٦١. وضغطت على عبد الناصر فحال دون اشتراكه في أول وزارة ألفها (عبد الناصر) بعد اعلان الوحدة في ١٩٥٨، «مع أنه ضم إليها جميع الرؤساء، كالحوراني والعسلي»[٥٣].

(٥٠) نفسه: ص ٣٧٨.

(٥١) نفسه

(٥٢) نفسه

(٥٣) نفسه

وفي لبنان، شُنت على صاحبنا عام ١٩٥٠ حملة عنيفة ما يزال بعض اللبنانيين يذكرها جيداً، اذ رسخ في ذهن الأكثرية اللبنانية، آنذاك، أنه «أبو القطيعة»[٥٤] و«عدو لبنان رقم واحد»[٥٥]. عن هذا الموضوع تحدث العظم مطوّلاً فخصص له فصلاً كاملاً: «الانفصال الجمركي عن لبنان» (المجلد الثاني من ص ٥ ـ ص ٧٨)، ضمّنه وثائق عديدة، مثل: «اتفاق أول تشرين الأول ١٩٤٣ الموقع من المرحومين: رياض الصلح وسليم تقلا (عن لبنان) وسعد الله الجابري وجميل مردم (عن سوريا)، ويتألف من عشر مواد، وكتاب من وزير المالية خالد العظم إلى صاحب الدولة رياض بك الصلح، رئيس وزراء ووزير مالية الجمهورية اللبنانية، ورد الصلح عليه، ثم الرد على الرد، جميعها في ٣ شباط ١٩٤٤، واتفاق بيروت (١٩٤٥/١١/٢٩) بين رئيسي وزارتي سوريا ولبنان: سعد الله الجابري وسامي الصلح، واتفاق شتورا (١٩٤٧/١١/٢٨) الموقّع من الرئيسين: جميل مردم ورياض الصلح، واتفاق شتورا الثاني (١٩٤٨/٦/٢٨) الموقّع من الرئيسين نفسيهما، ومذكرة سورية، لمقام وزارة الاقتصاد الوطني ـ بيروت، باقتراح الوحدة الاقتصادية بين البلدين،

(٥٤) نفسه: ص ٣٥٠.
(٥٥) نفسه

صادرة في ١٩٤٩/٦/٥ عن وزير المالية والاقتصاد الوطني ـ دمشق: حسن جبارة، ونص المشروعين الاقتصاديين اللذين توصلت الحكومتان الى الاتفاق عليهما، «رغبة منهما في تنسيق شؤون الاستيراد والتصدير وحماية وضعهما المالي الخارجي وميزان مدفوعاتها وخلق وتنشيط النواحي الصناعية والزراعية في بلديهما»[٥٦]، والاتفاق الاقتصادي والمالي (١٩٤٩/٧/٨)، الموقع من الوزير السوري المذكور: حسن جبارة، والوزير اللبناني بالوكالة: فيليب تقلا، ومذكرة من لبنان إلى الحكومة السورية (برئاسة خالد العظم) في ١٩٤٩/١٢/١٠ رقم ١٣٤، ومذكرة من قبل العظم نفسه، بصفته وزيراً للخارجية، بتاريخ ٧ آذار ١٩٥٠، ومذكرة الحكومة اللبنانية رداً على اقتراح الوحدة الاقتصادية، موقعة من رياض الصلح، ونص المرسوم التشريعي السوري رقم ٧١ / الصادر بتاريخ ١٩٥٠/٣/١٤، المتعلق بقرار الانفصال الجمركي، وبلاغ سورية في ١٩٥٠/٣/١٣، وبيان سوري في ١٩٥٠/٣/١٥ «يفند ما جاء في المذكرة اللبنانية بتاريخ ١٩٥٠/٣/١٠ من مغالطات»[٥٧]، إلى برقية وردته من رياض الصلح في ١٩٥٠/٣/٢٢، وجوابه عليها، وتقرير اللجنة

(٥٦) المجلد الثاني: ص ٢٦.
(٥٧) نفسه: ص ٥٠.

الخاصة التي ألفتها الجمعية التأسيسية السورية (مجلس النواب)، وكانت برئاسة السيد حسن الحكيم وعضوية السيد عصام المحايري مقرراً، وخلاصة الاتفاق الجديد الذي عقد بتاريخ ٤ شباط ١٩٥٢.

صحيح أن خالد العظم قال في الفصل السادس: «موقفنا من لبنان والبلدان العربية» من المجلد الثالث: «واني لا أنكر أن سياستي أضرت بمصالح لبنان، اذ حرمت التاجر والمستورد اللبناني من الأرباح التي كان يتقاضاها من الصفقات التجارية مع تجار سورية، وقل عدد المصطافين السوريين في جبال لبنان وعدد الذين كانوا يترددون إلى بيروت للنزهة والتسلي»[٥٨]، ولكنه قال، أيضاً، وفي الفصل المخصص للانفصال الجمركي السوري عن لبنان: «ان الذي فصم عرى الوحدة الاقتصادية بين سورية ولبنان لم يكن كاتب هذه السطور، بل الحكومتان اللتان وقعتا على اتفاق أول تشرين الأول ١٩٤٣. فهاتان الحكومتان أو بالأحرى سعد الله الجابري وجميل مردم عن سورية، ورياض الصلح وسليم تقلا عن لبنان، هم الذين قضوا على الوحدة الاقتصادية التي كانت تشمل سورية ولبنان منذ مئات السنين، وحصروا علاقتها المشتركة بالشؤون الجمركية فحسب». أضاف: «أما

(٥٨) المجلد الثالث: ص ٣٥٠.

أنا فقد سعيت لاعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ذلك التاريخ. لكن رياض الصلح نفسه رفض اقتراحي فاضطرني إلى الغاء الوحدة الجمركية في ١٣ آذار ١٩٥٠»[٥٩].

ومن أجل أن يعيد الرئيس العظم «الأوضاع القديمة» التي جاهد في سبيل احيائها وبعثها، ينبغي له أن يعيدنا إلى الوراء، نعم إلى الوراء، إلى ما قبل الحرب الكونية الأولى، فكأن ما أماتته آلاف الأطنان من الحديد والبارود، في حربين عالميتين تغييريتين، تحييه التمنيات، والتمنيات فقط. قال:

«عندما جلا الترك عن البلاد العربية في أواخر ١٩١٨ ودخلت جيوش بريطانيا سورية يرافقها الجيش العربي الذي كان يرأسه المرحوم فيصل بن الحسين [ملك العراق فيما بعد]، كما دخلت جيوش فرنسا لبنان، كانت البلاد العربية بمجموعها وحدة اقتصادية كاملة باعتبارها امبراطورية عثمانية، بما فيها الجزء من الجمهورية اللبنانية الحالية الذي كان يسمى متصرفية لبنان. فمع أن هذا الجزء المؤلف من أقضية زحلة وكسروان والمتن، ما عدا بيروت وطرابلس الشام وعكار وصيدا وصور والبقاع وبعلبك، كان متمتعاً باستقلال ذاتي، إلا انه كان داخلاً ضمن نطاق الوحدة الاقتصادية والمالية العثمانية».

(٥٩) المجلد الأول: ص ٨.

أضاف: «وأبقت السلطات البريطانية والافرنسية الوضع الاقتصادي على ما كان عليه. أما النقد فقد استبدل بالنقد السوري». «ثم جنح الافرنسيون المحتلون في لبنان إلى استبدال النقد المصري بنقد جديد أسموه النقد السوري وربطوه بالفرنك الافرنسي، ومنحوا المصرف السوري المؤسس برؤوس أموال فرنسية امتياز إصدار ذلك النقد. وكذلك عمدت الحكومة السورية المؤلفة اثر اعلان استقلال سورية والمناداة بالأمير فيصل ملكاً عليها إلى ايجاد نقد مستقل عن النقد المصري جعلته على أساس الدينار الذهبي، لكنها لم تصك من هذه الدنانير سوى قطع لا تزال محفوظة في المتحف بدمشق. كما أنها لم تطبع أوراقاً نقدية على أساس العملة الجديدة، فبقيت الليرات الذهبية والقطع الفضية العثمانية [مجيديات وأجزاؤها] واسطة الدفع المتعامل بها في البلاد»[60].

وإذ احتلت فرنسا سوريا وفرضت عليها الانتداب، «أوجبت التعامل الرسمي بالليرة السورية في سورية ولبنان على السواء»[61]، بيد أنها، وعلى رغم تقسيمها مجموع البلاد التي اقتطعتها من تركيا إلى دول مستقلة «إسماً»[62]، مثل:

(٦٠) نفسه: ص ٨/٧.

(٦١) نفسه

(٦٢) نفسه

لبنان الكبير، ودولة سوريا، ودولة حلب، ومقاطعة جبل الدروز (جبل العرب)، ومقاطعة العلويين، ولواء الاسكندرونة المستقل، الذي ضمّ فيما بعد إلى تركيا نفسها، «أبقت الوحدة الاقتصادية بين جميع هذه الأراضي»[63]، وأضحت الدوائر الجمركية واحدة بادارة المفوضية الافرنسية العليا في بيروت، «تجبي مواردها وتنفق منها على هذه الدول، أو توزع على كل منها مبالغ سنوية بحسب ما ترتأيه»[64]، وكذلك التشريع الجمركي والاقتصادي، الذي ظل «واحداً يصدره المفوض السامي وينفذه في جميع أنحاء البلاد»[65].

وكمن يحن إلى أيام زمان، فإلى التركيبة العثمانية التي بدأت تتفسخ منذ ما قبل الحرب الكونية الأولى بعقود، قال صاحبنا: «وهكذا استمرت سورية ولبنان مشمولتين بالوحدة الاقتصادية الكاملة إلى أن انفصمت هذه الرابطة من قبل الحكومات التي انبثقت عنها، اثر تمتع سورية ولبنان باستقلالها الفعلي ١٩٤٣. فعقد ممثلو البلدين الاتفاق المسمى باتفاق تشرين الأول ١٩٤٣، الذي أوجد الوحدة الجمركية وأنشأ مجلساً أعلى للمصالح المشتركة أنيط به التشريع

(٦٣) نفسه

(٦٤) نفسه

(٦٥) نفسه

الجمركي، بموافقة مجلس الوزراء في كلا البلدين. وفصلت سائر المصالح التي كانت موحدة تحت ادارة الافرنسيين، فبدأت كل من الحكومتين السورية واللبنانية تشرع في الأمور الاقتصادية بالاستقلال عن الأخرى»[٦٦].

الحكم للزمن

أين الخطأ؟

أين الصواب؟

لعل الزمن وحده الذي يبرر هذا الخطأ ويخطّىء هذا الصواب.

الذين تبادلوا المذكرات والبرقيات ووقّعوا المعاهدات والاتفاقات قضوا وبقيت سوريا وبقي لبنان.

لماذا كُتب على لبنان أن تعذبه هكذا مطالب الجيران وغير الجيران؟

بعد سوريا جاءت اسرائيل، فكبر عذاب لبنان وكبر مقتاً عند هذه وهذه.

لماذا؟

ألأن لبنان لم يتمكن، فعلاً، من رسم سياسة اقتصادية لنفسه تحميه من الأخطار المحدقة به، المعلومة وغير المعلومة؟

(٦٦) نفسه

أو ان في الأمر سراً؟

ماذا تريد سوريا من لبنان؟

ماذا تريد اسرائيل من لبنان؟

يرى البعض أن المسألة معقدة، ومعقدة جداً، ويستبعد الحل العادل. حين يرى فريق آخر أن اتفاقاً اسرائيلياً - سورياً، ضمنياً طبعاً، تباركه الولايات المتحدة وربما الاتحاد السوفياتي، يعمل على تقسيم لبنان وتفتيته، بغية القضاء على نظامه الاقتصادي الحر المميز.

في هذه الأجواء المأساوية تكثر النصائح والتمنيات والتحليلات وما يماثلها، وبتنا نسمع بمشاريع حلول «شرقية» و«غربية»، فيما «الواقع» يزداد رسوخاً وثباتاً، ذلك أن كل فريق في مكانه يتهدد ويتوعد وينظّر ويتفلسف وينتقد، طبعاً بالطريقة التي يراها مناسبة، على ألا يتجاوز أي من الأفرقاء، مهما يكن حجم قوته، حدوده، كما رسمها أعضاء «شركة العقل المدبر».

رحم الله خالد العظم، لقد مات وهاجس «القطيعة» لا ينفك يلاحقه تماماً مثل اسمه. «واستمرت السياسة الاقتصادية التي وضعت أسسها نافذة في جميع العهود والوزارات رغم تبدل الوجوه وتغيير الاتجاهات. وعندما

اعلنت الوحدة مع مصر هرع بعض زعماء لبنان المسلمين إلى دمشق لتحية عبد الناصر على رأس وفود عديدة ليكسبوا ثقة الزعيم الجديد ويحققوا دعمه لهم. وظن أولئك الساسة أن عبد الناصر سوف يلغي فوراً جميع التدابير والقرارات الاقتصادية التي كنتُ وضعتها، وأنه سيفتح باب السفر إلى لبنان على مصراعيه فتزدهر بيروت. لكن سرعان ما خاب أملهم، إذ لم يغير عبد الناصر شيئاً»[٦٧].

يغيّر ماذا؟

ألم يكن المغفور له الرئيس عبد الناصر نفسه يأمل بتوسيع «الوحدة» لتشمل لبنان والأردن والعراق؟

«وعندما فصمت الوحدة وطار عقل رئيس مصر مما أصابه ـ وكان ذلك أول سلسلة انتكاساته ـ راحت بعض الصحف البيروتية تشن الحملات القاسية على (الدكتور مأمون الكزبري وعلى كل من اشترك في دفن الوحدة. وظلت هكذا تحمل على كل من تولى الحكم في دمشق حتى انهار الحكم المتحرر في ٨/٣/١٩٦٣.

«وكنتُ في بيروت في مطلع فجر الحرية (أواخر أيلول ١٩٦١)، فرأيت من المناسب أن أبدأ باتصالات مع

(٦٧) المجلد الثالث: ص ٣٥٠.

الجماعات المناوئة لأشياع عبد الناصر، وفي طليعتهم الشيخ بيار الجميل رئيس الكتائب اللبنانية، الذي كان لموقفه، مع جماعته، الفضل في القضاء على الثورة التي أثارها عبد الناصر في لبنان في ١٩٥٨»[٦٨].

كان الهدف من هذا اللقاء توضيح الصورة القديمة ونفض ما علق عليها من الغبار. ذلك أن صاحبنا، مذ سمع بالانقلاب ـ الانفصال، أخذ يفكر في العودة إلى دمشق يحدوه الأمل، الأمل الكبير الذي اغتاله عبد الناصر والناصريون الدماشقة. ولأن طمأنة خصوم عبد الناصر من اللبنانيين لا بد منها، كثف اتصالاته بهم وكأنه مرفوع إلى مركز الرئاسة السورية بالتزكية أو بالتعيين. «واجتمعت إليه (الشيخ بيار الجميل) في وزارة المالية، وتبادلنا الرأي في العلاقات السورية اللبنانية. وصرحتُ له بأننا نريد أن نفتح باباً جديداً بيننا وبينكم لتوثيق العلاقات السياسية والاقتصادية على أساس المصالح المتقابلة، وبكل اخلاص ونية حسنة. وأكدت له أني مستعد لتبني فكرة عقد اتفاق تجاري بين البلدين يخفف من شدة الأحكام النافذة، وأضفت قائلاً بأني أرغب في الوصول إلى تفاهم كامل حول جميع الشؤون وفي مقدمتها السياسية، على أساس عدم التدخل في شؤون واحدنا الآخر، وعدم

(٦٨) نفسه: ص ٣٥٠/٣٥١.

تمكين الخصوم من النيل من أحدنا عن طريق الآخر. فرحب الجميل بفكرتي وأكد لي اتفاقه الكامل مع كل ما ذكرت ووعد بالعمل بكل امكانياته لتحقيق هذه الخطة. ودلت معالم وجهه على أنه كان صادقاً فيما يقول، لا سيما أنه كان ملتاعاً من خصومه السياسيين»[٦٩].

وعاد الرئيس العظم إلى عاصمته ليصرح للصحافة بمثل هذه الآراء، فوجد التأييد والقبول والدعم. «وبدأت الأوساط التي كانت تهاجمني في الماضي تطري عملي وتشجعني على المضي فيه. وظلت الأوساط اللبنانية المسلمة والمسيحية تدعمني وتأمل باستلامي الحكم»[٧٠].

وعليه، جدّد صاحبنا، ومن دمشق، اتصالاته باللبنانيين القياديين، فدعاه المثلث الرحمات البطريرك مار بولس بطرس المعوشي «لتناول طعام الغداء في مصيفه»[٧١] ـ الديمان ـ، وكان غبطته على أهبة السفر إلى الولايات المتحدة بدعوة من رئيسها، «وطلب مني ابداء ما أريد نقله إلى الرئيس (جون فيتزجرالد) كنيدي[٧٢]. فأجبته بأن الجفاء بين الولايات

(٦٩) نفسه
(٧٠) نفسه
(٧١) نفسه
(٧٢) الرئيس جون كنيدي (١٩١٧ ـ ١٩٦٣) ولد في بركلين =

المتحدة وبعض البلاد العربية، وفي مقدمتها سورية، عائد إلى دعم السياسة الامريكية لاسرائيل أولاً، ودعمها لعبد الناصر ثانياً. ولذلك فان كل ما نطلبه من الرئيس كنيدي أن يكون محايداً في الخلافات بيننا وبين اسرائيل، ثم بين سورية وعبد الناصر»[٧٣].

وعندئذ استحسن غبطة البطريرك لضيفه أن يحدّث في هذا الأمر رئيس الجمهورية، المغفور له الأمير فؤاد شهاب، وبمسعى من البطريرك نفسه استقبله الرئيس شهاب في منزله في جونية «بما لا يمكن وصفه بالبرودة أو بالحرارة»[٧٤]، واستمع الرئيس إلى زائره، فأبدى «كل التحفظ»[٧٥] مؤكداً «أن ظروف لبنان، وخاصة أوضاعه الطائفية، توجب على الحكام أن يكونوا على الحياد»[٧٦]، فقاطعه صاحبنا قائلاً: «نحن لا نريد أكثر من ذلك ولا نطلب منكم اقصاء (السفير المصري في بيروت آنذاك السيد) عبد الحميد غالب وقطع علاقاتكم مع مصر. لكننا نرغب في أن لا يلتزموا جانب الناصريين ضدنا وأن لا تسمحوا بأن يكون لبنان موطناً لمؤامراتهم ضدنا ومرتعاً

= (مساشوتس). رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٦١. اغتيل ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣.
(٧٣) المجلد الثالث: ص ٣٥٣.
(٧٤) (٧٥) (٧٦) نفسه.

لأعوانهم وعملائهم»، على «أن تفاهماً قلبياً لا يمكنه أن يتم بين سورية ولبنان، والحال على ما هي عليه»[٧٧].

ماذا قال الرئيس العظم للرئيس شهاب؟

البطريرك المعوشي سمع من العظم ما سمع، فرأى نقله إلى الرئيس شهاب ولكن من فم العظم نفسه.

قال خالد العظم: «وأكدتُ لغبطته أن سورية تريد أن تستمر على سياستها المبنية على الحياد بين الشرق والغرب، وان كل ما يشاع عن أن بلادنا وخاصة أنا، انها تلتزم جانب الاتحاد السوفياتي وتدعم الشيوعية، ما هو الا افتراء واختلاق لأجل تبرير التزام أمريكا جانب الصهيونيين.

«وأوضحت له أننا في سورية نسعى لاعادة الحياة الدستورية، حتى اذا قامت حكومة موثوق بها من قبل الشعب وممثليه، عمد إلى إظهار اتجاهنا الحيادي بشكل لا يدع مجالاً للالتباس. وأضفت إلى ذلك قولي بأننا نريد أن يكون بين لبنان وسورية أوثق العلاقات الأخوية، سواء في الحقل السياسي أو الحقل الاقتصادي، واننا على استعداد لعقد معاهدة تجارية تخفف الكثير من القيود المضرة بمصلحة البلدين. غير أن أي تفاهم اقتصادي يجب أن يسبقه تفاهم

(٧٧) نفسه.

سياسي. فنحن نشكو من موقف حكام لبنان العدائي من بلادنا. وأردفت مؤكداً أن لبنان، اذا بقي سائراً على هذه الطريق، فان الخطر الذي قد تتعرض له سورية بفوز الناصرية يتعرض لبنان له حتماً، بحيث يصبح خاضعاً لنفوذ المصريين السياسي والاقتصادي».

أضاف الرئيس العظم: «وطلبت من غبطة البطريرك أن ينقل حديثي هذا إلى الساسة الأمريكيين وأن ينبههم إلى خطأ دعمهم عبد الناصر، ظناً منهم أنه سيقبل الصلح مع اسرائيل. فهو انما يمالىء الأمريكيين الآن ويخادعهم لينال منهم المساعدات المالية. أما اذا كتب له النجاح والسيطرة على سورية والعراق والأردن، فسيرفع البرقع عن وجهه ويسفر عن أغراضه البعيدة وهي تأليف أكبر دولة عربية في هذه المنطقة، تهيمن على البترول العراقي وأنابيبه، وعلى قناة السويس، بما يجعلها قادرة على الصمود في وجه الأمريكيين وسائر الدول الغربية»[٧٨].

يفترض أن يكون الرئيس العظم قد اسمع الرئيس شهاب هذه الآراء وربما غيرها، حتى تحفظ الأخير وامتنع عن اتخاذ أي موقف ريثما تنجلي الأمور وتتوضح السياسة السورية

(٧٨) نفسه

الجديدة. بيد أنه (الرئيس شهاب) «أظهر شديد تمسكه بأن تكون الصلات بين البلدين على أتم ما يمكن التفاهم» و «ألمح إلى أنه رئيس دستوري ليس في متناوله اغلاق الصحف وحملها على تغيير اتجاهها. وأما السياسيون، فمع عدم رضائه عن مسلك بعضهم، الا أنه لا يتدخل في شؤونهم»(٧٩). وأعلن خشيته «على مصير لبنان اذا ما انهارت الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين المبنية على الميثاق الوطني الموضوع في ١٩٤٣ ـ مع العلم بأنه ليس ثمة ميثاق مكتوب بل تفاهم ودي حصل إذ ذاك للوقوف جبهة واحدة ضد الافرنسيين»(٨٠).

هذا، وفي نهاية اللقاء المشار إليه، الأول والأخير، وعد الرئيس شهاب ضيفه «بأنه مستعد لدرس كل اقتراح أو طلب تتقدم به سورية»(٨١). فردّ عليه الرئيس العظم مؤكداً أن السوريين «لا يريدون منهم عدم التفاهم بين المسلمين والمسيحيين» بل «يغبطون كلما ازداد التعاون بين الطائفتين في سبيل حفظ استقلال لبنان»(٨٢). ولعل الأهم من جميع الآراء التي عرضت والأفكار التي عولجت، الانطباع الذي خرج به

---

(٧٩) نفسه: ص ٣٥٤.

(٨٠) نفسه: ص ٣٥٣.

(٨١) (٨٢) نفسه.

صاحبنا وهو ينبىء بأسوأ النتائج: «وبقيت لدى رئيس الجمهورية نحو ساعة ونصف الساعة، وخرجت من لدنه دون نتيجة ملموسة. لكنني، على أي حال، أسمعته ما أريد أن يفهمه كل لبناني مسؤول، وهو أن السير على النهج الحالي سوف تكون له نتائج سيئة»(٨٣).

ويومة ألف الرئيس العظم وزارته الخامسة، أبرق إلى نظيره اللبناني المرحوم رشيد كرامي، يعلمه بتشكيل الحكومة، وعزمه على اقامة أحسن الصلات مع لبنان. «وحرصت على أن أصبغ البرقية بعبارات محببة لديه، وأن اطمئن الرأي العام اللبناني إلى النوايا الطيبة التي نكنها تجاه البلد الشقيق»(٨٤) فاستقبلت «الصحف الحرة في بيروت نبأ برقيتي بترحاب وبفرح، وراحت تلوم رئيس الحكومة اللبنانية على تأخيره في الجواب، ثم حثته على زيارة دمشق زيارة رسمية تبدد الغيوم المتلبدة»(٨٥). أما الرئيس كرامي فلم يعر هذا الأمر أدنى اهتمام، سوى أنه بعث إلى الرئيس العظم ببرقية تهنئة، ثم ببرقية ثانية «جواباً على برقيتي يبادلني فيها ـ لكن بمرارة ـ عبارات الود»(٨٦).

---

(٨٣) نفسه

(٨٤) نفسه: ص ٣٥٤.

(٨٥) (٨٦) نفسه.

وارضاء للسفير المصري في بيروت، والسياسة الناصرية، استمر الرئيس كرامي على رفضه زيارة سوريا، حتى هاجمته الصحف بقساوة شديدة مندّدة بـ «عناده وتعريضه مصالح لبنان للأذى، في حين أن مصر لم يكن من مواقفها معه الا الضرر»(٨٧). ذلك أن عبد الناصر «صادر أموال اللبنانيين وممتلكاتهم في مصر ومنعهم من العودة إلى بلدهم»(٨٨)، وأساء إلى الاصطياف في لبنان، إذ «حصر القادمين إليه ببعض رجال مباحثه الذين أتوا إلى بيروت واستبدلوا جنيهاتهم المصرية بليرات لبنانية على أساس التعرفة السياحية، أي بثماني ليرات، واشتروا بها من السوق الأسود جنيهات مصرية بسعر ٥٤٠ ق. ل، ثم عادوا إلى مصر»(٨٩)، وأبقى على قيود المنْع المفروضة من قبل السلطات المصرية على الفاكهة اللبنانية(٩٠).

ومن أسف أن تصلب الرئيس كرامي هذا قابله تصلب سوري مماثل بل أشد وأعنف، فازدادت خسائر لبنان، وتفاقمت الخلافات بين اللبنانيين أنفسهم. «ولما لم تنفع جميع المساعي التي بذلناها حيال لبنان على الخروج على سياسة المحور المصري لم يبق أمامنا سوى انتهاج سياسة الضغط،

---

(٨٧) (٨٨) (٨٩) (٩٠) نفسه

وكان الكثيرون من أصدقائنا اللبنانيين يوصون بها»(٩١).

في تلك الأثناء كان الصراع، في سوريا، بين الحكومة والجيش آخذاً في التنامي، فعمل رجال من الجيش السوري على الاجتماع سراً مع خصوم سوريا من اللبنانيين وراحوا يقنعونهم بأن «لا قيمة لحكومة دمشق»(٩٢)، ثم وسّعوا علاقاتهم مع عبد الناصر وكرامي وشخصيات لبنانية رسمية، وذلك بايعاز من القائد العام للجيش السوري وزير الدفاع اللواء عبد الكريم زهر الدين بغية اقصاء المدنيين عن السلطة وتمكين «الفئة المتسلطة على الجيش وعلى مقدرات البلاد»(٩٣) والمتعاطفة مع السياسة الناصرية من الاستيلاء على الحكم والدستور. «ولم يكن أمامنا، بعد أن يئسنا من سياسة الملاينة مع حكام لبنان، الا أن نجرب وسيلة التهديد بقطع الصلات الاقتصادية، وأن نتبنى سياسة الحصار الجاري لنحمل الأوساط اللبنانية على القيام في وجه حكومة رشيد كرامي، لعلنا نستطيع بذلك دفع شرورها ومنع أذاها عنا»(٩٤).

---

(٩١) نفسه: ص ٣٥٤/٣٥٥.

(٩٢) نفسه

(٩٣) نفسه: ص ٣٥٧.

(٩٤) نفسه

ما الذي تغيّر حتى الآن؟

في الأمس كان النزاع السوري ـ المصري على أرضنا. واليوم النزاع السوري ـ الاسرائيلي، والسوري ـ العراقي، والسوري ـ العرفاتي، والسوري ـ الايراني، رغم مظاهر التفاهم والائتلاف بين العاصمتين دمشق وطهران. وربما برز غداً الصراع السوري ـ التركي، والعراقي ـ التركي، اذا ما تابعت تركيا حجز مياه الفرات عن كل من سوريا والعراق، فضلاً عن الصراعات الأخرى المتعددة المتشابكة. ويمكننا القول ان العالم كله يتصارع، ومنذ خمس عشرة سنة، على لبنان، ولكن باللحم والدم اللبنانيين.

تغيّر

ما الذي تغيّر على الساحة اللبنانية بعد ما يقرب من ثلاثين سنة؟

في الحقيقة، لا شيء تغير، بل رجال حلوا محل رجال سبقوهم، وأحزاب تراجعت أو تراخت، وأحزاب قويت أو نشأت مع الأحداث. فكأن «الملعب اللبناني» أوسع «الملاعب» الشرق الأوسطية كافة: تحالفات انتهت، اذ مضى عليها الزمن، أو أنهيت، وتحالفات تجدّدت، ما عدا الآتي والذي سيأتي، وغالباً، الآتي أعظم.

لن نستطيع الاحاطة بكل ما جاء في «مذكرات خالد

العظم» على صعيد المسألة اللبنانية، لذلك نختم هذا الجزء من بحثنا بما قاله خالد العظم عن اللبنانيين ربيع ١٩٦٣ وهو في طريق عودته إلى دمشق، ونترك للقارىء الكريم حرية التفسير والتعليق. قال:

«مللت الحياة في بيروت بعيداً عن أهلي وأصدقائي، وفي جو مسموم من الدعايات المصرية أثّر في عقلية أعز أصدقائي من مسلمي بيروت. وكنتُ أجادلهم عبثاً، اذ كانوا قانعين بأن عبد الناصر يحمي المسلمين في بيروت. وكنتُ أقول لهم اذا كان الأمر كذلك، فلم لا تطالبون بالاتحاد معه؟ فيجيبون بأن المسيحيين يرفضون.

«وغريب ما في عقل اولئك: انهم يريدون أن نرتمي في أحضان عبد الناصر لكنهم لا يريدونه عندهم، لا خوفاً من انهيار الميثاق الوطني كما يدّعون، بل حرصاً على أموالهم وممتلكاتهم التي يخشون عليها من نظم عبد الناصر الاشتراكية. وإلى جانب ذلك، فان الأموال التي بذلها عبد الناصر على المسلمين في لبنان، من زعماء سياسيين أو زعماء أحياء أو صحفيين، جعلتهم يبيعون وجدانهم لقاء الأموال المبذولة لهم بسخاء ما بعده سخاء. تصوّروا أن صحفياً كسعيد فريحة كان يقبض مائة ألف ليرة لبنانية شهرياً (عندما كانت الليرة اللبنانية عزيزة): الربع لجريدته الأنوار، والربع

جريدته (مجلة) الشبكة، والربع لمجلة الصياد، والربع الأخير لفرقة الأنوار الراقصة! وهكذا دواليك».

أضاف: «وتوصل عبد الناصر إلى اقناع (المغفور له الشيخ) بيار الجميل رئيس الكتائب اللبنانية بعدم تأييد الوضع في سورية، وذلك لقاء وعد له بمنصب رئاسة الجمهورية في لبنان استناداً إلى الطائفة المسلمة التي تسير في ركاب عبد الناصر. وقد خدع هذا الرجل الذي وقف هو ورجاله في ١٩٥٨ إلى جانب (المغفور له الرئيس الأسبق) كميل شمعون وحال دون وقوع لبنان في قبضة يد المصريين، فاسترسل في عدم معارضة سياسة (الرئيس) رشيد كرامي و (المغفور له الوزير) كمال جنبلاط بمسايرة سفير مصر (السيد) عبد الحميد غالب وافساح المجال أمام جميع المؤامرات التي كان يحيكها ضد سورية»[٩٥].

أهو التاريخ يعيد نفسه مثلما يقولون، أم هي المحنة الدائمة المستمرة إلى ما شاء الله؟

نسوق هذا الكلام التقريري الخطير، على مسؤولية صاحبه، وليس قصدنا تبرئة «أبو القطيعة»، بل لندعو اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين، إلى التراحم والتسامح والتفاهم والتواضع، وإلى الكف عن التقاذف بالشتائم

(٩٥) نفسه: ص ٢٨٢/٢٨٣.

والتهم وكل ما يزيدهم تباعداً وتناحراً، وإلا فعين التاريخ عليهم ولن تجاملهم كما يحسبون.

السير في الضوء

عاش خالد العظم حياته السياسية بعقله وقلبه وكل جوارحه. لذلك فهي غنية بالمواقف الثابتة المتشددة، وغنية بالأحداث والتجارب والعبر. ولم يكن من اولئك الذين يسايرون صانعي القرارات من الملوك والرؤساء على حساب بلاده وشعبه. ولربما اعتبر من القلة القليلة في دنيا العرب التي آمنت بأن السياسة ليست في اقتناص الفرص أو القضاء على الخصم أو التعنت أو الاغتناء السريع أو التخلص من التعهدات والواجبات.

لقد اعتمد صاحبنا، طيلة ثلث قرن أو أكثر، منهجاً واحداً واضحاً: السير في الضوء. وبرغم المظاهر والاغراءات التي تعد من الحضارة والتطور، ظل على اعتقاده «أن النقص الأكبر يمكن رده إلى ضعفنا في الأخلاق والعلوم»[٩٦]. وكأني به يرفض الفصل بين هذين الركنين الأساسيين، مثلما المهندس يرفض البناء على غير قواعد صحيحة ومتينة. فمن تسلح بالعلم دون الاخلاق كان علمه شراً على الأمم، الصديقة والعدوة على حد سواء. ومن تمسك بالاخلاق دون العلم

(٩٦) المذكرات: المجلد الأول ص ١١٢.

بقي في مكانه وتجمد وتحجر وربما تلاشى وانتهى كما لو كان غير موجود أصلاً .

والواقع ان الرئيس العظم لم تخدعه الشعارات السياسية، ولا الانفعالات الجماهيرية، ولا الدعايات البراقة الجذابة، ولكنه ما كان انطوائياً ولا معقداً، ولا حقوداً ولا انعزالياً. بل جمع بين الواقعية والمثالية جمعاً دقيقاً إلى درجة أنه آثر السجن على الحرية، حين الحرية كذب وافتراء، ورضي الاقصاء عن الوطن والبيت والأهل والرزق، عندما كان البقاء هناك استسلاماً وانصياعاً وذلاً .

لا ينظر صاحبنا إلى الحدث، كبيراً كان أم صغيراً، بعين واحدة فقط، وقلما يقرأ بعاطفته دون عقله. على أن التاريخ عنده درس لا يُستغنى عنه، ولا يوظف سوى لخدمة الحق. ومهما قست تحليلاته وانتقاداته وأحكامه، فهو انساني في جميع أهدافه ومراميه، وصادق، وصريح، وجريء حتى التهور أحياناً كثيرة، أما الذين لا يستطيعون صبراً، أو ضاقت صدورهم وآفاقهم، فهو في نظرهم متزمت وصعب ومتكلف، وعصي .

كان في سنته الخامسة، عندما هزت دمشق أصوات المدافع معلنة الانقلاب التركي في ١٩٠٨. قيل له: «اعلنت الحرية . .». فلا هو أدرك ما هي الحرية ولا أهله حاولوا

افهامه أهميتها وكنهها. ثم تعرف بها فيما بعد، ولمس كم من المظالم والويلات ترتكب على اسمها وفي سبيلها: «واجزم بأن هذا الانقلاب الذي حصل في الدولة العثمانية كان بداءة الهزات التي استمرت منذ ١٩٠٨ ولا تزال تحول دون الاستقرار في الشرق الأدنى. فلا تكاد تمضي سنة دون أن يحدث في جزء من هذا الشرق ما يبعث الارتجاج في المجموع: ففي ١٩٠٩ خلع السلطان عبد الحميد وتولى الاتحاديون الحكم، وفي ١٩١١ استولت ايطاليا على طرابلس الغرب، وفي ١٩١٢ نشبت حرب البلقان، وفي ١٩١٤ انفجرت الحرب العالمية الكبرى ودامت حتى آخر عام ١٩١٨، وفي ١٩١٩ بدأت مناوشات حربية بين الافرنسيين والوطنيين السوريين استمرت حتى موقعة ميسلون، بتموز ١٩٢٠، فيما تغلب جيش الجنرال غورو ودخل دمشق، ولم تهدأ سورية خمسة وعشرين عاماً قضتها تحت الانتداب الافرنسي. فكانت أول المظاهرات ضده في ١٩٢٢ حين جاء مستر كراين[٩٧]، فاحتشدت الجماهير والقيت الخطب ضد

(٩٧) أوفده الرئيس الأميركي ويلسون إلى سوريا ولبنان وفلسطين على رأس هيئة لاستطلاع رأي أهل البلاد في مصيرهم السياسي وفي هل يقبلون الانتداب الذي كانت بريطانيا وفرنسا تفرضه على الشرق الأدنى، وفي من هي الدولة التي يختارونها منتدبة عليهم. عن أعمال هذه اللجنة انظر «جيل الفداء»: قصة =

فرنسا واوقف المرحوم الدكتور عبد الرحمن شهبندر ورفاقه. وكانت هذه أولى التفاعلات الشعبية ضد الاستعمار»[98].

ويمضي كاتبنا في استعراض الماجريات، بدءاً من الثورة السورية ضد فرنسا ١٩٢٥، وانتهاء بالانقلاب العسكري في السودان عام ١٩٥٨، برئاسة قائد الجيش ابراهيم عبود وكانت نتيجته أن تولى العسكريون شؤون الحكم، مروراً بثورة فلسطين ضد الانكليز واليهود في ١٩٣٥، وتجددت في ١٩٣٨، وقيام الحكم الوطني عام ١٩٤٣ في كل من سوريا ولبنان، وانقلاب حسني الزعيم السوري العسكري عام ١٩٤٩ المدعوم من الفرنسيين والامريكيين، والانقلاب المعاكس بقيادة الضابط سامي الحناوي المدعوم من بريطانيا، وظهور الدكتاتور أديب التسيتكلي الذي لم يلبث ان اضطر إلى الهرب من دمشق في ١٩٥٤، ليقوم الحكم المدني الديموقراطي الحر حتى أواخر ١٩٥٧، اذ تمت الوحدة السورية ـ المصرية التي قضي عليها في ٢٨ أيلول ١٩٦١، دون أن ينسى الحوادث المماثلة التي جرت في بقية البلاد العربية، لا سيما في مصر والحجاز والعراق ولبنان والأردن، والحوادث التي رافقتها في بلاد فارس وافغانستان وباكستان وتركيا وسواها.

= الثورة الكبرى ونهضة العرب» تأليف: قدري قلعجي، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ ص ٣١٣/٣٤١.

(٩٨) المجلد الأول: ص ٥.

«فإذا التفتنا حولنا في بلاد الشرق الأدنى، بحالته الحاضرة، رأينا حكومات عسكرية مستبدة تسيطر على أجزائه: تركيا ورئيسها الجنرال غورسيل، ولبنان ورئيسه (الجنرال) فؤاد شهاب، والجمهورية العربية المتحدة ورئيسها البكباشي جمال عبد الناصر، والعراق ورئيسه اللواء عبد الكريم قاسم، والباكستان وعلى رأسه الجنرال أيوب خان. أما الدول الأخرى فتحكم بطريقة لا تختلف عن الطرق المتبعة في البلاد المذكورة من حيث النظام الرئاسي الاستبدادي وهي لم تنج من عدم الاستقرار، رغم أن الحكم فيها حكم عسكري غير شوري باستثناء اسبانيا والبورتغال. والفضل في هذين البلدين راجع إلى عقلية فرانكو وسالازار وطبيعة الشعبين الاسباني والبورتغالي»[99] (*).

(٩٩) نفسه: ص ٨.

(*) ـ فرنسيسكو فرنكو (١٨٩٢ ـ ١٩٧٥): جنرال اسباني ورئيس الدولة ١٩٣٩ ـ ١٩٧٥. سار في طليعة الحركة الثورية الوطنية التي آل أمرها بعد الحرب الأهلية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ إلى اقرار الحكم المطلق.

ـ انطونيو سالازار (١٨٨٩ ـ ١٩٧٠): رجل دولة برتغالي. درّس الاقتصاد في جامعة كويمبرا. عُيّن وزيراً للمالية ثم رئيساً للحكومة ١٩٣٢ ـ ١٩٦٨، فنظم الحكم وأعاد الاستقرار وأعطى البلاد دستوراً جديداً يميني النزعة، جعل منه باني دولة البرتغال الحديثة.

ويرى صاحبنا، فيما يرى، أن «داء الحكم العسكري الذي استشرى في الشرق الأدنى انتقلت عدواه من أمريكا الجنوبية، حيث لا يستقيم الحكم لجنرال أو قائد حتى يقلبه زميل له، وهكذا دواليك»[١٠٠]. على أن للغيرة والحسد «أثرهما في اندفاع القواد العسكريين إلى الطموح للقبض على زمام الأمور واغتصاب السلطة، سواء من الحكام المدنيين أو من زملائهم العسكريين الذين سبقوهم في هذا المضمار»[١٠١].

ويبقى السؤال: ماذا بعد؟ بل ماذا غداً؟

المهم أن هذا الجزء من العالم ما زال يسبح في الفوضى، وأية فوضى. وكلما حاولت الديموقراطية البروز دُكّ عنقها، وفتحت القبور والسجون، وانتصبت «المحاكم الشعبية» لتلفظ أحقادها وضغائنها وسمومها.

ان نظرة خاطفة إلى التغييرات المتسارعة التي تشهدها الآن أوروبا الشرقية، تغنينا عن التفكير في الرد على صاحبنا، الذي أصاب كبد الحقيقة في بحثه عن الانقلابات العسكرية وأسبابها ونتائجها. ولانجانب الصواب اذا ما قلنا ان استنتاجه هذا جدير بالدرس والاهتمام، وينبغي لنا تعميمه على أبنائنا الذين يؤلفون الجيل الصاعد، خاصة وان قسماً غير قليل من

---

(١٠٠) (١٠١) نفسه: ص ٨.

عالمنا، ويا للأسف، بات مهدّداً بالاضطراب الخلقي والنفسي والعصبي، والسبب طغيان الارهاب والعنف والقمع وما إلى ذلك. ولنتأمل جميعاً في هذه اللوحة التشخيصية التي تركها صاحبنا لنا بعد طول خبرة وطول عناء:

«وبأكثر الحالات، يسبق الانقلاب العسكري تردي الأمور الداخلية في البلاد، نتيجة لتزاحم المدنيين على الحكم ولجوئهم إلى اساءة استعمال صلاحياتهم، حرصاً منهم على استبقاء دفة الأمور في أيديهم. فتنتشر الفوضى ويعم التبرم والاستياء، فيهرع ضابط مهووس أو جماعة من صغار الضباط إلى عزل السلطة المدنية عن الحكم والحلول محلها، حاسبين أنهم بأسلوبهم الحديدي، وبما اعتادوا عليه من اصدار الأوامر التي لا مرد عليها لجنودهم يستطيعون املاء ارادتهم على مجموع الشعب. وهم يعتقدون أن ادارة سياسة الدولة داخلياً وخارجياً واقتصادياً وعلمياً، أمر سهل كادارة حسابات فرقة عسكرية أو تمرين كتيبة على السير وأخذ التحية أو اطلاق الرصاص. واولئك الضباط ـ خصوصاً في بلدنا ـ الذين هربوا من المدارس الرسمية لعجزهم عن الحصول على شهاداتها والتجأوا إلى المدرسة العسكرية حيث لا تزيد مدة الدراسة فيها عن سنتين، ثم بدأوا يعلقون النجوم والنسور على أكتافهم بسرعة خاطفة، ظنوا أنهم يخدعون بلدهم

باستيلائهم على قيادة البلاد، وبابعاد المجربين والمدنيين الذين مارسوا صناعة الحكم طويلاً وكانوا على علاتهم أكثر خبرة ودراية من هذه الطبقة اليانعة»[102].

هذه اللوحة التشخيصية مثلما قلنا لا تعني السوريين فقط، بل جميع الشعوب التي عذبتها وتعذبها الأنظمة العسكرية. ذلك أن العسكرتيارية واحدة، والعسكر بعضهم مثل بعض، ومهما كانت غاية العسكر فان القضاء على الديموقراطية والحرية هو أخطر السبل إلى الحكم وأسوأها، ولن يستقر بلد لا يملك من أدوات التشريع والتنفيذ سوى المدفع، والمدفع فقط. ولْنبق مع صاحبنا الذي يتابع الوصف التشخيصي: «وفي جملة الأسباب الأساسية التي أدت إلى الانقلابات العسكرية كان ابتعاد الشعب وزعمائه عن الرضوخ لمطالب الدول الاستعمارية وقبول اقتراحاتها المؤدية إلى ربط مصير الأمة الصغيرة بالدولة الكبيرة. فعندما يعجز عملاء تلك الدولة عن تسيير سياسة البلاد في مثل هذا الاتجاه يعمدون إلى اغراء بعض الضباط للقيام بانقلاب عسكري يوقف، على الأقل، الاتجاه المعاكس لرغبة تلك الدولة، اذا هو لم يوجه الأمور في مصلحتها»[103].

ولئلا يقع صاحبنا في الجزمية، أو الدوغمائية (Dogmation)، أي القطع بالرأي بغطرسة أو من غير مبرر

(١٠٢) (١٠٣) المجلد الأول: ص ٨/٩.

كاف، قال: «طبيعي أن جميع الضباط المشتركين في الانقلابات ليسوا عملاء للأجانب ولكنهم يُخدعون بظاهر الأمور، وبما ينفخه فيهم بعض رفاقهم من روح الحماس الوطني فيصبحون آلة تلعب بهم الأيدي الملوثة، ثم لا يلبث أكثرهم أن يفهم الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان»[104].

وفي وصفه ذكرياته عن الحرب العالمية الأولى، ولما يتجاوز منتصف العقد الثاني، تبلغ السخرية حد الوجع، فيذكرنا بحرب ١٩٦٧ الاسرائيلية ـ العربية، والاذاعي أحمد سعيد من «صوت العرب» وبياناته وبلاغاته، وما أكثر الأمثال والأقوال وما أندر الرجال والأفعال. لقد خدّرنا أحمد سعيد يومذاك بمحلول النصر المزيف، لنتقبل الهزيمة بعقل مغيّب وأعصاب هادئة وأعين مقززة.

«وأما ذكرياتي عن الحرب العالمية الأولى فكانت محصورة بما أسمعه من الأخبار على ألسنة الضيوف أو ما أقرأه في الجريدة الوحيدة الصادرة بدمشق واسمها «الشرق» وكان يرأس ادارتها الشيخ تاج الدين الحسني والشيخ خليل الأيوبي ويتولى تحريرها الاستاذ محمد كرد علي والاستاذ خير الدين الزركلي. ولم يكن قد اخترع الراديو الذي جعلنا في الحرب

(١٠٤) المجلد الأول: ص ٨/٩.

العالمية الثانية نستمع إلى جميع محطات الاذاعة ونطلع على أخبار الفريقين المتحاربين. وهكذا كنا نردد باستهزاء وسخرية ما كان يصدر في البلاغات العسكرية اليومية التركية والألمانية من عبارات تكاد تكون واحدة كل يوم وهي: «دشمن قطعاتي مرد قوتلز مزه هجوم ايتمشلر ايسه ده بوسكور تلمشاردد...» أي «ان القطعات المعادية هاجمت قواتنا الشجاعة ولكنها ارتدت على أعقابها خائبة..» أو «لا جديد في الجبهة الغربية» أو «هجم العدو على الجبهة الفلانية هجوماً قوياً وقاومته بضراوة وخسرت القليل من القتلى، بينما تكبد العدو الخسائر الجسيمة» أو «انكفأت قوانا لمراكز جديدة وفقاً للخطط المرسومة». أضاف: «وقد كانت هذه التعابير تخفي انكفاءات خطيرة وانكسارات مؤدية إلى الارتداد إلى الوراء عشرات الكيلومترات، ووقوع عشرات الآلاف من الأسرى والقتلى والجرحى تسعى القيادات الحربية إلى كتمها عن الجمهور خوفاً من انهيار أعصابه»[١٠٥].

وبمنطق الخبير المدقق ينقل إلينا الرئيس العظم صورة عن الواقع العسكري في الجبهة التركية وما تخللها من مآس وفواجع من جهة، ومواقف تنم عن بطولات وعبقريات مقاومية ودفاعية من جهة. قال: «والواقع ان الجنود الاتراك استبسلوا في

(١٠٥) نفسه: ص ٦٤/٦٥.

الدفاع وفي مقاومة ما قام به الجنود الانكليز والافرنسيون من هجوم عنيف بحراً وبراً، وما بذلوا من أجل اختراق هذه الجبهة والوصول إلى العاصمة العثمانية من جهد كبير، وما ضحوا به من بوارج ومدرعات من الطراز الحديث، وما هدروا من دماء ما لا يقل عن أربعمائة ألف جندي، وما خسروا من معدّات عسكرية لا تعد ولا تحصى». وقال أيضاً: «وفي الواقع، فقد صمد الجنود الأتراك مستعينين بما قدمه لهم حلفاؤهم الألمان من مدافع وأسلحة وذخيرة. وقد لمع في هذا الدفاع المستميت اسم قائد الجبهة التركية مصطفى كمال باشا الذي لعب في ما بعد دوراً كبيراً انقذ فيه بلاده من نتائج انكسارها في الحرب العالمية الثانية»[١٠٦](*٣).

بيد أن الوضع في سوريا كان مختلفاً أشد الاختلاف عما هو في الجبهة القريبة من العاصمة، استنبول، التي حاول المهاجمون احتلالها بغية قطع الاتصال بين تركيا وحلفائها المانيا

(١٠٦) نفسه: ص ٦٤/٦٥.

(*٣) مصطفى كمال أتاتورك: قائد تركي ولد في سلانيك. زعيم الحزب الوطني ومؤسس الجمهورية التركية. وأول رئيس لها ١٩٣٣. أجرى اصلاحات عظيمة من أعمقها تأثيراً في الحقل الديني والاجتماعي والثقافي استعمال الابجدية اللاتينية عوض العربية في الكتابة التركية وعلمنة الدولة. لقب بـ «أتاتورك» أي أبو الاتراك.

والنمسا وبلغاريا. «فالحقيقة أننا (في سوريا) لم نكن نبالي كثيراً بما يجري في الدردنيل. وكنا لا نذكره إلا في الأناشيد الشعبية التي كنا نؤمر بالقائها ونحن في المدرسة وهي: «جناق قلعة ده.. غليبولي ده.. دشمن أزرز..» أي «ندعس العدو في جناق قلعة وغليبولي». أما الجهاد المقدّس الذي أعلنه السلطان (محمد الخامس رشاد) بناء على الحكومة الالمانية، فلم يحفل به أحد سواء في تركيا أو في بقية البلاد الاسلامية»[١٠٧](*٤).

وردّ صاحبنا عدم المبالاة بالجهاد المقدس هذا إلى الدعاية الانكليزية التي «سريعاً ما عكفت على التعليق بأن الجهاد في الأصل هو حرب ضد غير المسلمين، سواء كانوا انكليزاً أو المانا» بل «كيف يحالف السلطان فريقاً من المسيحيين ويحارب فريقاً آخر منهم؟ وهل هذا جهاد بالمعنى الصحيح؟»[١٠٨]. ولا يجد حرجاً في القول: «وقد نجحت هذه الدعاية البريطانية، مع ما رافقها من تأثير الذهب الوهاج، في وقوف المسلمين في

(١٠٧) المجلد الأول: ص ٦٥.

(*٤) الدردنيل: مضيق يقع بين شبه جزيرتي البلقان وآسيا الصغرى ويصل البحر الايجي ببحر مرمره. نظمت المرور فيه معاهدة مونترو السويسرية ١٩٣٦.

(١٠٨) المجلد الأول: ص ٦٥/٦٦.

كافة الانحاء موقف المتفرج اجمالاً، عدا فريقاً منهم اشترك في الحرب إلى جانب الانكليز والافرنسيين، كالهنود والسنغاليين والمغاربة، وغيرهم»[١٠٩]. ثم يضرب مثلاً آخر، أقرب إلينا: «وهذا الجهاد المقدس الذي أعلنه (السلطان) خليفة المسلمين لم يحل دون اعلان الشريف حسين بن علي، أمير مكة، الثورة واشتراكه فيها هو وأولاده ضد مقام الخلافة، ودون تحالفه مع الانكليز من أجل استقلال البلاد العربية»[١١٠].

بعد الكلام على التقاتل غير المتكافىء، في منطقة قناة السويس، بين الجيش الرابع بقيادة جمال باشا والجيش البريطاني، والهزيمة الشنعاء التي مني بها جمال باشا وجيشه، مما أدى إلى تسليم البلاد العربية كافة للسلطات البريطانية والفرنسية، يجد الرئيس العظم نفسه مرغماً على اعلان «حقيقة لا مندوحة لي من ذكرها على علاتها»[١١١] فيقول: «ولا أخفي أني كنت في الحرب هذه في عداد المؤمنين بنجاح الامبراطورية العثمانية وذلك بتأثير محيطي العائلي. اذ ان والدي كان من المخلصين للامبراطورية التي كان يعتبرها الدولة الاسلامية الوحيدة في العالم. وكان يكره الانكليز والافرنسيين الذين كانوا يعلنون عن مطامعهم في أراضي

(١٠٩) (١١٠) المجلد الأول: ص ٦٥/٦٦.

(١١١) نفسه.

الدولة ولا يخفون عداءهم للاسلام»(١١٢).

من الملاحظ أن صاحبنا يريد قول جميع ما في صدره، دون النظر إلى العواقب. ذلك أن المهم بالنسبة إليه أن يقدم ما عنده، كل ما عنده، ومن غير تحفظ أو تبرم. وهكذا يكون سار في الضوء وحافظ على منهجه في قول الحق، الذي يراه، وصدقيته وصراحته.

خريطة أفكار الرئيس

قلنا ان الرئيس العظم يأبى الفصل بين الركنين الأساسيين: العلم والاخلاق. لذلك فهو يعزو عوامل التفرقة وأسباب الفساد في البلاد إلى «حب المال والتفاني في سبيل انتقاصه»(١١٣)، لا سيما أن «متطلبات الحياة ازدادت كثيراً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وتضاعفت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية»(١١٤). ومما لا ريب فيه أن حب المال اذا ما طغى على الدول والحكومات أصيب الأهلون بخيبات الأمل، بعد أن يكونوا علقوا الآمال على زعمائهم وقادتهم الوطنيين. ومن الممكن ان يلغي حب المال، في حال استحكامه، القيم والاخلاق الحسنة والحميدة، ويقلب الشعور الوطني إلى شعور عدائي استغلالي انتهازي، كما حدث، على سبيل المثال،

(١١٢) (١١٣) نفسه

(١١٤) نفسه: ص ١١٣/١١٤.

للعهد الوطني السوري. «فقد أبلى رجال الكتلة الوطنية بلاء حسناً في قيادة الشعب بنضاله ضد فرنسا، حتى ان بعضهم بذل الرخيص والغالي في هذا السبيل. ولكنهم عندما تسلموا أمور الدولة بدت للناس مطامع بعضهم وظهر للملأ عجزهم عن تولي الحكم واتقان فنه»(١١٥)، والأمر أعاد البلاد عام ١٩٣٩ إلى القبضة الاحتلالية، على يد المفوض السامي الفرنسي غبريل بيو «الذي ضرب ضربته عندما شعر بانخذال الحكم وانفضاض الناس عن الحزب القائم على ادارة البلاد»(١١٦). واذ لم يتخذ العهد الاستقلالي الذي بدأ عام ١٩٤٣ من العهد السابق المشار إليه عبرة، انهار عام١٩٤٩ «على يد حسني الزعيم عندما شعر بالنقمة السائدة ضد شكري القوتلي ورجال الحزب الوطني»(١١٧) شيوخ السياسة السورية التقليدية. «ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الحكم بيد المدنيين، بل استلمه في الظاهر أو بالخفاء وراء الستار فريق من الضباط باعوا أنفسهم لدول أجنبية وصاروا آلة صماء في أيدي ممثليها في سورية، يعملون حسب خططهم وتدريبهم»(١١٨). على أن آخر انهيارهم كان «يوم اعلان الوحدة بين مصر وسورية، حيث تداعى البناء وسقط فوق الرؤوس هادماً كل ما كان العاملون المخلصون قد انشأوا في شتى الميادين، خلال تلك الفترة القصيرة، رغماً عن

(١١٥) (١١٦) (١١٧) (١١٨) نفسه

الصعوبات والقيود التي كانت تغل أيديهم»[١١٩].

يدلنا هذا الموقف المتشدد من العسكر والحكم العسكري، فيما يدلنا، على تعلق المؤلف بالديموقراطية والحرية. ولطالما قال وكرر القول: «وعلينا أن نتقبل مساوىء الحكم الدستوري النيابي الديموقراطي، تجنباً للوقوع في مخالب الدكتاتورية المشؤومة»[١٢٠]. وقد يحسب البعض أن كره العظم للحكم العسكري الدكتاتوري سببه اقصاؤه عن الحكم والحكومة، ولكن الرجل في حقيقته منهجي واقعي وليس انقلابياً وصولياً، ويرى أن «الطور الانتقالي بين نظامين مختلفين اختلافاً شاسعاً، (انما هو) كالجسر الذي يهتز تحت المرء عند مروره عليه اهتزازاً يحتاج إلى كثير من التعقل والتروي حتى لا تلفظه هزة خارج الحواجز الواقية، فيقع في الهاوية يجرفه التيار»[١٢١]. ومن أسف أن انظمتنا العربية تعمّدت القفز فوق الزمان فاغرقت البلاد والعباد في بحار من الدم ما زالت تهدر وتزبد، ولا أحد يعلم كيف ستنحسر هذه «البحار» ومتى.

وهنالك من يحسب كذلك أن الرئيس العظم «قتل الشعور القومي» لأنه عمل ضد الوحدة العربية. على هذه التهمة رد

(١١٩) المجلد الثالث: ص ٢٦٣.

(١٢٠) المجلد الأول: ص ١٣٢.

(١٢١) نفسه

العظم نفسه مؤكداً رفضه الوحدة «الناصرية» رفضاً لا رجوع عنه. قال: «نعم، اني عملت وسأظل أعمل ضد «الوحدة الناصرية» التي هي في الواقع استعمار ناصري وتسلط وقضاء على سورية وحيويتها وحريتها ورائديتها». أضاف: «نعم، اني وقفت معارضاً للحكم الديكتاتوري البوليسي الذي اتبعه عبد الناصر في سورية بعد أن نفذه في مصر». وقال أيضاً: «نعم، اني طالبت عند طرح قضية الوحدة مع مصر على البحث في مجلس الوزراء بأن ترتدي طابع الديموقراطية والحرية، وبأن تبقى الأحزاب قائمة دون اللجوء إلى طريقة الحزب الواحد (الاتحاد القومي)، وبأن يكون الحكم دستورياً نيابياً لا رئاسياً يتولى فيه رئيس الجمهورية سلطة التشريع والتنفيذ بدون رقيب أو حسيب»[١٢٢]، فيما قبل الاساتذة ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني بهذا التدبير الناصري وسارعوا إلى حل «البعث العربي الاشتراكي» كما بينا في الفصل الأول من هذا الكتاب. ويكشف صاحبنا عن سبب آخر دعاه الى اتخاذ هذا الموقف العدائي الحاد من عبد الناصر والوحدة «الناصرية»، الا وهو الاستفتاء الذي طرحه عبد الناصر بدلاً من الانتخابات النيابية، ذلك أن الاستفتاء في رأي العظم من غير الممكن أن يكون «مرآة للرأي العام»[١٢٣].

(١٢٢) (١٢٣) المجلد الثالث: ص ٤٢٢.

ويرى فريق آخر ان مثل هذه المواقف والآراء التي يتشبث بها صاحبنا، ما كانت ربما لو لم يكن «ملاّكاً كبيراً»، «اقطاعياً كبيراً» و«مليونيراً كبيراً»، إذ أرعبته الاشتراكية وطيّر التأميم عقله وصوابه. أما هو فيقول: «ورأيي فيما يتعلق بالأراضي والمعامل وسائر المرافق التي تلجأ الدولة إلى تأميمها، فان من الخير تخمين قيمها تخميناً عادلاً تُدفع قيمته فوراً، كما هي الحال في الاستملاكات الخاصة بالمصلحة العامة، على أن تسدد الخزينة هذه القيم بقروض طويلة الأجل تضعها قيد التداول في الأسواق بفوائد معقولة». أضاف: «هذه الطريقة هي أسلم الطرق المؤدية إلى الغاية المنشودة اجتماعياً واقتصادياً، لا تلحق بالثقة المالية العامة أذى. فتبقى رؤوس الأموال في البلاد، وتكرس لما هو داخل في القطاع الخاص. وهكذا يستمر الازدهار بفضل تعاون رأسمال الدولة، مع رؤوس الأموال الخاصة»[١٢٤].

وتسهيلاً لفهم ما يقصد، ذكّر بالدول ذات الطابع الاشتراكي، مثل انكلترا وفرنسا، وطالب بالتشبه بهما: «وقد طُبقت هذه القاعدة في كثير من الدول ذات الطابع الاشتراكي، كانكلترا أو فرنسا، وأدت للبلاد فوائد، سواء من حيث تسلم الدولة وسائل إنتاج المواد الأساسية أو تسلمها

(١٢٤) المجلد الأول: ص ١٣٤.

وسائل النقل وبيوتات المال الكبرى. ذلك لأنها لم تحرم أصحاب رؤوس المال من مجال حيوي لبذل نشاطهم في توفير الأرباح تعود بالتالي إلى توسيع الأعمال في القطاع الخاص مما يضمن للعمال أرباحاً وأجوراً لا تقل عن ما هي عليه في القطاع العام»[١٢٥].

فكانت النتيجة أن ضرب «الاشتراكيون» بهذه المقترحات والتوجيهات السديدة عرض الحائط، ما حدا صاحبنا إلى القول متأسفاً متألماً: «وما علينا إلا أن نأخذ ما طبق في بلادنا من الأنظمة التي أسموها اشتراكية لنرى أنفسنا غير راضين عنها. فالخليط غير المنظم المنبعث من رواسب الحقد والحسد، كما سعى إليه مدّعو الاشتراكية في البلاد العربية، قريب الشبه بتلك الأنظمة الدكتاتورية المغلفة بشعارات الديموقراطية التي نسمع عن حوادثها الدامية في أمريكا الوسطى وآسيا وأفريقيا»[١٢٦].

وفي مختلف الأحوال «لا يمكن أن يحيا نظام يشبه الطير بجناحيه، والحيوان المفترس بمخالبه وأنيابه، ولو علا جسمه ريش ذو ألوان زاهية براقة، أو بُح صوته بترديد الأنغام العذبة ترديد الببغاء»[١٢٧].

حين أتم صاحبنا كتابة مذكراته، أو فرغ من وضع

(١٢٥) (١٢٦) (١٢٧) نفسه: ص ١٣٤/١٣٥.

اللمسات الأخيرة عليها، كان الكاتب السوفياتي: أندريه أمالريك، يعد كتيبه: «هل يبقى الاتحاد السوفياتي حتى ١٩٨٤»(١٢٨)، وبرغم عدم استناد أمالريك في بحثه هذا «إلى دراسات في الموضوع»(١٢٩)، فان عاملاً واحداً ربما، لا نستطيع تحديده يقينياً، قاد العظم وأمالريك إلى اعلان ما يشبه الحكم المسبق على مستقبل الأنظمة القمعية الدكتاتورية بالزوال، وكان كل من الكاتبين السوري والسوفياتي محقاً في الكثير الكثير من أفكاره ـ وأحكامه، إذا اعتبرنا ما جرى في سوريا حتى منتصف العقد السابق وما يجري في المعسكر الاشتراكي اليوم مقياساً صالحاً إلى حد بعيد.

تلك هي خريطة أفكار الرئيس خالد العظم وآرائه ومطارحاته وانتقاداته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في شكلها العام، وقد حرصنا على إبراز أهم محطاتها ومعالمها، فنرجو أن نكون قد أحطنا بها مثلما ينبغي. فماذا عن علمه بالرجال والبلاد؟

حديثه عمن عرف

لقد تحدث صاحبنا بصراحة غير محدودة عمن عرف من

(١٢٨) انظر الترجمة العربية بقلم جورج الحاج. دار النهار للنشر طبعة ١٩٧٠.

(١٢٩) المصدر نفسه: مقدمة المترجم ص ٩.

الشخصيات السياسية التي حكمت وسواها، السورية العربية والدولية، وامتحن غورها ليدرك مقدارها، فحقق في هذا المضمار نجاحاً ملحوظاً، وأكد على اتساع ثقافته وعمق نظرته إلى ما في صدور الرجال وأذهانهم.

١ ـ قال مثلاً عن الرئيس السوري شكري القوتلي: «عرفت السيد القوتلي قبل أن أتجاوز الخامسة عشرة، عندما كان والدي مدعواً إلى تناول طعام الغداء عند والده. وقال لي المرحوم والدي ان شكري شاب مهذّب، ذو أخلاق حميدة، يجدر بك أن تصادقه. وكان مقياس قيمة الشباب عنده أن يكون تقياً، يصلي ويصوم، وذا أخلاق حميدة، وعفيف اللسان. أما العلم والذكاء والحيوية، فلم تكن بنظر أبناء جيل والدي في مقدمة العوامل التي تميز الشاب عن سواه. وعلى الرغم من توصية أبي، فلم ينجذب واحدنا نحو الآخر روحياً. وظللت لا أراه ولا أسمع عنه إلا في جهاده ضد الانتداب الافرنسي. وكان هو ورفاقه الشباب الذين تولوا تسيير السياسة في زمن الملك فيصل (ابن الحسين) يعملون على انهاء الانتداب الافرنسي، أو على الأقل، على تخفيف أثقاله»(١٣٠).

وبعد عرضه لعلاقات هذا الرئيس مع الانكليز والفرنسيين

(١٣٠) المجلد الثاني: ص ٤٤٧.

والسعوديين والمصريين والأمريكيين قال: «وكان الجيش (السوري) بكثرة ضباطه، كباراً وصغاراً، يعتبرون القوتلي مسؤولاً عن حرب فلسطين والفشل الذي أصاب الجيش السوري، وأحد المسؤولين، من ملوك العرب ورؤسائهم، عما آلت إليه تلك القضية وما أصاب سكان فلسطين من تشريد وتقتيل»[١٣١].

أضاف: «وعندما توليت شؤون وزارة الدفاع الوطني، وقعتْ تحت يدي وثائق أجنبية تظهر اتجاه الولايات المتحدة إلى دعم السيد القوتلي واعتمادها على عودته إلى الحكم لانقاذ الموقف. وقد وصلت إحدى هذه الوثائق إلى السيد القوتلي نفسه عن طريق موظف في الخارجية فتح مظروفاً وارداً باسمي «وإذ وجد فيه وثيقة تتعلق بالسيد القوتلي، حملها إليه زلفاً ونفاقاً، مع انني كنت أحسنت إليه بتعيينه. فانتقم القوتلي من الشخص الذي كان يبعث هذه الوثائق إلى رئاسة الأركان والي، بصفتي وزيراً للدفاع. فعزله عن وظيفته، بعد أن تولى رئاسة الجمهورية.

«والمطّلع على خطة السيد القوتلي، في عهد وزارة (صبري) العسلي الرابعة، يقنع بأن اتجاهه واضح في اتجاه الغرب، وان سَفْرته إلى موسكو لم تكن إلا للتغطية»[١٣٢].

---

(١٣١) نفسه: ص ٤٤٨.
(١٣٢) نفسه: ص ٤٥٠.

واثر انسحاب الأردن عام ١٩٥٦ ـ عام العدوان الثلاثي على مصر ـ من المجموعة العربية، تأزمت العلاقات بين سوريا والاردن، فسافر الرئيس القوتلي «إلى الرياض للسعي عند الملك سعود لاعادة الحسين إلى الحظيرة. وذلك علماً منه بأن للأول على الثاني دالة كبرى. وصحب القوتلي في هذه الرحلة كلاً من فاخر الكيالي واللواء (توفيق) نظام الدين، فحطوا بالقاهرة أولاً وبحثوا الأمر مع (الرئيس جمال) عبد الناصر الذي شجعهم على المضي في محاولتهم، ثم أرفقهم باللواء عبد الحكيم عامر.

«ولما وصلت طائرة القوتلي إلى جدة ولم يكن باستقباله سوى الشيخ يوسف ياسين، شعر رئيس الجمهورية بأن الجو غير صاف، نسأل عن الملك فأجيب بأنه في مكة. فذهب إلى الفندق وترك حوائجه فيه، ثم ركب السيارة إلى مكة المكرمة. وبعد أن قام بالطواف حول الكعبة، ذهب إلى قصر الملك. وهناك أجلسوه في أحد الأبهاء نحو نصف ساعة، ثم دعي بعدها إلى المثول بين يدي الملك. وكان وحده».

وتابع العظم: «ولا ريب في أن الملك أراد، على هذا النحو من عدم العناية بزائره الذي هو صديق حميم له، اضافة إلى مقامه كرئيس جمهورية عربية صديقة، إظهار عدم ارتياحه لخطة مصر وسورية. وبعد برهة طويلة، دعي مرافقو

الرئيس إلى حيث كان جالساً مع الملك واستمعوا إلى هجوم عنيف وجهه سعود إلى الرئيس عبد الناصر، متهماً إياه بمحاولة اغتياله، بواسطة رجل أوصت به السفارة المصرية في جدة. فدخل القصر وانتهز الفرصة لوضع كميات من المتفجرات تحت السرير الذي ينام عليه الملك.

«وحين اكتشفت المؤامرة وحقق مع الرجل، اعترف بأن المصريين أرسلوه لاغتيال الملك سعود. فاكتفى الملك بارساله مخفوراً، مع أوراق التحقيق، إلى الحكومة المصرية في القاهرة.

«فشعر الحاضرون أن الجو معكر، وأن الخوف على تضعضع الجبهة العربية لا يأتي من الناحية الاردنية فحسب، بل يتعداها إلى المملكة السعودية أيضاً.

«ولم تنفع الأقسام التي حلفها اللواء عامر ببراءة الحكومة المصرية من هذا الفعل، فظل الملك سعود مقطب الوجه، غير قانع إلا بصحة الواقعة. ولم تفد محاولات القوتلي تخفيف حدة غضبه.

«وأما الأمر الذي قدِم القوتلي لأجله، فلم يظهر الملك كبير اهتمامه به. واكتفى بالقول انه سيتصل بسمير الرفاعي».

وقال العظم أيضاً: «وعاد الوفد صباحاً إلى جدة. ولما

دخل الأعضاء إلى غرفهم لتغيير ملابسهم لم يجدوها في الخزائن التي كانوا علقوها فيها قبل سفرهم إلى مكة. وحين سألوا عنها، أجابهم الخدم بأنها وضعت في الحقائب ونقلت إلى المطار، حيث تنتظرهم الطائرة لحملهم إلى سورية. وكان هذا الموقف أزرى موقف جابهه القوتلي في حياته: أن يطرد طرداً لبقاً ـ إذا صحّ التعبير ـ من مملكة صديقه سعود؟

«ولم يقابل القوتلي هذا الاحتقار بأية ردة فعل، بل توجه إلى المطار. وهناك شاهد الملك سعود يمتطي طائرة، دون أن يودعه. فركب الطائرة المخصصة له مع رفاقه ورجع إلى القاهرة، خائباً مقهوراً».

وختم صاحبنا قصة الرئيس القوتلي مع صديقه الملك سعود: «وعندما اجتمع الوفد بالسيد جمال عبد الناصر أطلعه على ما حصل في مكة استشاط غضباً وقال: «اذا كان الأمر كذلك حق لسعود أن يكون غاضباً!». وأقسم بأن أحداً لم يطلعه على التهم التي يوجهها الملك. وقنع القوتلي بأن ليس لعبد الناصر دخل في هذه المحاولة، وأسندها إلى بعض رجال حاشيته».

أضاف:

«وهكذا تفرق الجمع وانقسمت الجبهة العربية إلى

جزئين: الواحد يمشي وفقاً للخطط الأميركية، والثاني يتجنب الوقوع في حبائلها»[١٣٣].

٢ ـ وقال عن زعيمي «حزب الشعب» السوري: رشدي الكيخيا وناظم القدسي: «كان الأول، حسب عادته، يعمل خلف الستار ولا ينبس ببنت شفة، مع أنه كان اللولب المحرك الذي لا يجرؤ منتسب لحزب الشعب على الخروج قيد انملة عن الحدود التي يرسمها. وكان ناظم القدسي ضعيف الارادة بطبعه، خلق لتلقي الأوامر لا لاصدارها، فكيف يقدر على معارضة زعيمه الكيخيا؟ زد على ذلك خوفه، إذ كانت فرائصه ترتعد كلما قرأ في الجرائد البرقيات التي تذيعها الوكالات المغرضة عن حشد الاتراك جيوشهم على الحدود السورية. فكان يأتينا مرعوباً قائلاً: «حلب! حلب! لا تبعد عن الحدود التركية سوى خمسين كيلومتراً». فكنا نطمئنه على بلده، مؤكدين أن الشر يبعد عنها»[١٣٤].

٣ ـ وإذ توقف الرئيس العظم طويلاً عند مسألة انضمام لبنان إلى سوريا، قال عن الرئيس رياض الصلح:

«كان رياض الصلح يدعي في جلسات خاصة بأن سياسته الرامية إلى ابقاء الأقضية الأربعة ضمن اراضي الجمهورية

(١٣٣) نفسه: ص ٥٠٥/٥٠٦.

(١٣٤) نفسه: ص ٤٦٨.

اللبنانية كانت مستندة إلى رغبته في ابقاء التوازن النسبي بين المسلمين والمسيحيين في لبنان على ما هو عليه واستبعاد تضاؤل عدد المسلمين في لبنان الصغير، إذا ما الحقت تلك الأقضية الأربعة التي يقطنها المسلمون بسورية. هذه النظرية صحيحة من حيث الأرقام، لكنها ككل القضايا يتداخلها عنصر الاحتمال. فهل كان لبنان قادراً على الاحتفاظ باستقلاله لو سلخت عنه الأقضية الأربعة؟».

أضاف: «وهل كان هذا البتْر يؤدي إلى انصهار لبنان في المجموعة السورية بطبيعة الحال وبمضي السنين، أم إلى ارتمائه في أحضان فرنسا وصيرورته مستعمرة افرنسية؟ انه ليصعب على المرء أن يحكم حكماً قاطعاً على نتائج الحوادث. فكثيراً ما تؤول الأمور إلى مصائر غير منتظرة وغير معقولة. وعلى أي حال، إذا جاز للمرء ان يقدر بالأرقام خط كل واحد من هذين الاحتمالين، فانني أقدر أن تسعين بالمائة من الاحتمالات كانت إلى جانب انضمام لبنان الصغير إلى سورية في المستقبل القريب أو البعيد».

وحمل صاحبنا على الرئيس رياض الصلح، الذي أبى أن يكون لبنان الا كبيراً ومستقلاً، قال: «صحيح أن رياض الصلح لم يكن قادراً في ١٩٤٣ على توجيه مصير بلاده نحو الانضمام إلى سورية. فهناك (الرئيس) بشارة الخوري

الحريص على استقلال لبنان وعلى كرسيه بنفس الوقت. لكن الم يكن بمقدور رياض الصلح، وهو المشهور بحذاقته وأساليبه، أن يجعل لبنان يتدرج في طريق الانضمام، رويداً رويداً، حتى يصل يوماً من الأيام إلى هذه النتيجة، كما فعل الرئيس روزفلت في جعل الولايات المتحدة تتزحلق من العزلة التامة إلى الاشتراك في الحرب العالمية الثانية؟ أحسب أن ذلك لم يكن عسيراً عليه».

وقال ساخراً وغاضباً: «لكن إذا تمت الوحدة السياسية وانضم لبنان إلى سورية، فمن يضمن لرياض الصلح رئاسة الحكومة في الدولة الواحدة؟ ومن يؤمّن له فيها ما يتمتع به من نفوذ في لبنان؟ ودمشق بلد لم يستطع الأجنبي بجيشه القوي أن يسيطر عليها وأن يبسط نفوذها فيها، فأنى لرياض الصلح ذلك؟»[١٣٥].

ان أخشى ما أخشاه أن تكون سوريا اليوم، سوريا ـ الأسد، في صدد تنفيذ ما كان الرئيس خالد العظم يتمناه ويعمل من أجله. فإذا سعت سوريا، فعلاً، إلى هذا الهدف، فماذا عساها فاعلة اسرائيل اذاً؟

محنة لبنان في جيرانه وسياسييه والعالم الحر.

(١٣٥) نفسه: ص ١٢/١٣.

من يرحم هذا الوطن الصغير المعذّب؟

من يرحم اللبنانيين الذين دمرتهم الحروب والفتن؟

٤ ـ وعن الرئيس عبد الناصر قال الرئيس العظم متهكماً:

«وفيما بعد (العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦)، أعلن عبد الناصر شكره العلني للاتحاد السوفياتي لموقفه في محنة القناة. ثم عاد وصرّح بأن الفضل في نجاح مصر عائد إلى نهرو، إذ هدد لندن بانسحاب الهند من الكومنولث. ثم أكد في خطاب له أن مصر لم تتلق أي عون مادي أو معنوي، وانها دافعت عن ايمان ونجحت بفضل ذلك بقوتها الذاتية. حتى اننا لم نعد نعرف من الذي ساعد، بنظر حكام القاهرة، ومن كان له الفضل في دفع قوى العدوان الغاشمة»[١٣٦].

دمشق العظم

ان هذا غيض من فيض على صعيد علم الرجال الذي أظهر صاحبنا تمرساً به مميزاً. أما عن معرفته البلاد، فنكتفي بما قاله عن مدينته الحبيبة: دمشق، وعن أهلها الذين يعرفون جيداً كيف يستقبلون الملوك والقادة والرؤساء: «وأهل دمشق استقبلوا جمال باشا بالحماسة نفسها التي استقبلوا بها، فيما بعد، الأمير فيصل بن الحسين عندما انسحب الترك ودخل

(١٣٦) نفسه: ص ٢٨٥.

الانكليز إلى سورية، ثم حين عودته من باريز (باريس). ثم كان استقبال الجنرال كاترو بما لا يقل مهابة عن الاستقبالات الشعبية التي كان يقابل بها شكري القوتلي بغدواته المتكررة، أو غيره من كبار رجالات العرب. ولقد أشاد الامبراطور وليلهلم الثاني، عاهل المانيا، بحسن وفادة الدمشقيين له، حين زيارته في ١٨٩٨، وأوصى بأن تؤخذ الدروس عن دمشق في كيفية استقبال الملوك»[١٣٧].

ومهما قيل في دمشق والدماشقة، فان ما قاله الرئيس العظم هو الأصح والأعمق والأفضل: «ولهذا يحسن بالذين تستقبلهم هذه المدينة بحفاوة وروعة أن لا تأخذهم عاطفة الغرور، فيظنون أنفسهم حائزين على مرتبة خاصة في نظر الدمشقيين. وليعلم الجميع أن أهل دمشق يستقبلون، ويستقبلون بحفاوة كل من وفد إليها، عدواً كان أم صديقاً»[١٣٨].

هذه هي دمشق التي اعتادت، منذ أجيال وأجيال، الحفاوة بالضيف واكرامه، «فليمتع القادم (أياً كان القادم) نظره بمشهد بردى مثلاً، أو مأذنة الجامع الأموي، أو بأي أثر من آثار دمشق الخلابة، لا أقل ولا أكثر، وليسعدْ بحفاوة الأهلين وليهنأ بها. ولكن حذار من الغرور ومن الاعتقاد أنه وحده صاحب هذه الحفاوة والعناية»[١٣٩].

---

(١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) المجلد الأول: ص ٧١.

هكذا قالت دمشق، في الأمس وهكذا تقول اليوم، وغداً، وبعد غد، وإلى ما شاء الله.

السعودية ١٩٤٤

وتبقى رحلته سنة ١٩٤٤ إلى الرياض ـ عاصمة الحجاز ـ درساً مفيداً لا على صعيد أدب الرحلة فحسب، بل الأدب السياسي الملكي والاجتماعي، مثل العادات والتقاليد، ومتى عرفنا مشاهداته في السعودية وانطباعاته عنها اثر تلك الزيارة، عرفنا أي تطور أحرزته المملكة العربية السعودية، وأي عمران حققته، بل أي مستوى سياسي واقتصادي ارتقت اليه خلال بضع سنوات. قال:

«قال لي ذات يوم السيد جميل مردم، وزير الخارجية، انه سيسافر الى الرياض لزيارة عاهل المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز، فقلت له اني تواق للتعرف الى تلك البلاد ومليكها وأسرته، وأخبرت رئيس الجمهورية فلم يُظهر ارتياحاً لسفري الى الرياض، ولعله كان يقصد أن يحتكر لنفسه معرفة الملك السعودي بالشخصيات السورية. لكنه ازاء اصراري لم يسعه الا أن يتمنى لي سفراً سعيداً. وبارحنا دمشق بالسيارات الى رياق حيث اجتمع المسافرون معنا، وهم السيد فخري البارودي وبعض موظفي وزارة الخارجية. وركبنا القطار وتوجهنا الى حلب ومنها الى بغداد، حيث زرنا

سمو الوصي الأمير عبد الاله، ومنها ركبنا القطار الى البصرة. وهناك امتطينا السيارات التي كان الملك عبد العزيز أرسلها لتوصلنا الى عاصمة الحجاز. فمررنا بالكويت وتابعنا سيرنا بصحراء موحشة واجتزنا منطقة اسمها (الدهناء)، تربتها رملية توشك السيارات أن تغوص فيها في كل لحظة، فلا تقدر على التخلص الا اذا نزل ركابها ودفعوها حتى تخرج من الرمل. وإذا أضفنا إلى ذلك ما يشعر به المسافر عندما تقفز السيارة وتهبط بالحفر الكثيرة فيرتطم رأسه بسقفها ثم يرتمي فوق جاره، بدت لنا مشقة الرحلة هذه. على أنه لم يكن ثمة وسيلة أخرى للوصول الى الرياض، اذ ان السفر بالطائرة في ١٩٤٤ لم يكن معروفاً. وفي المساء وصلنا الى المحل المقرر أن نبيت ليلتنا فيه. ولم تكد السيارات تقف حتى قفز العبيد الذين ارسلوا من الرياض لمرافقتنا في الطريق والعناية بخدمتنا، وبدأوا باقامة صيوان كبير وصيوان آخر أصغر منه. واشعلوا الحطب وذبحوا الخرفان واعدوا لنا عشاء مؤلفاً من الارز واللحم، فأكلنا بشهية جيدة. وكم كان منظر الصحراء الواسعة جميلاً، ونحن حول النار المتقدة، جالسين على طراريح ممدودة فوق السجاد البديع، تقدم لنا القهوة والشاي على التوالي، ونور القمر يلمع في السماء ويسبل على المنظر اشعته الفضية فيبعث الخيال حتى في صدور غير الشعراء، فما بالك بمن كان مثل فخري البارودي الذي أخذ ينشد الشعر

ويتحفنا بحديثه السلس العذب.

«وكان السيد جميل مردم قد شعر بانحطاط في جسمه فانزوى في خيمته، حيث استلقى على السرير. وارتفعت حرارته وقضى ليلته مريضاً. اما أنا فقد خشيت أن أنام في السرير فتلدغني العقارب التي كانت تتجول بيننا بدون وجل، تبعث فينا الخوف، لذلك فضلت أن أقضي الليلة ضمن السيارة حتى استرسلت في النوم بدون رغبة.

«وفي الصباح تابعنا السفر فوصلنا الى الرياض بعد الظهر والتقينا بالدكتور مدحت شيخ الأرض الذي جاء لاستقبالنا ورافقنا الى القصر، حيث دعينا للمثول أمام الملك للسلام عليه.

«والقصر الملكي مؤلف من فسحات واسعة وغرف عديدة وأبهاء كبيرة. لكن طراز بنائه المشاد من التراب لم يكن ليدل على عظمته، لولا ما يشاهده الزائر من الأثاث الغالي والسجاد الفاخر.

«وكان القصر دائماً يعمر بالامراء وكبار الموظفين والمراقبين والجنود والعبيد، وكل منهم ممنطق بسيف وخنجر وكأنه في ساحة الوغى.

«ودخلنا البهو الكبير فرأينا الملك جالساً على مقعد وثير

بزاوية الصدر اليسرى، وإلى جانبه منضدة فوقها آلة الهاتف. وتقدمنا اليه فانتصب واقفاً بقامته الطويلة ورحّب بمقدمنا وأجلسنا إلى جانبه. وجلس رفاقنا وحاشيته على سائر المقاعد الموجودة حول البهو. وقد جلب انتباهي ان الامراء أبناء الملك لم يجلسوا بجانبه، بل قعدوا بجانب الباب بعيدين عن سائر الحاضرين، أصغرهم سناً ملاصقاً للباب والى جانبه اخوانه، بحسب تقدمهم في السن. كما ان أحداً منهم لم يشترك بالحديث بل ظلوا كلهم صامتين متفرجين. وهذه الاصول شاهدتها عند كل أمير قمنا بزيارته. فكان صاحب الدار يجلس في احدى زوايا صدر البهو والى جانبه زواره. أما اخوانه فكانوا يجلسون الى جانب الباب ولا ينبسون ببنت شفة. وانهم يعتبرون ذلك من واجبات التأديب التي يتقيد بها الصغير تجاه الكبير. ولا يشذ عن هذه القاعدة حتى الامراء الصغار الذين لا يتجاوز عمرهم العشرين. فكانوا بمجلسهم يتصدرون القاعة، واخوانهم يلتزمون جانب الباب ولا يشتركون بالحديث مطلقاً. ولئن كانت دلائل الاحترام هذه موضع تقديم الزائرين، فهي تظهر كذلك روح الالفة الصحيحة التي يستحسن أن تسيطر على علاقات الاخوان الذين لا يزيد عمر الواحد منهم عن الآخر اكثر من بضعة أشهر وحتى بعض ايام».

ويتابع الرئيس العظم: «ولم تدم مقابلتنا للملك اكثر من ربع ساعة. فاستأذنا منه وتوجهنا الى قصر الربيعة المعد لاقامتنا. وهذا القصر يبعد عن الرياض نحو عشرين كيلومتراً. وهو مبني كسائر القصور باللون الترابي. وكان التراب تحتنا وعلى جوانبنا الاربعة وفوق الخشب الذي يعلو رأسنا. والقصر مؤلف من عشر غرف تحيط بباحة سماوية. أما بهو الاستقبال فهو الممر الذي يوصل الى هذه الغرف حول الباحة. وأثاث الغرف لا يتناسب بأي حال مع ما يجب أن يحويه قصر أعد لكبار زوار الملك. وكانت غرفتي لا تحتوي سوى سرير حديدي ومنضدة وكرسي. وكانت الغرفة المجاورة فارغة، في وسطها طنجرة كبيرة تملأ بالماء الساخن للاستحمام. وكان في احدى نواحي الغرفة مرحاض، وهو فتحة تعلو بئراً عميقة ذات رائحة غير طيبة.

«وظل السيد (جميل) مردم طريح الفراش خمسة عشر يوماً قضيناها في شرب الشاي والقهوة، في القصر، وفي التجول في المدينة متفرجين. وكنا كلما تجولنا في الازقة نلمس بؤس الأهلين وفقرهم وحالتهم المزرية ونشاهد الأوساخ والقاذورات في الشوارع والساحات ونخترق أسراب الذباب المتطاير ونأسف لهذه الحالة التي لا تطاق ولا تأتلف مع ما يجب أن تكون عليه عاصمة المملكة، والتي لا تشاهَد إلاّ في

صغرى القرى السورية. أما حجة القائمين على الأمر بأن المملكة غير موفورة الموارد ـ اذ لم تكن آبار الزيت قد أعطت ثمارها بعد ـ فانها حجة لا تتفق مع ما يشاهده الزائر من الاسراف الواسع في قصور الملك على المآدب العديدة، أو مع الهبات التي كان يمنحها الملك بسخاء غير محدود لمن ينال منه حظوة أو يلتمس منه مأرباً.

«وفيما عدا الأيام التي كنا ندعى فيها للولائم عند الأمراء، فاننا كنا نتناول طعامنا في قصر الربيعة، فنشاهد في الصباح ورود الخروف المعد للذبح وكيس الارز وتنكة السمن لتأمين أكلنا نحن والعبيد الكثيرون الملتفون (كذا) حولنا. ولكن حظنا من الطاهي كان سيئاً. فالطعام الذي كان يطهيه لم يكن شهياً، مما دفع أحد رفاقنا، وليد صبحي العظم، الى دخول المطبخ للاستطلاع ومعرفة أسباب عدم جودة المآكل. فعاد قائلاً: «احمد الله على أنكم لم تشاهدوا ما شاهدت في حالة الطباخ والمطبخ». وعكفنا بعد ذلك على الاكتفاء بعلب الكونسروة المسخنة»[١٤٠].

وبعد ست سنوات على هذه الرحلة عاد صاحبنا الى الرياض نفسها، فوجد فرقاً كبيراً بين الحالة التي كانت سائدة في ربيع ١٩٤٤ وبين الحالة التي شاهدها في الزيارة الثانية،

(١٤٠) المجلد الأول: ص ٢٦٧/٢٧٠.

وقد بدا له «البون الشاسع في الترف والاتقان وطيب المآكل، اذ كانت الدولارات قد فعلت مفعولها وزودت القصور بوسائل الراحة والترف. واستجلب الطهاة الامريكيون، وأصبحت الموائد تجمع بين الوان المآكل العربية والافرنجية بما يفتح الشهية ويرغب المدعو في الاقبال على الطعام بنفس مطمئنة»[١٤١].

ويمضي الرئيس العظم في تسجيل مشاهداته ووقائع زيارته الأولى: «وبعد ان استعاد السيد (جميل) مردم صحته، تجددت المآدب احتفالاً به. لكنه لم يستطع مقابلة الملك لأنه كان قد غادر الرياض الى الفسحة الربيعية في الصحراء. فودعنا الأمراء وتوجهنا إلى روضة التنهاد حيث مقر الملك. وهذا المقر مؤلف من مئات من الخيم موزعة في ساحة طولها نحو عشرين كيلومتراً، وعرضها لا يقل عن ذلك. أما مركز اقامة الملك فهو مؤلف من عشرات الخيم الكبيرة، منها ما هو معد لسكنه هو وزوجاته وأتباعه، ومنها ما هو معد للاستقبال والولائم وهي مفروشة بالسجاد وعلى جوانبها الاربعة مقاعد وثيرة مغطاة أيضاً بالسجاد والمساند. أما الطعام في الخيمة الخاصة فموضوع في عشرات الصحون على الأرض، فيجلس المدعوون حوله القرفصاء ويتناولون بأيديهم ما يختارون من

(١٤١) المجلد الأول: ص ٢٧٠.

الأنـواع التي لا تحصى. وكان الملك يجلس عـلى كـرسيـه ذي العجلات ينظر من أعلى الى جميع مدعويه ويؤانسهم بالكـلام ويتحفهم بيـده الكريمـة بقطع اللحم الكبـيرة التي يقـطر منهـا الـدهن والسمن فيتلقفونها كمنحة سخيّة. وبعـد الانتهاء من الطعام يغادر المدعـوون المكان ويعـودون الى خيمة الاستقبـال، حيث يستمعون الى أخبار الساعة يتلوها عليهم ثلاثة موظفـين يركعون أمام الملك، أولهم لنقل أخبار القاهرة، والثاني لنقـل أخبار لندن، والثالث لنقل أخبـار برلـين. فكان الملك يـوقف القارىء بين الفترة والأخرى ليعلق على الخبر ذاكـراً ملابسـاته ونتـائجه ويستعـين بندمـائه وكبـار حاشيتـه (كـالسيـد خـالـد القرقني ويوسف ياسين وغيرهما) لتذكيره باسم شخص أو بلد يـأتي الى خاطـره دون أن يسعفه لسـانه بـذكره. وكـان يفقش بأصابعـه ويقول لأحـدهم: «اشنو اسمـه يا خـالد... أو يـا يـاسين». وعنـدئذ تـرى اضطراب المخـاطَب وتلعثمه، اذ لا يكون سياق الكلام يدل على الاسم المطلوب فيـدفعون بـاسم تشرشـل وروزفلت وستالـين وهتلر وموسـوليني عفـواً... أو يقذفون بـاسم لندن أو واشنـطن أو برلـين أو روما احتيـاطاً، لعلهم يصيبـون المرمى وتؤاتيهم الصـدفة الى اكتشـاف الاسم الذي يفتش عنه الملك وهو مستمر عـلى فقش أصابعـه والنظر الى مجاوريه شزراً كلما طال الأمد... فاذا ما عثر أحدهم على

الاسم، انفـرجت الاسـاريـر وعـاد الصفـاء إلى وجـوه حملة العرش.

«ثم يؤتى بالفاكهة وأنواع الحلويات، وبعدها يطوف أحـد العبيد بحنجور العـطر الشديـد الرائحـة فيصب في يدي كـل زائر كمية قليلة منه يبقى شذاها بضعة أيام. والطواف بالعطر اشارة للزائرين بالانصراف لم اكن أعرفهـا. وصدف أنني كنت عند الملك في الرياض مدعواً الى العشاء. وعندما طـاف علينا صاحب العطر، لم يخطر في بالي انها الاشارة بانتهاء المجلس، فـظللت اتحادث مـع الملك منتـظراً أن يقف لاستـأذن منه بالانصراف، وفقاً لما أعلمه من التقاليد المتبعـة لدى الملوك أو الكبار. فعاد صاحب العطور بعد ربع ساعة وصب في ايـدينا وجبة جديدة حسبتها زيـادة في التكريم، وحـانت مني التفاتـة الى صديقي الدكتور شيخ الأرض فأومأ اليّ بلزوم الاستئـذان من الملك فقمت عنـدها وبـارحنا البهـو. وجاء اليّ الـدكتـور وقال لي: «لماذا لم تستأذن عندمـا طيف علينا بـالعطور للمرة الأولى؟» فأجبته: «وما علاقة العطور بـالاستئذان؟» فـاعلمني العادة المألوفة فضحكت وضحكنا كلنا للهفـوة التي بدت مني وصرت اذا ما دخل موزع العطور على البهو الذي نكون فيـه اتنحنح في مجلسي ولا أدعه يكمل طوافه، حتى أقوم واستـأذن بعجلة ظـاهـرة والملك يبتسم. وكـان الـدكتـور قـد روى لـه قصتي، فضحـك كثيراً وقـابل مخالفتي لقـواعـد البروتوكول

المعمول به في بلاطه بدون غضب.

«وكان الملك يختار كل سنة منطقة يقضي فيها شهراً أو أكثر من أشهر الربيع. وقبل أن ينتقل العاهل الى المكان المختار كانت سيارات النقل الكبيرة تروح وتجيء من والى الرياض وتنقل الأثاث وادوات المكتب ومعدات الطبخ وغيرها من الأمتعة وتنصب الخيام في المراكز المقررة لكل اسرة. وكانت الكهرباء تنار بمحرك خاص، والمياه تضخ من البئر، ثم تأتي سيارات العائلة المالكة، الفخمة منها والعادية. فكان بعضها ذا سدائل داخلية محكمة لحجب السيدات عن أعين الناس. ثم يصل موكب الملك وحاشيته الخاصة فيكتمل الجمع. ويبلغ سكان تلك المدينة بين العشرين والثلاثين ألفاً فتصبح عاصمة الملك المتحركة التي منها يتصل بأمرائه وعماله بواسطة اللاسلكي. وكان الملك مولعاً باللاسلكي ولعاً كبيراً ويعتمد عليه لمخابرة عملائه يومياً في كل قرية ليطلع على حالة الأمن وانتقال العشائر وما يجري في سائر انحاء مملكته، كما كان يعتمد على السيارات ويقتني منها الألوف يستعملها للهدايا ولتأمين المواصلات في بلاده. وكان محقاً في اعتماده على هاتين الواسطتين السريعتين. اللاسلكي والسيارة، فلولاهما لما تيسرت له السيطرة التامة على أنحاء مملكته الواسعة الأرجاء.

«وكانت الخيمة المخصصة لي في روضة التنهاد مفروشة بأثاث يُستغرب وجوده في هذه الصحراء. كان أحسن من مفروشات قصر الربيعة في الرياض. فالسرير مغطى بناموسية ناعمة، والخزانة مفصصة، والمقاعد مكسوة بالقماش المخملي، والمرآة كبيرة، والسجاد العجمي فاخر. وكان الى جانب هذه الخيمة، خيمة أخرى أصغر حجماً، في وسطها وعاء كبير من النحاس يمكن استعماله كمغطس للاستحمام.

«في هذا الجو وعلى هذا الشكل كان يعيش الملك ابن سعود، محاطاً بحاشية لا يقل عددها عن المئة، وبجيش من الخدم العبيد يحصون بالمئات. وكان يدير شؤون مملكته بنفسه، ويستقبل السفراء والزوار وأفراد رعيته. وكانت لذته في هذه الحياة الدنيا، العطر والنساء والقنص.

«وكنا بعد الاستئذان من الملك والخروج من خيمته، نجتمع في الخيمة المعدّة لنا كصالون. فيأتي لزيارتنا كبار حاشية الملك وهم السادة: خالد القرقفي، ورشيد عالي الكيلاني، وخير الدين الزركلي، والشيخ يوسف ياسين، والدكتور شيخ الأرض. وقد جاء كل واحد منهم من احدى البلاد العربية. فتجمعوا حول الملك يعيشون بكنفه وهو يستشيرهم بأموره ويعهد اليهم معالجة بعض الشؤون. وقد اصاب في استجلاب الكثيرين من أبناء العرب،

كالشخصيات التي ذكرتها وغيرهم ممن يخطر على البال اسمهم، كرشاد فرعون واسعد الفقيه، ومن لا يخطر. ولولا هؤلاء السادة لما استطاع ان يدعم اسس ملكه مستعيناً بالخبرة التي يتحلون بها. وقد كانت المراكز التي تبوأها السادة المشار اليهم، مجلبة لنفع عميم، ما كانوا يحلمون بجزء منه لو بقوا في ديارهم الأصلية. على ان الحياة في تلك الربوع القاسية لم تكن محتملة بدون تلك النعم المغرية. وقد اعطوا الملك زهرة شبابهم وكرسوا وقتهم لخدمته، فليس مستغرباً أن ينالوا منه ما نالوا»[١٤٢].

لقد أجزنا لنفسنا نقل هذه الصفحات واللوحات الشيقة الملونة بحرفيتها، لنؤكد على الجهود الجبارة التي بذلتها وتبذلها المملكة العربية السعودية على طريق التمدين والتحديث والمعاصرة والتطوير.

ونحن اذ نطالع هذه المشاهدات «العظْمية» الحية المؤثرة، يحز في نفسنا الألم ويغالبنا الحزن الشديد على لبنان الذي يتمزق ويتفتت على أيدي بعض من أبنائه، وكان في الأمس القريب الوطن المثالي أو شبه المثالي في المنطقة العربية من أقصاها إلى أقصاها. ويا ليت اولئك الذين يدّعون الحضارة والتفوق، ينظرون الى ما فعلت أيديهم، ثم ينظرون الى ما

(١٤٢) المجلد الأول: ص ٢٧١/٢٧٢.

يفعله الآخرون، وعندئذ يعلمون أن الأيدي التي تهدم وتقتل وتدمّر وتفتك انما هي الأيدي القذرة، أما الأيدي التي تبني وتعمّر وتحفظ أمن الناس وتحافظ على حقوقهم فهي الكريمة السخية النظيفة التي تستحق الاحترام والتكريم والتبجيل.

هذا، ولن اتردد في الاعلان عن خوفي وقلقي على المملكة العربية السعودية والكويت وسائر الخليج العربي من خليجي أحمق يحلم أن يكون شرطي الخليج الجديد.

الخاتمة

لقد صرفنا وقتاً طويلاً في قراءة «مذكرات خالد العظم» ومراجعتها وتمحيصها، فظهر لنا ماظهر من الحقائق الدامغة والمعلومات المفيدة والمؤلمة في آن، فأردنا أن نبين بعضها للذين لم يتسن لهم الاطلاع على هذا السفْر النفيس، آملين من المسؤولين السوريين واللبنانيين وغيرهم في الشرق والغرب، أن يحكّموا العقل والضمير ويبادروا إلى انقاذ لبنان وشعبه من الجحيم السعير الذي فيه، دون التعرض إلى المصالح السورية التي هي عزيزة علينا أيضاً، ونريد لها السلامة والاستقرار والازدهار، كما للعالم كافة.

١٧ كانون الثاني ١٩٩٠

الفصل الرّابع

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

تمهيد:

بين النصف الثاني من عام ١٩٣٧ والنصف الأول من عام ١٩٤٠ سجّل المغفور له الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الدمشقي نشاطاً سياسياً إجتماعياً مثيراً مقلقاً. فمن جهة كان يلتقي، في عيادته في حارة الشعلان بدمشق، المرضى يأتونه من كل حي وضاحية، فيعاينهم مجاناً وأحياناً يقدم لهم الأدوية اللازمة بدون ثمن حتى دعي «طبيب الفقراء»، ومن جهة كان يسعى إلى إقامة المهرجانات واللقاءات الشعبية ليحاضر أو يخطب منتقداً الدولة الوطنية والانتداب الفرنسي، ومنددا بالمشاريع الاستعمارية وخاصة الاتفاق الفرنسي - التركي الذي قضى على عروبة لواء الاسكندرونة وسلخه عن الوطن الأم: سوريا، ونظراً لبلاغته وسعة اطلاعه على مجمل القضايا الوطنية والقومية دُعي «خطيب الوطنية»، ومنهم من يذكر أنه لُقّب بـ «طبيب الثورة» و «طبيب الأمة» و «فارس الأمة»[1].

---

(١) غسان مكحّل: مجلة المنابر، العدد الثامن، تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٦ ص ١١٩.

والأمر أثار حسد منافسيه وحقدهم لا سيما منهم زعماء الكتلة الوطنية مثل: شكري القوتلي وجميل مردم بك وسعد الله الجابري ولطفي الحفار، وأخذ «يتلقى في البريد رسائل مغفلة يهدده أصحابها بالقتل، فلا يعيرها أي اهتمام»[2]. لذلك نصح إليه اخوانه، أعضاء «الهيئة الشعبية» التي كان يتزعمها، «أن يعيّنوا له مرافقين اثنين أو مرافقاً واحداً يمشي خلفه أو على مقربة منه حذراً من وقوع أي حادث مكروه»[3]. و«لكن الشهبندر كان يرفض ذلك بشدة وعنف»[4] مردداً مقولته الشهيرة: «لم أفعل طيلة حياتي شيئاً يسيء إلى بلادي ليقوم من يفكر بالاعتداء علي»[5]، ما يعني أن الحسد أو الحقد أو الطمع الاستعماري ـ في اعتقاده ـ لا يرى القتل ضرورة بل انه عمل ممنوع مهما تفاقم الخلاف أو الصراع.

تجربتان

بيد أن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، المولود في دمشق سنة ١٨٨٢ والمتخرج في الجامعة الأميركية ـ بيروت طبيباً سنة ١٩٠٤، أرغم على ترك دمشق مرتين: الأولى عام ١٩١٤ حينما اندلعت الحرب العامة، وقد هرب من جمال باشا وجمعية «الاتحاد والترقي» التي انتسب إليها قبلاً ثم ناوأها لأنها اتجهت

(٢) نصوح بابيل: صحافة وسياسة ص ١١٩.

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) نفسه

في سياستها إلى «التتريك» والتمييز بين الاتراك والعرب، والثانية عام ١٩٢٥، إذ فرّ من وجه الفرنسيين الذين اعتقلوه في جزيرة أرواد سنتين وبضعة أشهر، لاشتراكه في حفلة المستر شارل كراين الأميركي، ليمكث في القاهرة مع رفقائه العاملين لاستقلال سوريا مايزيد على عشر سنوات، اشتغل خلالها بالطب وكتابة المقالات السياسية والاجتماعية في الصحف المصرية لاسيما منها «المقتطف» و«الهلال».

ثم ان «الهيئة الشعبية» التي وصفت بأول حزب سياسي سوري ينشأ بعد الاحتلال الفرنسي، وكان مجلسها الاداري مؤلفاً من الدكتور الشهبندر نفسه رئيساً، وحسن الحكيم أميناً عاماً، وأبو الفرج الموقع خازناً، ولطفي الحفار وفوزي الغزي وسعيد حيدر وإحسان الشريف وتوفيق شامية وفارس الخوري وعبد المجيد الطباخ وأديب الصفدي أعضاء، لم تعمّر طويلاً، رغم التأييد الواسع الذي شهدته في حلب وحمص وحماه ومدن وبلدات الساحل السوري وجبل الدروز، وقد انحلّ هذا التجمع السياسي مع قيام ثورة ١٩٢٥ وتفرّق أعضاؤه في كل اتجاه.

«ومضى حزب الشعب في نشاطه في جو عاصف بروح السلبية والغليان، يدل على ذلك ما حدث في دمشق أثناء قيام اللورد بلفور صاحب الوعد الصهيوني المشؤوم بزيارة لدمشق

بعد أن قام بزيارة فلسطين. ولما اتصل بعلم الشعب نبأ هذه الزيارة أعدت له دمشق استقبالاً غاضباً ساخطاً لتعبّر له عن مقتها لفعلته النكراء. ففي ٨ نيسان ١٩٢٥ تجمع عشرات الآلاف من المواطنين أمام المحطة التي سيصل إليها بلفور، فخشيت السلطة الفرنسية أن يفتك الشعب به، فأنزلته في محطة القدم بدلاً من محطة الحجاز، ونقلته سراً إلى فندق فكتوريا، فلما علمت الجماهير بذلك، توجهت نحو الفندق وهي تهتف للحرية والاستقلال وتنادي بسقوط بلفور، وكانت السلطة أحاطت الفندق بقوة كبيرة لحماية اللورد المجرم الذي تحدّى العرب بوعده المشؤوم.. وقد جاء ليتحدى قلب العروبة النابض (دمشق)، واصطدمت القوة بالمتظاهرين، فسقط عدد كبير من الجرحى، وقبض على عدد كبير من زعماء المتظاهرين.

«وفي اليوم الثاني أضربت دمشق، وسارت في مظاهرة كبيرة تنادي بسقوط بلفور، فاصطدمت بقوى الأمن، وأطلق الجنود الرصاص، فسقط عدد من القتلى والجرحى، وخشيت السلطة الفرنسية مغبة هذه الظاهرة السلبية العنيفة، فأوفد الجنرال ساراي الذي كان في دمشق مندوباً عنه إلى بلفور أقنعه بالسفر لأن السلطة لا تستطيع حماية حياته، فأخرج بلفور من باب خلفي، ونقل تحت حراسة الدرك الفرنسي إلى

طريق بيروت.. وهكذا فقد أعربت دمشق عن سخطها على ذلك الشريد الذي قدّم فلسطين لقمة سائغة للصهيونية»[٦].

وراحت السلطات الفرنسية تلاحق الزعماء «الشعبيين» قمعاً واضطهاداً، وتفرض على القرى وسكان الأرياف غرامات حربية بصورة عشوائية، وسمحت للمتطوعين «الذين جمعوهم من العناصر الدخيلة على الشعب السوري، وأطلقوا عليها اسم «القوّات الخاصة» «الملّيس»[٧]، بممارسة العنف والبطش حيث لا يجدون انصياعاً لأوامرهم وولاء خالصاً مطلقاً لفرنسا ومندوبها ومساعديه. ولما «احتلّ الجنرال الفرنسي أندريا مدينة السويداء يوم ٢٥ نيسان ١٩٢٦، أصدر المفوّض السامي دي جوفنيل قراراً بتعيين الداماد أحمد نامي بك رئيساً للدولة السورية الى أن يجتمع المجلس المنتخب ليختار رئيساً للدولة. وقد كان تاريخ هذا القرار ٢٦ نيسان ١٩٢٦»[٨]. وتمكن الداماد، بمساعدة الفرنسيين، من تأليف حكومته التي ضمّت كلاً من فارس الخوري ولطفي الحفار ويوسف الحكيم وحسني البرازي وواثق المؤيد وشاكر نعمت الشيباني، وطلعت هذه الحكومة

---

(٦) نفسه: ص ٤٣.

(٧) نفسه: ص ٥٨.

(٨) نفسه: ص ٥٦.

ببيان مطوّل أوضحت فيه الدوافع التي فرضت على الوزارة المساهمة في الحكم، وأكدت على البرنامج التالي:

«١ ـ دعوة الجمعية التأسيسية لسن دستور للبلاد.

٢ ـ تحويل الانتداب إلى معاهدة تعقد مع فرنسا لمدة ثلاثين سنة على أن يحتفظ فيها لفرنسا بالنفوذ السياسي والرجحان الاقتصادي فقط على شرط عدم الاخلال بالسيادة القومية.

٣ ـ تحقيق الوحدة السورية.

٤ ـ توحيد النظام القضائي بصورة تصون حقوق المواطنين والأجانب.

٥ ـ تأليف جيش وطني بحيث تتمكن القوات الفرنسية من الجلاء التدريجي عن البلاد.

٦ ـ طلب إدخال سورية في عصبة الأمم واعطائها حق التمثيل الخارجي أسوة بالعراق.

٧ ـ درس اصلاح النظام النقدي واعادة الاساس الذهبي في عملة البلاد بصورة تدريجية.

٨ ـ استحصال العفو العام مع الاحتفاظ بالحقوق الشخصية.

٩ ـ استحصال قرار بالغاء الغرامات الحربية عن دمشق وغيرها.

١٠ ـ إيجاد طريقة للتعويض عن منكوبي الثورة»[٩].

كان هذا البرنامج موضوع المفاوضات المتعمقة بين المفوّضية العليا بشخص المفوّض الفرنسي ونائبه بيير اليب والكولونيل كاترو رئيس الاستخبارات الفرنسية العامة من جهة، وبين الحكومة السورية بكامل وزرائها من جهة، وصادق الفريق الفرنسي على البنود العشرة المشار إليها. «وفي أثناء المفاوضات كتب دي جوفنيل وثيقتين بخط يده موجهتين إلى الداماد يعترف في الأولى بحق سورية في الحصول على مرفأ بحري، وتعهد باعطاء طرابلس مع عكار على طول السكة الحديدية حتى بعلبك فتصل طرابلس بدمشق وحلب من دون أن تمرّ السكة في الأراضي اللبنانية»[١٠]. واعترف في الوثيقة الثانية «بحق سورية في وحدتها»[١١].

ثم رأينا المفوض السامي نفسه، وفي ٢٥ نيسان ١٩٢٦، يوافق على الدستور الجديد للبنان، مع أنه «ينصّ على أن لبنان وحدة لا تتجزأ، ولا يجوز التنازل عن أي

(٩) نفسه: ص ٥٧.
(١٠) نفسه
(١١) نفسه

جانب منها»[12]، والأمر أدهش أحد الوزراء السوريين، فلما سأله عن هذا التناقض المكشوف قال: «لا أرى فرقاً بين الدستور اللبناني وبيان الحكومة السورية ما دامت وزارة الخارجية الفرنسية وعصبة الأمم لم توافقا عليهما». أضاف دي جوفنيل: «فلهما وحدهما حق البت في هذه الشؤون»[13]. ثم أكد للوزير السوري أنه ذاهب إلى باريس وجنيف «لهذه الغاية»[14]. وقبل أن ينصرم شهر أيار ١٩٢٦ غادر المفوض بيروت إلى باريس. «وانتظر الناس عودته، ولكنه لم يعد»[15] فذهبت عهوده ووعوده «أدراج الرياح»[16].

الحي

ومازال حي الميدان يذكر بأسى كبير «الهجوم الوحشي»[17] الثالث، الذي فاجأته به السلطات الفرنسية ولما يمضِ على تأليف حكومة الداماد ثلاثة أيام. لقد حاصر المهاجمون الحي الوطني من الجهات الأربع، فانطلق الجنود الشراكسة والسنغاليون يحطمون أبواب المنازل والمخازن ويطلقون النار على كل من يحاول الهرب من الموت، «لا فرق عندهم في

(١٢) نفسه
(١٣) نفسه
(١٤) نفسه
(١٥) نفسه
(١٦) نفسه
(١٧) نفسه

ذلك بين الأطفال والنساء والشيوخ والرجال»[18]، وظهرت الطائرات الحربية في سماء المدينة فقصفت الحي من الجو، حين كانت المدافع تقذف حممها دون رحمة، فاستشهد أو جرح العشرات من السكان الآمنين. عندئذ «قام فريق من الميدانيين بمقابلة رئيس الحكومة الجديدة الداماد أحمد نامي بك واستغاثوا به فلم يلب لهم مطلباً، بل اعتبرهم مسؤولين عن هذه الكارثة لأنهم يؤون الثوار، ونصح لهم بطردهم وبدفع الغرامة الجديدة وهي ألف ليرة عثمانية ذهباً»[19].

حيال هذه المعضلة وهذه المأساة الوطنية، كان لا بد للوزراء الوطنيين الثلاثة: فارس الخوري ولطفي الحفار وحسني البرازي، من تقديم استقالتهم الجماعية وطلبهم من رئيس الحكومة الداماد أن يعلن هو أيضاً موقفه بوضوح وصراحة، «فإما أن ينضم إليهم فيستقيل، وإما أن يعمل في الاطار الفرنسي»[20]، فكان رده عكس ما أراده الوزراء المذكورون، مؤثراً الاستمرار في الحكم غير آبه لما يجري، فتباينت الآراء والمواقف، وساء وضع الحكومة، ما دعا السلطة إلى القبض على الخوري والحفار والبرازي، ليتم

(١٨) نفسه
(١٩) نفسه
(٢٠) نفسه: ص ٥٨.

نفيهم إلى الحسكة في أقصى الشمال السوري، ونفت معهم فوزي الغزي والمحامي بدر الدين الصفدي والصحافي أديب الصفدي وسواهم، كما مرّ معنا في الفصل المتعلق بالمرحوم فارس الخوري.

يعتقد نقيب الصحافة السورية الأول نصوح بابيل أن المفوض دي جوفنيل، الذي لم يعد إلى منصبه في سوريا ولبنان، حاول جاهداً إقناع وزارة الخارجية الفرنسية بالموافقة على عهوده التي قطعها، لاسيما بعد أن انتهت الثورة السورية في جبل الدروز واكثر المناطق السورية ولم يبق في البلاد «سوى السلبية الواعية التي يقودها زعماء مخلصون لوطنهم»، ولكنه (دي جوفنيل) «اصطدم بالجبهة الاستعمارية القوية التي تستحوذ على التوجيه في وزارة الخارجية»، وقد صبّت عليه «جامات اللوم والتقريع متهمة اياه بالتساهل مع الثوار السوريين» فوجد نفسه مرغماً على «تقديم استقالته»[٢١]. وإلى أن وصل خليفته المفوض هنري بونسو، الى العاصمة اللبنانية، وكان ذلك في ١٣ تشرين الأول ١٩٢٦، «خلت ساحة المفوضية العليا في بيروت من مسؤول مدني يتولى الاشراف على الأعمال بعقلية سياسية، فتولى زمام الأمور العسكريون، وهم طغمة من المغامرين الذين درسوا علمهم

(٢١) نفسه

العسكري في بؤر خاصة تلقّنهم أفظع الطرق الاستعمارية للابادة والاستئصال، وكبح جماح الثورات الوطنية»[٢٢].

وبدلاً من أن يبادر المفوّض الجديد المذكور آنفاً إلى معالجة الوضع السوري الذي كان سائداً، وينهي سريعاً الخلاف المتفاقم بين حكومة الداماد والزعماء الوطنيين، التزم الصمت بحجة أنه ماضٍ في درس المشكلة والتنقيب عن أسبابها وخلفياتها، غير أن صمت هذا المفوّض طال حتى تجاوز الثمانية شهور. «وفي ٢٧ تموز ١٩٢٧ خرج عن صمته فأصدر بياناً نشرته الصحف في سورية ولبنان أوضح فيه عن نتائج دراسته وتحرياته، واكد فيه حرص فرنسا على تأدية واجبها نحو البلاد السورية بموجب المادة الأولى من صك الانتداب وكرّر الجمل التي استخدمها اسلافه، ولم يأت بشيء جديد»[٢٣] يستحق الاشارة إليه.

أما الزعماء الوطنيون فقد تنادوا إلى مؤتمر عقدوه في بيروت، حضره هاشم الأتاسي، مظهر باشا رسلان (حمص)، عبد الرحمن الكيالي (حلب)، عبد الحميد كرامي، عبد اللطيف البيسار، عارف الحسن (طرابلس)، عبد الرحمن بيهم، عبد الله اليافي (بيروت)، عبد القادر حسني الكيلاني،

(٢٢) نفسه
(٢٣) نفسه

نجيب البرازي (حماه)، الأمير سعيد الجزائري، عفيف الصلح، إحسان الشريف (دمشق)، وقد تخلف ابراهيم هنانو في مستشفى طرابلس لمرضه. وصدر عن المجتمعين بيان مؤرخ في ١٩ تشرين الأول ١٩٢٧ كان بمثابة الرد على بيان بونسو، إذ بيّنوا مآخذهم على المفوض نفسه الذي تجاهل الحرية الطبيعية للأمة السورية في صحافتها واجتماعاتها وتحركاتها، وتأليف أحزابها ورفع الأحكام العسكرية والعرفية وإلغاء النفي الاداري وسياسة الإبعاد، مثلما تجاهل العفو العام عن المعتقلين والمحكومين السياسيين والمبعدين عن أوطانهم. «وعلى هذا النحو المعتدل ناقش الوطنيون المجتمعون في بيروت بيان المفوض السامي. وقد ذهب هذا الرد الى مكانه في زوايا الاهمال الواسعة التي كانت تزخر بأمثاله من البيانات والاعتراضات والشكايات التي كان يقدمها السوريون»[٢٤].

وانقضى حوالي أربعة أشهر على هذا البيان الوطني فاقتنع بونسو بضرورة إسقاط حكومة الداماد، وكانت تضم آنذاك واثق المؤيد ويوسف الحكيم وشاكر الحنبلي وعبد القادر العظم ورشيد المدرّس وشكيب ميسّر، بعد أن أمضت في الحكم سنتين مليئتين بالمتاعب والفتن والاضطرابات، على أن اسقاط

(٢٤) نفسه: ص ٥٩.

هذه الحكومة في التاسع من شباط ١٩٢٨ إنما كان «نوعاً من الزلفى التي قدّمها المفوّض السامي السيد بونسو للشعب السوري»[٢٥] الذي بدا له أن بونسو يريد «فتح صفحة جديدة من المفاوضات التي تستهدف التفاهم والحوار، حين وقع اختياره على الشيخ تاج الدين الحسني»[٢٦]. والحقيقة أن بونسو أصدر في السادس عشر من الشهر نفسه قراراً باسناد رئاسة الوزارة الى الشيخ تاج، وتولى الوزارات إلى جانبه: المحامي سعيد محاسن للداخلية، وجميل الالشي (عسكري قديم) للمالية، ومحمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي) للمعارف، وصبحي النيّال (أحد قضاة حلب) للعدلية، وعبد القادر الكيلاني (من وجهاء حماه) للزراعة، وتوفيق شامية (من وجهاء دمشق) للأشغال العامة[٢٧].

وسرعان ما انقلبت سياسة الانفتاح هذه، كما وصفت في حينه، إلى قمعية استغلالية، اذ هدمت فرنسا جميع الجسور التي أقامتها في سبيل الاتصال بالشعب بالحوار والتفاهم، وراحت تمعن في تفتيت سورية الطبيعية وتمزيقها، فأصدر بونسو قراراً بتاريخ ٢٥ أيار ١٩٣٠ أعلن فيه خمسة دساتير

(٢٥) نفسه
(٢٦) نفسه
(٢٧) نفسه

لكل من سوريا ولبنان وجبل الدروز ودولة العلويين ولواء الاسكندرونة[٢٨]. وعندئذ أخذت الأحداث تتالى، مثل: حل المجلس التأسيسي (البرلمان)، وعزل الشيخ تاج من رئاسة الحكومة، ليأخذ مكانه بديع المؤيد ثم محمد علي العابد، الذي كان سفيراً للسلطنة العثمانية في واشنطن، وارجاع الشيخ تاج نفسه إلى الرئاسة فيستمر حكمه فترة أخرى من الزمن. وانقضى عام ١٩٣٥، و بدأ الحكم الوطني بانتخاب هاشم الاتاسي عام ١٩٣٦ رئيساً للجمهورية، وتكليف جميل مردم بك رئاسة الحكومة، واندلاع الحرب الكونية الثانية التي غيّرت وجه التاريخ لا في سوريا فحسب بل في العالم من أقصاه إلى أقصاه.

الواقعية

لقد أردنا من هذا العرض المكثف والسريع للأحداث السورية خلال الفترة التي برز فيها الزعيم الشعبي الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، تأكيداً على أهمية المنهجية الواقعية في السياسة، وعلى الحاجة الماسة إلى المرونة في النضال الوطني. ومن أسف أن صاحبنا الشهبندر ما كان لا واقعياً ولا سلساً، بل انه مثالي وحاد الطبع، ولا نعلن سراً اذا قلنا انه كان متهوّراً لا يحسب لخصومه أي حساب.

(٢٨) نفسه

فهو ليس مثل هاشم الأتاسي أو فارس الخوري أو الشيخ تاج أو شكري القوتلي أو جميل مردم بك أو خالد العظم أو سواهم من الزعماء السوريين الذين غالبتهم المتاعب والأزمات، فلا انسحبوا ولا انكسروا، وانما صبروا دون تعنت، وركدوا ولكن لفترة محدودة لئلا يذهب بهم الطوفان. على أن قولنا هذا ليس معناه أن النضال الوطني ممكن تأجيله أو تكييفه حسب مشيئة المحتل، وان الثورة ينبغي ألاّ تخرج عن المقاييس والمعايير، أية مقاييس وأية معايير، ولكنها دعوة صادقة مخلصة الى المحافظة على تقنية النضال وصدقية الثورة، وكلا الأمرين من عمل أصحاب الطاقات والمواهب والسمات الحميدة مثل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر نفسه.

وعلى كل، فان الظروف الاستعمارية الصعبة والقاسية التي استدعت حل «الهيئة الشعبية» وشرّدت رئيسها واخوانه، استدعت كذلك «تنظيم قوى الشعب تحت قيادة وطنية قوية» بل «تأليف كتلة سياسية اطلق عليها اسم «الكتلة الوطنية»، وكانت في بادىء الأمر مؤلفة من عدد من أعضاء حزب الشعب (الهيئة الشعبية)»[٢٩].

وكما ثابت فإن «الكتلة الوطنية» «استقطبت عدداً من خيرة رجال البلاد نفوذاً ومكانة، وخبرة وثقافة، وانصرف كل

(٢٩) نفسه: ص ٦١.

واحد منهم في منطقته الى العمل بتوجيه من القيادة العليا التي اعتمدت في كفاحها الجديد ضد المستعمر على عنصرين رئيسيين من عناصر الشعب، هما: الأسواق والأحياء، «فكانت الأولى تضرب عن أعمالها وتغلق حوانيتها لمجرد أول اشارة تصدر إليها عن القيادة، وكذلك زعماء ورجال الأحياء فقد كانوا يتقدمون المظاهرات»[٣٠] كلما دعت الحاجة ودائماً بأمر من القيادة المشار إليها. واذ اشتد الصراع على السلطة، فيما بين الكتلويين أنفسهم، ونشأت أحزاب قومية واشتراكية ثورية، انطفأ والى الأبد سراج «الكتلة الوطنية» الذي سار على هديه الكثيرون، فمنهم من وصل ومنهم من بقي على الدرب يتأمل ويتفكر حتى جاءته الصاعقة العاتية.

واذا ما علمنا أن المفوّض بونسو الذي أصدر قراره «رقم ٤ لقمع الجرائم»، تحت ستار مكافحة الشيوعية والشيوعيين، انما كان يرمي في الحقيقة إلى القضاء على الوطنيين الذين قاوموا سلطة الانتداب[٣١]، فلا من يبرّر الحملة العنيفة التي شنها المغفور له الأمير شكيب ارسلان على الشهبندر، وقد اتهمه بالتزلف للمسيحيين والعمل ضد الوحدة الاسلامية.

ففي ١٤ أيلول ١٩٣٠، بعث الأمير شكيب ارسلان

(٣٠) نفسه

(٣١) نفسه

برسالة إلى المجاهد المغربي عبد السلام بنونه قال فيها: «واتهم (الشهبندر) بأنه امتنع عن الدفاع عن المسلمين والاسلام بحجة أنه علماني، (و) ليس الأمر آتياً من جهة صيغة مدنية وعلمانية بل كل مقصده التزلف الى المسيحيين لأجل أن يميلوا اليه ويقولوا: هذا لا يذكر الاسلام أبداً فهو غير متعصب وكم من مرة اتخذ الشهبندر كتاباتي في الدفاع عن الاسلام والمسلمين سبباً لاظهار تعصبي الاسلامي أمام المسيحيين.. وكان هذا يؤذيني منه اكثر من طعنه بحقي... ولكنني كنت أحزن لرؤية رجل يتصدى لزعامة سوريا وهو يبيض وجهه أمام النصارى بقوله: انظروا هذه المقالات التي يكتب شكيب ارسلان، وهذه المقالات ليس فيها شيء ضد النصارى ولكن فيها دفاع عن المسلمين المظلومين»[٣٢].

وفي ١٩ شباط ١٩٣١ بعث الأمير نفسه الى صديقه بنونه برسالة أخرى جاء فيها: «أما الشهبندر.. أخبرتكم من قبل أنه في حياته ما وجدت له كتابة فيها دفاع عن إسلام أو مسلمين.. وليس هذا كله من بغضه بالمسلمين، كلا بل من تبصيصه للمسيحيين وصغارة نفسه أمامهم.. فالشهبندر يتجنب الدفاع عن الاسلام لمجرد إرضاء النصارى»[٣٣].

(٣٢) غسان مكحل: المصدر المذكور سابقاً، عن «المراسلات بين شكيب ارسلان والحاج عبد الرحمن بنونه».

(٣٣) نفسه: ص ١٣٢.

مصدر أفكاره

لقد ذكر اكثر الباحثين في تاريخ الحركة العربية الدكتور الشهبندر، كل على طريقته وحسب فهمه لتلك الأحوال والدول وللرجال، ولكن أحداً منهم لم يتوقف ولو قليلاً عند ترجمة الشهبندر الى العربية كتاب «السياسة الدولية» للكاتب البريطاني دليزل بورنس، بيد أن هذا العمل الفكري ـ السياسي المهم قد أنجزه الشهبندر سنة ١٩٢٢ وكان سجين قلعة أرواد وقبل انشائه «الهيئة الشعبية»، وقبل السجال الصحافي بينه وبين الأمير شكيب ارسلان، وفي رأينا أن هذا الكتاب: «السياسة الدولية» يؤلف أو يكاد ان يؤلف القاعدة الأولية الثابتة بل المصدر الكبير لأفكار الشهبندر الوطنية النضالية، لذلك خصصنا له مساحة غير قليلة من هذا البحث،واستكمالاً للموضوع الذي نحن في صدده الآن نلقي بعض الأضواء على الشيخ تاج الدين الحسني، «اللا شعبي» و«اللا كتلوي»، لنتعرف الى اسلوب الشيخ الرئيس ومنهجيته في الحكم والتعامل مع الاحتلال، دون أن نلزم الشهبندر أو سواه بما رآه الشيخ مناسباً للشعب السوري من جهة وغير مضر بمصالح السلطة المنتدبة من جهة.

الشيخ تاج الدين الحسني

كان النادي العربي الذي تألفت اكثريته من الشباب

الفلسطيني «هو المعوّل عليه في الرأي»[٣٤]، «اعتمده الأمير (فيصل) واتكأ عليه الحاكم ثم تألف حزب الاستقلال ورأسه لأول مرة فوزي بك البكري (الدمشقي) وتولى أمانة سره توفيق بك الناطور البيروتي، وكان مبدأه الاستقلال بدون حماية ولا وصاية»[٣٥].

سبق ذلك انشاء حزب «العربية الفتاة»، «ثم تألف حزب العهد السوري والعهد العراقي وتبعه حزب الاتحاد ثم حزب أم القرى وغيره، حتى أربت الأحزاب على الثمانية(...) «وكلها ترمي إلى غاية واحدة هي استقلال البلاد ولكن الطرق تختلف، وباختلافها تتولد الضغائن ويحصل التطاعن بين منتسبيها وخصوصاً في مثل هذه البلاد التي لم تألف ذلك»[٣٦].

ولما تفاقمت الخلافات بين الأحزاب المشار اليها، اتحد رجال من سوريا ولبنان، كانوا منتمين الى غير حزب، فألفوا كتلة عامة دعوها «اللجنة الوطنية»، «وكان من رجالها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، واحسان بك الجابري، وجميل مردم بك، والشيخ كامل القصاب، وسعيد بك حيدر، وشكري بك القوتلي، والأمير عادل ارسلان»[٣٧] وآخرون ممن «كانت

(٣٤) عبد العزيز العظمة: مرآة الشام ص ٢٤٤.
(٣٥) نفسه
(٣٦) نفسه
(٣٧) نفسه

تعضدهم اكثرية الشعب الساحقة»[٣٨].

حينذاك «انشق آل البكري عن حزب الاستقلال وألفوا حزباً جديداً دعوه الحزب الوطني السوري، فانخرط في عضويته الشريف علي بن الحسين الحارثي، والشريف ناصر ابن علي، والشيخ تاج الدين الحسيني (الحسني)، وعبد الرحمن اليوسف، وأحمد أفندي الحسيبي، وراشد باشا مردم بك، والشيخ عبد المحسن افندي الاسطواني، والشيخ عبد القادر الخطيب، ومحمد أفندي كرد علي، وعطا بك الأيوبي، ووديع بك المؤيد، وتوفيق أفندي شامية، والدكتور شاكر القيم، وغيرهم ممن اشتهروا بالولاء للافرنسيين والتساهل معهم»[٣٩].

وحدد هذا الحزب مبدأه بـ «السعي وراء استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية، والدفاع عنها بكل الوسائل الفعّالة» آخذاً على عاتقه «مقاومة اللجنة الوطنية. حيث كان يقول باختيار طرق المسالمة بخلاف الوطنيين الذين كانوا يعتقدون أن أوروبا لا بد أن تضطر إلى الاعتراف بالأمر الواقع لا محالة»[٤٠].

الواضح، اذن، أن الشيخ تاج استقلالي واقعي، ويمقت الحروب والثورات والانقلابات وما اليها. ولربما آمن بأن ليس مثل الزمن يمتص المشكلات مهما تعقّدت وتصعبت،

(٣٨) نفسه
(٣٩) نفسه
(٤٠) نفسه

لذلك آثر التعاون مع الفرنسيين على مقاومتهم، متحملاً الغضب الشعبي الذي سيتخذه خصومه سلاحاً ضده. ولا أعتقد أن النقيب نصوح بابيل جانب الحقيقة حين قال: «خلال العشرين عاماً التي بدأت من أواخر العشرينات وانتهت في أوائل الأربعينات لعب الشيخ تاج الدين الحسني دوراً رئيسياً في حياة سورية السياسية، وقد واجه مصاعب كثيرة خلال نضاله السياسي صمد لها صموداً عجيباً بفضل ما كان يتمتع به من مزايا عديدة أهمها الصبر على خصومه، وسعة الصدر، ولست مبالغاً اذا قلت ان الشيخ تاج كان عرضة لأكثر الحملات عنفاً، ولأكثر الهجومات شدة وقسوة، فكانت كلها كأمواج البحر تتلاشى على صخور الشاطىء»[٤١].

لم يكن الشيخ تاج رجلاً عادياً ولا فاشلاً، بل شديد الذكاء وناجحاً في أكثر الميادين لاسيما منها السياسية والاجتماعية. وليس غريباً أن يكون له تأثير في حلفائه وأصدقائه وحتى في الحكام والمفوّضين والجنرالات وغيرهم. ومن خلال مطالعتنا ما كتب عنه يتبين لنا أن الشيخ تاج، على شجاعته وثقته في نفسه، كان يكره أن يحشر نفسه في مأزق لا يرى له مخرجاً منه لائقاً. وهو أيضاً أبعد من بيته

(٤١) نصوح بابيل: ص ١٥٣.

وأهله ووطنه، فأختبأ لبضعة أيام في منزل المغفور له المونسنيور بولس عقل، في شامات قضاء جبيل، ومكث في باريس فترة غير قصيرة ليعود الى دمشق بدعوة من الجنرال كاترو ليسلمه «مقدّرات البلاد ويعينه رئيساً للجمهورية»[٤٢]، فيبرق له صديقه المونسنيور عقل مهنئاً: «عشتَ تاج الدين والدنيا معاً»[٤٣]، وظل يحتفظ للمونسنيور عقل بالجميل حتى آخر لحظة من عمره ومثله أبناؤه وذووه.

«نشأ الشيخ تاج الدين الحسني في بيت عريق، يكفي أن يكون والده، علّامة عصره، الشيخ بدر الدين الحسني لينبت في حديقة تظللها أشجار العلوم والآداب، وليصبح بعد ذلك من الاشخاص الممتازين بالذكاء والفطنة وحضور الذهن إلى جانب اضطلاعه بالعلوم الدينية وما يتصل بها من علوم منقولة حتى برع بها وهو في سن مبكرة، ففي العشرين من عمره عُيّن استاذاً للعلوم الدينية في المدرسة الثانوية، ثم دخل المعترك السياسي، فانتخب نائباً عن دمشق في المؤتمر السوري عام ١٩١٩ (وكان في التاسعة والعشرين)، ثم انتقاه المرحوم

(٤٢) مذكرات خالد العظم: المجلد الأول ص ٢٣٤.

(٤٣) حسبما أخبرني رئيس معهد الحكمة الحقوقي الأب بولس عقل، ابن شقيق المغفور له المونسنيور بولس عقل، وذلك قبل ظهر الخميس الموافق ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٠، في لقاء معه في مكتبه.

الملك فيصل بن الحسين من بين شبان دمشق كلهم، وعُيّن مديراً عاماً لشؤون القصر الملكي. وبعد زوال الحكم الفيصلي عُيّن عضواً في مجلس الشورى، ثم عضواً في محكمة التمييز، ولما جاء المفوّض السامي هنري دوجوفنيل إلى سورية ليطفىء لهيب الثورة السورية التي هبت في عام ١٩٢٥ اتصل بالشيخ تاج، وحاول اقناعه بقبول رئاسة الدولة، فاشترط عليه أن يعلن نهاية الانتداب، ويوقع معاهدة تنهي الانتداب. هذا إلى جانب اشتراطه موافقة الوطنيين على هذا التكليف. فلما اتصل بالوطنيين لم يوافقوا لأنهم في ذلك الوقت كانوا على شيء من الاعتزاز، فالثورة قائمة، والنجاح الذي أحرزه الدروز في معاركهم الأولى مع الفرنسيين جعل الوطنيين مقتنعين بأن الثورة ناجحة، وأن فرنسة ستُطرَد من البلاد، فلم ينظروا نظرة بعيدة المرمى من هذه الجهة، وفي الوقت نفسه خافوا من التعاون مع رجل ذكي، فطن، لبق، ذي دهاء ومكر. غير أن الثورة عندما بدأت تتعثر، وانقلبت الأوضاع من انتصار إلى هزائم، تبدّل الموقف، فلما عرض دوجوفنيل رئاسة الدولة على الداماد أحمد نامي، وهو شركسي، وصهر السلطان عبد الحميد، قبل الوطنيون التعاون معه»[٤٤].

لذلك حمل الشيخ في نفسه «موجدة على الوطنيين الذين لم

(٤٤) نصوح بابيل: ص ١٥٣.

يقبلوا التعاون معه عندما عرض عليه دوجوفنيل رئاسة الدولة، وهو ابن البلد، بينما قبلوا أن يتعاونوا مع ذلك الرجل الغريب عن البلاد»[٤٥].

ودعي الشيخ تاج الى العاصمة الفرنسية لحضور الحفلة التدشينية لجامع باريس الذي اشرف على بنائه السي قدور بن غبريط، الوزير المراكشي المقيم في باريس بتبرعات جمعها من أثرياء العالم الاسلامي»[٤٦]، فاستفاد (الشيخ) من حضوره هناك، وبواسطة صديقه بن غبريط «استطاع أن يعقد صداقات مع كبار الفرنسيين المسؤولين»[٤٧] ما جعل له «مكانة عالية في نفوسهم»[٤٨]، وهيأوا له ما هيأوا من أسباب النجاح والتفوق على خصومه الصقور منهم والحمائم.

لم يعمّر الشيخ تاج طويلاً، بل توفي ولما ينه عامه الثالث والخمسين. «وبعد أن أشرف على تأليف الوزارة حتى الصباح، تابع عمله في القصر الجمهوري، ويقول نجله المرحوم شمس الدين الحسني ان والده الشيخ تاج أحسّ في المساء بانهيار في صحته ألزمه فراشه، فاستدعي كبار الأطباء

(٤٥) نفسه
(٤٦) نفسه
(٤٧) نفسه
(٤٨) نفسه

لمعالجته. ولما ساءت حالته الصحية استدعي من بيروت الطبيبان الكبيران يوسف حتي والياس الخوري، وأشرفا على معالجته فكان يشكو من احتقان في الرئة وتسمُّم في الدم (!) وفي اليوم التالي ارتفعت درجة التسمم إلي درجة ٣,٥ سنتيغرام.. وفي اليوم التالي عندما عاد الطبيبان الكبيران من بيروت وجدا أنه قضي الأمر، ولم يبق سبيل لمقاومة المرض، وخاصة التسمم.. وقد سأل الدكتور حتي اطباءه المعالجين عن الكمية التي اعطيت له من (الداجنان)، فلما علم بعظم الكمية ضرب جبينه بيده وقال: «لقد قتلتموه». وفي الساعة الواحدة والدقيقة ٤٠ من يوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٩٤٣ لفظ الشيخ نفسه الأخير»[٤٩].

وقال النقيب بابيل متسائلاً: «وهكذا مات الشيخ مسموماً، ولكن من هو الذي دسّ له السم؟ هل هم الانكليز؟ هل هم الفرنسيون؟ هل هم الذين يحلمون باحتلال مكانه؟». أضاف: «كل هذه الاسئلة بقيت من دون جواب. ومما يدل على تشكيك الرأي العام في أسباب وفاة الشيخ تاج الدين، أن تعليقات الصحف في يوم الوفاة كانت تتسم بالتساؤل المزوج بالشك»[٥٠]. بينما يرى الرئيس خالد

(٤٩) نفسه: ص ١٦٠.
(٥٠) نفسه

العظم أن الشيخ تاج توفي «خاتماً حياة سياسية مليئة بالحوادث والمغامرات، ولم يترك له أثراً حميداً سوى انشاء بعض الأبنية الرسمية، من مدارس ودور حكومة ومخافر ومصحات»[٥١]، وهو يأسف لأن «رجلاً كالشيخ تاج تحلى بميزات كثيرة، أبرزها الذكاء المفرط، والحيلة الواسعة، والصدر الرحب، وتولى الحكم ما يقرب من ستة أعوام دون أن يكون الى جانبه مجلس نيابي يعكر مزاجه أو يعرقل عمله، لم يؤد لبلاده الخدمات التي كانت تستحقها»[٥٢]. ففي تلك السنين العديدة، منذ ١٩٢٨ حتى ١٩٤٣ حين توفي، «كان أمره بين اثنين: إما رئيس للحكومة، وهو في واد والشعب في واد، وإما معزول مقيم في باريس، بعيداً عن وطنه وأهل بلده. وقد كان (...) عقبة في سبيل نيل بلاده استقلالها (الذي) لم تظفر به الا بعد وفاته»[٥٣].

ولعل الأصح والأفضل ما قاله النقيب بابيل: «عاش (الشيخ تاج الدين) فترته الذهبية في رئاسة الجمهورية السورية المستقلة بين نارين.. أو بين مطرقتين: المطرقة الفرنسية لحمله على عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا..

(٥١) مذكرات خالد العظم: المجلد الأول ص ٢٤٣.
(٥٢) نفسه
(٥٣) نفسه

والمطرقة البريطانية التي تعمل في الخفاء ومن وراء الستار على تحقيق المزيد مما في نفس الشيخ من رفض واصرار ضد المعاهدة»[٥٤]، فضلاً عن «المطرقة الوطنية» المتمثلة بالحسد والحقد، التي قتلت من قبله الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كما سيتبين معنا.

والآن الى كتاب «السياسة الدولية» الذي عرّبه صاحبنا الشهبندر في سجن قلعة أرواد اقتناعاً منه بأهميته الفكرية والسياسية والتاريخية، وبضرورة إطلاع قراء العربية عليه.

كتاب للتنوير والحرية

يقول الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، بعد ترجمته الى العربية كتاب «السياسة الدولية»[٥٥] للكاتب البريطاني دليزل بورنس:

«ترجم هذا الكتاب في السجن داخل السجن، وذلك أن أحد رفقائنا المعتقلين في جزيرة أرواد نقل الى المستشفى لمرض ألمّ به فلما وقف على باب القلعة ليودّعنا لم يتمالك أن يهتف للحرية فينادي من ألم الاستعباد (Viva La Liberte´). فما كان من حاكم الجزيرة العسكري الا أن أمر بوضع المعتقلين

(٥٤) نصوح بابيل: ص ١٦١.
(٥٥) ٣٣١ صفحة من القياس الوسط، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ غ

جميعاً في الحجيرات على هذا الذنب العظيم الذي اقترفه المريض وشاركناه في اقترافه وهو الدعاء للحرية بطول العمر: وبعد المخابرات مع المراجع العليا صدرِ الأمر بتمديد هذا الحجر عليّ وعلى ثلاثة من اخواني اسبوعين كاملين وقطع البريد عن المعتقلين كافة شهراً كرتياً».

أضاف: «فكّرتُ كثيراً في إكرام المستعمرين على عملهم اللطيف هذا فلم أجد خيراً من صرف هذه المدة في ترجمة هذا الكتاب لأنشره بين الناطقين بالضاد علّي أساعد بهذا العمل الصغير تنوير الأذهان وأزيد من المخزون من أعمال أهل الاستعمار في هذه البلاد الوسيعة زيادة تسرّع الخطى الذاهبة بأصحابها الى الأمام ـ الى الحرية، الى السعادة، الى المجد، الى نفض غبار الذل عن هذه الوجوه العربية الوضاءة»[٥٦].

ويقول المؤلف (بورنس) مقدّماً كتابه:

«اننا لم نكتب هذا الكتاب للاخصائيين بل للراغبين في الاطلاع على الوضعية الدولية اطلاعاً جلياً ورؤية المشاكل الكبرى المتولدة في السياسة الخارجية، وهو كتاب من الكتب المدخلية، فتراه يحوي إشارات إلى حقائق معلومة عند

(٥٦) السياسة الدولية: ص ٢/٣.

الكثيرين. غير ان المطلعين اجمالاً، حتى اولئك الذين يحيطون بشيء من هذا الموضوع، قد يستفيدون من مراجعة الحقائق المعلومة محلّلة تحليلاً جديداً».

ويتابع قائلاً: «وثمّتَ نوعان من الدروس المدخلية، نوع يتناول الأقوال الكلية العامة التي تشمل دائرة الموضوع كلها، ونوع يقدّم الأمثلة النموذجية فقط ويتجنب هذا الشمول، وقد سلكنا في كتابنا طريق النوع الثاني، وفضلنا تقديم بضعة بيانات وصفية مشبعة على الخبر الطويل العام عن الأصقاع الساذجة المهملة، أو استيداع الأموال في البلاد الأجنبية. على أن المقصود من هذه الأمثلة المضروبة أن تكون منوعة تنويعاً كافياً لاطلاع القارىء على تعقد السياسة الدولية»[٥٧].

فاذا كان المؤلف ساعياً إلى تثقيف قارئه وتزويده بالمعلومات والتحليلات، فان الهدف الذي رمى اليه المترجم الدمشقي لأبعد وأعمق، ان لم نقل أهم وأعظم، على الرغم من الفرق الكبير الذي بين بورنس والشهبندر من جهة، وبين بريطانيا وسوريا، ولاسيما في الفترة الممتدة بين ١٩٢٠ و١٩٢٥ من جهة، ذلك أن سوريا كانت مقسّمة الى أرْبع دول هي: دمشق وحلب وبلاد العلويين وجبل الدروز مثلما

(٥٧) نفسه: ص ٢٣/٢٤.

مر معنا، في حين أن بريطانيا استمرت في التوسع الاستعماري والصناعي حتى بلغ أوجه.

يكفي الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أنه قرأ «السياسة الدولية» في السجن، وترجمه في السجن أيضاً. واذ انتهى منه في اليوم الثالث والعشرين من حزيران ١٩٢٣، وهو اليوم الذي خرج فيه من المعتقل لم يرَ «خيراً من إهدائه للمجاهدين الأحرار في البلاد الناطقة بالضاد، وذلك لا لقيمة خاصة في هذه الترجمة تليق بهم»[٥٨]، وانما ليصرفهم «عن الآلام التي ذاقوها في أعماق السجون وغياهب الاعتقال»[٥٩]، وليذكّرهم بأن «اناساً يجتزئون الوشل من الخضم الذي هم يغترفون منه لم يلقوا في زوايا القلاع المهجورة فقط بل قصروا من الحجيرات في السجن داخل السجن، لأجل القطر السوري شقيق أقطارهم في التاريخ واللغة والتقاليد والهدف» على ان «سورية تحذو حذو جميع الأقطار الناهضة وهي تمتُّ بقائمة شهدائها وسجنائها ومعتقليها ومبعديها ومضطهَديها إلى الهدف السامي الذي وضعته نصب عيونها (. . .) فكيف تستطيع قوة مهما بلغت من العنف وآزرها جيش من المأجورين والاذلاء أن تصرفها

(٥٨) من مقدمة المترجم: ص ٣.

(٥٩) نفسه

عنه بعد بذلها هذا في النفس والنفيس»[٦٠].

لقد حسب إذن سجين أرواد، الدكتور الشهبندر، أن واحدة من نسيمات الحرية خرقت الجدار السميك العريض، عبر كتاب «السياسة الدولية»، فوهبها عقله وقلبه، على أمل أن تنتصر الحرية في بلادنا ذات يوم. وفرّق المجاهد السوري بين أنصار الحرية والعدل، في ديار الغرب، وبين حكوماتهم، داعياً إلى تقدير مساعيهم «الجدية العظيمة»[٦١] التي يقومون بها غير آبهين لغضب حكامهم الأشداء ولومهم وتصلتهم.

«من الدواعي الجوهرية التي دعتني إلى ترجمة هذا الكتاب أن صاحبه يقول بسياسة التعاون بين الأمم، لا انسانية وعطفاً وتنزلاً، بل سعياً وراء المنفعة التي يجنيها الجميع من العمل المشترك، وعنده (المؤلف) ان تكثير الحرية والعدالة بين الآخرين هو مثل تكثير السلع المادية يزيد في الرفاهية العامة والسعادة المنشودة»[٦٢].

علامات تاريخية مميّزة

ولا عجب اذا ما افتتح المترجم الدمشقي كتاب بورنس اللندني، بمقدمة حمّلها آلام شعبه وتطلعاته، ثم بعض علاماته التاريخية المميزة. إن حقه في هذا لا ينازع، ما دام

(٦٠) نفسه

(٦١) نفسه: ص ٦.

(٦٢) نفسه

الكتاب هو لكل منطقة السياسة الدولية، التي منها سوريا وبلاد العرب طبعاً. واللافت أن الدكتور الشهبندر لم ينحرف عن جادة الصواب، في ما كتب، مع ان «الجو» الذي خيّم على أرواد، عامئذ، كان قمعياً إرهابياً، ويكاد نهاره لا يعرف من ليله، ولا أمسه من يومه.

ان لكل امة حقوقاً وواجبات. ولكي نكتب في القضايا العالمية ينبغي لنا ألّا ننسى ولا واحدة من الأمم، لئلا ننسى حقاً أو واجباً. وبما أن المؤلف فاته، حقاً، الحديث عن الشرق ـ على أهميته ـ وعن متاعبه ونكباته، لم يسَعْ المترجم الا الكشف عن هذه الثلمة البارزة الخطيرة قائلاً:

«ان من قرأ فيه (الكتاب) فصل «البلاد المهملة» وما انطوى عليه الكلام من النقد المرّ لحملة عروش المموِلين لا يلبث أن يعجب بالموقف الشريف المعتدل الذي وقفه المستر (بورنس) وودّ لو أنه زاد في الامثال ولم يقتصر في الأكثر على همج أفريقيا بل مال بنظره الى مهد الحضارة القديمة ومبعث الدعوات المعنوية في الشرق، ومَنْ لي بمن يذْكر له خبر الجرائم التي تجترم فيها على رؤوس الأشهاد، من سجن أحرار وتعذيب مخدرات واحراق قرى بأموالها وقتل أسرى بشاراتها تأييداً للعظمة العسكرية الفارغة وسياسة البسطة والتوسع، ليضمه الى كتابه البديع فيكون اجمع وشواهده

أبرز»[٦٣].

كذلك بالنسبة الى مجد العرب وتاريخهم وعهدهم بالسلام والمصالحة ومناصرة المظلوم. فهم، من قبل «عصبة الأمم»، أهْلُ إصلاح وحوار وتفاهم. وفي هذا عقد الدكتور الشهبندر فصلاً، أو ما يشبه الفصل، من ص ٧ إلى ص ١٥، حول «حلف الفضول»، ضمّنه تعليقاته عليه الى الشرح والتفسير، ليؤكد على دور العرب في صنع السلام، بين الناس، والأمن والاستقرار.

«ان القبائل الساذجة المنتشرة في البوادي تمثل الدول مصغَّرة في كثير من الشؤون الاجتماعية والسياسية فما غزواتها ومؤاخاتها وتقاليدها الا الحروب والمحالفات وخرق العهود وحقوق الدول على عيار ضئيل، وان كثيراً من العوامل التي حملتها على عقد المحالفات للأغراض المتنوعة هي قريبة من العوامل التي تحمل الدول على المحالفات اجمالاً».

أضاف: «وقد انصرف علماء الاجتماع ورجال السياسة إلى درس هذه المحالفات الابتدائية من الوجهة الحربية فقط ولم يلتفتوا الى المحالفات التي تعقد لأغراض أخرى»[٦٤].

---

(٦٣) نفسه: ص ٧.

(٦٤) نفسه: ص ٨.

انه على قول الخثعمي[٦٥]، «اكرم حلف (. . .) وأشرفه»، وكان أول من تكلّم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب. وكان سببُه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قوة بمكة وشرف، فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدي الاحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمح وسهماً وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل وزبروه - اي انتهروه - فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قيس - اسم جبل بمكة - عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

«يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمّت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر»

(٦٥) الخثعمي (... نحو ١٥٠هـ/... نحو ٧٦٧ م): العباس بن سفيان الخثعمي قائد بحري، كان أميراً على غازية البحر في خلافة المنصور العباسي. غزا قبرص بجيش، سنة ١٤٦هـ، فكان أول من غزاها في عهد بني العباس.

وقال الخثعمي:

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال «ما لهذا مترك» فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جدعان فصنع لهم طعاماً وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام قياماً، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله «ليكونن يداً واحدة مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ما بلَّ بحرٌ صوفة ومارسا حراء وثبير مكانهما وعلى التأسي في المعاش» ثم مشوا الى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه وقال الزبير:

«حلفتُ لتعقدن حلفاً عليهم
وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول اذا عقدنا
يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا
أباة الضيم نمنع كل عار»

وقال أيضاً:

«ان الفضول تحالفوا وتعاقدوا
الّا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا
فالجار والمعتر فيهم سالم»[٦٦]

لعلّنا توقفنا طويلاً عند المترجم الدكتور الشهبندر، ولكن هل كان ممكناً أن نفعل العكس أو مثيله؟

الواقع أن نقل «السياسة الدولية»، في العشرينات، الى العربية وتحديداً في سوريا، قضية بحد ذاتها لا يجوز أن نتجاهلها أو نعتم عليها.

اللندني (بورنس) كتب بحرية واعتدال الى حد بعيد.

والدمشقي (الشهبندر) قرأ بين السطور مشكلات أمته، فأنِس بالكتاب حتى ما عاد يسمع لا قرقعة السلاح، ولا رجالات «الجندرمة» يقذفون السجناء بالشتائم والكلمات الجارحة البذيئة. لقد اتخذ طبيب وسياسي مثقف من الكتاب خليله وصاحبه ليساعده على غربته الظالمة المظلمة.

نصوص

قبل ان يأخذ بنا الحديث عما في الكتاب، أريد أن انتزع لنفسي ثانية، بعض الوقت، فأنوه بسعة إطّلاع الدكتور الشهبندر ومعرفته المتعمقة بمعظم المسائل الدولية، وبانسانيته المرهفة المضيئة، نستدل على هذا من نصوصه التالية:

---

(٦٦) من مقدمة المترجم: ص ١٠/١١.

«وشبيه بحلف الفضول هذا المجلس الامفكتيوني (Amphyctionic) الذي عقده فيليب المكدوني[٦٧] والد الاسكندر الكبير في القرن الرابع قبل المسيح، فقد كان يؤمه المندوبون عن الجماعات اليونانية القديمة ليتذاكروا في المصلحة العامة ويحكموا في الاختلافات القائمة بينهم منعاً للحرب».

و«هذا شأن هذه الفكرة في الأعصر الماضية، وأما في الاعصر المتأخرة فقد جاء في كتاب هندمن (Hyndman) «نشوء الثورة» (The Evolution of Revolution) - وهو كتاب حديث يدافع عن العمال طبع سنة ١٩٢٠ - ان هنري الرابع ملك فرانسه (١٥٥٣ - ١٦١٠) اقترح على اليصابات ملكة انكلترة (١٥٥٨ - ١٦٠٣) تأليف عصبة من

---

(٦٧) Amphyctionic League: Philip II, the great Macdonian King formed Greece into a political organisation called the league of Corinth. All the cities were included except Sparta, which had never been conquered. The Cities were represented in «Synbedrion» (Council) by population and by districts. Nations outside Greece were permitted to Join. Philip was chosen by the League to command the combined Greece forces to attack Persia. He was killed while preparing for this War (World Book V.15 p.329)

الأمم بصورة جدية، ولكن هذه الفكرة التي أراد تنفيذها لم يباشر بوضع خططها إلّا بعدما بلغ من العمر عتيا، فاصبح تنفيذ موادها الابتدائية عليه متعذراً. على أن البرنامج الذي وضعه لها برنامج واسع عجيب لم يستطع رجل كبير مثل وزيره «صولي» أن يحيط به».

وقال أيضاً: «والظاهر أن النمسا يومئذ كانت ينبوع خطر عظيم على السلم الأوروبي، شأن كل دولة عسكرية تعتمد على العنف والشدة، مما أدى إلى الاهتمام بمحقها واتخاذ زوالها غرضاً أساسياً تعقد عقيبه هذه العصبة كما عقد الحلفاء وعصبتهم عقيب سحق المانيا ومحق حليفتها. وكان الرأي الشائع يومئذ أن يوزَّع ملكها على ملوك أوروبا، ومن ثم تُدعى الأمم إلى الاشتراك في مجلس يدير شؤون الدول يجلس فيه المندوبون متمتعين بحقوق متساوية».

وتابع الدكتور الشهبندر يقول:

«الا ان اليصابات لم تكن راضية في نفسها عن هذا التقسيم الذي يفتح (لبريطانيا) مناطق نفوذ في ارث آل هابسبرج، بل نسَب التاريخ اليها انها قالت ان الجزائر البريطانية ايام ملوك المختلفين وفي غضون شرائعها المتنوعة لم تصب بالمصائب الفادحة الا عندما فارقت كنّها الصغير الى

القارة الأوروبية»[٦٨].

وكما سُحقت النمسا، سُحقت تركيا أيضاً وتم حصارها في آسيا، فأُنقذت «أوروبا الى الأبدمن المعضلة الشرقية»[٦٩].

معنى القول: اولاً ان التوسّع الشرقي ممنوع، وثانياً ان الحكومات القديمة والجديدة، الكبيرة والصغيرة، تتحاسد وتتنافس، وبعضها يخاف بعضاً، فلا كبير على الأرض الا ويقابله كبير مثله أو اكبر. ودائماً هنالك مؤامرات ودسائس وتحالفات ومعاهدات. لأن الدائم الأوحد هو الصراع على النفوذ والأرض، كما لو أن الدنيا لا تتسع الاّ للأقوى والأعظم والأكبر والأشرس. أما الصغار أما المستضعَفون فمحرَّم عليهم الشموخ والعنفوان، ومحرّم عليهم أيضاً أن يكونوا أحراراً في ما يعتقدون، وقد زعموا أن «لا أضرّ على البشر من حرية الاعتقاد»؟!

وفي مجمل الأحوال، تبقى اليصابات على حق في ما قالت أو في ما نُسب اليها. غير أن التوسع الدولي يحمل بذاته الخطر على ذاته، تماماً مثلما الانغلاق والعزلة والجفاء.

- أين شاه ايران الذي حاول فتح أبواب قصوره ونوافذها

(٦٨) من مقدمة المترجم: ص ١٣/١٤.

(٦٩) نفسه: ص ٢٤/٢٥.

على العالم، كل العالم؟

ـ أين محمد أنور السادات القائل بأن الحوار بين الاعداء طريق الى السلام العادل؟

ـ لماذا أُطيح بتشاوشيسكو، الحديدي تشاوشيسكو، في ظل الصمت الغربي والشرقي؟

ـ لماذا أُسقط الجنرال مانويل نورييغا وأُبقي على اسرائيل سرطان الشرق؟

لا شك ان انسجاماً قوياً قد حدث بين المترجم الدمشقي والكاتب اللندني، أصابني جزء منه غير قليل قوّى لديّ الشعور بأن الكلام، عن المترجم السجين، انما هو الكلام عن المؤلف الطليق، أو العكس، على أن هذا لا يسدّ حاجتنا الى الغوص على اللآلىء التي ضمها كتاب «السياسة الدولية».

فصول

بدءاً، يتألف هذا الكتاب من قسمين تضمنّا ثمانية فصول، يحتوي كل فصل منها «على جزئين اثنين، الجزء الواحد وصْف بعض الحقائق، والجزء الآخر الاشارة إلى ما يتعلق بهذه الحقائق من المشاكل»[70] حسبما يقول المؤلف. وموضوعات

(٧٠) نفسه.

الكتاب هي:

ـ **القسم الأول**: وصْف تماس الشعوب في الحكومة والتجارة والتهذيب، وفيه خمسة فصول: «السياسة الدولية والماضي» (من ص ٢٨ إلى ص ٥١)، «الدولة السلطانية» (من ص ٥١ إلى ص ٨٤)، «التباين في التهذيب» (من ص ٨٤ إلى ص ١١٩)، «البلاد المهمَلة» (من ص ١١٩ إلى ص ١٥٩)، «التجارة الدولية» (من ص ١٥٩ إلى ص ٢٢٣).

ـ **القسم الثاني**: وصْف التنظيم الدولي المتعلق بتماس الشعوب، وفيه ثلاثة فصول: «الدهاء السياسي» (من ص ٢٢٦ إلى ص ٢٦٦)، «التنظيم الدولي الرسمي» (من ص ٢٦٦ إلى ص ٢٩٧)، و«التنظيمات الأممية غير الرسمية» (من ص ٢٩٧ إلى ص ٣٣١).

ان أجمل ما في «السياسة الدولية» الجرأة العلمية والصدق والصراحة. وتغلب على مجمل الكتاب التأريخية المستندة إلى الخبر الصحيح والرأي المعتدل والرقم الدقيق. والثابت أن النظر إلى الأمور التي تناولها الكتاب، ثاقب وبعيد المدى، حين أن العينين واسعتان ليس فيهما رمد ولا غبار، بل يُضرب بهما المثل: «عين عَرفت فذرفت». ذلك أن المؤلف، في الواقع، رأى الأمر فعرف حقيقته، وهذه، يا للأسف،

مخيّبة وتاعسة حتى الألم والعذاب.

كيف نقرأ «السياسة الدولية»؟

يقول المؤلف:

«وليس من مجال مثل هذا الكتاب المدخلي أن يعرض أنواع الحل للمعضلات السياسية، لذلك فهو من أوله إلى آخره ذكْرُ حقيقة وابداء ارتياب أكثر مما هو بيان قاعدة أو سلوك سياسة. والظاهر أن حاجة سواد الناس، بل حاجة بعض أهل السياسة، ليست طبع الكتب السماوية على صفحات القلوب بقدر ما هي الابتغاء بتعلّم «الف باء» لأن جهل الحقائق ـ لا سوء النية ـ هو العثرة الكبرى في سبيل الارتقاء في معارج المسائل الدولية».

أضاف: «على أن هذا الكلام لا يعني أننا قصدنا أن يكون كتابنا خلواً من كل صيغة تتعلق بحلّ المشاكل المبيتة. فقد اتخذنا موقفاً معيّناً، وضمّنّا كتابنا بعض الاستنتاجات المعينة لبعض العواقب التي تعقب الأمور. مثاله اننا ذهبنا بصورة جلية إلى أن مصلحة جميع الأمم لا تقوم على الطريقة القديمة القائلة ببحث كل أمة عن مصلحتها الخاصة. وضمّنّا في تضاعيف كلامنا (...) أن الحرب هي وضع مضر وانها وسيلة سياسية عقيمة»[٧١].

(٧١) نفسه.

هنا اذن طريقة جديدة في البحث عن القضايا الدولية، يدعونا المؤلف، المستر بورنس إلى قبولها، ولكن بحذر، شرط أن «يفكر (القارىء ـ كل قارىء) لنفسه من أن يوافق المؤلفين على آرائهم في مدوّناتهم»[٧٢].

هل الحرب هي غير ما قال فيها المستر بورنس؟

أي أمة تستطيع أن تحمل سراجاً يستضيء به تاريخها أو مستقبلها، ليس فيه (السراج) من هذه الأمة أو تلك الزيت أو الفتيل أو المعدن أو البلور؟

«ان سواد الناس لا يُعنون كثيراً بالأجانب. فالانكليزي يأكل البردقان (البرتقال) الذي ينمو عند الاسبانيين، والفرنسوي يشرب القهوة التي تأتيه من البرازيل أو جاوه، لكن ما منهما من يهتم بالشعوب التي انتج عملها هذا الطعام لأن السلع في العالم هي ذات صبغة دولية أكثر من عقول الرجال. ان لباسنا وطعامنا وبيوتنا وسكك الحديد وهواتفنا هي كلها دولية، لأن المواد الضرورية لبنائها يقدمها لنا أناس يتكلمون لغات متباينة جداً ويعيشون في كنف حكومات شتى»[٧٣].

(٧٢) نفسه.

(٧٣) دليزل بورنس: الفصل الأول ص ٢٨.

ومع هذا نتحارب ونتقاتل، إما لأن بعضنا يجهل بعضاً، وإما جشعاً أو طمعاً، ولنقلْها بوضوح شديد: للسببين معاً.

«وليست الحالة الدولية الشائعة في أمور الحياة الحاضرة هي مادية فقط، وذلك لأن بناء هواتفنا بل تفصيل ثيابنا مثلاً ناشىء من بعض الوجوه عن أفكار جاءتنا من الخارج. وما طبُّنا وجراحتنا إلا نتائج تبادل في الأفكار بين أمم متعددة. ولا يوجد فن بلغ من الاقتصار على خصائص الأمة الداخلية درجة تجعله لا يتأثر بالمؤثرات الأجنبية. ان العادات التي تعوّدناها في الدين والسياسة والاجتماع هي مسببة من بعض الوجوه عن فعل الأجانب. ولا يوجد باب من أبواب الحياة، والحق يقال، هو بمعزل عن فعل التعامل الدولي»[٧٤].

هل يحتمل هذا القول الرد أو المعارضة؟

إذا كنا سنرد عليه أو نعارضه، فماذا يمكننا أن نقول؟

هل نقول: مقص الجراح ـ مثلاً ـ «صناعة وطنية» وسائر الأدوات واللوازم الطبية «وطنية» مثله؟

من أين جئنا بالحديد والفولاذ؟

من أين لنا القطن والكتان والكهرباء والخيوط المشمّعة؟

(٧٤) نفسه: ص ٢٨/٣١.

كيف جاءتنا الأعشاب المفيدة والحشائش المخدّرة والفواكه التي لا عهد لأرضنا بها؟

«ان أول مطلب ضروري لمعرفة (مثل) هذه الحقائق هو الصعود إلى مستوى يستطيع الناظر أن يشرف منه عليها. والرجل المتوحش عاجز عن التفريق بين الوحش والصخرة المكوّمة ما لم يخرج من كهفه. فمتى خرج يجد من المصلحة أن لا يختبىء وراء صخرة واحدة دائماً وأن لا يتسلّق شجرة واحدة»[٧٥].

أما آن لنا أن نخرج من كهوفنا، بل مغاورنا التي تقف على أبوابها عناكب الأزمنة؟

منذ سبعة عقود أطلق المستر دليزل بورنس صرخته، فمن الذي سمع واستجاب لهذا النداء الحكيم؟

ربما وحده المترجم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر سمع وانفعل فنقل هذه «الحكمة اللندنية» إلى العربية، في غضون اسبوعين، ولكن، واأسفاه، قتلته «السياسة الدولية» بيد «السياسة الوطنية» بل «المحلية» الضيقة والمحدودة والجبانة.

«قل لي ماذا يحدث عند التقاء الممثلين المندوبين عن الأمم المتحدة؟ ان كل واحد منهم يجلس وراء صخرته، ويتسلق

(٧٥) نفسه

شجـرته الخـاصة بـه فيبحث بعنف وشـدّة من وجهـة نـظره. فممثل فرنسا مثلاً يدافع عن حدود الدين، وممثـل الولايـات المتحدة يدافع عن قاعـدة (مونـرو) ـ في حياد أمـيركا ـ وممثـل بريطانيـا العظمى عن البـاب المفتوح مقـابل البـاب المغلق في التجارة، فتكون العاقبة إما تشويشـاً أو اتفاقـاً يتناول بكلمات فارغة أغراضاً متناقضة»[٧٦].

الحالة هي هي، ثابتة لا تتغير ولا تتبدّل.

الوحش وراء صخرته، والانسان وراء صخرته أو متراسه. الأول لا تشبعه فريسة، والثاني لا تشبعـه خيرات الأرض ولا خيرات السماء.

ألَا أشرقت شمسنا يوماً على جديد؟
مأساتنا أننا نكرر أنفسنا ومآسينا!
ومأساتنا أيضاً أننا ندّعي الخلق والابداع!

ان كتاب «السياسة الدوليـة» ـ معه مقـدمة المـترجم ـ يشبه بستـانـاً أثمـاره متعددة الألـوان والأنواع، فـماذا نقتـطف ومـاذا نترك؟

«والقـول بـأن الـوظيفـة الحـاضرة هي في الأكـثر سليلة الحوادث الماضية هو من الأقوال المبتذلة، وقد يفرط الناس فيه

(٧٦) نفسه

إفراطاً كلياً عندما يقولون انه يعني أن الحاضر ليس إلا الماضي مستمراً. بيد أننـا لو سلّمنـا بعجز البشر عن الابتكـار في كل جيل عجزاً تاماً أفلا يحق لهم أن ينظروا شزراً إلى أجدادهم وقد خلّفوا لهم بجانب الخير الذي خلّفوه شيئاً من الشر؟ وان بعض العادات الفاسدة وبعض القُدوات الكمالية السامية هما بقايا الماضي»[٧٧].

هـذه هي، في رأينـا، أطيب أثـمار «بستـان» بـورنس... فلننظرْ كيف نغذي عقلنا ونهذّب ذوقنا.

عندما نعـرف كيف ندخـل بستان الأفكـار، وكيف نخرج منه، فمعناه أننا جدّدنا ذهننا ونشّطنا إحساسنا. وإنْ لا فكـل شيء إلى مكانه المرسوم له أو المرصود على اسمه.

و الخاتمة؟

انها دائماً شقية وحزينة ومكسورة الخاطر!

«تعتـبر الدولـة معظّمـة متى كان لهـا قوة حـربية متفـوقـة. وهنـالك فـرق كبير واضـح بهذا المعنى بـين الدول الصغـرى والمجموعة التي تتألف من فرنسا وبريـطانيا العـظمى وايطاليـا واليابان والولايات المتحدة: لأن القوى المسلّحة والمنابع البرية

(٧٧) نفسه: ص ٣٨.

والبحرية عند كل من هذه الدول الخمس أكثر مما عند أية دولة أخرى»[٧٨].

لعلّ هذه أطيب أثمار «بستان» بورنس.

ما رأيكم؟

لا. إن كل «الثمرات» طيبة ولذيذة.

والأطيب منها جميعاً أنك لن تستطيع صرف نظرك عن أي منها.

لقد «استخدمت المحالفات منذ أمد طويل لغايات حربية أو استعداداً للحرب. ولكن قلما استخدم ويا للأسف العمل المشترك بين الحكومات لخدمة العدالة والحرية وغير ذلك من المنافع التي خلقت لها الحكومات. وجل البشر اليوم لا يزالون عاجزين عن فهم المصالح العالمية والتنظيم الدولي الشامل، لكنهم يمكنهم أن يستسهلوا فهم العمل المشترك بين حكومتين أو أكثر لمصالح معينة عامة، ويقدرونه حق قدره»[٧٩].

هل نتابع الجولة؟

«وأعظم خرافة في البسطة ذكر الماضي والرجوع بها إليه، كما حدث للأمبراطور غليوم، فانه كان ملهماً بفكرة

(٧٨) نفسه: ص ٥٢.

(٧٩) نفسه: ص ٨٣.

الامبراطورية المقدسة، (امبراطورية شارلمان)[٨٠]، المعروفة في القرون الوسطى. مع ان العلاقة بين المانيا وبين هذه الامبراطورية العظيمة غير واضحة. وأهل رومية في الوقت الحاضر، بل غيرهم من سكان ايطاليا، احتلوا طرابلس، وتوقعوا الحصول على «دلماسيا»[٨١] لأن الرومانيين حكموا في الماضي في تلك الأصقاع (*١).

«ويحق لليونانيين، على هذه القاعدة، أن يطالبوا بجزيرة صقلية، وللمصريين بجزء من سورية. ان هذه الطريقة المنطقية طريقة مملوءة بالآراء الفارغة والهذيان السياسي،

(٨٠) شارلمان أو شارل الكبير)(Charlegmane)((٧٤٢ - ٨١٤) ملك الافرنج وامبراطور الغرب، مؤسس السلالة الكارولية. جعل اكس لا شابل (آخن)(Achen) القريبة من الحدود الهولندية البلجيكية، عاصمة له. حاول الاستيلاء على اسبانيا ففشل في سرقسطة ٧٧٨ م.

(٨١) دلماسة أو دلماطية) (Dalmatia) . منطقة ساحلية في يوغوسلافيا شمال شرقي الادرياتيك. قاعدة سبليت.

(*١) ورد في الحاشية رقم (١) ص ٩١ ما يلي:
«في فرانسه حزب صغير اتخذ نفس هذا الاساس التاريخي الخرافي للبسطة القومية المتجاوزة، مثاله إن جبرائيل هانوتو ادّعى في كتابه الجديد «معاهدة فرسايل» (فرساي) ان الجرمانيين ليسوا امة واحدة بل مجموعة قبائل، وان الواجب أن تسود فرانسه على جميع أوروبا لانها تعلن ذلك في الماضي»(؟!)

ولكنها ذات تأثير على العقول غير المهذبة، والاعتقادات التي تعتقدها الأمم، سواء أكانت مصيبة أم مخطئة، هي أعظم شأناً في السياسة من الحقائق الثابتة»[٨٢].

وكما في الغرب كذلك في الشرق. كل الشعوب في محنة، أو حسبما أكدنا في كتابنا «نحن وصنمية التاريخ»[٨٣]، خصوصاً في الفصل: «دولة المرابطين والبكاء على الأندلس»[٨٤]، ومن قبله في كتابنا «محنة العقل في الإسلام»[٨٥] حيث نقرأ: «إلى الأندلس فتْحاً جديداً؟!»[٨٦].

لماذا التمسك بالماضي السحيق ـ السحيق؟

من المفترض أن يلغي حاضرنا ماضينا، أو ينساه، لا أن «يحنّطه» فيتخذ منه صنماً معبوداً.

«تنشأ المشاكل في السياسة الدولية عن التفريق بين البلاد الراقية القائمة على الصناعات وبين البلاد المهمَلة. دعْ عنك تلك المشاكل المتولدة عن تماس الأمم السلطانية (...). وإذا جاز أن يقسم سطح الأرض إلى بقاع، مثل أوروبا

(٨٢) السياسة الدولية: ص ٩١ بورنس.

(٨٣) ٦٥٩ صفحة من القياس الوسط (مجلداً) طبعة ١٩٨٦.

(٨٤) من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٧٦.

(٨٥) انظر الطبعة الثانية ١٩٨٢.

(٨٦) من ص ٣٤٥ إلى ص ٣٦٩.

وأميركا من الجهة الواحدة، وافريقيا وأجزاء من آسيا من الجهة الأخرى، فان هذه البلاد الثانية تؤدي إلى خصام في السياسة عظيم، بين حكومات البقاع الأولى، والجمل السياسية الملفقة التي تعيد إلى الذاكرة هذا المشكل هي قولهم (مكان تحت الشمس) و (تبعة الرجل الأبيض) و (مناطق النفوذ) و (الهدف الايمبراطوري)».

بهذا الوضوح، وبهذه الصراحة، يتابع المستر دليزل بورنس قائلاً:

«ان الحقائق المستترة تحت هذه الجمل (البرّاقة) هي بزور الزيت، والأخشاب، وخلاصات الأخشاب، والمطاط، والعمل الرخيص، والميادين الجديدة لاستثمار الأموال بأرباح سريعة عظيمة. على أن السياسة في هذه الأمور ليست اقتصادية بحتاً، لأن الشعوب وحكوماتها لا تزال تستمال لتأييد بسطتها القومية تنفيذاً لشعور مبهم قائم على الايمان بالنفوذ والاعتقاد بالشأن الذاتي: فيقولون ها نحن اولاء «قد انبسطنا» على البقاع الجديدة»[٨٧].

هل أحسنتُ أنا الاختيار، أم ان «كل وعاء ينضح بما فيه»؟

(٨٧) السياسة الدولية: ص ١٢٠.

بالنسبة إلى «السياسة الدولية» يصح هذا كما يصح ذاك .

وانما بمقدوري القول ان معظم ما ورد في «السياسة الدولية» يؤكد ان «معركتنا هي مع الحاضر - ليت كان «للحاضر» صيغة الجمع - الذي يكتب وينحت تاريخاً»[٨٩]، أو صنماً يُدعى التاريخ .

ان الأفكار العظيمة والآراء الحرة الجريئة لا تقيدها لا الدوائر ولا المساحات، ولو بلغت دمشق ولندن وباريس وبيروت وبون واثينا وموسكو وواشنطن وطوكيو وبكين . هكذا قال اللندني المستر دليزل بورنس .

وهكذا أيضاً قال سجين أرواد، وصريع «السياسة الرخيصة» ربيبة «السياسة الدولية»، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الدمشقي .

ونقولها نحن اليوم، من هنا، من بيروت المجرّحة والمضطهَدة والمقسّمة . من بيروت التي عرفت مختلف أنواع الحروب، وتعاني الآن حرب قتلة والديهم، نعم قتلة والديهم، المتصارعين على السلطة، خاصة في القطاع الشرقي منها وفي اقليم التفاح - الجنوب وغير اقليم التفاح .

---

(٨٨) كتابنا «نحن وصنمية التاريخ» ص ١٣ .

وإلى الدكتور الشهبندر العائد من القاهرة إلى دمشق ليعارض «الحكومة الوطنية» ويحرّض عليها طبقات الشعب، فيُقتل، ويُقبَض على القتلة، القتلة فقط، أما المحرضون والمدبرون والمستفيدون فما زالوا غير معروفين يقيناً، وما زالت الأقنعة السود تستر الوجوه الخبيثة المستكرهة .

السعادة والعقل الدولي

يذكر الرئيس خالد العظم، فيما يذكر، أن وصف السعادة الأقرب إلى الواقع ما سمعه ذات يوم من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر: «السعادة هي أن نكون منسجمين مع من حولنا»[٨٩]، فأي سعادة حقق صاحبنا الشهبندر وكيف؟

ان أحداً لا يملك الجواب عن هذا السؤال حتى يعرف من هم اولئك الذين كانوا حول الشهبندر وماذا فعلوا من أجل تحقيق هذه السعادة وبقائها .

قلنا في ما تقدم ان كتاب «السياسة الدولية» للكاتب البريطاني دليزل بورنس يؤلف أو يكاد أن يؤلف القاعدة الأولية الثابتة لأفكار الشهبندر الوطنية النضالية . فإذا ما اعتبرنا مقاومة الاحتلال الأجنبي والفساد السياسي والاداري جزءاً من السعادة التي أرادها صاحبنا، فهل لنا أن نعتبر اغتياله في عيادته ظهر السابع من تموز ١٩٤٠ الجزء الآخر

---

(٨٩) مذكرات خالد العظم: المجلد الأول ص ١٣١ .

والمكمل، أو ان التنظير لا بد أن يختلف عن التطبيق وإلى ما شاء الله؟

كان الدكتور الشهبندر يعرّب السطور الأخيرة من الكتاب المشار إليه عندما طرق عليه حارس السجن باب الحجيرة ليخبره «أن مدة «الزندان» ستنقضي في هذا اليوم الواقع في ٢٣ حزيران من سنة ١٩٢٣»[٩٠] (*)، فشعر ساعتئذ بالسعادة تغمره وتشد عليه كما لم يعهدها من قبل، لا لأنه أصبح حراً طليقاً فحسب، بل لأنه أتم تعريب هذا الكتاب «الممتع»[٩١] على قوله، وفي هذه اللحظة بالذات ذيل «عمله» بالكلمة التالية: «فاحتجاجاً على جشع رؤوس الأموال، وعلى سياسة البسطة والتوسع، وعلى أعمال الغطرسة العسكرية، اسجل هذه الترجمة للأبناء والأحفاد»[٩٢].

قبل أن ننطلق مع الشهبندر لننظر في نشاطه السياسي منذ ذلك الحين وإلى يوم مصرعه، يدعونا الواجب الأدبي والعلمي إلى قراءة السطور الأخيرة التي كان يعالجها صاحبنا

(٩٠) السياسة الدولية: ص ٣٣٢.

(*) الزندان: كلمة فارسية معناها في ادارة الحبوس في سوريا الحجرة الضيقة التي يُوضع فيها السجناء وهم داخل السجن.

(٩١) السياسة الدولية: ص ٣٣٢.

(٩٢) نفسه

حين أعلم باخلاء سبيله، ذلك أن الحالة التي كان عليها آنذاك انما هي حلم أو بعض حلم صيّره حارس السجن واقعاً لا رجوع عنه:

«ولا مراء أن هناك عدداً كبيراً من الناس يرغبون في أن يتركوا الدنيا خيراً مما وجدوها، ويعترفون بوجود المشاكل في السياسة الدولية، ويعلمون أن الحياة العامة في البشر لا تتقدم في معارج السعادة ما دامت الحرب والطمع الشخصي بارزين بشكلهما الحاضر. ويجوز أن يسمى هؤلاء الرجال خياليين، والخياليون هم ملح الأرض، غير أن هذا الملح لا يزال في «المملحة» ولم يوضع بعد في الأطعمة، وهو والحق يقال لتتبيل الطير واصلاحه لا لإيقاعه في الشرك كما يزعم بعض رجال السياسة. والقضية كلها اذن جعل هذه الخيالات الكمالية مؤثرة فعالة، وحمل أصحابها على العمل في المسائل المالية والتجارية والادارية.

«ان تكوين العقل الدولي وتنظيم العمل الدولي في جميع المناطق حكومية كانت أم اختيارية هو اذن أعظم ما يحتاج إليه العالم في يومنا. وتبدو هذه الحاجة في رغبة الرجال والنساء والأطفال في العدل والحرية وغير ذلك من المنافع التي تؤلف السعادة، غير أن أكثر الناس لا يحيطون بالمقتضيات التي تكشف الأمور عندما يطلبون السلام والادام واللباس، وإذا

صحّ أن سمعوا بالسياسة الدولية فانها تبدو لناظرهم مصلحة مجردة جداً تهم الاخصائيين، لأن السلام قد صدر لهم بشكل رغبة غريبة لا تعلل يطلبها أهل الهوس، فالعالم اذن هو رغبة عمياء تجري وراء منافع جعل المتمتع بها مستحيلاً بواسطة الأعمال التي يعملها نفس الذين يرغبون في هذه المنافع»[٩٣].

من المؤكد أن صاحبنا خرج من سجنه أكثر رغبة في السلام، وأكثر حباً للجماهير، وأكثر كرهاً للمحتلين والمتسلطين والمستغلين. ولكن هل سائر الرفقاء، المسجونين منهم والمبتعدين، هم مثله تماماً، أو اتخذوا من المحنة درساً مختلفاً فصاروا أقل منه تخيلاً وحماسة وصلابة، فبدا لهم «غريباً» ثم «خارجاً» على القانون ثم «مصدر خطر» على الجماعة والشعب والوطن، فاستوجب فيما بعد التصفية الجسدية؟

الثائر المثالي

المهم أن الشهبندر أعطي الحرية عام ١٩٢٣ وعاد إلى مدينته وجماهيره. وكما بيّنا في ما سبق من هذا البحث، فان الشهبندر قد صعّد حملته على الفرنسيين وأعوانهم من الوطنيين، حتى كانت ثورة ١٩٢٥، الثورة السورية الكبرى، بل ثورة سلطان باشا الأطرش ودروز جبل العرب إذا صحّ

(٩٣) نفسه

التعبير، فشارك فيها الشهبندر ورفقاؤه بقوة واندفاع لا يقلّان ربما عن قوة الأطرش واندفاعه، غير أن الحظ لم يوافق الدماشقة، والسبب على ما ذكره بعضهم أن الفرنسيين تمكنوا بواسطة جواسيسهم وعملائهم من الكشف عن مخطط الشهبندر قبل تنفيذه. «وبعد المداولة في الوضع الجديد الذي أحدثته ثورة الدروز اقترح الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الاتصال بالدروز للاتفاق معهم على توحيد الجهود، وأوفد توفيق الحلبي وزكي الدروبي إلى السويداء، فذهبا إليها من طريق متعرجة، وهناك اتصلا بزعماء الدروز وأبلغاهم قرار الاخوان في دمشق، ففرح الدروز بهذا التجاوب السريع، وأيقنوا أنهم لن يكونوا وحدهم في الثورة وقتالهم ضد فرنسا. واتفق الجميع على أن يجتمعوا في «الكسوة» في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب (١٩٢٥) ومن هناك يدخلون دمشق ويفتحونها بقوة السلاح، غير أن هذا الاجتماع لم يتم، لأن الفرنسيين بثوا عيونهم في كل مكان لترصد تحركات الوطنيين، وأحاطوا منزل الدكتور شهبندر بطابور من المخبرين السوريين ليحصوا حركاته، وفي غضون ذلك حضر الدروز إلى «الكسوة» بقوات كبيرة ووصلت طلائعهم إلى «بوابة الله» في الميدان، حسب الموعد المضروب سابقاً، فلم يجدوا أحداً من المجاهدين الدمشقيين، وبوغتوا بالطائرات تقصفهم بقنابلها ورشاشاتها فعادوا إلى الجبل، وفشلت الخطة التي

وضعها اللواء يحيى حياتي لاحتلال دمشق وطرد الفرنسيين منها كما فعل الدروز بالسويداء. . وذهب الدكتور شهبندر متخفياً إلى الزبداني، وقد علم أن الجنرال ساراي أصدر أمراً بالقبض عليه، ففر مع نزيه مؤيد العظم بطريق جبال سرغايا وحلبون إلى الريحان ومنها إلى حوش خرابو في غوطة دمشق»[٩٤]، ليوافيه بعد قليل الكثير من الوطنيين الراغبين في النضال ضد الاحتلال.

وعدّ الدروز هذه العملية المأسوية مقلباً مدبَّراً استهدف وحدتهم وتماسكهم، ولاموا الدماشقة، من دون أن يستثنوا الشهبندر واخوانه، على هذه الزلة، بل اعتبروها خيانة لا تقبل التسامح ولا المغفرة، بيد أن الشهبندر الذي وصل إلى الغوطة عاود الاتصال بالقائد الدرزي سلطان باشا الأطرش بغية تحقيق ما عجزوا عنه في المرة السابقة، ولكن الحظ أيضاً ظل عنه بعيداً. «وذهب كل من الشهبندر و (جميل) مردم و (نسيب) البكري و (نزيه) مؤيد العظم إلى المقر الرئيسي للثورة في جبل الدروز، وتم التقاؤهم بالقائد العام سلطان باشا الأطرش في يوم ٢٩ آب ١٩٢٥ وتداولوا معه فيما يجب عمله، فتقرّر أن تعود فكرة احتلال دمشق للتنفيذ، وطلبوا من يحيى حياتي أن يرسم الخطة، فوضع خطة تحتاج إلى

(٩٤) نصوح بابيل: ص ٤٦.

خمسمائة مقاتل ينقسمون إلى خمسة أقسام، ويدخلون دمشق من أماكن مختلفة، وتقرر أن يتولى يحيى حياتي قيادة هذه الحملة غير أن قائد الثورة العام لم يتمكن من تحضير هذه القوة ليضعها تحت تصرف يحيى حياتي»[٩٥]. ومهما قيل عن الأسباب التي أجّلت بل ألغت المشروع الشهبندري هذا، فمن المحتمل أن يكون القائد الأطرش قد أعمل عقله هذه المرة لا عاطفته، وآثر الحذر والتريث على الاستجابة الانفعالية للدماشقة، ذلك أنه أبى أن يقع ثانية في تجربة مريرة قد تكون أشد عليه من سابقتها إنْ لم تكن الأخيرة والقاضية.

«كان الفرنسيون بعد جلائهم عن السويداء يتجمعون على طول الخط الحديدي في حوران، وجعلوا قرية «المسيفرة» مركز قيادتهم وجموعهم. وخاف الدروز أن يقوم الفرنسيون بهجوم معاكس إذا ما توجهوا لاحتلال دمشق، فتقرر عندئذ أن تؤجل خطة احتلال دمشق، واجتمع القائد العام مع أركان حزبه في قرية «عري» وتداولوا فيما يجب عمله، وكان المجاهد محمد عز الدين الحلبي نصح لهم بمهاجمة الجيش الفرنسي ليلاً في قرية «المسيفرة»، وأن يتم ذلك بصورة سرية على أن لا تصدر عن المجاهدين أقل حركة حتى لا يشعر الجنود بوصولهم.

(٩٥) نفسه

«ولكن عندما وصلوا إلى المتاريس والاستحكامات الأمامية أطلق أحدهم رصاصة عن جهل أو عن قصد، فانتبه الجنود وأخذوا يطلقون الأنوار الكاشفة. فلما رأوا المجاهدين يطوّقونهم التحموا معهم بمعركة أدت إلى اندحار الجنود الفرنسيين نحو المتاريس والاستحكامات التي أقاموها داخل القرية، واكتفى المجاهدون بما غنموا من الأسلحة والعتاد، وما ان طلعت شمس ١٨ أيلول ١٩٢٥ حتى ملأ الجو ازيزُ الطائرات التي بدأت تطلق نيران مدافعها الرشاشة وقنابلها على المجاهدين الذين رأوا من الحكمة والصواب أن يعودوا أدراجهم بعد أن فُقد التكافؤ بين مقاتلين مجاهدين غير مدربين على القتال، ولا يملكون من الأسلحة سوى البنادق القديمة أمام قوة منظمة يقودها ضباط متخرجون من الكليات العسكرية ولديهم من العتاد والعدة أحدث ما أنتجته المصانع الحربية»[٩٦].

الانتقام والانتقام المضاد

اذ ذاك تماسك الدماشقة، في الغوطة، وأعلنوا الثورة، مصممين على دخول دمشق وطرد الفرنسيين منها، فخرج المقاتلون من كل حي وقرية، كأنهم الرجل الواحد، وداهموا بعض المخافر والقوى الاحتلالية، حين هدم الجيش الفرنسي قرى عديدة مثل «المليحة» و«جرمانا» و«البلاط» وسواها،

(٩٦) نفسه: ص ٤٦/٤٧.

وقتل حوالي خمسمائة فلاح رمياً بالرصاص، وحملت الجثث على ظهور الجمال وعرضت في ساحة الشهداء في دمشق لالقاء الرعب في المدينة واقناع المواطنين بانتصار السلطة على المقاتلين والعصاة، اما المجاهدون فكانوا يدخلون المدينة من جهات عديدة، بعضهم دخل من بوابة الله في الميدان وبعضهم من بساتين القصيبة، وبعضهم من بساتين الشاغور. ووصل إلى علمهم أن المفوّض السامي الجنرال ساراي موجود في قصر العظم في سوق البزورية، فأرسلوا إليه حسن المقبعة على رأس فرقة هجومية، فصادفت مقاومة شديدة من ناحية القصر، فاكتفت باخماد النار فيه، وقتل قائد الفرقة المهاجمة نفسه، فيما خرج ساراي من القصر يستدعي مستشاريه وقادة الجيش فضلاً عن رئيس الدولة السورية صبحي بركات. «وفي هذا الاجتماع تقرر تسليط المدفعية الثقيلة على دمشق لدك منازلها على رؤوس سكانها، وذلك من أجل تغطية الهزائم التي مني بها الجيش الفرنسي. وكان أكثر ما قذفته (المدافع) من القنابل المحرقة، ولم تستهدف أماكن معينة، ومن دون تمييز كانت القنابل تتساقط هنا وهناك واستمر القصف ثلاثة أيام والتهمت النيران القصور الأثرية والأسواق التجارية»[٩٧].

(٩٧) نفسه: ص ٤٩.

ظل الشهبندر «بمثابة الموجه السياسي للثورة ورئيس وزرائها حيث كان يشرف على تحديد سياستها وكتابة بياناتها ورسائلها»[٩٨] حتى ربيع العام ١٩٢٧، ولما نجح الفرنسيون في ضرب الثورة والقضاء عليها رحل سلطان باشا الأطرش إلى الأزرق في الأردن ومنها إلى النبك في الحجاز، فيما سافر الشهبندر وبعض رفقائه إلى مصر، فأصدرت فرنسا أحكاماً غيابية باعدامهم.

لقد قيل الكثير، نثراً وشعراً، في الثورة السورية الكبرى ورجالها، وسيكتب بعد الكثير الكثير أيضاً، ومهما اختلفت الآراء وتباينت المواقف وتضاربت الاستنتاجات، فان الحوار الساخن الذي دار بين الأمير سعيد الجزائري ومندوب المفوض السامي أوبوار، في منزل الأول، إثر انسحاب الثوار من المدينة، سيبقى علامة بارزة من علامات دمشق الثائرة والعصية.

سأل أوبوار الوفد الدمشقي، المؤلف من كبار رجال الدين مسلمين ومسيحيين: «ماذا تريدون؟».

أجابه الأمير سعيد: «جئنا لسببين، الأول: انقاذ سمعة فرنسا وشرفها. والثاني: انقاذ المدينة من الدمار».

(٩٨) غسان مكحّل: المصدر المذكور سابقاً ص ١٢٨.

تعجّب المندوب الفرنسي من كلام الأمير، وقال بدهشة بالغة: «سمعة فرنسا» «ماذا تقول؟».

فردّ الأمير سعيد: «نعم.. سمعة فرنسا. هل شهد تاريخ فرنسا حادثة اطلاق نيران على مدينة آمنة مطمئنة كما حدث لدمشق أمس واليوم، وليس للمدينة من ذنب سوى أن عدداً من الثوار لا يتجاوز المئة دخلها عنوة ولم تستطع جنود فرنسا صده؟».

فقال أوبوار: «انك تبالغ.. فالمدينة ثائرة بأسرها والشعب يطلق النار علينا من كل ناحية. ألا تسمع بأذنك أصداء الرصاص يتجاوب في الفضاء من كل اتجاه.. فماذا تريدون من زيارتكم؟»[٩٩].

ألم يعرف المندوب أوبوار ماذا كانوا يريدون؟

المدينة نزلت بها نكبة، وأي نكبة، والمندوب أوبوار يتجاهل مطلب اولئك الأكابر والأعيان الذين جاءوا يفاوضونه.

أهي «الحرية» الغربية أم «التخلف» المشرقي؟

الدماشقة يعرفون ما يريدون، وقد عرضوه واضحاً

(٩٩) نصوح بابيل: ص ٥٠.

صريحاً، وأوبوار يهدد ويهدد.

بين لغة القاتل ولغة المقتول لا مكان للمعاجم والقواميس.

وها هو أمير الشعراء أحمد شوقي، في قصيدته الرائعة: «نكبة دمشق»، يعاتب فرنسا، التي نهَل من معين ثقافتها وآدابها، ويلومها على فعلتها هذه البعيدة كل البعد عن جوهر ثورتها التي كانت مصدر ثورات وحريات الشعوب، ولربما استوحى من كلام الأمير سعيد، الذي مرّ معنا، بعض الأفكار التي عرض لها. قال:

«لحاها الله أنباءً توالتْ
على سمْع الوَليّ بما يشُقُّ[100]
ينقّلها إلى الدنيا بريدٌ
ويُجْملها إلى الآفاقِ برقُ[101]
تكادُ، لروعة الأحداث فيها،
تُخال من الخرافةِ، وهي صدقُ
وقيل: «معالم التاريخ دُكّت
وقيل: أصابها تَلَفٌ وحَرْقُ

(١٠٠) لحاها: لعنها. الولي: الصدّيق. يشق عليه: يصعب.

(١٠١) يجْملها: يذكرها من غير تفصيل. برق: تلغراف.

ألستِ «دمشقُ» للإسلام ظِئراً
ومرضعةُ الأبوّةِ لا تُعقُّ[102]
«صلاحُ الدين» تاجُك لم يُجمَّل
ولم يُرسَم بأجملَ منه فرْقُ
وكل حضارة في الأرض طالتْ
لها من سَرْحكِ العلويّ عِرْقُ[103]
سماؤك من حِلى الماضي كتابٌ
وأرضك من حِلى التاريخ رَقُّ»

أضاف:

«رماكِ بطيشه، ورمى «فرنسا»
أخو حرب به صلَفٌ وحُمْقُ
إذا ما جاءه طلّاب حقٍ
يقول: عصابة خرجوا وشقّوا
دم الثوار تعرفه «فرنسا»
وتعلم أنه نُور وحقّ
جرى في أرضها، فيه حياةٌ
كمُنْهَلِّ السماءِ، وفيه رزق

(١٠٢) ظئر: مرضعة. لاتُعق: لا تُعصى.

(١٠٣) سرحك = جمع السرحة: الشجرة الباسقة.

بلادٌ مات فتيتُها لتحيا
وزالوا دونَ قوْمهمُ ليبقوا
وحُرِّرت الشعوبُ على قناها
فكيف على قناها تُسْتَرَقّ !»

وقال مخاطباً دمشق وأبناءها مشيداً بالدروز الذين حيثما كانوا يذودون عن أنفسهم ببطولة لا مثيل لها ويكرمون ضيوفهم ويستميتون دفاعاً عن حريتهم وكرامتهم وأرضهم وتاريخهم:

«سَلي من راع غيدَكِ بعد وهْنٍ
أبَيْنَ فؤاده والصخرِ فرْقُ؟
وللمستعمرين، وإنْ ألانوا،
قلوبٌ كالحجارة لا ترقُّ
وللحرية الحمراء بابٌ
بكلِّ يدٍ مضرّجةٍ يُدقُّ
جزاكم ذو الجلال بني «دمشق»
وعزُّ الشرق أوله «دمشق»
نصرتم، يوم محنته، أخاكم
وكلُّ أخ بنصرِ أخيه حقُّ
وما كان الدروز قبيلَ شرٍ
وإنْ أُخذوا بما لم يستحقوا

ولكن ذادةٌ وقراةُ ضيفٍ
كينبوع الصفا خشنوا ورقّوا
لهم جبلٌ أشمُّ لهُ شعافٌ
مواردُ في السَّحابِ الجون، بُلْقُ
لكلِ لبوءةٍ، ولكلِ شبلٍ
نضال دون غايته ورشْقُ
كأنّ من «السَموْأل» فيه شيئاً
فكلُ جهاتِه شرفٌ وخُلْقُ»[١٠٤]

في هذا الوقت، كانت القاهرة مركز نشاط السوريين السياسيين الهاربين من ظلم الفرنسيين، فكان الأمير ميشال لطف الله[*٣] يجهد في سبيل تأمين الدعم الدولي للسوريين في حربهم مع الفرنسيين، «وكلما ارتكب الفرنسيون ظلماً جديداً أسرع الأمير ميشال لطف الله للابراق إلى عصبة الأمم في جنيف محتجاً على تقسيم سورية إلى دويلات، وعلى أحكام المجلس العربي

(١٠٤) ديوان شوقي. انظر شرح القصيدة في «الرفيق في الأدب العربي» لمؤلفه: اميل الحاج، منشورات المكتبة البولسية، طبعة أولى ١٩٧٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

(*٣) ميشال حبيب لطف الله (١٨٨٠ - ١٩٦١ م) أصله من طرابلس لبنان ثم من اللاذقية. سكن أبوه القاهرة، ونجح في تجارته واشترى قصراً كان يملكه الخديوي اسماعيل، فقال خليل =

الفرنسي في دمشق، وعلى فصل فلسطين عن تمثل السوريين»[105]، فعاد الدكتور الشهبندر ثانية إلى القاهرة ليكون قريباً من عاصمته الغالية: دمشق، وقريباً أيضاً من الوطنيين السوريين المبعَدين إلى لؤلؤة النيل وكل أفريقيا.

الوطني المثالي

لقد أمضى الشهبندر في القاهرة حوالي اثنتي عشرة سنة، مارس خلالها الطب وكتابة المقالات السياسية والاجتماعية مثلما مرّ معنا، واختلف مع عدد من رفاقه في الحركة الوطنية السورية، وبخاصة مع الأمير شكيب ارسلان وقد عرضنا نموذجاً عنه، ما جعل صاحبنا يبتعد عن أكثرهم ويتجنب مجالستهم، ولما صدر عفو عن المحكومين في ثورة العام ١٩٢٥ رجع صاحبنا إلى دمشق ليكون أشد المعارضين للكتلة الوطنية الحاكمة. «لقد عاد في الرابع عشر من شهر أيار ١٩٣٧، وكان يوماً من أيام دمشق المشهودة، ففي الطريق من القاهرة إلى الحدود السورية مروراً بمحطات طولكرم وعتليت والكرمل وحيفا خفت وفود عديدة للسلام والتهنئة»[106]. ففي الجاعونة «أقام الحاج عثمان الشراباتي من

= مطران من قصيدة:

«يا آل لطف الله، آل اليكمْ
قصرُ الجزيرة بعد اسماعيلا»

(١٠٥) نصوح بابيل: ص ١٠١.
(١٠٦) نفسه.

كبار الوطنيين السوريين مأدبة غداء على شرف الزعيم وصحبه»[107]، وإلى جسر بنات يعقوب، على الحدود بين سوريا وفلسطين، هبّت وفود عديدة من دمشق والقنيطرة تمثل «الكتلة الوطنية» والمتقاعدين العسكريين و«عصبة العمل القومي» و«الجبهة الوطنية» و«الحزب السوري القومي» و«الحزب الشيوعي»، فضلاً عن الجموع الكبيرة الآتية من المدن السورية في الساحل والداخل «وقدّر مندوبو الصحف في حينه عدد السيارات التي وصلت إلى جسر بنات يعقوب بألف سيارة، وما أطل الزعيم على جموع المستقبلين حتى تسابقوا لحمله على الاكتاف بينما كانت الطيور البيضاء تطلق من أقفاصها في وسط نشوة ترقرقت معها عبرات الفرح من العيون»[108].

ومن هناك، انطلق الموكب إلى القنيطرة فالكسوة فالميدان «في وسط شوارع وأسواق ومنازل مزدانة بمختلف أنواع الزينة»[109]، بيد أن زعماء حي الميدان كانوا يوقفون الزعيم وصحبه بين نقطة وثانية على طول حيهم فيقدمون له التهاني[110] ويجددون الولاء للذي طالما ألهب مشاعرهم الوطنية بالخطب الطنانة والتصاريح الهدارة التي لم تساير قوياً ولم

(١٠٧) نفسه
(١٠٨) نفسه
(١٠٩) نفسه
(١١٠) نفسه

تجامل ظالماً مهما اشتد بأسه وعلا كعبه.

وكانت دمشق قبل ثلاثة أيام من قدوم الزعيم قد رفعت معالم الزينات، وأقامت أقواس النصر. وفي يوم وصوله بكّر السكان إلى حجز الأماكن للاشراف منها على المهرجان، وارتفعت أجور السيارات، وتلقّت نقابة السيارات بدمشق من نقابة حلب أن (١٧٦) سيارة غادرت حلب لدمشق لتشارك في استقبال الزعيم، وكذلك جاءت أعداد كبيرة من السيارات الكبيرة والصغيرة من حمص وحماة وبقية المدن والأقضية.

«أما ساحة الشهداء (المرجة) حيث أقيم المهرجان فقد قسمت تقسيماً بديعاً، فاحتل رجال الدرك والشرطة و«القمصان الحديدية» منافذ الطريق المؤدية إليها، ووقفوا صفوفاً منتشرة على جوانبها، بينما وقفت فرقُ الكشاف السورية بأعلامها وألبستها الكشفية في وسط الساحة بنظام أثار الاعجاب، كما وقف الأساتذة والطلاب أمام حديقة الساحة تحت أقواس مرفوعة علقت عليها لوحات كتبت على كل واحدة منها إحدى العبارات التالية: (العروبة فوق الجميع) (عاش المجاهدون زعماء العروبة العاملون) (هيئة المعلمين ترحب برجال الأمة الأبرار) (الطلاب يرحبون بالمخلصين) (حييتم يا أعلام النضال) (طلاب الجامعة

يرحبون بالمخلصين الأبرار)، إلى غيرها من الشعارات التي تنم عن فرحة الجماهير بعودة الزعيم شهبندر واخوانه المجاهدين»[١١١].

ولكن الزعيم العائد، والمحتفى به، لم يعلم أن الأيام تخبىء له مصرعه؛ بل صدّق كل هذه العواطف الجماهيرية واعتبرها حقاً له على الشعب. ثم ذهب بعيداً في خطبه ونداءاته، وازداد تطرفاً وتصلّباً، فيما الزعماء الآخرون يستعملون شتى الوسائل والوسائط والامكانات من أجل الاحتفاظ بمراكزهم ومناصبهم.

«ما أطلّ موكب الشهبندر على ساحة الشهداء حتى دوت بالتصفيق والهتافات والزغاريد، وشقّ الزعيم وصحبه الصفوف إلى أن بلغوا القصر البلدي. وكان في استقباله رجال الدولة والكبراء وممثلو الأحزاب. وكان فارس الخوري رئيس مجلس النواب أول من عانق الزعيم وتبادل معه قبلات الشوق والحنين، وتبعه جميل مردم بك رئيس الوزارة، فشكري القوتلي وزير المالية، فعبد الرحمن الكيالي وزير العدلية وتبعهم كبار المستقبلين من الأعيان والوجوه وممثلي الأحزاب والهيئات»[١١٢].

---

(١١١) نفسه

(١١٢) نفسه: ص ١٠٢.

بعد استراحة قصيرة وقف توفيق الحياتي محافظ مدينة دمشق الممتازة وألقى كلمة جاء فيها: «إذا كانت دمشق عاصمة العروبة تكرّم الرجال العاملين في هذا اليوم التاريخي العظيم، فانها تكرّم البطولة، وتكرّم التضحية، وتحيي المبدأ»[113].

وتكلم لطفي الحفار، ثم نائب دمشق الدكتور منير العجلاني الذي دعا الشهبندر إلى الكلام قائلاً: «الآن يتكلم باسمه وباسم اخوانه المجاهدين الأحرار العائدين، زعيم البلاد الوطني الأبي والعلّامة العبقري الدكتور عبد الرحمن بك شهبندر.. انصتوا.. إن معالي الزعيم تعب، ويريد أن يعتذر، ولكننا أبينا عليه إلّا أن يتكلم لنسمع السحر ونراه ونلمسه»[114].

عندئذ وقف صاحبنا في شرفة القصر المطل على الساحة العامة، وارتجل خطاباً طويلاً جاء فيه:

«نحن نعلم أننا الآن في دمشق أقدم مدينة على وجه الأرض، نحن في المدينة التي تجمعت فيها الآمال الكبار منذ ألوف السنين حتى أصبحت عهداً في القرن العشرين تتمثل

---

(١١٣) نفسه

(١١٤) نفسه

فيها الغايات النبيلة والمبادىء السامية، وهذا العهد هو قاعدة تسمى قاعدة العروبة، وهي إذا طبقت تطبيقاً عملياً فلا يفيد دمشق منها إلا جزء ضئيل وضئيل جداً. فدمشق أم البلاد السورية لم تلتفت إلى منفعة مادية، وانما نظرت إلى مبدأ سام يضم تحت لوائه ثقافة تجمع تحتها سبعين أو ثمانين مليوناً من البشر.. فهل قمنا بالعهد؟ وهل نحن يا ترى حملنا الأمانة كما يجب أن يحملها المؤمنون؟»[115].

أية أمانة يطالب الشهبندر بحملها؟

وأي عهد يسأل عنه الشهبندر؟

هل سمع أقطاب «الكتلة الوطنية» هذه الكلمات التي تنبىء بمعارضة لا أعنف ولا أخطر؟

وعن أهداف عودته، قال صاحبنا مختتماً خطابه: «والآن لماذا عدنا إليكم، وماذا ننوي أن نعمل في وطننا الأعز الأول؟ اننا عدنا إليكم لندرس القضية مع اخواننا العاملين درساً موضعياً لا شائبة للحزبية فيه، لأن جنة الوطن هي جنة واسعة مفتوحة الأبواب لكل رجل يعمل للوطن باخلاص وذمة»[116].

---

(١١٥) نفسه

(١١٦) نفسه

الواضح أن الشهبندر في خطابه هذا كان كمن يضع البارود تحت القش. فإذا كان الشعب، على اختلاف طبقاته، قد استحسن ما قاله صاحبنا، فان الحاكمين من أعضاء «الكتلة الوطنية» هم على العكس، ذلك أنهم وجدوا لا سيما في ختام الخطاب «أول إشارة يطلقها الشهبندر في ساحة العمل الوطني كشعار يدعو إلى رص الصفوف، وإلغاء الحزبية، بينما سبق لـ «الكتلة الوطنية» في ظروف سابقة مختلفة أن رفضت التحالف مع عناصر عديدة كانت تختلف معها نهجاً وسلوكاً بحجة أن «الكتلة» هي الشعب، وان الشعب هو «الكتلة» فحسب. على أن هذا كان صحيحاً قبل عقد المعاهدة (السورية ـ الفرنسية)، إذ كانت (الكتلة) تحتفظ بنفوذها الشعبي الكبير، لكن المعاهدة التي خيبت الآمال قد أضعفتها كثيراً»[١١٧].

انفضّ المهرجان الترحيبي، ليبدأ الصراع السياسي الذي أباح الكلام على كل شيء حتى المحرّمات. وبين رئيس الوزراء جميل مردم بك والدكتور عبد الرحمن الشهبندر فقدت دمشق هدوءها وتفكيرها الرزين، ذلك أن الاحتفالات أصبحت شبه يومية، والخطب النارية مثل الخبز الذي لا يُستغنى عنه. «ومما يذكر أن الشهبندر بعد وصوله إلى دمشق

(١١٧) نفسه

في الرابع عشر من شهر أيار ١٩٣٧، قضى فيها ستة أسابيع ألقى خلالها نحواً من تسعين خطاباً كل خطاب منها لا يتفق مع الآخر نوعاً وموضوعاً، ولوحظ أنه لم يكرّر قولاً سبق أن قاله، ولا حديثاً أورده من قبل»[١١٨].

السياسي العنيد

كانت المعاهدة السورية ـ الفرنسية أبرز وأهم أسباب الخلاف بين الشهبندر و «الكتلة الوطنية»، الشهبندر ضد المعاهدة حتى الموت، و «الكتلة الوطنية» مع المعاهدة ولا ترى بديلاً منها. وإذ قال جميل مردم بك في خطاب ألقاه من شرفة دار الحكومة بدمشق، في ٢٨ كانون الأول: «أنا لا أقول لكم ـ انني الشهيد الحي[١١٩] ـ بل أقول: إن الشهيد هو الذي كتبت له الشهادة واختاره الله إليه، ولأنني رجل حيٌ برجولتي، حيٌّ بالدفاع عن حقوق أمتي، لا يجوز لي بصفتي رجلاً مسؤولاً أترأس حكومة، أن أتهاون في أمر مغبته الإضرار بالقضية الوطنية»، قال الشهبندر: «ان هذه المعاهدة كلها سموم ناقعة يحاول السيد جميل مردم بك تبليعها أبناء سورية بطليها بالعسل كما يطلي (السنامكي) بالشوكولاته

(١١٨) نفسه: ص ١٠٣.

(١١٩) الشهيد الحي: لقب أطلقه الشهبندر على نفسه في الخطاب الذي القاه من القصر البلدي يوم وصوله إلى دمشق.

ليبلعه الأطفال، ولكن أبناء البلاد سيطحنون جرعه المعسولة بمطحنة العقل ليروا السموم المدسوسة فيها». أضاف: «اننا نضرع إلى دولته بقلوب ترتعش من الفزع أن يقلل جهد الطاقة من التهديد والوعيد والسحق والبطش، واستعمال القوة، وأن يوفر جميع ذلك لتأديب من خطفوا له محافظ الجزيرة، وهم أمام عينه يهزأون ويسخرون ويرتعون ويلعبون»[١٢٠].

والحقيقة أن «الكتلة الوطنية» أقامت، اثر عودة الشهبندر، في مقرها حفلة جامعة على شرفه، رحب به خطباؤها وشددوا على ضرورة التفاهم والتعاون، حين ارتجل صاحبنا خطاباً كرّس الخصومة بينه وبين الداعين إلى الاحتفال المشار إليه، لتبلغ فيما بعد حداً من العداء لا يوصف. قال:

«اننا ما أتينا لنهدم، لقد كان يشق علينا الهدم في إبان حكم السلطة الأجنبية فكيف نهدم في زمن نرجو أن يكون زمن الحكومة الوطنية، فأنا أيها الاخوان اعلن على رؤوس الاشهاد بأنني من «الكتلة الوطنية»، إنني من الكتلة، ولكنني لست من حزب الكتلة فهل تفرقون بين كلمة الكتلة وحزب الكتلة؟ إذا أردتم التفريق فهذا هو الطريق. أنا من «الكتلة الوطنية» المستعدة لمد يد المصافحة لكل رجل نافع في البلاد

---

(١٢٠) نصوح بابيل: ص ١٠٢/١٠٣.

فنجذبه إلى ساحة العمل، والتي لا تبقي رجلاً صالحاً خارج الحظيرة الوطنية، وأنا عدو حزب «الكتلة الوطنية» عدو شديد الوطأة، وستعلمون شدة وطأتي إذا كانت حزبية «الكتلة» تمنع الأمة من أن تجتمع كلها على صعيد واحد». وقال أيضاً: «كونوا كتلويين وطنيين بالمعنى الذي أفهم، ولا تكونوا حزبيين، لا تهمكم الأسماء بل انصرفوا إلى الحقائق، فالأسماء عرض والحقيقة جوهر»[١٢١].

ثم حلّت نكبة لواء الاسكندرنة، فعمت البلاد كلها موجة من الغضب والاستنكار، وزاد التباعد بين صاحبنا و«الكتلة الوطنية»، وأضربت سوريا من أقصاها إلى أقصاها يوم الخميس ٣ حزيران ١٩٣٧ احتجاجاً على قرار عصبة الأمم القاضي بسلخ اللواء عن سوريا والحاقه بتركيا، فاضطرت الحكومة «الكتلوية» إلى إيفاد وفْد إلى باريس برئاسة جميل مردم بك وعضوية سعد الله الجابري وزير الخارجية وآخرين من كبار موظفي الدولة. «وعندما توقف القطار الذي يقلّهم في استامبول تحدّث الصحفيون الاتراك إلى الوفد عن رأيهم في قرار فصل اللواء، فردّ رئيس الوفد جميل مردم بك على الاسئلة بأن لسورية ثقة بحليفتها فرنسة التي لا بد من أن تبقي على صلاتها الحسنة مع سورية، إلى ما هنالك من

---

(١٢١) نفسه

العبارات الدبلوماسية التي لا تزعج فرنسة بأمل أن يلقى الوفد في باريس من حكومتها ما يساعد على ايجاد مخرج يطمئن خواطر السوريين إلى بقاء اللواء عربياً»[١٢٢] فحسب.

الخيط الأخير

ولكن اللواء ضاع رغم الوعود والتطمينات، فألف الشهبندر، «لجنة التنظيم القومي للاسكندرونة»، ضمت إلى صاحبنا عدداً من مختلف المدن السورية وفي مقدمتها لواء الاسكندرونة، وبات موضوع اللواء «يجري على كل لسان»[١٢٣]، وأخذت الفئات المثقفة تطالب الشهبندر والحكومة الوطنية باتخاذ ما ينبغي اتخاذه على الصعيد العربي لاسقاط الاتفاق التركي ـ الفرنسي الظالم. وفي حي الميدان اقيمت في السادس من حزيران ١٩٣٧ حفلة على شرف الشهبندر تكلم فيها الشاعر السوري عمر أبو ريشة مخاطباً زعيم المعارضة: «يا رجل الأمة، ويا آخر خيط تتعلق به الآمال، اسمعني، علّمتني معنى كبح الجماح، فلا تعجب إذا رأيتني هيكلاً من لهب على هذا المنبر، وسأظل ما عشت انفخ في جمرة الحق حتى يمتد لسانها فيجرح كبد الباطل. إن الباطل كان زهوقاً. اذكر ولا أنسى يوم سافر الوفد السوري إلى باريس بعد جهاد الأمة العنيف انني لمحت في حياة هذه البلاد

---

(١٢٢) نفسه: ص ١٠٤.

(١٢٣) نفسه

فجراً، ولكنني لم أتبيّنه أكان فجراً صادقاً أم كان فجراً كاذباً».

أضاف: «إن موت البلاد محتم في سلخ الاسكندرونة عن سورية، وخير للرجال أن يموتوا شرفاء في ساحة الميدان من أن يموتوا أذلاء على سرر من الورد والريحان. ولعمري ان العجب يأخذ مني كل مأخذ عندما التفت فلا أسمع للأمة العربية صوتاً صارخاً كأن الأمر لا يهمها وكأن الفجيعة ليست فجيعتها».

وقال أيضاً: «وأنتَ يا سيدي، واسمحْ لي أن أقول يا سيدي، فاني لستُ أعنيك لحماً وعظماً ودماً بل أعنيك شرفاً ونبلاً ومبدأ.. انظرْ إلى هذا الشعب، إلى عصب الوطن الصلب، كيف يتهافت عليك كما يتهافت الظامىء في الصحراء على قربة من الماء، مدّ إليه يدك ليمدّ إليك يده، أعطه قوتك ليعطيك قوته، أظهر حزمك قبل أن يظهر تفكّكه فتعمّ الفوضى، فتصبح أنتَ وحدك المسئول عن المصير أمام الله والوطن».

فردّ الشهبندر في خطاب استغرق ساعة وبضع دقائق جاء فيه:

«لقد سمعتُ كلمة من أديب كبير وشاعر خطير ـ يقصد الاستاذ أبا ريشة ـ يقول إن الشهبندر هو الخيط الأخير المعقود عليه الأمل.

«كلمة أزعجتني لأنها لا تنطبق على الواقع، وأرجو أن لا تنطبق على الواقع، بل لأن فيها معنى مؤلماً صادراً من قلب يحوم حوله القنوط، من قلب ملّ الانتظار، من نفس عانت هذا التأخير والتلكؤ والتواكل..

«يا أبا ريشة.. أنت شاعر، والشاعر يستمد روحه من الملأ الأعلى والملأ الأعلى كله رجاء، وكله أمل، فلا تقنط، وهذه أمتك العربية أصيبت في الماضي بأكثر مما أصيبت به الآن، انها قامت وهاجمت روما وفارس ولم تكن إلا شرذمة من الرجال. لكن الايمان هو الذي أوصلها إلى أوج الظفر.

«وفي القرون الوسطى حاربنا الصليبيون فامتلكوا الشام، ونزلوا بيت المقدس، وربطوا خيولهم، وعلّقوا خنازيرهم في المسجد الأقصى، ولكن صلاح الدين ومن حذا حذوه من المجاهدين الأحرار والرجال النبلاء، أعادوا إلى الشام بهجتها، وإلى القدس عزتها. انني لست الخيط الأخير، كلا، ولا الخندق الأخير، فإذا مات شهبندريون أو قتل الشهبندر في ميادين الشرف ففي الأمة العربية شهبندريون.. ان كل من ينبض قلبه بايمان الوطن، ويثور عقله بحب الوطن، وتهتز نفسه بحب الوطن هو شهبندر وفوق الشهبندر.. وهل شهبندر إلا عروق وأعصاب وعضلات تستملكها عقيدة لا تزعزع ولا تزلزل. هذه العقيدة هي ان الأمة العربية حَريّة

بالحرية، وأن بلدان الشرق العربي هي وحدة لا تتجزأ».

وتابع قائلاً: «فاذا أردتم أن تجعلوا من كل أخ منكم، ومن كل ولد منكم، ومن كل حفيد منكم شهبندر آخر حتى يصبح الشهبندريون يُعَدُّون بالملايين فما عليكم إلاّ أن تزرعوا فيهم قول الحديث الشريف: حبُّ الوطن من الإيمان...

«وكل من لا يحب وطنه لا إيمان له والحب لا يكون بالكلام، والغرام والهيام لا يكونان بمجرد الكلام. من أحبّ حبيبة يحمل في سبيلها أنواع الآلام وأنواع الأذى. ومن أحب ديناً خدمه بكل ما أوتي من علم ومال وحزم. ومن أحب سلطاناً جلس بجانبه ليكون عوناً له. ومن أحب ابناً دفع في سبيله الأموال ليخرّجه من دور العلم والجامعات والكليات. ومن أحب حديقة صانها من اللصوص وسقاها ووضع فيها السماد وأحسن ترتيبها. ومن أحب الوطن، فلا يحب بالكلام الفارغ ولكن ليبذل في سبيله قواه والمال والبنين والجاه والنفس. وهذا آخر ما يستطيع المرء أن يعمله.. حينئذ يكون زعيماً يحق له أن يتزوج امرأة الزعيم (الاسكندرونة) جواباً على كلمة قالها الدكتور العجلاني.

«اذكروا جيداً ان كل الذي جرى في الاسكندرونة على حسابنا.. وأن كل ما ظنناه ربحاً لنا هو ناتج عن الاتجاه الجديد، ولا أزيدكم معرفة بما أقصد».

وختم الشهبندر كلامه: «ونحن إذا بحثنا في جميع المنافع نرى أن المعاهدة الجديدة أعطتنا هذه المنافع منا وإلينا وعلى حسابنا.. ولواء اسكندرونة عربي والترك فيه أقلية، ولغة البلاد العربية رسمية، فإذا قالوا اننا نجحنا بجعل اللغة العربية لغة رسمية فهل يرضينا ذلك؟

«كيف نرضى ولواء اسكندرونة جزء لا يتجزأ من سورية؟ إذا كانت المعاملات الرسمية قد حكمت على هذا الجزء أن يبقى إلى حين في حالة مرتبكة، فما عليكم، إذا أردتم أن تعيدوه إلى أحضان العروبة، إلا أن تساعدوه بالمادة والرجال. فقد تألفت لجنة دعيت «لجنة التنظيم العربي للواء اسكندرونة»، وقد اتخذت على عاتقها أن تدافع عن العروبة وعن اللغة العربية والتقاليد العربية، وذلك بارسال أساتذة ومبشرين وخطباء ودعاة ليعرفوا الناس هناك ويربطوهم بمبادىء آبائهم وأجدادهم. وفي اليوم العاشر من شهر حزيران الحالي ستقيم تركيا أفراحاً في طول البلاد وعرضها تذكاراً لانتصارها في لواء اسكندرونة.. فما أنتم عاملون؟ أتقبعون في بيوتكم وتضعون المحارم على عيونكم كالمصابين بالأمراض؟ أم يخرج الواحد منكم إلى البرية حتى لا يرى ولا يُرى؟ أم تلجأون إلى زوايا بيوتكم لتسبحوا بأن يعود اللواء إلى حظيرة سورية؟ انها وسائل لا تنجح ولا تعود على البلاد بالنفع المنتظر. وإذا أردتم أن تظهروا مشيئتكم للحكومة

السورية ولحليفتها فرنسا، فما عليكم إلا أن تخرجوا جموعاً في حدود النظام والهدوء لتؤكدوا للحكومتين أن الاسكندرونة هي بلادكم، وأنكم مستعدون للحفاظ عليها بالغالي والرخيص، وأن كل حكم يصدر من غير تصديقكم وإرضاء أنفسكم هو حكم مرغمين به سياسياً ولستم مرغمين به قومياً. إن الأمة التي لا تجري عليها إلّا الأوامر القومية، هي الأمة التي تنفذ أمرها، هي الأمة الحيّة وهي الأمة الحرة»[١٢٤].

بعد هذا الخطاب الجامع الشامل، لم يبق من الممكن التفكير في المصالحة بين الحكومة وصاحبنا. واستمر الشهبندر في حملته على «الكتلة الوطنية» حتى كاد أن يفرط عقدها ويبعد عنها الأنصار والمؤيدين من الشعب، ولكن يد المنون ما لبثت أن سرقته ليقبض خصومه على البراغماتية مثلما يقبض الطفل على لعبته الوحيدة.

شهيد دمشق: الرقم الصعب

اغتيل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في عيادته، فعُرف ـ حسب المحاكمة الصُورية التي أجريت ـ المغتالون ولم يُعرف المحرضون والمستفيدون!

من قتل الشهبندر؟

ان قتلة الشهبندر هم، في شكل أو آخر، جميع الذين

(١٢٤) المصدر نفسه: ص ١٠٤/١٠٥.

قاومهم المغدور وناوأهم ووضع العراقيل في طريقهم، وحرض عليهم الشعب أو بعضه.

عرب وأجانب قتلوا الشهبندر.

ولكن هل أفلح القتلة؟

صحيح أن المغدور أصبح خلال ثلاث سنوات الرقم الصعب بالنسبة إلى فرنسا والحكومة الكتلوية ومن يسبح في ركبهما، ولكن الصحيح أيضاً ان اغتياله ينم عن هزيمة لفرنسا والحكومة. ذلك أن الرقم الصعب تجسد فيما بعد أرقاماً أكثر صعوبة غيّرت وجه سوريا وربما المنطقة العربية جميعها.

ماذا بقي من فرنسا في سوريا؟

ماذا بقي من «الكتلة الوطنية»؟

فرنسا خرجت من سوريا طرداً.

و «الكتلة الوطنية» ذابت كما تذوب قطعة الشحم في النار.

الخاتمة

بعد خمسين عاماً على مصرع الزعيم الوطني السوري الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، نرى من المفيد، بل من الواجب، أن نستعيد بعض ما كتبه صاحب الذكرى عن الملك فيصل الأول، الذي قضي على مشروعه القومي العربي، الدولة السورية الكبرى، ليبقى العرب مفككين ومقسمين لا أمل لهم ولا رجاء ولا عزيمة.

إثر وفاة المغفور له الملك فيصل المشار إليه، كتب الشهبندر في «المقتطف» المصرية (اكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٣٣) مقالة جاء فيها:

«لما اعلنت الحرب العالمية، عدّها الاتحاديون (العثمانيون) فرصة سانحة لتطبيق منهاجهم السياسي فكشروا عن أنيابهم وهاجمونا مهاجمة عنيفة في عقر دارنا، مهدوا لها السبيل بالدعايات التي تجوز على أهل العقائد الوهمية. حينئذ اتخذ الطموح في البيت الهاشمي وجهة قومية صريحة لا مواربة فيها، وقد تجلت لي على أتمّ مظاهرها يوم قابلت المليك الفقيد في بيت المرحوم عطا باشا البكري في دمشق في صيف سنة ١٩١٥، ودار الحديث بيننا حول القضية العربية ومظالم الاتحاديين والعلاج الشافي من تلك الأوصاب، وقد بدت لجميع من اختلوا به من العاملين، روح الثورة على وجهه، ولكن الضغط يومئذ كان يتطلب منتهى الحذر في المتكلمين والمستمعين لأن أقل بادرة تبدر من المرء تكفي لجره إلى المشنقة»[١٢٥].

وعن جلالة الملك الذي كان يعمل في أحرج الأوقات، لا سيما بعد تأليفه الحكومة الأتاسية التي شارك فيها الشهبندر

(١٢٥) عن قدري قلعجي: «جبل الفداء، قصة الثورة الكبرى ونهضة العرب» دار الكاتب العربي، طبعة ١٩٦٧، ص ١٤٨.

نفسـه، قال: «واذكـر هنا حـادثة تـدل عـلى مـا تحـلّى بـه من المواهب السياسية وكيف كان سبّـاقاً إلى رؤيـة الخطر المـداهم ومحيطاً بالقواعد الأساسية التي تسـير بموْجبهـا الشؤون من غير أن يغرق في التفاصيـل ويرتبـك بالشؤون العـرضية الثـانويـة مشغولاً بها عن الأمور الجوهرية الأولية. فقد كنا ذات يوم في مجلس الوزراء نعالج مشاكلنا مع الفرنسيين كـالعادة، ونسعى بكـل ما أوتينـا لدفـع كارثتهم عن البـلاد، ولم يكن في الأفق السياسي حدث جـديد يـدعو إلى الاضـطراب، فدخـل علينا الملك وعليه علائم الاضطراب والقلق كأنـه يتوقـع بلاء، ثم قال: «إنني لأخشى أن تسير أمور الدولة من الآن فصاعـداً في الوعر، وأن تتكَوّم العقبات أمامنا» فقلنا: «ما الذي حـدث؟» فقال: «ان الفرنسيين عقدوا اليـوم أساس اتفـاق مع الـترك، وسيتفرغون لمعـالجة القضيـة السوريـة، لأن اتفاقهم مـع الترك يعني تـوفير جيـوشهم في الشمال لمحـاربتنـا في الجنـوب» وقـد صدق ظنه وجاءت النتائـج طبق ما تـوقع لأن الجنـرال غورو «حالما حصل على هذه الراحـة في الحدود الشـمالية تنمّـر وكشّر عن نابه، ولو أوتي المليك الخالد حزماً عـلى قدر فـطنته وبعـد نظره، لتمكن من استغلال ضعف الفرنسيين لمصلحة سوريـة عندما كان يعصرهم الترك عصراً يقـطع الأنفاس في جهـات أورفة وماردين وعينتاب»[١٢٦].

(١٢٦) نفسه: ص ٣٧٨.

أبعد من الخاتمة

تلك كانت سوريا الأمس البعيد ـ القريب، بل سوريا التي منها انبثقت سوريا الأسد حالةً تصحيحية، حين الظروف، على اختلافها، صعبةٌ متشابكة، والامكانات متواضعة ان لم تكن هزيلة. ولكن التصحيح، في الواقع، حركة وغاية في آن، ذلك أن السلامة من العيب أو المرض أو السقط أو جميعها، انما هي إزالة السبب أو العلة، وكما لا يمكننا الفصل بين الجراحة ومستلزماتها كذلك لا يمكننا الفصل بين الصحة وشروطها، وفي أسوأ الأحوال ليس أشقى وأذل من جماعة أو أمّة تكون كالشاة التي تبحث عن سكّين جزار.

لقد أدرك الرئيس حافظ الأسد، فيما أدرك، أن مهمّاته كقائد ومسؤول ينبغي لها أن تشمل السياسة والأمن والدفاع والاقتصاد والاجتماع والعقيدة والثقافة والديبلوماسية، الأمر الذي يحتّم الانسجام الكلي المطلق بين الرأس والقاعدة، وبين الجهاز المنفذ والجهاز المخطط. والحقيقة ان ابن الجبل ،

الجبل الشاهد الحي الباقي على العمقيْن السوريين الشرقي والغربي، انما أتى عاصمته الخلاّبة، دمشق، الدافئة والباردة، ليكون صاحب العقلين والقلبين، ولن يخرج منها مهما تكاثرت عليه السيوف والاسنّة، كما ولن يدعها تميع فتذهب كالسيل، أو تتجلد فتنكسر، أو تيأس فتنتحر.

من القرداحة المنسيّة أو المهملة، الى اللاذقية النائمة على فقش الموج، الى الكلية العسكرية النامية، فالى قيادة القوى الجوية الحديثة العهد، ثم إلى وزارة الدفاع، ثم إلى رئاسة مجلس الوزراء، فرئاسة الجمهورية، والأحلام «الأسَديّة القومية» تتنامى، والمتاعب تتفاقم، والأحداث الاقليمية والدولية تتسارع، فتسقط رؤوس وتفرّخ أُخر، وتنتهي عهود وُصفت بالبالية أو المهترئة أو العميلة، لتبدأ عهود شابّة تتعهد التقدم والعنفوان والحياد.

قبل هذا وذاك وذلك، وبين البيت الجبلي الذي جمع الفقر إلى المثالية، والبساطة الى الاباء، وثانوية اللاذقية، حيث التمييز الطبقي، كان الاختيار الكبير: «البعث العربي»، «البعث الأرسوزي»، وكلما تقدّم الفتى الأغرّ خطوة نحو العقيدة، تقدم خطوتين وربما اكثر نحوَ «البرج الشامي» الذي لم يعص على أحد كما على الامام علي بن أبي طالب وسائر الأئمة من أبنائه وأحفاده.

وإذ اختار الأسد العقيدة اختار الجيش أيضاً، وتحديداً السلاح الجوي، ربما لأنه آمن بأن ليس كالطيران يستطيع تذليل الأبعاد وتقريب المسافات، بل ليس كالطيران الحربي يدكّ الحصون المنيعة، ويخلع الأبواب الموصدة، ويجترح العجائب. لذلك غدا «البعث العربي»، في نظر الشاب الحالم، العقيدة والغاية،فيما غدا الجيش، وخاصة القوى الجوية، الطريق الوحيد الى الهدف المنشود.

إن التوازن الدقيق الحاد، بين النظرية والتطبيق، يقتضي أعلى درجات السريّة والتنظيم، ويقتضي كذلك التأمل والتروي والحذَر وانتقاء الرفقاء، وفي هذه المجالات أظهر الرئيس الأسد فعلاً، وعلى مدى ثلاثة عقود، تفوّقاً ملحوظاً قلما أظهر مثله القياديون التاريخيون.

يتراءى لي أن الرئيس الأسد، في منهجه الاداري والسياسي، كأنه من أصحاب العقل والدراية، ممّن اشتهروا في التنظيم والتخطيط والتدبير والتوجيه وتأمين الاتصالات الفائقة السّريّة فيما بينهم، رغم المسافات البعيدة ومشقات السفر، والاتصالات بالمؤيدين والأنصار والموالين والمريدين المنتشرين في غير منطقة واقليم ودائرة. على أن الرئيس الأسد عندما كان يوزع الأدوار على الرفقاء، كان يستبعد آخر معارض لا رجاء منه، حتى ان اللجنة العسكرية الخماسية،

وكان هو نفسه من أعضائها، قد تجاوزها وذهب بعيداً، وبتنا لا نسمع ما يُذكر عن اولئك الضباط الكبار: صلاح جديد وأحمد المير وعبد الكريم الجندي ومحمد عمران، بعدما كانوا «نجوماً» ولكن في سماء رمادية كثيفة الغيوم متقلبة.

من المؤكد أن الرئيس الأسد، المولود في القرداحة في ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٠، بدأ حياته العسكرية مثالياً تصوّرياً، ولما استْدرج عام ١٩٦٧ إلى الحرب مع اسرائيل، يومة كان وزيراً للدفاع، صدَمه الواقع، وأي واقع، انتصار اسرائيل الساحق على الجبهات العربية الثلاث: المصرية والأردنية والسورية، ولكن سرعان ما تغلّب على هذه الصدْمة واستعاد نفسه ليتّجه وإنْ بطيئاً نحو البراغماتية، ليثبت عليها فيما بعد. بيد أن تحرير الأرض العربية من المغتصِب الصهيوني كان ولا يزال أمل الرئيس العتيد الذي لا يمكن التراجع عنه ولا التسامح به، مع الاستعداد للدخول في مشروع سلام شرق أوسطي مشرّف، يضمن الحق العربي ويصونه ويرعاه، حسبما قال في خطاب له في الاتحاد الوطني لطلبة سوريا بدمشق في ٢٤ شباط ١٩٧٥، وقد حدد مفهومه للسلام على الوجه التالي: «أما نحن فإننا ننظر الى السلام بمعناه الحقيقي، بدون احتلال ولا مشرّدين يائسين، أو مواطنين يُحرّم عليهم وطنهم. إن أي شخص يظن أن من

الممكن تجزئة عملية السلام فهو مخطىء... إننا نقول الآن كما لن نقول دائماً... ان السلام يجب أن يقوم على أساس الانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧، وعلى إعادة الحقوق الكاملة للشعب العربي الفلسطيني».

لعلّ حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ آخر عهد للأسد بالمثالية التصوّرية، ذلك أن انتصار جيشه، على الجيش الاسرائيلي في الجولان، حوّله، يا للأسف، توقُّفُ الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات، عن متابعة الحرب في سيناء، هزيمة أو شبه هزيمة. يومذاك تحقق له أن تحالفه مع السادات لم يأت على المستوى المفروض أو الذي تمنّاه، وكم كانت خيبته شديدة وقاسية على النفس حين اكتشف أن صاحبه قد خدعه إذ تركه وحده يتلقى ضربات الجيش الاسرائيلي التدميرية، ويعتقد البعض أن الرئيس السادات ما كان ليفعل هذا لولا تمرد السوريين على الرئيس الأسبق جمال عبد الناصر ومبادرتهم «الوطنية» إلى الانفصال والقضاء على الوحدة المصرية السورية ولما تكمل عامها الثالث.

كلما تذكرنا تلك الحرب (١٩٧٣) وفيها استطاع كل من الرئيسين السادات والأسد، أن يحقق لبضع ساعات انتصاراً عربياً لا مثيل له في التاريخ العربي الحديث، تذكرنا

رغبة القيادة الاسرائيلية، آنذاك، في الهجوم على دمشق من جهة، والمساعدات العراقية والاردنية والسعودية والمغربية العسكرية والاقتصادية، وإنْ يكن اكثرها رمزياً، من جهة. فما بالُك لو أن السادات لم يخدع صاحبه، والعرب تماسكوا وتعاونوا وأخلصوا لقضاياهم واحترموا قراراتهم ونفذوها دونما استرضاء أحد، كبيراً كان أم صغيراً.

المهم أن الرئيس الأسد الذي انتزع السلطة لينقذ البلاد والعقيدة والجيش، خرج من حرب ١٩٧٣، وكأنه ردّ عن نفسه الشبهات من أيام الهزيمة الكبرى (١٩٦٧)، فضلاً عما واجهه من دروس وعبر مؤلمة محزنة كانت له الدافع الأول والأساسي للاتكال على الذات وعدم التسرّع في اتخاذ القرارات المصيرية. والأهم منها الابقاء على مسافةٍ ما، بينه وبين الآخرين. هذه الاختبارات والاستنتاجات الغالية الثمن فسّرها الكثيرون على أنها ازدواجية في المواقف والتحالفات، وهنالك من غمز ويغمز من قناة التحالف السوري ـ السوفياتي، معتبراً أن الأسد لم يضع جميع بيضه في السلّة السوفياتية فحسب، بل في السلّة الأميركية أيضاً. والصحيح أن الأسد حالف السوفيات وأخلص لهم ايما اخلاص، بينما أبقى على حريته وعقيدته وكرامته واستقلاله في التحرك واتخاذ القرارات، مستفيداً من تجارب الذين سبقوه من القياديين السوريين وغيرهم لاسيما الرئيسين الراحلين:

جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم. ليتَ اولئك المحلّلين والدارسين السياسيين يدركون أن الرئيس الأسد عرف، مذ كان طالباً، أن دمشق التي خضعت لمعاوية بن أبي سفيان وقاومت علياً وأبناءه من بعده وأحفاده، قاومت كذلك فيلسوف القومية العربية، الانطاكي النبيل، زكي الأرسوزي، ولمّا أتيح له (الأسد) أن يحكم دمشق وكل سوريا صمّم على أن يؤلف بين طوباوية علي وجديّة معاوية ورحمانية الاستاذ الكبير زكي الأرسوزي، بغية الحفاظ على نقاء العهد والتأمين على سلامته واستقراره وإطراده.

بعد عام ونيف من الحرب التشرينية، اشتعلت نار الفتنة في لبنان، فانقسم اللبنانيون فريقين، واحدهما مع الفلسطينيين ضد الدولة والنظام، والثاني يدافع عن الدستور ورئاسة الجمهورية، وإذْ أوشك الفريق الأول أن ينتصر أو يُحْدث تغييراً يساعده على فرض مشاريعه وطروحاته، تدّخلتْ القوات السورية لتفصل بينهما وتبقي الأمور على طبيعتها. في ذلك الوقت (٢٠ تموز ١٩٧٦)، ألقى الرئيس الأسد، في جامعة دمشق، خطابَه التاريخي الذي ينبغي للبنانيين عموماً، والمسيحيين خصوصاً، أن يحفظوه حجّة رؤيوية قومية ووطنية لا تقاوَم، ويحافظوا على صوره الرائعة ومعانيه السامية، ومما قاله:

«أما تقسيم لبنان، فهو هدفٌ تاريخي كما نعرف بالنسبة للصهيونية العالمية. هناك رسائل متبادلة بين قادة الصهاينة في الخمسينات حول هذا الموضوع يؤكدون على أهمية تقسيم لبنان.

«تقسيم لبنان أيها الاخوة، لا تسعى اليه اسرائيل بصدد أهمّية لبنان العسكرية. لبنان موحّداً كان أم مجزّءاً لا يشكّل عبئاً عسكرياً في الوقت الحاضر ولا يُنتَظَر أن يشكل عبئاً عسكرياً خلال المدى المنظور. اسرائيل لا تسعى لتقسيم لبنان لأنه يشكّل مثل هذا العبء. اسرائيل ترغب في تقسيم لبنان لسبب سياسي أيديولوجي. تحصيل حاصل أن نقول ان اسرائيل ترغب في اقامة دويلات طائفية في هذه المنطقة لتكون الدولة الأقوى.

«هذا تعلّمناه سابقاً وقلناه سابقاً وهذا ما سنقوله باستمرار. فاسرائيل تسعى إلى تقسيم لبنان كي يسقط شعار الدولة الديموقراطية العلمانية. هذا الشعار الذي نطرحه هنا وهناك. قد لا نكون جميعاً مؤمنين بهذا الشعار، ولكنه شعار مطروح، وهو قابل للمناقشة في هذا المكان أو ذاك من العالم. بطبيعة الحال يختلف كثيراً من منطق طرحه بعضنا أو ربما اكثر في وقت سابق من أننا سنرمي اليهود في البحر. كنا آنذاك نقدّم خدمات جلّى لاسرائيل. ليس في هذا الأمر سرّ.

«ان نقول بأننا نطالب بدولة ديموقراطية يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود سواء كانوا عرباً أو غير عرب، فهذا منطق قابل للأخذ والرد».

أضاف الرئيس الأسد:

«عندما ينقسم لبنان، يقول الاسرائيليون لا تصدّقوا هؤلاء العرب. ان لم يستطيعوا أن يعيشوا معاً، اذا لم يستطع المسلم العربي أن يعيش مع المسيحي العربي، فكيف يمكن أن يعيش مع اليهود، ومع اليهود غير العرب الذين جاؤوا من كل بقاع الأرض في الغرب والشرق ويسقط هذا الشعار.

«اسرائيل تريد التقسيم لكي تسقط تهمة العنصرية، الأمم المتحدة اتخذت قراراً. قالت ان الصهيونية حركة عنصرية، وهذا مكسب كبير للقضية الفلسطينية وللنضال العربي. لماذا عنصرية؟ لأنها أساساً دولة تجمع الناس من كل مكان ولا رابط بينهم سوى الدين وتشكّل منهم شعباً، وتقيم دولة لهذا الشعب.

«عندما ينقسم لبنان بين مسلمين ومسيحيين، ستقول اسرائيل: أين هي العنصرية؟ اسرائيل تقوم على أساس الدين. وفي لبنان دولة أو دويلات تقوم على أساس الدين. فإما أن نكون جميعاً عنصريين، وإما أن نكون جميعاً علمانيين.

«تقسيم لبنان يسقط تهمة العنصرية عن اسرائيل. تقسيم لبنان يشكّل طعنة لفكرة القومية العربية، وكلنا نقدم الدليل على أن القومية العربية ليست الرباط الصالح الذي يربط بيننا جميعاً بحيث نستطيع العيش في ظل لواء القومية العربية.

«وعندما لا يستطيع العرب في لبنان أن يعيشوا معاً في دولة واحدة رغم مرور السنين الطويلة على هذا العيش المشترك، فهذا دليل عملي مادي يريدون تقديمه على بطلان فكرة القومية العربية».

وقال أيضاً:

«اكثر من هذا أريد أن أقول ان تقسيم لبنان يشكل ضربة كبرى للاسلام باعتباره دين الاكثرية الساحقة من الأمة العربية، لأنهم يريدون أن يقدّموا الاسلام في هذا العصر على أنه الدين المتزمت الذي يمنع انصاره من العيش مع الآخرين حتى اذا كانوا من أبناء الأمة الواحدة. ان هذه مؤامرة على الاسلام ومؤامرة على المسلمين. وأنا اؤكد على هذا الموضوع، ولا أريد أن أجامل به أحداً اطلاقاً، وقد قلته مراراً مع المعنيين في لبنان وخارج لبنان. انه مؤامرة على الاسلام، ومؤامرة على العروبة لصالح الصهيونية وصالح اسرائيل.

«طبعاً أيها الاخوة، ان العروبة أقوى من هؤلاء المتآمرين، والاسلام أقوى من هؤلاء المتآمرين. لن يستطيعوا تحت اسم

العروبة وتحت اسم الاسلام أن يضربوا العروبة ويضربوا الاسلام لأننا لهم بالمرصاد.

«واستطيع أن أقول هنا ولو خرجتُ عن التسلسل إلى حدٍ ما، ان المؤامرة في لبنان لن تكتفي بهذا الموضوع بالذات.. هي مؤامرة على الاسلام وعلى المسيحية. ان الصراع في جوهره وليس في شكله. ان الصراع في جوهره ليس بين المسيحية والاسلام. ان الصراع بين المسيحية والاسلام من جهة وبين أعدائهما من جهة أخرى».

ودعا الرئيس الأسد الجميع، فلسطينيين ولبنانيين، الى وقف القتال قائلاً:

«هكذا كان تفسيرنا لأحداث لبنان الذي اشتركنا فيه مع الآخرين. وقلنا ان هذه المؤامرة لا تستطيع أن تحقق أهدافها الا من خلال القتال. اذن لكي نحبط المؤامرة علينا أن نوقف القتال. العملية حسابية واضحة. طريق المؤامرة إلى أهدافها والقتال.. لكي لا تحقق المؤامرة أهدافها، علينا أن نوقف القتال»[1].

كان من الممكن أن يتوقف القتال والى الأبد، لولا صراع القياديين اللبنانيين على السلطة من جهة، وتصميم اعداء

(١) النص الكامل لخطاب الرئيس الأسد في كتابنا «أية عروبة أية قضية؟»، طبعة ١٩٧٧، ص ٢٠٩ ص ٢٤٧.

لبنان على تدميره وتفتيته من جهة. ومن أسف أن الفريق
الفلسطيني ومن معه من اللبنانيين لم يعجبهم هذا الخطاب،
بل اعتبروه تحدياً لهم وعائقاً دون تحقيق ما يصبون اليه فبادروا
إلى ازعاج الرئيس الأسد والتحريض عليه والطعن لدى
الاتحاد السوفياتي والقيادات العربية في صدقيته وسياسته
القومية والتقدمية، حين استقبله بعض المسيحيين بحذر
فائق، وفسّره على أنه رغبة سورية في التسلّط والهيمنة
والاحتواء. وأخذت التجاوزات والاشكالات، خصوصاً
الأمنية، تتزايد وتتصاعد، من كل اتجاه، ليس هنا مجال
الحديث عنها، فعادت النيران لتأكل ما شاء لها أن تأكل ممّا
بنيناه خلال العقود الذهبية. منذ ذلك الحين والوطن ينزف
وينزف، وكأن كل المساعي الحميدة المخلصة، التي بذلها
الأشقاء والأصدقاء، غير ذات نفع، ذلك أن أفكارنا متباينة،
وآمالنا متباعدة، وبصائرنا عاجزة عن التفكير في ما هو خيرنا
وسلامتنا وعزتنا وكرامتنا. ومما لا شك فيه أن حالة لبنان
اليوم، وبعد خمس عشرة سنة من التقاتل والتذابح
والاجتياحات العسكرية الاسرائيلية، غايةٌ في البؤس والتفسخ
والهزال، نرجو أن نشهد نهايتها في القريب العاجل.

بعد هذا الخطاب الأسدي، القومي، الانساني، مرّت على
سوريا ورئيسها ومعاونيه أنواع شتّى من الأزمات والمحن، مثل

اغتيال الملك السخي والقومي الشديد فيصل بن عبد العزيز
آل سعود (١٩٠٦ ـ ١٩٧٥)، الذي أعان سوريا على
ضائقتها المالية والاقتصادية الناجمة عن حرب تشرين وأقسم
أن يصلي في القدس، وكمب ديفيد، والسلام
المصري ـ الاسرائيلي، والحرب العراقية ـ الايرانية،
والألاعيب والمراوغات العرفاتية والكيسنجرية،
والاستفزازات الاسرائيلية، والحملات والمضايقات العربية،
واضطراب العلاقات مع السوفيات، والمساعدات الأميركية
الهائلة لاسرائيل، والتّهم المتكررة من بعض الحكومات
الغربية بالارهاب ومساندة المنظمات الارهابية، وما ترتبه هذه
التهم وغيرها من حصار اقتصادي وتجاري وعزلة سياسية
وديبلوماسية، ولطالما وضعْنا ايدينا على قلوبنا، خوفاً لا على
«عليّ الشام»، كما دعوناه في مقالة لنا عنوانها «سمعتُ علياً في
الشام» إثر الخطاب المذكور[2]، فحسب، بل خوفاً أيضاً على
الجهاز الأسدي وكل سوريا من الفتن المذهبية والأطماع
والمخططات التقسيمية الحاقدة الخبيثة. بيد أن الرئيس الأسد
ظل على هدوئه، واثقاً من نفسه ومن معاونيه، يردّ على التّهم
بالكلمة الواعية المسؤولة، فيسفّهها حتى يبْطلها، وعلى
المواقف العدائية بالبيانات المدروسة المحْكمة، وعلى

(٢) أية عروبة أية قضية؟ ص ٢٠١/٢٠٨.

الاستفزازات بالعمل الصامت اليقظ، وعلى الحملات والمضايقات بتبسيط المسائل القومية والدولية وتقديم التوصيات والحلول العادلة والتأكيد على ضرورة السعي من أجل تنفيذها.

ها هو، في الثامن من آذار ١٩٨٨، في ذكرى مرور ربع قرن على «ثورة الثامن من آذار» (١٩٦٣)، يعلن موقفه الحازم من مشاريع التسوية التي حملها عامذاك الى المنطقة السيد جورج شولتز وزير الخارجية الأميركي، ويحذّر العرب من التعاطي معها، قال:

«لا أريد أن أناقش المشاريع التي تُطرح ولكن أوجز، اقول انها نفسها، الروح نفسها، الجو نفسه، ان اختلفت الكلمات لكل المشاريع التي طرحت منذ سنين عدّة ولا يوجد جديد في الأمر. المهم أن الحرب مستمرة، المهم أن تظلّ كذلك، نمارسها بالبنادق ومرة بالحجارة، مرة بتظاهرة شعبية ومرة بصراع عسكري شامل ومرات أخرى بأشكال أخرى بما يتناسب ومعطيات الظروف من الجوانب المختلفة، ولكن في مختلف الظروف وفي شكل مستمر يجب أن نمارس الصمود نفسياً وفكرياً ومادياً باعتباره شكلاً من أشكال الحرب».

ويترسّم الرئيس المفكر والمخطط الاستراتيجي، حافظ الأسد، السياسة العربية الصحيحة القويمة، فيقول:

«ورفض الاستسلام ومنع العدو من تحقيق أهدافه أولاً قاعدة لابد منها لممارسة كل شكل آخر من أشكال الحرب. ثانياً يجب الاّ نملّ، يجب أن نقاوم التعب. ليس الأهم أن نخفف متاعبنا، وليس الأهم أن نحسم صراعنا غداً، بل الأهم الاّ نفرّط في حقوقنا وتاريخنا مهما كانت التضحيات جسيمة وهذا هو جوهر الصمود. وصمود الشعب ضد المستعمرين يكون خصباً ويتنامى في كل الأحوال ولا يمكن حصره في مجموع أو قطاع من قطاعات الشعب، فالصمود ينتشر كالهواء خصوصاً بين أبناء الأمّة الواحدة لا تحول دون عبوره الحدود ولا خنادق الأعداء ولاسلاح المعتدين».

وفي العام التالي، بل في الذكرى التالية لـ «الثورة» نفسها، ألقى الرئيس الأسد كلمة في افتتاح المؤتمر الخامس للاتحاد العام النسائي المنعقد في هذه المناسبة، فحدّد مفهومه للسلام واستعداده للعمل من أجله، قال:

«وعندما نؤكد أننا نريد حلاً لهذا الصراع (العربي - الاسرائيلي) يحقق السلام العادل في منطقتنا فنحن جادّون لأن السلام العادل يعني نهاية العدوان والاحتلال ويعني عودة الأرض العربية والحقوق العربية الى أصحابها.. ولكن اسرائيل متشبثة بالأرض مصرّة على انكار الحقوق.

«وإذا كنا نرحّب بكل مسعى في سبيل تحقيق السلام

العادل، فاننا لا نخدع أنفسنا ونحن نسمع كل يوم ما يقوله زعماء اسرائيل ونرى ما تفعله اسرائيل مما يؤكد أنها لا تريد السلام.. بل هي عدوّة السلام العادل لأنها لا ترى فيه مصلحتها».

ويرى الرئيس الأسد الى التغيّرات الدرامية التي تكاد تغطي العالم، فيقول في كلمة القاها يوم الأربعاء (١٦/٥/١٩٩٠) في قصر الفيحاء، محلّلاً ومستنتجاً ومنبّهاً: «ان في العالم شيئاً جديداً، يجب أن لا نجهله أو نتجاهله. لقد كان العالم مستقراً طوال عقود من الزمن وفق توازنات معينة، وقد حدثت تغيّرات هامة ضمن هذه التوازنات، الأمر الذي غيّر في ركائز الاستقرار القائم، مما سبّب خللاً، فحركة مضطربة، ليست واضحة الطريق والمحطة الأخيرة، فالعالم يموج الآن، إلى متى سيستمر موجه وكيف ستكون آخر صورة الموج، لا أحد يعرف، ولكن بالتأكيد سيصل هذا العالم في لحظة قادمة من الزمن إلى هدوء التموّج على صورة أخيرة هي صورة الاستقرار في لحظة الاستقرار، ومن المستحيل كما كان الأمر دائماً ان نعرف طول لحظة الاستقرار هذه عندما نصل اليها في الوقت الذي سيكون لها طول هو بُعدُها الأفقي، لأن التاريخ البشري أكد ان طول لحظة الاستقرار العالمي متغيّر من عصر إلى عصر، بل متغيّر ضمن العصر الواحد، بين مرحلة وأخرى من مراحل العصر، والمهم ما الذي سيكون

بين لحظة التغيير ولحظة الاستقرار القادمة، الشرر الذي سيُنتَظر وما خطرُ ذلك على الشعوب».

أضاف:

«هناك شرر بالتأكيد وهناك احتمال خطر على الشعوب ولكن يستحيل التحديد الحاسم، وماذا عند لحظة الاستقرار أيضاً، ولحظة الاستقرار تتجسد تاريخياً بوجود تحالفات كبرى يوازن بعضها بعضاً، والتحالفات الجديدة القادمة لن تكون التحالفات التي كانت، والتحالفات الجديدة ستبحث عن مجالات جديدة، والمجالات الحيوية تتخذ أشكالاً مختلفة بين وقت وآخر حسب طبيعة وفلسفة القوى المتحالفة».

ويأبى الرئيس الأسد أن يقف متفرجاً على ما يحدث وما قد يحدث، بل يأبى أن تداهمه رياح التغيير ولما يكن قد اتخذ أقصى الاحتياط وأقصى الحذر، لذلك بادرت الحكومة السورية، عشية الانتخابات النيابية الأخيرة، إلى الافساح في المجال واسعاً أمام المرشحين المستقلين، فبرز مناخ الحرية والديموقراطية، قبل الانتخابات وخلالها، لتعكس النتائج كما ظهرت أوسع تمثيل للشعب العربي السوري بسائر هيئاته، وقطاعاته، وبتنا نرى في رحاب مجلس الشعب السوري (البرلمان) ممثلي أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية، وممثلي العمال والفلاحين، إلى جامعيين وأدباء ومحامين وأطباء ومهندسين،

وإلى ممثلين من القطاع الاقتصادي الخاص، فضلاً عن اعلانيين وفنيين وحرفيين، ما يدل بوضوح على أن مسيرة الديموقراطية الشعبية على وجه جديد في سوريا والتعددية الحزبية والاقتصادية لن تتوقف، حسبما أكد الرئيس الأسد نفسه في خطابه لمناسبة افتتاح الدور التشريعي الخامس لمجلس الشعب، وكان ذلك في اليوم الحادي عشر من حزيران ١٩٩٠. قال مخاطباً نواب الأمة:

«انتم اليوم السلطة التشريعية في البلاد، والقوانين التي تقررونها تعالج حياة السوريين جميعاً بكل جوانبها، فالصواب في التشريع يفيد كل المواطنين بشكل مباشر أو غير مباشر، والخطأ في التشريع يؤذي كل المواطنين بشكل مباشر أو غير مباشر، وعلى هذا فلا يجوز أن ننطلق في معالجة أي تشريع من رؤية ضيقة أو مصلحة ذاتية أو شبه ذاتية، فانتم الآن لستم مسؤولين عن أنفسكم أو عن شريحة من شرائح شعبنا فقط، بل انتم مسؤولون عن مجموع الشعب، لا يمكن معالجة المواضيع الوطنية الاّ من خلال رؤية وطنية، والقانون هو موضوع وطني، فلنتمعن في مشاريع القوانين ولندرسها بعناية تامة بعقولنا وبضمائرنا وأمامنا صورة الوطن، ولنقرر بعد ذلك،عندها سنصيب وستكون مصلحة الشعب».

وعن العمل الحزبي والجبهوي قال الرئيس الأسد:

«سنستمر في تنشيط العمل الحزبي على أساس التعددية، وسنبحث دائماً بصدق وشعور عالٍ بالمسؤولية الوطنية عن كل ما يمكن أن يقوّي بناءنا الداخلي السياسي، لأن هذا يجب أن يكون هدف كل مواطن اينما كان موقعه، فلا شيء يسعد المرء اكثر من أن يعيش في وطن قوي عزيز، ولا شيء أهم من أن يسعى المرء الى المساهمة في بناء وطن قوي عزيز يعيش فيه المواطنون أعزاء أقوياء».

أضاف:

«اننا نؤمن بأهمية العمل الجبهوي، وسوف نعزز دور الجبهة الوطنية التقدمية وأحزابها[٣]، ونعمل على تطوير صيغتها بما يزيدها قوة وفاعلية على أساس الأفكار التي ستُستَخلَص من مناقشات المؤسسات الحزبية والجبهوية».

ويلتفت الرئيس الأسد الى حاجة البلاد للمبادرة الفردية، فيشدد على تنميتها في شكل لا يصطدم مع العمل الجماعي، قال:

(٣) تضم الجبهة الوطنية السورية الأحزاب التالية: حزب البعث، الحزب الشيوعي، الحزب الاشتراكي العربي، حزب الوحدويين الاشتراكيين، تنظيم الاشتراكيين العرب، الحزب الديموقراطي العربي. ويُذكر أن لا أحزاب رسمية في سوريا الا الاحزاب الستة هذه.

«كما ان العمل الجماعي ينمّي المبادرة الفردية وهذه بدورها تنمي العمل الجماعي، ومع ذلك فهذه العملية تحتاج وعياً ونوعية وعلى امتداد زمن قد يكون طويلاً، لأنها تستلزم قناعة الناس بها وانسجامهم النفسي والفكري مع تطلباتها، ولكن مهما يكن الأمر فاننا في هذا البلد تنظيمات كنّا أم أفراداً سيظل لكل منا دوره الهام وسنساهم جميعاً في بناء وطننا، وسنظل دوماً على استعداد لأن نقدم في سبيله دون تردد جهودنا ودماءنا لأننا نريد أن نعيش في هذا الوطن أحراراً شرفاء أعزة كرماء».

وفي الشأن الاقتصادي، حدّد الرئيس الأسد المذهب أو النهج الذي التزمته وتلتزمه حكومته منذ ظهرت، قال:

«لقد أكدت التعددية الاقتصادية التي التزمنا بها مع بداية السبعينات أنها صيغة ناجحة للعمل الاقتصادي، وعندما تبنّينا هذه الصيغة كانت لدينا القناعة بنجاعتها، ذلك أنها تفتح الباب أمام رغبات المواطنين المختلفة ويستطيع كل مواطن يمارس عملاً اقتصادياً أن يمارسه بالطريقة التي يراها مناسبة في ظل تعدّد الأنماط الاقتصادية، وهذا يمكّن البلاد من كسب جهود جميع المواطنين العاملين في المجال الاقتصادي».

وقال أيضاً:

«لذلك وانطلاقاً من المصلحة الوطنية فاننا سنتابع طريقنا على أساس التعددية الاقتصادية بقطاعاتها الثلاثة العام والخاص والمشترك، وسنشجع النمو الاقتصادي في القطاعات الثلاثة وبلادنا بحاجة الى ذلك».

كنتُ أتمنى لو زرتُ سوريا قبل كتابة هذه السطور، لأشهد للرئيس الأسد ومعاونيه على ما انجزوا من عمران وحدّثوا وطوّروا في مختلف الميادين والمجالات، في العاصمة والمحافظات، ولكنني سأكتفي، وبعد انقطاع طال، بما نقله الي الكثيرون ممن أثق بهم من الأصدقاء وأثمّن آراءهم وصدقيتهم، لاسيما منهم اولئك الذين على صلة دائمة ووطيدة بسوريا، وعلى الأخص الذين لهم، في دمشق أو حمص أو حماه أو اللاذقية أو ادلب أو حلب أو الرقّة أو دير الزور أو الحسكة أو القامشلي أو جبل العرب، جذور أو قربى أو نسَب أو علاقة تجارية. فلطالما سمعت منهم ما يدهش فعلاً، ذلك أن الطرقات، على قولهم، والسدود ومشاريع الري وحركة البناء والعمران على درجة كبيرة من الرقي والحداثة، كذلك السياحة والخدمات العامة والتجارة والزراعة. ويعتقد هؤلاء أن مستقبلاً صناعياً مرموقاً مزدهراً ينتظر الجمهورية العربية السورية ولن يكون بعيداً.

وكم يطيب لأصحابي، ممن يأتون سوريا، الحديث عن

الأمن الوطني الذي يغطي الأراضي السورية كافة وعن شبكة المواصلات الفائقة التنظيم، ومطار دمشق، وأيضاً عن الفنادق والمطاعم والمستشفيات ومراكز التعليم في جميع مراحله، والنوادي الرياضية والاجتماعية والثقافية والمنتزهات وسواها من الأماكن العامة. حتى ان أحدهم، وهو صحافي يميني اشتهر بمواقفه العدائية من النظام السوري، قال لي مرة وكان عائداً لتوه من العاصمة السورية: «تدخل دمشق فتحسب نفسك كأنك في بروكسيل أو أمستردام أو كوبنهاغن أو بون. الناس هناك في حركة دائمة. لا أحد يعتدي على أحد، ولا أحد يشاجر أحداً. في كل شارع، وحي، وحارة تضج الحياة، ولا من يسألك عن مذهبك أو طائفتك أو معتقدك. هناك، في سوريا، يسود النظام والأمن والاستقرار. هناك حقوق جميع الناس محفوظة، والتسلّط ممنوع، وفرض «الخوّة» ممنوع. في دمشق تشعر بأن للدولة هيبة وحضوراً يندر مثلهما في باريس أو لندن أو نيويورك».

وحدّثني من أثق به أيضاً، قال: «ان سوريا، على رغم حاجتها إلى الغذاء، تعيش في قلب العالم، وليس على السوريين الاّ أن يصبروا ويتفهموا الظروف التي تتحكم في السياسات الدولية. بل عليهم أن يقارنوا بين الحالة السورية الراهنة وأي حالة عربية أو شرقية، وعندئذ لابد أن يؤْثروا

السلامة والاستقرار على التخمة وما يرافقها من قلق وارتباك وتبلّد وعجز ذهني ونفسي وتردٍ خلقي». أضاف: «ينبغي لخصوم الرئيس الأسد ونظامه، خاصة «الاخوان المسلمون»، أن يتذكروا شيخ الاسلام ابن تيمية ومقولته الشهيرة: «ان الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»، على أن الدولة الاسدية السائرة على طريق العدالة ليست كافرة، وليثق «الاخوان المسلمون» وغيرهم أن سوريا، وطن المذاهب والطوائف والأعراق، لا يصح فيها الحكم الديني أو المذهبي بل العلماني الذي يتكفّل، لهذا التنوّع الثقافي ـ الانساني العريق المميّز، بالتعايش والمساكنة والانسجام، وبالحرية ما دامت متزنة ومعقولة وغير مزعجة».

هل صاحبي على حق؟

هل «الاخوان المسلمون» وسواهم ممن يخاصمون الرئيس الأسد ويكيدون له على حق؟

لقد أثبت الرئيس الأسد، خلال عقدين، أنه رجل النظام والمبادرات والحوار والانفتاح، كما أثبت أنه للحرب مثلما للسلم، وللشدة مثلما للمرونة. ويُجمِع الزعماء العالميون والسياسيون والديبلوماسيون والاعلاميون على أن الرئيس الأسد يعرف جيداً ما يريد، ويعرف بالمثل ما يريده الآخرون، وأنه واضح الرأي، عميق النظرة، ودائماً حجّته

قوية، وبيانه مُشْرِق، وفكرُه منظَّم، واسلوبه في التعاطي مع الحكام والمسؤولين، حلفاء كانوا أم أعداء، منهجي صارم، ذلك أنه يدقق في كل فكرة وعبارة ومفردة يريد اطلاقها، ولا يدع عاطفته تتغلّب على عقله، بل عنده الحكم الأول والأخير للعقل دون سواه، ولا عجب اذا ما اعتُبر الرئيس الأسد دماغ الأمة العربية الستراتيجي وصاحب «الجيش العقائدي المثقف» والحريص على مبدأه القومي العربي أشدّ الحِرْص.

ومهما يكن، فان «المدينة الفاضلة» لا وجود لها سوى في المخيلة، والمخيلة فحسب. وليس حاكماً من لا يدافع عن نفسه ونظامه ومعتقده حتى الموت.

في غضون سنة، سنة واحدة (١٩٨٩ - ١٩٩٠)، انهار جدار برلين، ونشطت الحركات القومية والانفصالية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي، ووقع انقلاب او ما يشبه الانقلاب في غير بلد، واتحد اليمنان، وظهرت في الصين دعوة الى الديموقراطية والحرية فردّت عليها الحكومة الصينية بالسحْل والاعدام الميداني، وعادت هجرة اليهود السوفيات الى فلسطين (اسرائيل) لتطغى على ما سواها من الاحداث، فيما الرئيس الأسد يراقب كل هذه المستجدات، معظمها درامي، بهدوء وروية مع الحذر الشديد، فلا انفعل مع هذا ضد هذا، ولا ارتجل موقفاً، ولا ألقى كلمة يُؤاخذ عليها.

وها ان العراق اليوم يغزو براجماته ودباباته وجنوده زهرة الصحراء، الكويت، ويعلن قلب نظام الحكم الكويتي وقيام ما يُسمّى بالحكومة الحرة التي بدورها اكدت الغاء الامارة في الكويت الى الابد واعلان الجمهورية ثم خطوة ضمّ البلاد الى العراق - باسم الوحدة الكاملة الاندماجية - وكأن لا حق الا للقوي ولا حرية الاّ لمن عنده الرجال والسلاح وسائر ادوات الغزو والفتح.

الكويت، البلد الذي فتح أبوابه للجميع، ومدّ يده للجميع، وأعطى العراق نفسه في حربه مع ايران ما أعطى، وساعد شعوباً وأمماً كثيرة، ودعم دولاً عديدة، تسْحقه اليوم الآلية العسكرية العراقية، بغية «وضع حد لتقسيم استعماري وضع الثروة مع الأقلية وترك الغالبية من دون ثروة» على قول الرئيس العراقي صدام حسين في «خطاب الى الأمة» ليل الأربعاء ١٩٩٠/٨/٨، ما يشير الى أن المعاهدات الدولية والحدود المرسومة منذ عقود والضمانات الممهورة المضمونة يمكن خرقها وإلغاؤها، اذا ما قرر الأقوياء المسلحون، ولا من يردع أو يزجر أو يحمي.

لن نستعجل الحكم في هذا الاجتياح وانعكاساته على معظم الخليج والمنطقة العربية، ولكننا نستطيع القول ان النار باتت أقرب بكثير من ذي قبل الى زيت الخليج ومنشآته

ومؤسساته التي ينبغي لدول العالم كافة أن تحميها وتحافظ على أمنها واستقرارها ودوام ازدهارها.

على ان العملية العسكرية العراقية هذه جاءت حين اسرائيل «تواجه على الصعيد الداخلي تفاقم الصراع بين الجناح الموصوف بالاعتدال، (المتعاون) مع الادارة الأميركية والطائفة اليهودية الأميركية من أجل انجاح مشروع (وزير الخارجية الأميركي السيد جيمس) بايكر للسلام، والجناح المتطرف المتمثل بالحكومة المتشددة والذي يراهن على حل استسلامي للعرب»[٤]، وجاءت كذلك فيما الحكومة الاسرائيلية تصر على رفضها «مجمل الاقتراحات التي سبق للولايات المتحدة (الاميركية) أن قدّمتها في سبيل الشروع في مفاوضات تؤدي الى حل سلمي عادل للقضية الفلسطينية»[٥] الشديدة التعقيد.

ولا عجب اذا ما استغلت اسرائيل «ردود الفعل العنيفة التي صدرت عن العراق وتهديداته لها»[٦] لتقنع العالم كافة، وخاصة الولايات المتحدة، وعلى الأخص الطائفة اليهودية الأميركية بأن «العراق يخطط للقضاء عليها (اسرائيل) وابادة الشعب اليهودي»[٧]، ولربما «انقضّت اسرائيل في هذا الجو

(٤) الوزير اللبناني السابق ميشال اده: «النهار» ٨/٨/١٩٩٠.
(٥) نفسه. (٦) نفسه. (٧) نفسه.

المحموم الرهيب، على فلسطينيي الانتفاضة أو المملكة الاردنية الهاشمية أو الاثنين معاً، لتتمكن تالياً من ضرب العراق وتدمير الآلية العراقية بل لضرب التحالف العراقي ـ الاردني ـ الفلسطيني»[٨] الذي بات مؤكّداً وثابتاً.

أين تقف سوريا ـ الأسد من هذا الحدث الأحتلالي التدميري، وما مصير لبنان اذا تحركت القوى الاسرائيلية شرقاً وشمالاً ونفّذت اوامر صقور اسرائيل؟

في الأمس، الأمس القريب جداً، قال صدام للأسد: «ارفعْ يدك عن لبنان».

واليوم العالم كله يقول لصدام: «ارفعْ يدك عن الكويت والخليج»، ويفرض عليه الحصار الاقتصادي ويضغط من أجل سحب القوات العراقية من الكويت.

العراق أكل رأس الكويت ليفتح، على ما يبدو، موسم أكل الرؤوس وموسم تغيير الحدود.

ذنْبُ الكويت أنه بلد صغير ومسالم وغني.

وذنْبُ الكويتيين أنهم متمسكون بحريتهم وسيادتهم، وأنهم يتمتّعون بما يُرزقون دونما غطرسة أو تكبُّر أو تكابر، وقد

(٨) نفسه.

جعلوا كويتهم جنّة وأي جنّة، بينما نسوا أن في بغداد قلوباً قُدّت من صخر وعيوناً كُوّرت من حديد.

بل ان الرئيس العراقي صدام حسين الذي أرغمته الديون الطائلة، ديون الحرب العراقية ـ الإيرانية، أن يبدّل البعث العربي الاشتراكي بعثاً اسلامياً شبه أصولي، أكل الكويت في الثاني من آب ١٩٩٠، ليعيد بعد أربعة عشر يوماً الى الجمهورية الاسلامية الايرانية، جمهورية الامام الخميني، الأراضي التي استولى عليها خلال حرب معها دامت ثماني سنوات، معترفاً باتفاقية الجزائر ـ ١٩٧٥ بين العراق وايران، وهذه اتخذ منها ذريعة إلى حرب عبثية دمّرت أو كادت أن تدمّر اقتصاد البلدين وأودت بمليون شهيد فضلاً عن الجرحى والمعاقين، ما حدا الاذاعة السورية الى التعليق على هذين الحدثين المتناقضين متسائلة: «اذا كان العراق، وبعد عشر سنوات على حربه مع ايران، يعود إلى نقطة الصفْر اعترافاً منه بخطيئته فلماذا لا يبادر إلى وضع حد لخطيئة أخطر وأشد ضد الكويت؟». وبهذا تكون سوريا ـ الأسد قد حدّدت موقفها من الغزو العراقي للكويت والتراجع العراقي أمام ايران، حتى إن صحيفة «تشرين» السورية الحكومية قالت: «ان غزو العراق للكويت أودى بالتضامن العربي مثلما أودت الحرب العراقية ـ الايرانية بالتضامن الاسلامي. وفي الحالتين

تتدفق الأساطيل الأجنبية الى المنطقة حاملة معها أفدح الأخطار، واذا كانت الأخطار تطال العراق الشقيق بالدرجة الأولى الا ان انعكاساتها تشمل كل البلدان العربية، فلماذا لا يستجيب العراق لنداء العرب وينهي هذا الوضع المأساوي باعادة الاعتبار الى الكويت وحكومتها الشرعية؟».

وتطرقت «تشرين» الى اعتراف الرئيس صدّام حسين باتفاقية الجزائر (١٩٧٥) لرسم الحدود بين العراق وايران، وقالت ان هذا القرار «إنْ دلّ على شيء فعلى عبثية الحرب، التي كانت بمثابة خطوة طائشة انعكست في ما بعد أهوالاً ونكبات، فهل تُصحَّح الأمور بارتكاب خطوة طائشة أخرى أشد خطراً وتحمل في طياتها الأذى البالغ للقضية العربية؟».

وكما وقف الرئيس الأسد إلى جانب ايران ضد العراق، يقف اليوم وبالعزيمة والثبات نفسيهما الى جانب الكويت والمملكة العربية السعودية ضد العراق، على أمل أن يدرك الرئيس العراقي أي مأساة يسوق اليها العراق وكل الخليج وكل العرب. وفيما أعلنت الرياض (١٥ آب ١٩٩٠) وصول أول دفعة من القوات السورية إلى السعودية، نقلت الوكالة العربية السورية للأنباء «سانا» عن ناطق رسمي أن سوريا «بدأت بارسال الدفعة الأولى من القوات المسلّحة السورية التي ستشارك مع القوات العربية الأخرى في الدفاع عن

المملكة العربية السعودية وذلك في حال تعرّض المملكة لهجوم خارجي». وأوضح الناطق السوري الرسمي أن سوريا «إذ تقوم بهذا الاجراء فانما يدفعها اليه الانسجام مع القرار العربي المتخذ في القمة العربية الطارئة التي عُقدت أخيراً في القاهرة والذي ينص على أن تلبي الدول العربية طلبات المملكة العربية السعودية بارسال القوات تساهم في الدفاع عن أراضيها». وأضاف: «إن إرسال القوات جاء بناء على رغبة سوريا في أن تؤدي واجبها في حماية الأماكن المقدسة (...). إن سوريا ترى الاّ تُترك الساحة العربية الخليجية للقوى الأجنبية وأن من الممكن أن تحل القوات العربية تدريجياً ومع الوقت محل القوات الأجنبية».

على أن الرئيس الأسد لم يذكر الرئيس صدّام ولا بكلمة سوء واحدة، حين كان من المتوقع أن ينفعل الأسد ويستغل هذه المناسبة أو ينتقم، ولو بالكلام، من نظيره العراقي الذي طالما نفخ في رماد الحرب اللبنانية، وبذل ما استطاع في سبيل الابقاء على الصراع بين المسيحيين، وتحديداً مسيحيي المنطقة الشرقية، وسوريا. لقد ظل الرئيس الأسد على هدوئه ومكانته ينظر الى نكبة الخليج على أنها نكبة قومية عربية لا يجوز السكوت عنها أو تركها تتفاقم فتتحول كارثة انسانية لا يمكننا أن ندرك مداها.

ومهما يكن، فان غزو العراق للكويت انما يؤكد محنة الشعوب الضعيفة والأوطان الصغيرة مثل الكويت ولبنان وسواهما.

ولكن معظم اللبنانيين الذين خاصموا الرئيس الأسد وقاوموه، ولا سيما منهم العماد ميشال عون القائل في معرض رده على الاصلاحات الدستورية التي أقرها مجلس النواب اللبناني في جلسة وصفت بـ«التاريخية» يوم الثلاثاء (٢١/٨/٩٠) في ساحة النجمة - بيروت: «انا لا أهدد أمن سوريا ولست شوكة في خاصرتها ولست أتعامل مع أعدائها» بل «أنا مستعد للسير في العلاقة التي يحددونها (السوريون)»[١٠]، باتوا (اللبنانيون) يدركون أن لا حل للقضية اللبنانية بمعزل عن سوريا، ما يجعل الفرق بين الوجود السوري المسلّح في لبنان والاحتلال العراقي للكويت ملحوظاً أو كبيراً.

وإذ يدعونا اجتياح العراق للكويت ومضاعفاته الى الاعتقاد بأن الرئيس صدام حسين، الذي حوّل العراق والخليج معسكراً، قد فعل ما فعل ليتسنى للولايات المتحدة الأميركية، حين الاتحاد السوفياتي يعالج قضاياه الداخلية

(٩) نفسه.

(١٠) الانوار: ٢٣/٨/١٩٩٠.

العديدة الخطيرة، وضْع يدها على مقدرات العرب وخيراتهم، وإلغاء ما صنعته أوروبا في هذا الشرق بعدما أفلت شمس الامبراطورية العثمانية، واعادة توزيع شعوب المنطقة العربية ورسم حدودها، فضلاً عما قد تحققه اسرائيل من مكاسب مادية ومعنوية انتظرتها طويلاً، نهيب باللبنانيين أن يعوا جوهر قضيتهم ويسامح بعضهم بعضاً، فينقذوا وطنهم قبل فوات الأوان، وإنّ أملنا في مساعدة سوريا ـ الأسد هؤلاء لوثيق.

هذه هي، باختصار بالغ، سوريا ـ اليوم، سوريا ـ الأسد، بل سوريا العقل والخبرة والمنطق القومي الموزون. وأما المستقبل، فلن ندّعي قراءته ولا الكشف عنه، ولكننا، بكل تأكيد، نملك التمنيات المخلصة والآمال الكبار.

المؤلف

كتب للمؤلف

- المخالب
- صدى ونغم
- أية عروبة أية قضية؟
- رسائل من خلف المتراس (١) و(٢)
- إلى امرأة واحدة
- لبنان في ظلال البعث
- يوميات تائه
- في سبيل وطن وقضية
- الخميني يغتال زرادشت
- محنة العقل في الاسلام
- أبعد من زحلة وصور
- جزيرة الكلمات: الجزء الاول
- شاهد الثعلب ذنبه
- رسالتي إلى المسيحيين
- قاموس حرب علي ومعاوية وسباعية طلال سلمان
- نحن وصنمية التاريخ
- قضايا مشرقية
- سجين الصحراء: الفارعاملي الامام موسى الصدر
- في سبيل الشعر (معاً إلى عكاظ)